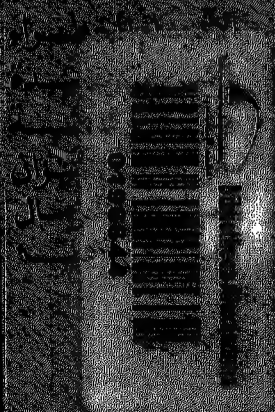


مؤلفات شروت اباظة



الأعمال الكاملة

لشروت أباطة

الجزء السابع

- الأيام الخضراء
- ذكريات بعيدة
- هذه اللعبة
- حين يميل الميزان
- السباحة في الرمال
- وبقي شيء



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

● الأيام الخضراء

الأيام المضراء

أحببتها وأنا لا أدري ما الحب ، عرفه الناس معنى أو عرفوه شجوا وأسى وألما ، أو لعلمهم عرفوه خيالا وأحلاما ورؤى ، أما أنا فعرفته لعبا فى الملعب ، وتقاذفاً بالكرة ، وقفزا وجريا وضحكا ، ولها عابثا ، كنت ألقاها لم أغير من ملابس المدرسة شيئا اللهم إلا تلك المريلة التى كانوا يضعونها فوقى ، وكانت تلقانى هى أيضا بلا تحمل أو زواقى اللهم إلا أن تخلع هى أيضا تلك المريلة التى كانت توضع عليها ثم نلتقى فى فناء منزلها أو فى فناء منزلنا بغير ميعاد مديبر أو اتفاق سابق وإنما ينزل كل منا إلى صاحبه ويكون اللعب فى أقرب فناء من اللقاء . .

أحببتها يوم ذاك وأحبتنى ، أحببتها كما أحب الكرة التى كنا نلعب بها أو كما أحب الحبل الذى كنا نقفز من فوقه ، وأحبتنى هى أيضا كحبها لهذه الأشياء ، وما كنا ندرى من الحب إلا حيننا لهذه الأشياء .

كان كل منا يرى الآخر مكملًا للعبه ، كما يرى الكرة والحبل مكملين للعبه . كان كل منا يجب الآخر كجزء من مرح الطفولة وحلاوة اللعب وعريضة اللعب .

لم تكن تعرف من أنا بالنسبة إليها وما كنت أدري ، قصارى الأمر بيننا اننى كنت أعرف انها بنت لأنها ترتدى ملابس البنات وانها كانت تعرف اننى ولد لأننى أرتدى ملابس الأولاد . لم أكن أعرف الأنثى فيها ، ولم أكن أعرف معنى الأنوثة جميعا ، بالنسبة الى الرجل ، ولم تكن تعرف الرجل فى ولا معنى الرجولة الذى أمثله ، لا ولم تكن تعرف الرجل بالنسبة للأنثى .

لم يكن هذا الجهل يعنى أن أقدمها على نفسى وأترك لها فرصة أن تغلبنى فى بعض الأحيان ، وليس فى كل الأحيان ، وأن أهفو إليها مسرعا اذا سقطت وتسارع هى الى اذا وقعت ولكن أكان هذا قبل أن ندرك شيئا عن الهوى . أم أنه كان بعد أن أدركنا شيئا من معناه ، أكان

هذا الاهتمام بها ونحن في الطفولة الأولى البلهاء أم أنه كان ونحن في أواخر الطفولة مشرفان على الوعى أو بعض الوعى .

أترأه حين كنا في الطفولة الواعية التي نحس ولا تبين ولا نشعر ولا تعبر ونحقق ولا ننطق !!
أترأه كان كذلك . . وكيف لي أن أذكر ؟ .

لقد شب حبى معى فاختلطت أدواره وتمازجت أيامه فما أدري كيف عرفته وكيف استبان في كامل الوعى متى ؟ أترأى عرفته حين كنت ألقاها ونحن في بواكير الشباب فتعلو وجهها الحمرة وتمسك بلسانى لعممة فتعمر بي وأمر بها لا يحبى الواحد منا صاحبه إلا بهذه الحمرة وإلا بتلك اللعثة . . لا . . لقد عرفت الحب قبل ذلك . . عرفته وجيبيا وخفقا في الغزاة شديدا إن أنا ذكرتها ، وإن أنا خلوت إلى نفسى فقد كنت أذكرها كلما خلوت إلى نفسى وعرفته هائم الفكر حذرا أخشى أن يكون حبها وهما من الأوهام . قرأت عن الحب وسمعت به من الرفاق وعرفت ما الرجل وما الأنثى ورحت أنطلق في فسيح الفضاء لا أفكر إلا فيها . . أخشى كلما فكرت في حبها أن يكون وهما من الأوهام . .

وفي يوم لقيتها وقد خلا بنا الطريق ، وعلت الحمرة وجهها وأمسكت اللعثة لسان ، ولكن الطريق خال بنا نسيرا في اتجاه واحد متباعدين ، فوجدتني أنوب إلى نفسى بعض الشيء ووجدتني أقرب منها ، ووجدت حمرة الخجل تزداد وضوحا على وجهها ولكنى كنت قد جمعت بعض نفسى ، وكنت قد دربت لسانى طويلا على الجملة التى سينطق بها ، فما أن اقتربت حتى ألقىت جملتى مفككة المقاطع متباعدة الكلمات ولكنى نطقتها وسمعتها وأجابت وأود لو أجابت بغير لسانها إلا أنها أجابت على أية حال نعم أذكر ما قلت « ماشيه وحدك يا هناء » .
وأومات برأسها أن نعم ، ثم ترابطت الكلمات فرحت أحداثها وراحت هى تضحك أو تبسم أو تسكت لا تقول شيئا . . لا شيء على الإطلاق اللهم إلا قولتها في آخر حديث لى :
- أخاف أن يرانا أحد . .

فأتلفت حولي مذعورا وما أن أثق من خلو الطريق حتى أقول لها :

- لا تخافى . .

ثم أعود إلى حديث طويل ما زلت أدرج فيه من موضوع إلى آخر حتى استطعت آخر الأمر أن أرجوها لتسمح لى بانتظارى لنقطع هذا الطريق سويا ، ولم تحب إلا بجملتها الوحيدة .
. . أخشى لمن يرانا أحد . .

ولكننى ظللت مع الأيام ألتقى بها في الطريق وأحكى لها وتستمع هى . . لم أقل لها - أحبك - فقد خشيت إن أنا قلتها ألا ترائى بعدها أبدا ، لقد كان الطهر الذى يشيع حولها غيضا

يمسك لساني بل يمسك عقلي أن يفكر في التصريح بحبي لها ، وينقضي الطريق ، وأعود الى الوحدة ، وأعود الى خوفي ألا تكون محبة لي ، ولم أخلص من حيرتي وخوفي إلا بالذاكرة العنيفة ، فقد انتهيت الى أنني ما زلت في المرحلة الثانوية وأنها قد تتزوج قبل أن أحصل أنا على شهادة التوجيهية ، فذاكرت ومنيت نفسي أنني اذا صرت في الجامعة قد أجد بعض الجراة أن أخطبها ونتزوج ، ذاكرت كما لم أذاكر من قبل وأصبحت أعد السنين عدا وأطارد الزمن في عنف وإصرار حتى أصبحت في التوجيهية ، وسمعت هممة تلور حولي أن هناك معرصة للخطبة ، ولقيتها في الطريق وسألتها فازداد وجهها احمرارا وتلعثم لسانها وهي تقول :

- نعم ..
- وماذا فعلت ؟
- رفضت الخطبة ..
- صحيح ؟
- صحيح ..

ولم أسأل لماذا رفضت فقد أبي حبي أن يجعل للرفض سببا الا أنها هي تحبني والهيت الزمن بالذاكرة ، كنت لا أفيق من الكتاب إلا في موعد عودتها من المدرسة ، لا أفكر إلا في أن أحصل على الشهادة لأصبح جديرا بها وكنت أفكر اذ ذاك في شيء آخر طالما ضقت بالتفكير فيه ، لقد كان أبي خريج جامعات أوروبا وكان أمله أن يرسل بي إلى جامعته لأنال فيها الشهادة التي نالها ، وقد كنت تواقا الى تحقيق أمله هذا ، فقد كان أملى أيضا ، ولكنني كنت كلما فكرت في اغترابي عن هناك بعيدا ، بل بعيدا عن حبها ، بل بعيدا عن مصر كلها ، لا أشم النسمة التي تداعب شعر هناك ولا أتففس الهواء الذي تننفسه ، ولا أشرب الماء العذب الذي جرى في دماها والذي يتحول على وجهها حمرة خجل كلما لقيتها ، كلما فكرت في ذلك أحسست شيئا قويا عنيفا يهيب بي ألا أسافر ..

كان التفكير فيها وفي السفر يعسر على كثيرا من الكتب فأسرح وأطيل التفكير ، حتى لقد كان صديقي أشرف ينتبه الى انصرافي عن المذاكرة فيسألني عما بي ، وقد كتمت عنه حبي فترة طويلة من الزمان فقد كنت أخشى أن يجعله سخرية ويجعل مني ضحكة له ، ولكنه اكتشف حبي حين رأى معي في الطريق ، فلم أستطع الكتمان وألقيت إليه بخيثة قلبي في جد حازم جعله يأخذ مأخلا لا محال فيه لغير المشاركة العنيفة ، ولكن هذا لم يمنعه أن يمتحن على المذاكرة بدلا من السرحان ، فنفضت إليه خشيته أن تتزوج قبل أن أحصل على الشهادة ، وخشيتي أن أسافر الى الغرب ، وكان يقول :

.. هل تتردد في السفر من أجل هذا ... إنك إن لم تسافر وتزوجتها لظلمت طول عمرك
تكرهها لأنها كانت حجرة عثرة في سبيل مستقبلك ، وظلمت هي طول حياتها تكره نفسها وتكره
زواجها بك لأنه منعك من المستقبل اللائق بك ، لا ، اخطبها وسافر . ولكن لا بد لك ان
تسافر .

وحصلت على الشهادة وراح أبى يجهز لسفري ، ورحت أنا ألحى الفرصة لأحداثه في أمر
خطبتي ، ولكن كيف ؟ .. كنت طفلا كبيرا في السابعة عشرة من عمري أحس أنا أنى كبير
وأفهم كل شيء ، بل لعل كنت معتقدا أنى أفهم ما لا يفهمه أبى نفسه ، ولكن من يعترف معى
بكبرى هذا وعقل وحكمى ! كان أبى وأمى يعاملانى كأن طفل لا أزال ، حتى لقد فكرا أن
يرسلا معى خادما الى الخارج ليرعى شأى ويقوم على أمورى فيما استطعت أن أصرفهما عن هذا
التفكير إلا بشق الأنفس وكثير اللجاج ، بل وبالبكاء أيضا .. نعم بالبكاء فقد كنت حتى ذلك
الحين أبكى إن أصر أبى على أمر لا أريد تنفيذه .

كيف إذن أحدثهما عن حى وعن رغبتى في الخطبة وهما يريان أنى ما زلت محتاجا
الى .. !!

لم أجد من ألقى إليهما بما أنا فيه الا صديقى أشرف الذى عرف حالى جميعا أثناء المذاكرة ،
قصدت إليه في بيته وظلمت أقول وأقول .. وأبين له كيف أنهم يجهلون في بيتى قدرى وكيف
أنهم يستصغرون شأى ويستهنون بعقربى ، وكان أشرف يكبرنى بعض الشيء فانتهاز الفرصة
وراح يقف منى موقف المرشد الناصح وأنا أضيق بحديثه غاية الضيق حتى لم أطق أن أكمل
الجلسة وخرجت من عنده وأنا أشد ضيقا مما كنت حين قصدت إليه ..

وتحدد موعد السفر ، وما لبث هذا الموعد أن حل ، وأصبحت في اليوم الذى سأسافر في
مسائه . وقد عزمت أمرى على مفاتحة أبى وقد هيا لى الوهم أنى ما أن أخبره برغبتى في الزواج
حتى يسارع الى أهل هناء فيخطبها لى في نفس اليوم ، بل في نفس الساعة .

قصدت الى حجرة أبى وقد أعددت نفسى إعدادا تاما ، ولكن لم أجد أبى فقد انصرف في
باكر الصباح ليكمل ما احتاج اليه وأخبرهم في البيت أنه لن يرجع إلا بعد الظهر .
ولم أطق أنا البقاء فخرجت عازما ألا أعود أنا أيضا إلا بعد الظهر ..

وبعد الظهر عدت وما كدت أصل الى الحى حتى تدافعت الى أذن زغاريد تنبعث من بعيد
ويقترب صداها كلما اقتربت الى البيت ، ماذا ترى بعث هذه الزغاريد ؟ ليس هناك إلا سبب
واحد .

لا بد أن أشرف أخبر أبى برغبتى في الزواج من هناء وأراد أبى أن يفاجئنى بهذه المفاجأة
المائلة الرائعة العظيمة ، كم هو عظيم أبى هذا !! كم هو وفى أشرف صديقى ! أحقا تحققت

الأحلام ؟ أحقا هذا لي مضطرب الفؤاد واستقرت بي نفسى الحائرة ؟ وتزداد الزغاريد قوة وكأنها تجيب أن نعم .. نعم ، لقد تم لك ما تريد ..

وبلغت مصدر الزغاريد ، انه بيت هناء ، اذن فهو ما فكرت فيه ، واذن تحققت الآمال ووجدت بالباب سيارات وقوما متجمعين ووجوها يطيب البشر من قسائنها .. ولكن أين أبى من هؤلاء ؟ أين سيارته .. وأين سائقنا ، أين نحن فى هذه الجموع ؟ لا .. لم يكن هناك .. عدوت جريا الى منزلنا فوجدت أبى جالسا فى مكتبه ، ورأى اضطرابى وأدركه ولكن لم يلفت امره ولم يسألنى ، « مالك » بل قال فى صوت شوق عاطف :

— أين أنت ياأخى ، أتترك البيت فى هذا اليوم وسيأتى الناس لتوديعك وأملك تهفو أن تقضى معك هذه الساعات التى تسبق سفرك .

— والله كنت .. كنت .. كنت أودع أصحابى .. أبى ..

— نعم ..

— أبى ..

— نعم ..

— ما هذه الزغاريد ؟

— يا سيدى هناء تخطب اليوم ، وأنا ذاهب لأهوى أباهما فقد دعانى الرجل وألح على أن أذهب وهو يريدك أيضا أأتى ؟

وتلعثمت وأنا أجيب أبى بأسى قانط مرير :

— لا .. لا يا أبى فانى سأنتظر مع أمى .. وأنتظر المودعين وابتنسم أبى ابتسامه وجدتنى أمامها عاريا من سرى الكبير ، لقد كان الرجل يعرف كل شئ ، قال لى ذلك .. قالها دون أن ينطق كلمة واحدة ، قالها فى ابتسامته تلك التى ترقرت على عياه .. وخرج ..

وخلوت أنا إلى حجرى ، لم أنتظر المودعين ولم أجلس إلى أمى وإنما لجأت إلى الكذبة التى يستعملها الجميع إذا شاءوا أن يخلوا إلى أنفسهم .. نعم ادعيت مرضا وصداعا وخلوت الى حجرى .. أستعيد الأيام ، أيام الفناء والكرة والحبلى والطريق واللثمة والحمرة ، والأحاديث ، ذهب هذا جميعه ، هذه الخائنة ، ولكن ما ذنبها ! وهل تملك من أمر نفسها شيئا ، بل هل أملك أنا من أمر نفسى شيئا ! هانذا مسوق الى السفر ، مرغم على السكوت حتى لا أستطيع أن أثبت بخالجة نفسى ورغبى ، ما ذنبها ، إنما يحكم عليها من يحكم على ..

آه من الآباء !! فكرت ألا أسافر .. ولكن ماذا أقول .. وكيف أعصى أبي ، لا إني سأسافر لا لأنى خائف من أبي ولكننى سأسافر لأنى زعلان من أبي .. ولماذا أزعل منه ! هل أخبرته بشيء .. لقد كان يعلم .. وماذا كنت أنتظر .. أن يأتى هو الى ويقول لى سأخطب لك هناء .. وماله !! ولماذا لا يفعل ؟ نعم سأسافر لأننى زعلان .

وسافرت ومضت السنون هى فى أوروبا وخطابات أشرف توافينى بأخبار هناء فتحمى فى القلب حبا كان خليقا أن يضعف ..

رأيت المرأة فى الغرب .. رأيتها فى أوضح صورها بشاعة ، وكانت رؤيتى لها تعيد حبيبى هناء إلى شبابه الأول ، أرى العيون الفاجرة ، فأذكر عيونها المسبلة ! وأرى الوجوه البريئة فأذكر حمرة وجهها ! وأرى الأجسام الفاترة فأذكر جسمها الذى لا يبعث إلى ذهنك إلا فكرة الورود تتفتح عنها أكلماها فى حياء وفى زهو وفى كبر ، أرى النسوة عاريات وان سترت أجسامهن الملابس ، فأذكر ذراعيها العاريتين يسترهما جلال الحياء فيها وبراعة الأجواء التى تشيع من حولها . ورأيت الغرب فعرفت المرأة فازداد حبيبى الطفل الذى تركته فى مصر بين أيد غريبة عنى وعنهما وعن طفولتنا وصبانا ومظالم شبابنا ..

كنت قد أوشكت أن أنتهى من دراستى حين جاءنى خطاب من أشرف يحمل إلى نبال عجبيا .. لقد مات زوج هناء .. مات .. يا لفرحتى !! ودوى عن الفرحة ضمير برىء يستجدى أن يفرح للموت .. عدت الى خطاب صديقى .. ياله من مقصر ، ألا يذكرنى إن كانت هناء تعيسة بموته وما مدى تعاستها ، ولم يذكر الخطاب أين تسكن .. أوحدها أو مع والديها ؟

ولم يحن موعد عودى الى مصر الا وأنا أعلم كل شيء عن هناء .. أين تسكن ، ومتى تخرج ، ومقدار حزنها ، ومدى تمتعها بالحياة ؟

عرفت كل شيء ..

ووصلت الى مصر ، فكان أول ما عملت أن اتصلت بها بالتليفون ..

- أتراك تذكرينى ...

- أعرف الصوت ولا أصدق أذن .. أتراك هو ؟

- أنا هو ..

- أنت ..

- أنا .. عرفتنى ..

— وهل تتصور أن أنساك .. وهل تتصور أنني نسيتك ؟

— أكلملك لأعزيك ..

— شكرا .. متى أراك ؟ ..

.. وتلعثمت وأنا أقول :

— تريبنى ؟!

— طبعاً .. مالك هكذا وكأنك لم تسافر الى الخارج . لا تزال اللعثة تعزيك ..

— متى أراك ؟

— كما تحب ! ..

— الآن ؟

— الآن ..

واتفقنا على الموعد وذهبت إليه .. غير أن في الصوت جراءة ، وفي الحديث امرأة وفي اللهجة اقبال .. ماذا ترى حدث ، أن تدعوني الى اللقاء وقد كانت لا تلتفت الى وأنا أحدثها في الطريق ، هذا الصوت ، وهذه اللهجة ليست غريبة على ، إننى أعرفها ، سمعتها ، ولكن بلغة غير اللغة ، نعم لقد كن هكذا بمحادثتى في الخارج .. ترى ألم تصبح هناك .. هناك .

وأقبلت في الموعد ، امرأة .. ربة العود عالمة العينين خبيرة النظرات ، متجملة الوجه ، متأنقة الملبس ، وجلست ..

ومحادثتنا .. كنت أحدثها عن أيام الطفولة والصبا وراحت لمحادثتى عن الأنوثة التى التقيت بها في أوروبا ، راحت تسألنى في جراءة عارية عما فعلت في أوروبا ، بل راحت تنبئنى عما فعل بها زوجها ..

ذعرت .. ليست هذه هناك ، انها امرأة .. عرفت مثيلاتها الكثيرات ، ليست هذه حبي ، ليست هذه طفولتى ، لا ولا هذه أحلامى .. أرجعوا الأيام ، أعيدوا إليها طفولتها ، وصباها وبواكير شبابها لأرى طفولتى وصباى وبواكير شبابى ..

كان لقاءنا الأول هو الأخير .. حاولت أن تدعوني فما زادنى هذا إلا بعداً ، لقد فقدت هناك التى عرفتها فما خلقت الا امرأة .. امرأة كاملة ولكن ليس لى فيها ذكريات ولا آمال .

أحببت وهى

لاتلمنى يا صديقى وأنت كثير اللوم . نعم إني أسرف فى انفاق المال وأرمى به فى كل متجه لا أفكر فى العاقبة ولا أريد أن أفكر فيها . ولكن لا تلمنى فما تدرى أنت مقدار السعادة التى أحس بها وأنا أقذف بهذا المال ، لا . . لا تدرى وأرجو الله ألا تدرى أبدا وأرجو الله ألا تحس بهذه السعادة التعمسة التى أحسست بها .

قد انقطعت عنك شهورا فما تعلم من أمرى شيئا ، وقد كان آخر ما بينى وبينك أنك عرفت بخطيى وهنأتنى فى لقاء عابر سريع ثم درت أنا فى هذه الدوامة التى لم أفرغ منها إلا اليوم . .

لم تعرف شيئا عن خطيى . . نعم لم تعرف شيئا عن ندى . . أحببتها يا أخى منذ أنا صبي يدرج إلى باكر الشباب وأحبتنى ، رأيت فيها فتاة منسوجة من الإشراق ، فهى حينما تحمل فرحة نشوى ، المرح بجالها ، والنور مسبحها ، والصفاء بحياها ، والطهر هى . .

أحببتها يا أخى فخطبتها فازددت حبا لها . . وأى عجب أن أحب خطيى ، ومرت بنا فى أيام الخطبة فترة وسنانة حائلة حيث فيها بقلب خائف يتتابه الدعر من الغد فقد اعتادلى الدعر منذ غمرتني هذه السعادة . ولكننى كنت حين أسير معها أنسى سعادتي وذعري ولا أذكر إلا أننى أسير مع ندى وقد التف ذراعها على ذراعى فأحس كأن ذراعها ستار يحجب عني من الدنيا شروها ويفسح أمامي مجالات الجمال فيها والاشراق . .

كان هذا يا صديقى . . ثم كانت ليلة اتفقنا فيها على أن نذهب الى السينما فى الغد وتركتها وأنا أفكر فى هذا الغد وأنتظره حتى جاء فاشترت التذاكر ، وذهبت إليها قبل الموعد وانتظرتها على أسفل السلم فى بيتها . وطالت بها الغيبة فأخذت أصبح فى مزاج جاد وأخذ أهلوها

يضحكون من ثورتي المرحه ويشاركونني فيها حتى بدت أخيرا على رأس السلم مشرقة حلوة
صاحكة مشاركة في الصباح المرح ، وراحت تنزل السلم وثبا ، ولكنها توقفت في منتصفه هنيهة
لم يلاحظها إلا أنا ، وتابعت وثبها الى أسفل حتى أدركتني ..

وسحبتهما من يدها إلى الخارج دون أن أتبع لها أن تعرض أناقتها على أمها وأبيها . واحتوانا
الطريق وفي نفسى غصة جاهدت نفسى على إخفائها بعض الحين ثم لم أطلق السكوت :

— ندى ..

— هيه ..

— لماذا توقفت وأنت تنزلين السلم ؟ ..

وكان السؤال مفاجأة لها فقد كانت تأمل ألا يرى أحد توقفها ..

فقلت في تردد :

— أنا ؟

— نعم أنت .. لماذا توقفت ..

— يا أخى .. مسألة بسيطة .. ألا يفوتك شيء أبدا ؟

— وماذا ستفعل ؟

— اتخفين عني .. عني أنا ؟

— أنا طبيب فان كنت لا أعجبك فدعيني أذهب بك إلى أى طبيب يعجبك ..

— يا سيدى الحكاية لا تحتاج إليك والحمد لله .. ابعد عني وابحث عن رزقك مع

غيرى ..

— بل معك أنت ..

— يظهر ان الزبائن انفضوا عنك في هذه الأيام .. على أى حال أمرك ..

وذهبت بها الى العيادة وكان اليوم أجازة فانفردت بها في عيادتي ورحت أسألها في دقة عن
كل ما تحس به .. وأخذ قلبي يزداد خفوقا مع كل إجابة ، واتصلت بأحد أطباء التحليل من
أصدقائي وطلبت إليه أن يذهب إلى عيادته فورا .. وذهبنا .. النتيجة سرطان في الدم ..
عرفت أنا النتيجة ولم تعرفها هي ..

وعدت بها إلى المنزل .. نعم أنا طبيب .. وأعرف ألا أمل مطلقا .. لكننى انسان أيضا يا
أخى .. وعجب .. أنا لا أطيق الحياة خالية من هذه المريضة .. لا .. لا أطيقها .

لم أخبر أحدا من أهلها بمريضها وحملت العباءة وحدي وأنا وحدي بين الناس جميعا الذي كان خليقا أن يتهاوى تحت هذا العباءة ولكنى حملته ..

تركتها في البيت وخرجت وحدي إلى الطريق إلى قلبي المحطم ، أمرن لسانى على ما سيقول ، وأهيب نفسى للطريق الذى اخترته . ولكنى في وحدي هذه لم أشعر بحيرة ولم أفكر في طريق آخر غير الطريق الذى رسمته لنفسي في سرعة خاطفة واستقر أمرى عليه ..

ذهبت في اليوم التالى إلى أهلها وأخبرتهم أنى مسافر إلى الخارج في مهمة علمية ، ورحلت أدور بالحديث معهم حتى أقنعتهم أنه لا بد من الزواج العاجل ، وجاءت هى بعد أن انتهينا إلى هذا القرار ، وفوجئت به ثم ما لبثت أن دخلت غرفة وحدها. ونادتني فذهبت إليها :

— أحمد .. ماذا عرفت أمس من تحليل الدم ..؟

كنت قد أعددت نفسى لكل مفاجأة فصنعت ضحكة كبيرة وقلت :

— عرفت أنه لا بد من الزواج السريع ..

— أهذا وقت الضحك ؟

— وماذا أعمل مع خطيبي العبيطة التى تربط تعجيل الزواج بتحليل الدم ؟

— لماذا لم تخبرنى أمس عن رحلتك إلى الخارج .. أنت لم تخف عني شيئا ..

— أخفيت هذا الشيء ..

— لماذا ؟

— لأننى اعتقدت أنه لو تم هيا لى مفاجأة سارة أفاجئك بها ، وخشيت أن أخبرك ثم لا يتم فيسبب لك هذا ضيقا لا أريده لك أبدا .

— أحمد .. هل أنت صادق ؟

— وهل كنت عمرى كاذبا ؟

— أحمد إلى خائفة ..

ولم أستطع أن أتحكم في لسانى وهو يقول :

— وأنا أشد خوفا ..

وارتاعت المسكينة فانتفضت تقول :

— لماذا .. لماذا يا أحمد ؟

واستعدت نفسى الجازعة وقلت لها :

— أخاف من السعادة التى تغمرنى .. أخاف من السعادة ياندى ..

واغرورقت عيناي بالدموع ، وتعلقت بجفنيها دمعتان ، فأما دموعى فبعض الألم الذى أخفيه ، وأما دموعها فمن حديثى إليها عن سعادى ..

والتقت الدموع .. دموع الألم ودموع السعادة .. فاعجب معى يا أخى من إحساسين على طرفى نقيض كان التعبير عنها واحدا !!

أتسخر منى يا صديقى ؟ بربك لا تفعل فإنه يحلو لنا حين نفوص فى أحزاننا أن نجعل من أنفسنا فلاسفة وإن كنا فى عميق إحساسنا نعرف أننا لسنا من الفلسفة فى شيء ..

ولكننا نخادع أنفسنا ونرتاح الى هذا الخداع مع علمنا أنه خداع ..

أتسخر منى يا صديقى ، لا تتعجل السخريه .. فسوف أفسح لك مجالا للسخرية لا ينتهى أمده ، لا تفرغ سخريتك كلها ، فإن كان فيما قلت ما يثير هذه الابتسامة الهازقة التى تضعها على فمك فإن فيما عملت ما يثير قهقهتك الساخرة العالية .. فاحفظ ببعض سخريتك ولا تفرغها جميعا فإن ما قمت به بعد ذلك يحتاج إلى كل السخريه التى تزدهم فى نفسك ..

سافرت إلى أوروبا مع زوجتى .. نعم سافرت بعد أن أعدت قراءة ما كتب عن مرض زوجتى وبعد أن تأكدت ألا فائدة ترجى من السفر .. إلا أننى وجدت مجلة غير علمية تقول إن هناك بحثا يدور عن هذا المرض سافرت إلى هذا البحث .. ألم أقل لك احتفظ بسخريتك ..

توهمت أننى قد أجد أملا بجانب هذا البحث الدائر .. وإلى هذا الأمل سافرت .. ونجسم الأمل فى نفسى حتى كاد أن يصبح حقيقة ، وفى أوروبا أنكرت أننى طبيب وأصبحت أفعال ما يقول به الأطباء ملتصقا فى كل كلمة أملا أزيد به أمل .. مكثت مع زوجتى ولا عمل لى إلا تنفيذ ما يقول به الأطباء الباحثون لا أناقشهم فى شيء ، ولا أفكر إلا فيما يقولون ، وقد أعلم أنهم مخطئون ولكننى أخطئ نفسى وأصدقهم . وأخفى على زوجتى ما يقولون وما أعلم وأومها أننى أعمل فى البحث الذى جئت من أجله وأومها كلما عرضتها على طبيب أنه صديق لى يريد أن يفحصها .. ليست زوجتى غبية أيها الصديق .. لقد عرفت أنها مريضة ، وعرفت أن مرضها خطير ولكنها لم تشأ أن تشعرنى بمعرفتها حتى لا تنغص على فرحتى بأننى استطعت أن أخفى عنها مرضها .. وكانت ترانى أمامها سعيدا دائما فلم تشأ أن تشعرنى أنها عرفت بمرضها حتى لا تقطع هذه السعادة المصطنعة التى كنت أخلقها لنفسى أمامها .. أكانت كاذبة هذه السعادة جميعها أم كان بعضها حقا .. لا تسخر يا صديقى .. لقد استطعت — وأنا الطبيب — أن أقنع نفسى أن الأطباء سيشفون زوجتى من المرض ..

نعم .. توهمت هذا ، وأحببت وهمى وعشت فيه ، حتى أصبحت السعادة التى كنت
أفتعلها ، حقيقة أومن بها لا تقبل منى شكاً ولا نقاشاً ..
وتلومنى لأنى طلبت إليك أن تبيع كل ما أملك ، وتلومنى اليوم لأنى طلبت إليك أن تبيع
أدوات العيادة .. لا .. لا تلمنى يا صديقى .. لقد اشتريت بما أرسلت إلى من نقود أملاً
ضحكاً ووهماً حلوا أحبيته وأحببت العيش فيه وبه ..
واليوم يا صديقى ماتت زوجتى ، ومات الأمل ، ومات الوهم وطالعتنى الحقيقة بلا خداع
ولا كذب ولا وهم ..
لقد أسرفت فى الانفاق وما أقل ما أنفقت فى سبيل هذه الأيام التى تخلت فيها عن الحقيقة
وعن العلم وفرغت إلى هذا الأمل الذى أنشأته وذلك الوهم الذى أحبيته ..
اتسخر منى .. اسخر ما شاءت لك السخرية ، أما أنا فأقسم لك .. أقسم بها .. لو
عادت الأيام إلى الوراء لفعلت ما فعلته ثانية وثالثة وألفاً .. أيها الصديق لقد كرهت الحياة
وأحببت الوهم فمن لى بهذا الوهم .. من لى به ..



أخلفت الموعد

دق جرس التليفون في منزل الأديب الكبير الأستاذ شريف لطفى ورفع الأستاذ سباعة التليفون فبلغ سمعه صوت ناعم حلو:

- من ؟ .. الأستاذ شريف ؟

- أنا هو ..

- صباح الخير يا أستاذ ..

- صباح الخير ..

- أنا يا أستاذ إحدى المعجبات بكتابتك ، وأتمنى أن أراك .. أرجوك أن تحدد لي موعدا ..

وارتبك الأستاذ بعض الحين ، فهذه أول مرة تكلمه فيها سيدة على غير معرفة وكاد يغييب في طوايا ذكريات سعيدة لولا إحساسه أن هناك من ينتظر رده فسارع يقول :

- متى تريدين الموعد ؟

- الآن .. في هذه اللحظة إن أمكن ..

- الآن ! .. في هذه اللحظة ؟

- يا أستاذ أنا أكلمك بعد تردد طويل ، كنت أخاف أن أضايك ورددت نفسى عن تليفونك أياما بلغت شهورا ، وأخيرا جمعت جراءة لا أعرف من أين حصلت عليها لعلها من كتابك الأخير .. واستطعت أن أكلمك .. وأريد أن ..

- .. أنت غير محتاجة إلى هذا الاعتذار الطويل ..
- .. منى .. اسمى منى ..
- .. يا آنسة ؟
- .. نعم آنسة منى إذا شئت ، وما أحب إلا أن تقول منى .. منى بغير شيء قبلها ولا بعدها .
- وخفق قلب شريف خفقاً عنيفاً وهو يقول :
- .. طيب يا منى .. أراك الآن ولكن أين أنت ؟
- .. أنا في الجيزة ..
- .. طيب أنا سأنتظرك في جروبي ..
- .. متشكرة يا أستاذ .. متشكرة جداً يا أستاذ ..

ووضعت منى الساعة وظل الأستاذ لحظات ممسكاً بالساعة ، ثم قفز إلى ذهنه خاطر أرسله يقول : « يا منى .. يا منى » ولكن هيهات فقد انقطع الخط وانتهى الأمر . فوضع شريف الساعة وهو حائر ! كيف سيعرفها أو كيف ستعرفه ؟ وهما لم يلتقيا ، أتراه صديق يمزح معه ؟ ! ولكن لا ، فما عوده الأصدقاء هذا المزاح ، وإن مكانته لا تسمح بمثل هذه الصغائر .. على أية حال ماذا عليه لو ذهب إلى جروبي وجلس إلى إحدى موائده فطالما جلس إلى موائده .. فإنه هناك وفي جروبي بالذات يستطيع أن يستعيد الذكريات .. وسمع الأستاذ نفسه تضحك منه ضحكة ساخرة هازئة .. ذكريات ؟ أى ذكريات يا أستاذ وهل لك ذكريات .. لقد قطعها حياة خالية بلا حياة فيها ولا ذكريات .. أى ذكريات .. يا أستاذ !!

وغضب الأستاذ من نفسه وزجرها في عنف .. وحاول أن يجيب ولكنه وجد نفسه وجها لوجه أمام كرسي جروبي ، وقد وقف الخادم أمامه يبدو عليه أنه ينتظر أمره ، ويفرض عليه في الوقت ذاته أن يطلب شيئاً ، وانصرف الخادم وخلا الأستاذ إلى نفسه ..

أليس لنا ذكريات أيتها النفس ، كم أنت خبيثة تنكرين الماضي وتنكرين للأيام الخوالي أما تذكرين أيام الهوى !! أيام أن كنت خالية إلا من الحب ، فارغة إلا من الأمل ، خفيفة إلا من الأحلام ..

وأعنت نفس الأستاذ في الإساءة إليه ، وراحت تحييه في سخرية .. متى ؟ .. متى يا أستاذ كان لي حب ، أو أمل ، أو أحلام ؟ فاني والله منذ عرفتك خالية بلا حب فارغة بلا أمل خفيفة بلا أحلام .. وهأنذا اليوم بلا ذكريات .. أستاذ أترأك تريد أن تضحك مني أيضاً

كما تضحك من قرائك ، فتؤلف قصة تجعل من نفسك بطلها ، وتريدى أن أصدق ما تقول ؟
وأجاب الأستاذ في غير احتفاء بهذه السخرية ، فقد غمرته الذكريات فهو منها في
طوفان ..

أما تذكيرين .. أما تذكيرين ؟

وقالت النفس .. لا .. لا أذكر . ولكن الذكريات راحت تنهال في خاطر شريف كجدول
مزدحم الأمواج .

كان إذ ذاك صبيا مشرفا على الشباب ، ملهوبا إلى الغد لا أمس له ولا حاضر وإنما عيناه
شاخصتان إلى المستقبل يرقبه من خلال الغيب عجلا ، يود لو أن الأيام تقاصرت ، ولو أن
الليالي انحسرت ، يحب الشمس المشرقة ثم ما يلبث أن يكرهها ويرى فيها قدما لأبد أن يزول
لتأق الشمس الجديدة شمس الغد شمس الشباب ..

كذلك كان شريف ، وكانت بثينة هي الجارة .. فتاة في ربيع العمر من الشباب على
وجهها حمرة الفرح ، وعلى صدرها استكبار الواثق المزهو ، ولف الشباب عودها فهي عود
مورق تعرف الأوراق أين تنبت فيه ، وكيف تنبت ؟ أغصنة كالغصن الجديد مشرقة كالزهرة ،
حلوة فتاة ، تنظر إلى الغد بعين وسنانة حاملة وتلتذ كل لحظة تعيشها وتمتص كل لذة في هذه
اللحظة ، وتنبت لنفسها ذكريات من الأمس ولا ذكريات لها ولا أمس ، ولكنه الشباب يحب
الماضي والحاضر والمستقبل ..

كانت بثينة أكبر من شريف فلم تجد بأسا أن يجلس إليها وأن تجلس إليه ولم يجد أهلها ولا
أهله في ذلك بأسا ، وانعقدت بينهما صداقة كان هو فرحا بها ، وكانت هي فرحة به أيضا ،
وكانت بثينة تحب الأدب والأدباء ، وكانت تخصص أديبا معينا بحبها ، وكانت تقرأ على شريف
لهذا الكاتب بالذات فتكثر القراءة وكان هو يقبل على ما تقرأ في تكاسل وعزوف ، ومرت الأيام
ولم تلحظ بثينة أن الأيام مرت وأنها أطلعت في وجه شريف الغض شعيرات تتلوى ، وأنها
جعلته يشتري الكتب لكاتبها المفضل إن أصدر جديدا ، أو لغيره إن لم يصدر هو .

أحب شريف الفتاة وأحب الأدب في غمرة حبه الأصيل .. وأحست الفتاة بحبه للأدب
ولم تحس حبه لها ..

ومضت الأيام حتى كان يوم فوجيء فيه شريف ببثينة تتزوج ، وكان زوجها هو كاتبها
المفضل ..

ومنذ ذلك اليوم ولا أمل له في حياته إلا أن يصبح كاتباً مثل زوج بثينة .. وإلا أن يجد
زوجة تعجب به كما أعجبت بثينة بكاتبها ..

ذهبت بشينة من حياة شريف وتركت له الأدب ، وذلك الأمل الضخم الذى رصد حياته كلها لتحقيقه ..

ومرت الأيام .. وشريف عاكف على الدراسة والقراءة العنيفة التى لا تعرف الوهن ، وسافر إلى الخارج يجمع إلى الأدب العربى الأدب الغربى ، وجهد فى الغرب ، لم يقض لحظة مع فتاة ولم يترك هنيهة دون أن ينتفع بها ، حتى إذا أتم ما أراد لنفسه أن يتم ، عاد إلى مصر ، وبدأ عمله أستاذا للأدب فى الجامعة وكاتبا فى الجرائد والاذاعة ومؤلفا للقصص الطويل منها والقصير ..

وانهال انتاجه على عشاق الأدب ضخما رائعا كثيرا متدفقا فيما هو إلا بعض العام حتى كان اسمه على كل لسان ، تهمس به العذارى فى وله ، ويتشلق به شدة الأدب فى إكبار ، وينقده الأدباء فى مرارة ، وهو فى شغل عن هذا جميعه بأدبه وبأمله فى أن تحبه قارئة مثل بشينة وتعجب به ، وتقصد اليه تقدم بين يديه اكبارها واعجابها وحبها .. فيخطبها ويتزوجها وينشأن بيتا كآحلام العذارى أو خيال الشاعر الوهان .. أو كبيت بشينة وان كان لا يدري ما فعل الله ببشينة ..

ومرت الأيام وراح أهل شريف يلحون عليه أن يتزوج وهو يصرفهم عن هذا الحديث كلما تحدثوا به ، فان أخوا تركهم وخرج إلى مقعده فى جروى .. هذا المقعد الذى يجلس إليه الآن فيستعيد الذكريات .. ذكريات بشينة وقراءتها له وتسخر منه نفسه كلما حاول أن يجعل من الأيام الماضية ذكريات .. ولكنه لا يحفل بسخريتها تلك بل هو يسترجع الذكريات .. وقد كان خليقا به فى يومه هذا أن يذكر .. فقد آن له أن يحقق الأمل ، أمل حياته جميعا .. كم هو فرح .. فرح ؟

ما أضعف الأديب حين يحاول أن يبين عن خالجه نفسه ، أكل ما يصف به نفسه الآن أنه فرح ! فرح فقط ! وماذا تملك غيرها أيها الأديب .. إنك لن تحاول أن تزوق الكلام لنفسك كما تزوقه لقرائك ، والمشاعر الانسانية معروفة (لا تتغير .. أنت فرح ولن تحاول أن تعبر عن فرحك لنفسك) لأن نفسك تعرف مقدار فرحك فقد لازمتك منذ أن كنت صبيا إلى الآن ، وما هو ذا أملك يتحقق فانت فرحان يتتاب فرحك بين الحين والحين غصة خوف أن لا تعرفك الفتاة ، وتطمئن نفسك بأن صورك تملأ الجرائد ثم تخشى أن تختلف الصورة عن الحقيقة ثم تفكر فى آخر صورة لك .. ثم .. ثم ها هى ذى الفتاة تقف إلى منضدتك .. نعم انها واقفة إلى منضدتك ..

— الأستاذ شريف .. صباح الخير ..

ويقف الأستاذ شريف ذاهلا حائرا فما كان يتوقع أن يرى كل هذا الجمال .. لا .. فما بشينة

بهذا الجبال .. لا ولا أمل هو يوما أن تكون فتاته بهذا الجبال لا .. وقبل أن يسترسل به الخيال يفيق الى وقفته ووقفته فيقول :

— الأنسة .. آسف .. أقصد منى ..

— أنا هي ..

— أهلا وسهلا .. تفضل .. اقعدى ..

وتقعد منى ثم ما تلبث أن تضحك ضحكة عالية مرحة منطلقة خالية لا يسك بها شيء فهي رنين حلو ولكن شريف ينظر إليها في تعجب ..

— خيرا .. ماذا حدث ؟

— انظر ..

— ماذا ؟

— لقد طلبت جلاس وتركته يذوب حتى ملأ المنضدة ولم تلتفت إليه أعرف أن الفنانين يسرحون ولكن لم أكن أعتقد أنهم يسرحون إلى هذا الحد ..

وارتبك شريف فما يدرى ماذا يقول أو يفعل ! وراحت منى تتحدث في حديث آخر بعد أن نظف الخادم المنضدة ، راحت تشرح له اعجابها به ويكتبه ومقالاته ، وراح هو في خجل حيران وفي نشوة فرحانة يسألها عما أعجبها وهو يتمنى أن تسكت فقد بلغ به الخجل مداه ، ويتمنى ألا تسكت فما لقي هذه السعادة جميعها قبل اليوم ، وبين رغبته في سكوتها وأمله في استرسالها راحت منى تتحدث في انطلاق مرح في اعجاب كبير وهي تنظر إليه نظرات يملؤها الاكبار فقد كانت ترى في جلستها تلك اليه أملا لا سبيل الى تحقيقه ..

وطال الحديث وشريف ينظر إلى الفتاة لا يحول عينيه عنها والسعادة تغمره من كل جانب .. فجبال الفتاة معجزة واعجابها به يفوق اعجاب بثينة بكاتبها لم يبق له من أمل بعد هذا .. لا .. لا أمل له أكثر من هذه السعادة التي يعيشها الآن ويتنفسها ويلتذ بكل نسمة فيها ..

وتمكنت منه رغبة في الانطلاق فما يطيق أن يستقبل كل هذه السعادة جالسا إلى كرسي ، انه يريد أن ينطلق إلى الشوارع إلى الميادين .. إلى الفضاء بل إلى الزحام .. إلى الدنيا جميعا في هدوئها وضجتها ، في سكوتها وحركتها .. إلى كل الدنيا ..

قال لمنى :

— هلم بنا ..

- إلى أين ؟
- إلى الشارع .. أريد أن أسير .. هلم ..
- إلى أين ؟
- إلى أى مكان ..
- ولكنى لا أستطيع ..
- لماذا ؟ ..
- لأننى أنتظر خطيبى هنا .. فقد طلبت إليه أن يأتى إلى هنا ..
ولم يسمع شريف شيئا مما قالت بعد خطيبى .. فقد جمدت عيناه تنظرا إلى عينيها وجمدت
شفته لا هما مفتوحتان ولا هما مغلقتان ..
وجمدت خلجات وجهه بين الدهشة والألم ويقايا فرحة تنحسر لتفسح مكانا للألوان شتى من
المشاعر لا مجال فيها لفرح أبدا ..
وبعد فترة لا يدرى أقصرت أم طال انتبه إلى نفسه ناظرا إليها فوجد صورته فى عينيها
الشابطين ، وجد صورته الجازعة مطبوعة على عينيها الضاحكة المستبشرة ، رأى صورته فى
عينيها فأطال التحديق .. لقد نسي الأستاذ شريف شيئا وذكرته صورته ما نسي .. نسي ذلك
الشيب الذى اشتعل فى رأسه فحرق مستقبله ، وفى لحظة وامضة أدرك الأستاذ شريف ألا
مستقبل له .. وأدرك ألا ماضى له أيضا .. لقد أكل الأدب ماضيه ومستقبله ، وألهاه عن
السنوات التى تمر لا تراعى القلب الشاب ولا الأمل الطفل وإنما هى تدمغ حيث تمر فتجعل من
صبي الأمس عجوز اليوم ..
كان الأستاذ شريف يقترب إلى الخمسين من عمره ولا يحس .
ولم يفق الأستاذ شريف إلا حين جلس إلى مكتبه وأخرج ورقة وقلما وكتب عنوان قصته
الجديدة ..
« أخلفت الموعد » ..

ملاعب الصبا

على ضفاف الصحراء ، جلس حمدان بن ربيعة يمد طرفه إلى الأفق البعيد ، فلا يرى بعينه غير انطباق السماء على الرمال ، فيخترق بفكره هذا الأفق ويوغل إلى ما وراءه . . إلى هناك . . إلى ملاعب الصبا ، ومدارج الطفولة ، هناك حيث انطبعت يوما على الرمال البيضاء آثار ركبته ويديه وهو طفل يحب ، وآثار قدميه الطفلتين وهو حدث يتعثر في خطواته الأولى ، وهناك حيث تحت الرياح آثار قدميه الصغيرتين وهو صبي يدرج إلى الشباب ، وويل لحمدان من ذكرياته لأيام الصبا ، فهي أولى ذكريات وعاما عقله ، وهي أحلى ذكريات صنعتها له الأيام .

كان ذلك منذ نيف وعشرين عاما ، وكانت الحياة بين يديه لعبا مع الأطفال من أترابه . . وكانت هي بينهم تلعب كما يلعبون ويجرى عليها من أحكام اللعب ما يجرى عليهم لا يراعون أنها ابنة شيخ القبيلة . . وما شأنهم بأبيها ؟ إنما هي عضو في جماعتهم لا يعينهم من شأنها إلا مرحها ولعبها وإتقانها لهذا اللعب . .

وهكذا عاش حمدان في جهالة الطفولة لا يدرك مقدار السعادة التي تتيحها له هذه الجهالة وإنما يدرك قواعد اللعبة التي يمارسونها تمام الإدراك ، ويتقن هذه اللعبة كل الاتقان . وكانت هي — لمياء — تعجب بمهارته ، وتنضم دائما إلى الفريق الذي يضمه . . سعيدة أن تراه إلى جوارها لا تعرف سببا لهذه السعادة ، سعيدة هو أن يراها إلى جواره . . لا يدرك باعثا لهذه السعادة . .

ومرت الأيام ، وويل لحمدان في جلسته هذه حين يذكر مرور الأيام . . لماذا مرت ؟ ألا تعرف هذه الأيام شيئا إلا أن عمر فتجعل من العقول الجاهلة الحاملة السعيدة عقولا مبصرة

واعية شقية ، أما كانت تستطيع هذه الأيام أن تتوقف فلا تمر ، أو تتمهل فلا تثب هكذا وثبا عنيقا يطبع بالأمان العذاب ، ويقضى على الآمال الباكرة المشروقة إلى أن تصبح حقائق واقعة ، مرت الأيام كالرحى الثقيلة تطحن سعادتنا الجاهلة ، وأنسنا الساذج . . مرت الأيام ، فآلقت على وجه أبناء حلاوة الشباب بعد عريده الطفولة ولمست جسمها فاذا هي فارعة الطول هيفاء غيداء تحظر كاهواء ، وتسعى كالأمل وتشرق كالشباب ولمست الأيام عقل لمياء الطفل الجاهل فتفتح إلى أفكار الشباب وصار يدرك سبب السعادة التي كانت تحسها ، وأصبحت تمنجل من هذه السعادة وتحاول ماوسعها الجهد أن تخفيها في عميق نفسها .

ومرت هذه الأيام نفسها على حمدان فعلمته أن ذلك الشعور بالسعادة إنما هو الحب الذي يتحدث عنه الشعراء ويتهاوس به الشبان ، علمته الأيام أيضا أنه فقير ، أبوه تابع لأجد وجهاء الحى ، وعلمته الأيام أن دونه ودون لمياء المستحيل ، فهي لن تصبح له في يوم من الأيام ، بل أنه لن يستطيع أن يكشف لها عن حبه مهما يعظم . . عرف حمدان هذا جميعه ولكن بعد فوات الوقت . . بعد أن كان الحب قد تغلغل في نفسه فهو بعض من الدماء التي تجري في عروقه وهيئات للشباب المسكين أن يسيطر على حب هو بعض من دمائه . .

وكان الشبان من أبناء الأتباع يجتمعون فيحدثون عن رجال الصحراء والكهوف حديثا يملأه الفخر وتحيط به هالات من التمجيد . وكان حمدان يستمع إلى هذا الحديث بأذن واعية وقلب خائف متطلع إلى المستقبل ، وكانت النسوة يستمعن إلى هذا الحديث في تظاهر بالخوف لا يخلو من الإعجاب ، ونظر حمدان إلى نفسه في قبيلته تلك فوجد نفسه ضائع الأصل ، منهار الأمل ، ووجد أترابه يمتعون بالمستقبل المشرق ، بينما هو بينهم تابع بلا أمل وتمكن اليأس من حمدان وامتلات نفسه بالحقد على مجتمعه هذا الذى يحيا فيه فهو ينظر إلى أصدقاء الملعب نظرة كلها الحسد ، وينظر إلى لمياء في حسرة عنيفة ، وينظر إلى مستقبله في مرارة قاتلة ، ويراد ذهنه ذلك القصص عن قطاع الطرق ، ومن خلال هذا الطريق المحفوف بالمخاطر يلمع لعينه وميض أمل ، وما يمنعه أن يصبح قاطع طريق ؟ أهو غضب أبيه ؟ وما يهيمه غضب أبيه ذلك الرجل الخامل الذى لم يستطع أن يصنع لنفسه إلا هذه الحياة الحقيرة ليس فيها غير الشرف والمعة والفقر والحرمان ؟ أتعوقه أمه ؟ وما شأنها به وهي التي رضيت أن تشارك أباه حياته تلك المهينة ؟ . . لا . . إن شيئا من هذا لا يمكن أن يمنعه . . لعلها لمياء . . لا . . لا تستطيع لمياء أن تمنعه فهد أن بقى إلى جوارها سيظل التابع الفقير وستظل هي ابنة الأكرمين وسراها يوم تزوج ولن يستطيع حينئذ أن يمد لها يدا أو حتى نظرة . . أما إذا رحل واتخذ سبيله في قطع الطرق فلعله . . لعله يومئذ يستطيع أن يجمع مالا يعوضها به عن ضعة أصله ، ولعله . . ولعله يومئذ يستطيع أن يخطفها ويذكرها بالملعب وأيام الصبا ويناشدها ذلك الحب الطفل .

واتخذ حمدان طريقه وهجر منزله وأحلام صباه وملاعب طفولته وبدأ يمارس مهنته الجديدة في عنف لم تسمع به العرب من قبل ، وما أسرع ما تكونت حوله عصابة ألفت إليه قيادها فهو يدبر للهجوم ويتزعمه . وبث لنفسه الجواسيس في الأحياء فهو على علم بكل قافلة تهم بالمسير ، وهو يتخير من بين هذه القوافل أكثرها مالا فيقتض عليها ولا بد له أن يصيب من أموالها ما يريد مهما تكن هذه القافلة منيعة الحراسة كثيرة العدد .

كان حمدان جالسا على ضفاف الصحراء تمر بذهنه الأفكار عن أمسه الغابر وعن حاله هذا الذي صار إليه ، وكان أفراد العصابة قد عرفوا فيه حبه لهذه الخلوة فلا يقطعونها عليه فهم جالسون أو نائمون داخل المغارة ينتظرون الجواسيس القادمين ليعرفوا منهم القوافل المعدة للسفر . .

وجاء الجواسيس فتجمعت حولهم العصابة وألقى كل جاسوس بما يعرف من أنباء إلا واحدا بقي مترددا لا تبين عليه حماسة من يحمل أخبارا فسأله حمدان :

— هيه يا عامر مالك صامتا .. ما أنباؤك ؟

— ليست هناك الا قافلة صغيرة ..

— قافلة من ؟

— قافلة لمياء ..

— لمياء ؟ !

— نعم لمياء بنت شيخ القبيلة .. تم زواجها بالأمس وهي في طريقها إلى منازل زوجها ..

— زوجها .. أتزوجت .. متى ؟ ومن زوجها ؟

فأجاب عامر دهشا من هذا الاهتمام المفاجيء :

— تزوجت بالأمس من عكرمة الحضرمي ، وسترحل إليه يوم السبت القادم ..

— ولكنك لم تخبرني أنها خطبت قبل اليوم ؟ !

— لقد تمت الخطبة والزواج أمس ..

وأطرق حمدان مفكرا ، وكاد الدمع يفيض دخيلة نفسه ، ولكنه سرعان ما تماثل عن البكاء فسأله أحد أفراد عصابته :

— وما شأننا نحن بهذه القافلة الضئيلة .. إنها ستخرج في يوم كثير القوافل وما أظنك ستترك القوافل الغنية الوفيرة الأموال لتأخذ قافلة هذه العروس ..

ولكن حمدان كان يرى في قافلة هذه العروس آماله كلها قد تحققت فليس بينه وبينها إلا أن يمد يده فإذا هذه الأوهام التي كانت تداعب خياله يوم ترك الحى قد أصبحت حقائق واقعة ، وإذا حبه الذى كان أملا مستحيل التحقيق قد وافى ، فها هى لمياء بين يديه لم يمنعهما عنه مانع من زوج أو أب أو قبيلة .. إنها حبه وصباه وشبابه .. وهو .. وتردد حمدان قليلا .. أجل هو .. أترأه أيضا حبها وصباها وشبابها أم أن الأيام قد غيرت هذا الحب ، نعم إنها لم تقل يوما إنها تحبه ، لم تقل ذلك بلسانها ، ولكنه رأى من عينيها أنها تحبه ، وسمع تلك البسمة التي كانت ترسم على وجهها عند اللقاء إنها تحبه ، ولكن أترى ما كان يسمعه حقا أم هى أوهام محب وخيال شاب ؟ ! سوف يعلم ، وينهى حمدان إلى عصابته أنه اختار قافلة لمياء فيطيعون أمره فى صمت ..

ومنذ ذلك اليوم وحمدان لا يعمل شيئا إلا أن يتربق القافلة القادمة ، وإلا أن يهين للمياء كل وسائل الراحة حتى لا تضيق بحياتهم المقفرة ، فهو يقيم لها خيمة من الحرير تملأها الوسائد اللينة والبسطة النفيسة والأرائك الأنيقة ..

وبدت القافلة فى الأفق واستعد حمدان وعصابته ، وما هى إلا بعض الساعات حتى كانت إغارة حمدان على قافلة العروس قد نجحت ، فاختطف العصابة لمياء وهرب أفراد القافلة جميعا حين رأوا كثرة العصابة ..

وأدخلت لمياء إلى خيمتها واتخذت لنفسها مكانا على إحدى الأرائك وبعد قليل دخل حمدان فى أجمل ملابس ، وانبعث فى لهفة إلى لمياء يجثو تحت أقدامها ..

— لمياء ..

— من ؟ اللص ..

لمياء ؟ انه أنا .. أنا ..

— ومن أنت ؟

— أنا حمدان .. ألا تعرفينى ؟

— ومتى عرفتك ؟

— أنا حمدان .. صديق الصبا .. أخو الطفولة ، ماذا أترك نسيئى ؟ !

— أنا لم أعرفك حتى أنساك !

— إن وجهى لم يتغير كثيرا منذ تركت الحى ، فما هذا الجفاء .. الأننى اختطفتك ؟ لقد حسبت أن هذا يزهيك .. أما ترين أننى ما فعلت هذا إلا لأننى أحبك .. نعم . أنا لم أقبلها

قبل اليوم ، وكيف كان يمكن أن أقولها وأنت في سماء بيتك ، وأنا في وضيع حقارق .. أما اليوم فانظري حواليك .. انظري هذه البسط وتلك الوسائد وهذه الأرائك .. اليوم نعم .. اليوم أقولها أحبك .. اليوم أنت لي .. أنت حبي وصباي وشبابي .. حمدان يا لمياء ، ألا تذكريني ، حمدان ؟

— لا .. أنا أعرفك .. لقد كنت أعرف حمدان آخر .. وجهه كوجهك وقوامه كقوامك ، ولكن نفسه غير نفسك ، لقد كنت أعرف حمدان آخر .. عرفته ونحنا أطفال وعرفته ونحن شباب فكان في الطفولة مرح النفس محببا إلينا حين نلعب ، قريبا من نفوسنا جميعا ، وكان في شبابه رجلا شريف النفس عفيف الخلق ، أما حمدان هذا الذي يجثو هنا .. أما أنت فقاتل سفاك ، قاطع طريق ، أما أنت أيها الرجل فأنا لم أعرفك قبل اليوم ولن أعرفك ..

— لقد ظننت .. لقد خيل إلى .. يالى من واهم مخدوع ..

— لم يكن حمدان واهما ولا مخدوعا ..

فيجيبها حمدان في لهفة منتشية :

— اذن يا لمياء .. هو أنا .. أنا حمدان ..

— بل لست هو ولن تكونه .. لقد مات حمدان إلى غير رجعة ..

— أتخاذعيني ؟

— بل لقد مات حمدان ..

ويثور حمدان من ذلك الهدوء القاتل الذي تطالعه به حبيبته فما هو بمن يطيق هذه المداورة فهو يقول في ثورة عنيفة :

— بل هو حى أمامك .. وستكونين له شئت هذا أم أبيت .. أنت هنا ملكى .. أنت جاري .. أنت لا حول لك ولا قوة ، أنا كل شيء لك أنا مستقبلك ولا مستقبل لك إلا بى .. أفهمت ؟

— لقد فهمت هذا منذ جثت إلى هذه الخيمة .. نعم .. انى جارية اختطفنى للصوص .. فأنا ملك لمن اختطفنى فمالك ثائرا ؟ ! أنت لم تقل هذا في أول الحديث وإنما ادعيت أننى أعرفك وأنتك تعرفنى فكذبتك ، أما أننى ملكك فهذا حق .. أترى أيها اللص أننى لا أعارض فى الحق أبدا ..

— لمياء .. لمياء .. بعض هذه القسوة ..

— أى قسوة فيما أقول أيها اللص .. لقد أردتني جاريته ، وهأنذا أطيعك .. مرى بما

تشاء أطعك .. لن أخالف لك أمرا مهما يكن ..
 - حتى لو طلبت إليك أن تهى لى قلبك ؟ ..
 - ونجيه لمياء فى ضحكة ساخرة :
 - أرايت القلب يوهب بالأمر أيها اللص .. لا .. لا يمكن أن أطيع هذا الأمر .. اللهم
 الا اذا أردت أن تقتلى أو تسرق قلبى من بين ضلوعى ..
 - بعض السخرية يالمياء ..
 - فبعض العقل أنت .. أنا منى أن أهب لك قلبى .. حى ويحك لقد أفرطت .. أهب
 أحلام شبابى وآمال مستقبلى لقاتل .. سفاك .. وأهبها إطاعة لأمره .. جهلت الحب يا فقى
 وادعيت كذبا ..
 - أعرف أننى أستطيع أن أنالك وأعرف أننى أستطيع أن أمرك فتصبحى لى وحدى ولكن لم
 يكن هذا حلمى .. لقد كنت أحلم بحبك لا بجسمك ، فأنت حرام على منذ اليوم ..
 - بعد أن اختطفتنى وأنا فى طريقى إلى زوجى ؟ ! ألم تفكر فيما عسى أن يقال عنى .. ألم
 يدر بذهنك ذلك العار الذى ستلحقه بى ؟
 - لا والله لم يدر بذهنى هذا .. فقد كنت أحسب أننى سألقى فيك حى القديم .. أما
 اليوم .. أما وقد ذكرت أنت هذا العار فلا وحياتك ما كنت لأجعل العار يلحق بك أبدا ..
 ويخرج حمدان من ثيابه خنجرا لامع النصل فتجنزع لمياء قائلة :
 - ماذا أنت صانع ؟
 - سأجعل منك أعظم امرأة فى هذه الأحياء .. لقد طلب الرجال قتل فلم يستطيعوا ..
 لأكون قتيلى ، سأقتل نفسى بيدى ، وقولى أنت لمن يسألك إنك قتلتنى لتدافعى عن شرفك
 فأنقذته .. فاذهبى أنت إلى السعادة فى ظلال زوجك وحسبى أنا من الأيام ذكريات الصبا التى
 عشت بها ولها حتى اليوم ..
 وما أن يكمل حمدان قوله حتى يغرس الخنجر فى قلبه فى سرعة خاطفة وتذهل لمياء عن
 نفسها .. لا تعرف ماذا تفعل فيسارع حمدان قائلا فى حشجة :
 - أسرعى بالهرب .. أسرعى قبل أن يأتى أحد .. أسرعى .. واذكرينى ، اذكرينى أننى
 قاتل وسفاك وقاطع طريق ولكننى .. أحببت .. ووفيت ومنعت اسمك أن يلم به السوء ..
 وركعت لمياء إلى جانب حمدان فى لهفة ملتاعة :
 - لماذا يا حمدان .. لماذا فعلت هذا بنفسك ؟ ! إنما أردت بكلامى أن ترجع عن طريقك

هذا .. أنا هي لمياء التي عرفتھا يا حمدان .. فارجع إلى الحياة لتعيش شريفا نقيًا كما
عرفناك .. حمدان .. حمدان .

وجرت دموع لمياء غزيرة على وجه حمدان .. دموع فيها حب قديم ، وفيها حزن جديد ،
ولكن حمدان لم يحس بحب أو بحزن كان قد ترك الدنيا بكل ما فيها من مشاعر ..
وخرجت لمياء تنفذ ما أمرها به حمدان في زهول حائر ودون أن تحس ولت وجهها إلى منازل
أبيها ، وما يأتي الصباح من الغد حتى تكون قد رجعت إلى الحى تقص عليهم ماكان من
حمدان .. لم تقل إنها قتله بل روت الحقيقة كما هي .. وكأنما أرادت بها أن تنال من قلوبهم
الغفران للذى غسلت دماؤه خطاياہ ..

لقاء ولا وداع

هو - وحدك ؟

هي - وحدي .

هو - ونجيبني ؟

هي - وأحبك !

هو - وأنت على هذا الجمال الأسر ، حتى ليخيل إلى أنك صنعت جسمك بيدك ، أوليخيل إلى أنك مكثت في عالم الغيب أجيالا عدة تسألين الله أن يخلقك نوعا وحدك من الجمال ، فسمع سبحانه سؤالك وأجاب سؤالك ، فكنت على ما أرى الآن لونا فريدا من الجمال بلا شبيه ولا قرين ، بل إليك حتى في رفيع سمائك لا يليك من ألوان الجمال تال ، فسمائك شاهقة الرفة ، قريبة كل القرب من بارئك ، وسموات الجمال الأخرى بعيدة عنك كل البعد ، فكأنما هي الأرض منك إن جاز لي أن أقارن .

هي - شاعر أنت ؟

هو - لا شأن لك بي . . أجيبي أيت . . كيف أمكنت أن تكوني على هذا الجمال ؟ . . ثم كيف خرجت به غير مستور إلى الطريق وحدك بلا رقيب عليه عات شديد ؟

هي - أخيرة ولم لتعارف ؟

هو - إنما هو عجب . . أليس لك زوج ؟ أليس لك محب ؟ هل بلغ العمى بالعباقره النابغين وبالأغنياء واسمى الغنى إلى حد أن واحدا منهم لم يرك فيلقى بجبهته عند أقدامك عابدا مكبرا ؟

هى - بل هناك من كان يفعل ذلك .

هو - كان ثم لم يعد .. فعزاء ياسيدتى .. وهل مات منذ عهد قريب ؟

هى - بل إنه مازال حيا .

هو - حيا ويتركك تخرجين وحدك ؟ حيا ويجعل منك هذه الشقية التى تجيب أول متحدث إليها ؟ حيا !! لعل أنفاسا تتردد فى جسمه بين ذهاب وأوية ، ولعله يسير ويأكل ، ويشرب ، وينام . ولكننى مازلت مصرا على أنه مات ، هو ميت وإن كان يملا الدنيا بالحياة !

هى - وأى عجب فى ذلك .. ها أنت ذا وحدك .. وأنت جميل ، ألسنت حلو الحديث ، وحدك أرى وحدتك على وجهك ، وأراها فى حديثك المنافع الطويل الذى آده الصمت الطويل . وحدك أكاد لم أر شخصا يحيط به كل هذه الوحدة التى تحيط بك .. أليست لك زوجة أو صديقة تلقى إلى واحدة منها هذا الحديث الذى ألقته إلى الآن ؟

هو - أنا ياسيدتى لا أزوق لك الكلام تزويقا ، ولا أختلقه اختلاقا ، وإنما رأيته وحدك فأخذت جمالك ثم حادثتك فأجبتنى فأخذتنى وحدتك .

هى - وحدة أحاطت فخرجت أبدها فكنت أنت .

هو - فهى وحدة طارئة !

هى - بل وحدة دائمة ستمتها فجزيت أمرى على هجرانها .. وأنت ؟

هو - وحدة طالما تمنيت أن أبديها فجزيت ، وكيف كان يمكن أن أبدها ؟ إننى أبعد عن امرأة ، وأريدها جميلة ، أراها فأرى سعادتي فى وجهها ، وأريدها ذكية ، أحادثها فيعود إلى حديثي يحمل منها فهما وعطفا وهوى ، والنساء يا أخت الوحدة : إما ساقطة تعرضن أنفسها فى السوق ، وأنا لا أشتري أخوتى فى الأدمية ، أو جميلة لها زوجها أو عطيها فلا أمل لى فيها ولا رجاء ، أو قبيحة لا بد أن أروض نفسى على قبحها ، وبحسبى من الشقاء وحدتى فلا خير لى عندها !! كذلك كنت يا أخت الوحدة قبل أن ألقاك !! وأقسم بالفنان الذى أبدهك ما كلمت واحدة قبلك دون تعارف ، وأقسم ما هممت بذلك حتى رأيته فقلت انطق ، فإن صمتت فلا أحد يرى خزيى ، وإن تكلمت ..

هى - هه .. وماذا إن تكلمت ؟

هو - الحقيقة أننى لم أفكر فيما يكون عليه الأمر لو تكلمت .. فما كنت أتوقع أن تتكلمى وإن نطق القدر .

هي - ولكن هذا اليأس يحيط بك طارئ ، فأنا لا أعتقد أنك تحيا فيه طوال يومك لا بد أنه ابن ساعة ثم يمضي .

هو - ابن ساعة ويمضي ولكن كثيرا ما يعود ، يعود زاحفا بالوحدة والضيق ، فأرى نفسي وأنا بين الجموع منفردا .

هي - أنت متزوج ؟

هو - نعم .

هي - وزوجتك ؟

هو - كنت أحبها حتى تزوجنا .

هي - فكرتها ؟

هو - لا وحقت فما عرفت الكره يوما ، ولكني أصبحت أرى فيها الشقاء ، ان بلغ الشقاء ذروته .. جامدة كالقدر ، أنانية كالحيوان ، لا شأن لها ولا يهمها أين اضطرب في هذه الحياة ، كل شأنها أن تطلب فاجيب ، فلا شكر ولا حمد ولا ثناء ، ولا هي حتى تحبس سوء نفسها أو لسانها .

هي - كانت تلك حالك يا مسكين .. !!

هو - ولا تزال .. صدر لي ديوان شعر عدت به إلى بيتي فرحا .. أول كتاب يصدر لي ، أعطيته لزوجتي فوضعت جانبا وراحت تستجوبني في كل حقير تافه من أمور فتركتها وخرجت لا أدري أين طريقى ؟ هيه يا أخت الوحدة لقد بحث لك بكل شيء ..

هي - بل ليس بعد .

هو - ماذا ؟

هي - فيم يدور شعر ديوانك ؟

هو - رعاك الله يا أخت وحدتي ، إن زوجتي لم تسألني ما سأله الآن .. لا عليك وأخبريني أنت فيما خروجك وحدك وجمالك معجزة والليل أسود والذئاب كثير ؟

هي - أكبرته فتزوجته فاحببته .

هو - ما أسعدك !! حب يقوم على الزواج .. حب دائم .

هي - كان ذلك .

هو - ثم ؟ ..

هى - ثم راح الناس يمتدحون له جمالى فغاظه ذلك وأصبح يرى أن من يمتدحنى إنما يقصد الى ضمه هو ، فهو يعتقد أنه قبيح الوجه . . كان جمالى وبالا على وعليه ، أبى أن يقنع من الدنيا بالمال الوافر والزوجة الجميلة فأراد أن يكون له من الجمال ما لم تهبه له الطبيعة ، فكفر بكل السعادة التى تحيط به وأحال حياتى وحياته شقاء مستعرا .

هو - وأية حياة تقوم بينكما ؟

هى - لا حياة بيننا . . هو فى عمله طول يومه ، فاذا عاد عند المساء فالضيق والضجر واللؤل من السخط وأفانين من العذاب . . الزوجية بيننا هى هذا العذاب وليس فى حياتنا من معانيها إلا الشجار المستمر والغضب المتلاحق .

هو - أشبهت حياتك حيان . . مسكينة !

هى - أومثل هذه حياة ؟ . . إنها الموت .

هو - بل الموت خير منها . . فإننا عند الموت لا نختلف ولا نحترق فى كل يوم مرات وإنما عند الموت لن نجد أجسامنا تلك تطالبنا بحقوقها بعد أن احترقت .

هى - فخرجت أنتقم .

هو - ولهذا خرجت أنا .

هى - أنتقم من زوجى الذى جعل شبابى شيخوخة ومن نعمة جمالى نقمة ولعنة . . أريد أن أنتقم .

هو - وأنتقم أنا من زوجتى التى قتلت أحلام صباى ، ورؤى شبابى ، وصرعت كل نجاح لى فى ضجيج سخطها وتفاهة رغبتها . . لن نهدى شخصا صالحا لتحقيق انتقامك مثل أنا .

وشع فى عينيها وميض كالشر الساطع وهى تقول :

- أظنك على حق .

فأحاط هو ذراعها بذراعه وهو يقول :

- بل لى على حق .

- وماذا تريد ؟

هلم بنا .

وسار الاثنان شعلتين من الانتقام والرغبة تشقان طريقهما إلى الحريق ، وكان الطريق طويلا ، وكانت الثورة فى نفسيهما تبحث عن الطريق الطويل ، وراح الحديث يتحدر بينهما فى

قوة عارمة ، ثم ما لبث أن أصابه بعض وهن ، فاذا هو حديث طبيعى بلا رعد ولا نيران ولا وعيد ، ثم انتهى آخر أمره الى حديث هامس حلو يدغدغ الأذن والقلب والعقل ، وراح الناقمان يسكب كل منهما على صاحبه أسلوبا من الفهم الهادى الواعى ، فترتاح نفس كانت ثائرة ، ويهدأ مضطرب كان راعدا ، ويسيران الطريق . . طویل طريقهما ، ولكنه لجوى بلا غزل ، وأفكار معربة بلا لذة ووهج أحمر يحف به ، ولكنه وهج النار وليس وهج النور . الحديث بينهما يتصل بكلمة أولا يتصل ، لم تسله إلى أين ، فقد كانت الأمكنة جميعها تستوى ، أما هو فقد كان يعرف طريقه ، وإن كان يسلكه لأول مرة ، إنها شقة صديقه التى طالما دهاه إليها أغراه بأن مفتاحها عند الباب متروك لأقرب الأصدقاء . وعند البواب قائمة طويلة هؤلاء الأصدقاء الذين يسمح لهم باستعمال المفتاح وهو أول هؤلاء الأصدقاء .

نعم إنه يعرف طريقه .

وبلغا العماره وسألا البواب عن المفتاح فأخذاه وصعدا وفتحا الباب ثم أغلقاه عليهما . . منفردين .

قلبت هى عينيها فى المكان ، وأمعن هو فيها النظر . ثم جذبها إلى صدره فى عنف لم يكن بحاجة إليه فقد ألقت هى نفسها إلى صدره ، ولفف شفتها فغاصت هى فى أعماق قلبه تريد بها أن تنجو من عذاب زوجها وأيامها وجمالها وضميرها . وأحسن هو الشفاء اللاهية ، ولكنه أحسن هيب انتقام لا هيب للذة ، وأحسست هى شفاها الملتهبه ، ولكنها لم تحس اللذة فى هذا اللهب وانفرجت الشفاء وتباعد الجسمان رويدا ، ثم ألقت بنفسها إلى كرسى وهى تقول :

— أحسن راحة . .

فقال وهو يراوغ فى الإجابة :

— بل ليس بعد . .

— بل إلى أحسن راحة ورضا . .

— إننا لم ننتقم من حياتنا بعد . .

— أما أنا فقد انتقم . .

.

— لقد انتقمتم بحديثى إليك ، وقد كنت أحسب أنى واجدة جديدا اذا ما جئت إلى هنا . . لا . . لا جديد . . لقد استرحت ، وانتقمتم . .

ويقول الشاعر مستخزيا :

- واني وثقه مثلك ، لقد ارتحت بحديثي إليك وانتقمت ، وما عدت أرجو بعد ذلك
لذة ..

أترى .. لم تبق لنا لذة .. لقد انتقمنا بالحديث ، وبالحديث بلغنا أقصى غايات اللذة ..
فما بقاؤنا الآن ؟

- نعم .. ما بقاؤنا الآن ؟ ..

فهلم ..

- إلى أين ؟

أنت إلى طريقك وأنا إلى طريقي ..

- بلا ...

- بلا شيء على الإطلاق ..

- ولا وعد على اللقاء ؟

- ولا وعد ..

- ولا وداع ؟

- ولا وداع ..

- فما في الوداع ؟

- فيه أنك ستقيم منه رؤى وخیالات ، وفيه أننا سنغدق عاطفة لعلها الآن تهم
بالظهور .. فسلاما ولا وداع ..

- سلام .. ولا وداع ..

وعند الباب الخارجى فوجيء البواب بالشاعر يلقي إليه المفتاح إلقاء ، ثم فوجيء به بميل
بينما يميل صديقه شمالا ، ويسيران بلا تحية ولا سلام ولا وداع ..

فوق السعادة

المنظر : حجرة معدة للجلوس اليومي ، أثاث أنيق في غير بذخ ، يجلس عليه الاختان ثريا وأمينة .

ثرىا .. أنت التى دائماً تغلطينى ..

أمينة - والله يا أختى أنا أقول الحق ، وطبعاً أنا أسفة أن أراك دائماً هكذا ..

ثرىا - بل أنت دائماً تقولين عنى غلطانة حتى لا يقال عنك إنك تحايين أختك ..

أمينة - يا ثرىا إن المعاملة التى تعاملين بها زوجك لا ترضى أحداً ..

ثرىا - أى معاملة ؟ !

أمينة - وهل قليل أن يخرج زوجك كل يوم غاضباً ، وأن يبيت كل ليلة حزينا .. من

يرضى بهذا ؟ !

ثرىا - إنه هو الذى يخلق المشاكل ..

أمينة لنفترض ذلك ، انما واجبك أن تحمل أنت هذه المشاكل ولو أن ما أراه أنك دائماً

أنت .. وأنت وحدك التى تخلقين المشاكل ..

ثرىا - إنه دائماً غضبان لا أعرف كيف أرضيه ..

أمينة - إنه غضبان مما يرى يا ثرىا .. ماذا يفعل المسكين حين يجد نفسه .. كلها يدخل

إلى منزله .. أمام وجه كشر ، !

ثرىا - وماذا أفعل إن كان يضايقنى دائماً ؟ !

أمينة - ولهم يضايقك .. أنت تعلمين قلة موارده ، وأنت مع ذلك لم ترحميه من الطلبات .. وأقول الحق ، إنه يكلف نفسه فوق طاقتها ، وأنت مع ذلك غير راضية ..

ثرىا - وماذا أفعل في قلة موارده ؟

أمينة - أجننت !! فلماذا يفعل إذا لم تفعل أنت .. يجب أن تفعل كل شيء يعاونه في حياته .. أو يجب عليك - على الأقل - أن تخففى من طلباتك ..

ثرىا - وهل شكاك لك هو من كثرة طلباتى ؟

أمينة - لم يشك . ولكن لى عيونا ترى ..

ثرىا - ولكنه لا يكلمنى في مثل هذا أبدا ..

أمينة - فهو رجل صاحب حياء ..

ثرىا - ولكنه في هذه المرة ليس غاضبا من كثرة الطلبات .

أمينة - وهل تنتهى أسباب إغضابك له ؟

ثرىا - لقد غضب لأننى خرجت من غير إذنه ..

أمينة - «ساخرة» بسيطة !!

ثرىا - طبعا بسيطة ، نحن في القرن العشرين ، ولا بد للرجل أن يثق في زوجته ، وإلا فلانزوم للحياة الزوجية نفسها .

أمينة - وهل في استئذانك له ما يجرح من ثقته بك . ؟

ثرىا - فلماذا أستأذن ؟

أمينة - اسمعى يا ثرىا .. تأكدى أن زوجك يثق بك ، ثقة عمياء ، فهو بغير هذه الثقة لا يستطيع أن يعيش معك يوما واحدا .. ولكنه حاول أن يمنع كلام الناس ولا أحد يلومه عليها ..

ثرىا - وما شأننا بالناس ؟

أمينة - كيف هذا ؟ الناس هم كل شيء .. الشرف سمعة .. فأنت شريفة مادام الناس يرونك كذلك . أما إذا قالوا غير ذلك ، أصبحت كما يقولون ..

ثرىا - ما هذا الكلام الفارغ ؟ الشريفة شريفة فى نفسها .

أمينة - هذا هو الكلام الفارغ .. مافائدة الشرف إذا كنت - لا قدر الله - تجلسين فى

البارات وتخرجين مع غير وزجك .. الشريفة يا ثريا هي التي تحافظ على سمعتها كما تحافظ على شرفها .. وواجب الزوج أن يمنع كل كلام يثار حول زوجته .
ثريا - وهل يستطيع أحد أن يقول عنى كلمة .. والله ..

« تدخل الخادمة »

الخادمة - جواب يا سقى

ثريا - أى جواب ؟

الخادمة - جواب أرسله سيدى ..

ثريا - هاتيه يا عليه .. (تأخذ الجواب وتبدأ فى قراءته ، ولكن عينها تترقق فيها الدموع فتعطيه لأمينة) .

أمينة - خذى اقربيه أنت ..

ثريا - ...

أحببتك يوم طلبت يدك حبا أخذ على حياتى جميعا وأقسمت يومذاك .. بينى وبين نفسى .. أن أهيء لك من أسباب السعادة ما لم يتهاى لأحد فى العالم .. وكان ظنى يومذاك أنك ستنعمن بهذه السعادة وتسكين على من فيضها ما أحيا به فى أهنأ حياة .. وكنت فى هذه الأيام ذا آمال كبار ، وكنت أنت شريكى فى آمالى ، فما طمحت إلى شىء فى نفسى إلا فكرت فيها سينالك أنت من خير إذا تحقق . ثم تزوجنا ومرت الأيام فاذا آمالى كلها تتحقق الا شيئا واحدا وددت لو كان وحده هو الذى تحقق - نعم يا ثريا .. لم أستطع أن أهيء لك السعادة التى نشدتها لك فى نفسى . ولست أدرى من منا كان المخطيء فيما حدث لنا ولكنى أدرى تماما أنى لم أستطع أن أهيء لك السعادة التى نشدتها .. وإننى اليوم تاركك .. راجيا لك أن تنال يوما ما فوته عليك من السعادة ..

« ملحوظة : سأحضر الساعة ٦ لأخذ مذكراتى التى لا أحب أن يلمسها أحد غيرى ، وكل رجائى أن تتركى المنزل مدة ربع ساعة .. » .

« سامى »

ثريا - « باكية ومحاولة التجلد » حسنا مادام هو الذى فعل هذا .. أنا لايمنى شىء ..

أمينة - « وقد ظهر عليها كأنما تذكرت شيئا » ثريا .. كم الساعة الآن ؟

ثريا - أهذا وقته يا أمينة .. لا أعرف .

أمينة - كيف لاتعرفين أنه سيحضر فى الساعة السادسة .

ثريا - آه حقا .. الساعة الآن ...
« تنظر في الساعة ثم تذهل حائرة » ..
أمينة - نعم أعرف أنها السادسة لقد تأخر الساعى في إحضار الجواب .. لا بأس ..
سأحضر لك حقيبتك من الغرفة .. لتخرجى حالا ..
« تذهب أمينة ، ولكن مأكد تخرج حتى تدخل الخادمة مسرعة » .
الخادمة - سيدى ياسقى .. دخل العمارة الآن ..
ثريا - أجا ؟ « فى اضطراب » .. سأدخل فى الصالون فإن سأل قولى له خرجت ..
الخادمة - حاضر ..
« يدخل سامى متجهها » ..
سامى - أين سيدتك يا علية ؟
الخادمة - خرجت ياسيدى ..
سامى - طيب « وهم بالدخول الى غرفته فتخرج أمينة » .
أمينة - « مضطربة » أهلا سامى
سامى - أهلا أمينة ، عن إذنك ..
أمينة - تفضل ..
« يدخل سامى » ..
أمينة - أين ستك ؟
الخادمة - « فى صوت خفيض » فى الصالون وطلبت الى أن أخبر سيدى بأنها خرجت ..
يتهيأ لى ياسقى أمينة أن فى الأمر شيئا ..
أمينة - لا شأن لك يا علية . اذهبي أنت الى المطبخ ..
الخادمة - أمرك ياسقى ..
« تخرج » .. « يدخل سامى وفى يده المذكرات » ..
سامى - عن إذنك يا أمينة فأنا على ميعاد مهم ..
أمينة - اقعد ياسامى ، مازال أمامك وقت ..
سامى - لا .. أرجوك ..

أمينة - لا تخف .. أنا أعرف أنك غضبان من ثريا .. كالعادة طبعاً ، ، ولكننى لا أعرف شيئاً عن الخلاف ، فقد جئت لزيارتها فلم أجدها ..

سامى - فلماذا أقعد ؟ ..

أمينة - أكلملك ياأخى .. ليس هذا من حقى !؟

سامى - يظهر أنك لاتعرفين شيئاً عن الموضوع

أمينة - أى موضوع ؟

سامى - الذى حصل بينى وبين ثريا « يفتح باب الصالون » ولا يحس بهذا سامى ، بينما

تراه أمينة فتتظاهر بأنها لم تره .. »

أمينة - لاشأن لى بها ..

سامى - لاشأن لك بها .. أليست أختك !

أمينة - إن قلبى فوق أختى وفوق كل قوة فى الوجود « يحاول سامى أن يجيب فتندفع أمينة فى سرعة » أحبك وأنت تحبى .. إلام نظل نخفى هذا الحب ؟ لماذا لانتخلص من ثريا ؟ لماذا لانعيش نحن فى ظل حبنا .. لماذا نحرم من الحق الذى يهبه لنا حبنا ؟

ثريا - « مندفعة من الحجرة » الله .. الله .. أهله هى الحقيقة اذن « أمينة تغالب الضحك » لا .. لاتحاولى ياأختى العزيزة أن تجعليه مزاحاً فأنت تظنين أننى خرجت .. ألهذا اذن ترينه دائماً على صواب وأنا دائماً المخطئة .. وأنت أيها الزوج المخلص .. أهو حب آخر اذن ماجعلك تقلب حياتى الى هذا البؤس وأنت مع هذا لاتحجل أن تكتب لى هذا الخطاب وكأنك المظلوم المسكين !!

سامى - « مذهولاً » أقسم لك يا ثريا ؟ إن هذه أول مرة تكلمنى فيها أمينة بهذا الشكل .. أقسم لك .. أقسم لك بالله العظيم .. أقسم لك أنى برىء .. أنا لا أعرف شيئاً ..

أمينة - « منفجرة فى الضحك » أيها المغفلان ..

ثريا - وتضحكين !!

أمينة - لقد قالت لى « عليه » إنك فى الصالون ، وهذا طبيعى ، فلو كنت خرجت لقابلك سامى .. أيها المغفلان .. ان كلا منكما يحب الآخر .. وتلك هى السعادة .. إن السعادة تصنعانها بأيديكما ، ولكن الحب يصنعه الله .. عيشا معا ، وليظهر كل منكما حبه للآخر فتلك هى السعادة .. إن الحب لا يوجد إلا مرة واحدة ، ولكن السعادة تسمى وتذهب .. إن لحظة

سعيدة بين حبيبين هي الحياة .. هي الدنيا .. هي كل شيء .. الحب .. « يقترب كل من
الزوجين إلى الآخر » ..

الحب سيخلق لكما السعادة التي تنشداها « ويتعانق الزوجان » عيشا .. عيشا ..
عيشا .. فإنه الحب ..

« ستار »



الطابق الأعلى

دس عبد الله أفندي يده في جيب صديريه وأخرج الساعة المعدنية « اللونجين » التي لا تخل دقيقة واحدة ، فوجد عقاربها تشير إلى الثانية من بعد الظهر فرفع الطربوش عن رأسه في احتراس شديد ، وأخذ ينفخ فيه بكل قوته ، ومسح أركانه بكمه ثم أعاد الطربوش الى رأسه ، وثبته في مكانه معتدلاً قائماً لا يميل يمنة ولا يسرة ، ثم أمسك عبد الله أفندي بتلابيب نفسه ، وأخذ ينفض « جاكته » في قوة عنيفة ، ثم نظف كفيه كلا منهما بالآخر ، ونظر إلى « الدوسيهات » القائمة أمامه فأخذ يرتبها في عناية شديدة ، وجمع الأوراق التي كانت أمامه ووضعها في الدرج الأعلى من يمين المكتب ، فإنها الأوراق التي سيعمل فيها في صباح الغد . . ثم جمع أوراقاً أخرى ووضعها في الدرج الأعلى من يسار المكتب ، فإنها الأوراق التي تم إنجازها وستأخذ سبيلها في الغد إلى رئيس القلم . وقام عبد الله أفندي بعد ذلك ، وزرر جاكته ، وأمسك بأطرافها فجذبها إلى أسفل وأخذ طريقه إلى باب الغرفة في مشية متزنة لا هي بالبطيئة ، ولا هي بالسريعة ، وإنما هي مشية ذات خطوات مرسومة محسوبة لا تخطيء ولا تخطل ، فإن عبد الله أفندي رجل دقيق لا يخطيء ولا يخطل . .

وخرج عبد الله أفندي من الوزارة وجهته محطة الترام ، وكان مشغول الفكر إذ ذاك بهذه الدروس التي عليه أن يؤديها في يومه هذا . وكان ضيق النفس غاية الضيق بهذه الدروس التي يعطيها لصغار التلاميذ . وكان في ذلك اليوم أشد ضيقاً من كل الأيام السابقة فإنه يفكر في عمره الذي سرقته معه هذه الدروس والذي انتهبته منه هذه الذرية التي توالى عليه منذ تزوج حتى عامه الفاتئ . . ستة عشر عاماً هي شبابه . . ضاعت كلها في إعطاء الدروس ، ثم في إنفاق أجور هذه الدروس على الدروس التي يتلقاها أولاده هو ، وهكذا أصبحت حياته كلها دروساً في دروس . . دروس تهب المال ودروس تتخطف المال ، وهو بين الأخذ والإعطاء آلة

حاسبة دقيقة كل الدقة ، ولكنها أيضا آلة ذات آمال وشباب ، فهي آلة حزينة كل الحزن ! وهكذا أصبح عبد الله أفندي صارما في حياته لا يطبق فيها لموا ولا لعبا ، وهكذا أخذ نفسه بالدقة البالغة .. لا يبتسم إلا بمقدار ، ولا يضحك إلا عند الضرورة الملحة ، ولا تكون هذه الضرورة إلا عندما يلقي رئيسه في الديوان نكتة على مرأى منه أو مسمع ! ودقته هذه تلازمه في كل شيء .. في ملبسه ، في مشيته ، في عمله ، في منزله في سريره ، في بيته .. وتزداد دقته في مسائل الدين ، من صلاة إلى صوم إلى كل ما أمر به الدين ما عدا الزكاة ..

وتفرض عليه الدقة ألا يسكن من العمارات إلا الطابق الأعلى .. وتسأله عن السبب فيجيب :

« حتى لا يمر صاعد أو هابط على العيال » . « والعيال » هنا هي زوجته بطبيعة الحال . وتفرض عليه الدقة أن يصدر إلى العيال .. إلى زوجته .. الأوامر بالألا يفتح الباب بحال من الأحوال وهو غائب ، فإن طرق الباب طارق فليطرقه ولا تحيب هي ، وزوجته - رعاها الله - سيدة وقور نزحت معه من الريف ، وقد نزحت معها أخلاق الريف العفيفة . فأوامر زوجها تطاع في دقة .. دقة حازمة .. تلك الدقة التي يحبها زوجها ولا يجحد عنها أبدا .. وقد امتدت هذه الأوامر إلى أولاده .. وامتدت طاعة الأم إلى أولادها .. فالأب يأمرهم فينفذون ، لا يدرون للأمر معنى ولا سببا إلا أنه واجب التنفيذ .. ولكن أمرا واحدا لم يستطع الأولاد أن ينفذوه .. كان ذلك الأمر هو أن يكونوا أذكاء .. وكيف لهم أن ينفذوه وهم لا يفهمونه ! .. لقد أمرهم أبوهم : « كونوا أذكاء » فقالوا : « حاضر » ولكنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا « حاضر » هذه أبدا ..

وكان عبد الله أفندي يأخذ أولاده بالشدة ، فقد كان يرى فيهم لصوصا لعمره الذي أضاعه في إطعامهم ، وإلباسهم ، وتعليمهم ولكنه لم يعترف لنفسه أن شدته على أولاده مبعثها أنهم أضاعوا شبابه ، بل كان يقنع نفسه ويحاول أن يقنع غيره أنه لا بد للأولاد أن يؤخذوا بالشدة حتى ينفعوا في حياتهم .. وكذلك كان عبد الله أفندي في دينه ، فهو متعبد لأن العبادة لا تكلف صاحبها شيئا ولكنه يقنع نفسه ويحاول أن يقنع غيره أنه متعبد حبا في الدين ..

وكان أكبر أولاد عبد الله أفندي في الخامسة عشرة من عمره ، وكان أمام أبيه مثالا للطاعة العمياء ، والأدب الجهم ، والحياء المفرط ، فهو كسير العين ، منطبق الفم إلا إذا أكل ، ساكن الحركة إلا إذا أمره أبوه بإحضار شيء ! حتى إذا خلا بنفسه وبأصدقائه أصبح عرييدا لا يبارى

في عربدته فهو أضحوكة الإخوان ومسلاتهم ، وهو من يتصدى عنهم لكل عبث يمنعهم عنه الحياء !

لم يطل انتظار عبد الله أفندى للترام في يومه هذا ، فقد أخطأ السائق وجاء في مواعده وركب عبد الله أفندى محاولاً الوقار ، ولكنه لم يستطعه ، فقد وجد نفسه في وسط كومه من الأدميين تصعد فصعد معها . . وكان الوقار يقتضي أن يجذ عبد الله أفندى مكانا ليجلس فيه ، ولكنه لم يجذ فوقف مكرها وجاء «الكمساري» فأخرج عبد الله أفندى من جيبه ثمن التذكرة لا ينقص ولا يزيد مليها ، فهو يعد لكل شيء عدته ، ألم أقل لك إنه دقيق ؟

ووصل عبد الله أفندى إلى البيت وصعد درجات السلم . . أربعا وثلاثين درجة . . لقد أحصاها ويحسبها كل يوم . كأنما يخشى أن تنقص درجة ، وفتح باب منزله ونادى . .
- يا أم سعيد . .

- نعم يا عبد الله أفندى . .

وكان الجواب آتيا من المطبخ ، وكانت زوجته هي المجيبة ، فهي لم تكن تدعوه بغير « عبد الله أفندى » . . وارتفع صوته ثانية :

- أين الغذاء ؟

- جاهز . .

- أسرعى ، فالساعة الثانية والنصف ودقيقتان . .

- جاهز يا عبد الله أفندى ، جاهز . .

وخرجت زوجته من المطبخ تحمل الأكل الذي أعدته ، وجلسا إلى المائدة ، وقبل أن يمد يده إلى الطعام قال :

- اليوم يوم الاثنين . .

- نعم . .

- فأين سعيد ؟

- لم يحن بعد . .

- لم يحن ؟ كيف ؟

- الله يعلم . .

- كيف هذا ؟ .. لقد طالما نهبت عليه ألا يتأخر في الطريق .

- لعل لديه عملا بالمدرسة ..
- لا يمكن ..
- على كل حال كل أنت ولن يلبث سعيد أن يحيى ..
- وقبل أن ينفذ عبد الله أفندي نصيحة زوجته ، طرق الباب فقام عبد الله أفندي ليرى من الطارق ، وفتح الباب فطالعه شرطى طويل عريض سألته في غير مبالاة :
- أنت عبد الله أفندي عبد السميع ؟
- نعم أنا ..
- تعال معى إلى القسم ..
- القسم ؟ لماذا ؟
- ابنك محبوب ..
- ابني ؟ .. ابني أنا ؟ .. ابني من ؟
- ابنك سعيد عبد الله عبد السميع ..
- محبوب ؟ لماذا ؟
- ضبط وهو يعاكس إحدى الفتيات في الطريق العام .
- ابني يعاكس إحدى الفتيات ؟ .. لا بد أنك مخطيء ! .. هل أنت متأكد ؟
- والله ان كان في هذه العمارة شخص آخر اسمه عبد الله عبد السميع ، وله ابن اسمه سعيد عبد الله عبد السميع أكون غير متأكد .
- طيب اذهب انت ..
- وينصرف الشرطى ، ويتلفت عبد الله أفندي إلى زوجته :
- أسمعت ؟ .. رأيت ابنك ؟ .. هذا آخر تعبى وشقائى ! ابنك يعاكس النساء في الطريق .. رأيت ؟
- يا أخى ألا يجوز أن يكون مظلوما ؟ اذهب إليه أولا وانظر ماذا فعل ..
- أنا أذهب الى القسم ؟ .. ماذا أقول لهم .. أنا الرجل المحترم الذى لم أخالف الدين يوما ، ولن أخالف القانون أبدا .. أنا عبد الله عبد السميع الموظف بالدرجة السادسة أذهب الى القسم من أجل ولد ضائع يعاكس النساء ؟ والله لن يكون هذا أبدا ! ..

— وابنك ؟ تتركه محبوسا ؟ .. ابنك يا عبد الله أفندى ؟

— لا تتعبى نفسك .. لن أذهب يعنى لن أذهب !

ويتركها عبد الله أفندى باكية ساخطة حائرة ، ويذهب إلى المنضدة التى أمر بها أن تكون مكتبا فكانت ، ويأخذ من عليها حقيبة الدروس ، ويخرج تاركا زوجته ملهوفة لا تعرف ماذا تفعل ! ..

ويخرج عبد الله أفندى إلى الشارع قاصدا إلى الدرس الأول ، وكان مكان التلميذ فى أقصى الجزيرة ، فركب عبد الله أفندى ، وركب حتى وصل إلى بيت التلميذ « ماجد فتحى » النجل الأصغر للوجيه الثرى الأستاذ فتحى الدرمل .. وكان عبد الله أفندى يرجو ألا يجد والد ماجد فى المنزل ، فهو لا يطيق مزاحه فى يومه هذا ..

وصل عبد الله أفندى متقدما عن ميعاد الدرس خمس دقائق فرأى أن يقطعها بالمشى أمام الدار . ولعله لم ير فى حياته أشقى من ذلك الوقت الذى قضاه فى هذه الدقائق الخمس ! فهو جزع متألم ساخط ، غاضب من هذه البلوى التى انسأقت إليه من جراء ابنه العريد الذى يعاكس النساء فى الشوارع .. ولم يكن عبد الله أفندى متشوقا إلى شىء قدر تشوقه إلى هذا الدرس ، فهو يريد أى شىء حتى وإن كان درسا لينتزعه من التفكير فى هذه المصيبة التى حلت على دماغه فى يومه هذا ..

ومرت أربع دقائق ونصف دقيقة فالتجه عبد الله أفندى إلى باب المنزل ، وضغط الجرس ، وخرج له الخادم ولما أراد الدخول قال له الخادم إن ماجد لن يأخذ الدرس لأنه مريض .. ولما كانت هذه مصيبة أكبر من وجود ابنه فى السجن ! .. ولم يجد زوجته ليفرغ فيها غضبه فانصرف عن الخادم دون أن يلقى إليه التحية التقليدية التى عودته دفته أن يلقاها .. وقبل أن يخرج عبد الله أفندى إلى الشارع وقفت سيارة أمام الباب ، ونزل منها السيد فتحى .. وتقدم عبد الله أفندى من السيد وسلم عليه فى أدب ، وسأله :

— خيرا ؟ ماذا أصاب ماجد ؟

— لا شىء مجرد برد بسيط ولكن أمه تدلله ..

— شفاه الله .. طيب استأذن أنا ..

— بل تعال . فإنك لم تأخذ مرتب الشهر ..

— فى فرصة أخرى ..

— بل تعال .. ولماذا فرصة أخرى ؟ .. تعال .

وكان السيد فتحى قد تعود أن يمزح كثيرا مع عبد الله أفندى وكان مبعث ضحكته الأكبر ، ذلك الوقار الذى يأخذ عبد الله أفندى به نفسه ، وقد رآه فى ذلك اليوم أشد وقارا من أى يوم سابق ، فأراد أن يتتهز الفرصة ليضحك منه ..

ويدخل الاثنان إلى المنزل ، وما يكادان حتى يدق جرس التليفون فيرفع السيد فتحى الساعة ، ويقول لفظة واحدة فى صوت مرتفع هى « آلو » ، ثم ينخفض صوته إلى الهمس الخافت فما يسمع عبد الله أفندى إلا بعض كلمات .. « عندى شخصية مدهشة » .. « سأحضره » .. وينظر عبد الله أفندى حوله فلا يرى أحدا . فيكاد يظن أنه هو هذه الشخصية المدهشة ! وما يلبث السيد فتحى أن يضع الساعة ، ثم ينظر إلى عبد الله أفندى قائلا :

— انت حظك هائل يا عبد الله أفندى !

— حظى أنا ؟ !

— طبعا أنت .. سأصحبك معى فى جلسة رائعة ..

— جلسة ؟ .. أنا يا سيدى لا أنفع فى جلساتك أبدا ! ..

— لا شأن لك .. تعال ..

واختل نظام عبد الله أفندى جميعه ، فهو لا يطيق أن يرفض أمرا لوالد تلميذ له ، ولكنه يبذل محاولة أخيرة :

— يا سيدى أنا عندى دروس أخرى ..

— سأعوضك عنها جميعا ، وسأرفع مرتبك الشهرى .. ما رأيك ؟

— أمرك ..

ويجد عبد الله أفندى نفسه خارجا مع السيد فتحى ، ثم يجد نفسه فى سيارة ، ثم فى منزل ! ثم يجد عبد الله أفندى نفسه آخر الأمر مع سيدة غاية فى الجمال ! .. جمال كان يسمع عنه ، ولكنه لم يره فى حياته ! .. فهى شقراء ، بيضاء ذات عيني خضراوين ، وقوام مليء لا هو بالنعيف ولا هو بالسمين .. تماما كما يجب أن تكون ..

وينسى عبد الله أفندى ابنه الذى يرسف فى السجن .. وينسى تلاميذه الذين ينتظرونه وينسى السيد فتحى الذى يقهقه قهقهة عالية صاخبة .. ينسى كل شئ ولا يذكر إلا أنه أمام جمال صاعق لا يمكن للعين أن تظل ناظرة اليه ، ولا يمكن للعين أن تنصرف عنه .. ويضحك هذا الجمال من منظر عبد الله أفندى ، وقد زادت الدهشة استدعاء الضحك ويتكلم هذا الجمال :

— مالك ؟ .. أقعد .. مالك لا تتكلم ؟

فيجيب عبد الله في ارتباك شديد :

— نعم .. نعم أقعد ..

وتبدأ الجلسة ، وتأت السيدة الشقراء بالخمير ، وحيث يفيق عبد الله أفندى إلى نفسه قائلا :

— ماذا ؟ لمر ؟

— لا .. « ويسكى » ..

— أنا لا أشرب الخمر يا سيدى ..

— لأجل خاطرى ..

— لا يا سيدى ..

— خاطرى أنا .

— اشرب ..

ويشرب .. وتنفك عقدة لسانه فيتكلم عن دفته في الوزارة وعن أعماله كلها ، عن جهاده وعن ذكائه ، وعن لباقة ، وكلما تكلم ضحك السامعان ، وكلما ضحكا ظن أنها معجبان به ..

وفجأة سأله الغانية :

— قل لى يا عبد الله أفندى .. هل أنت متزوج ؟

— نعم ..

— وهل عندك أولاد ؟

وما أن يسمع عبد الله أفندى هذا السؤال حتى ينخرط في بكاء شديد !!

ويذهل الجالسان ! ولكنه لا يبالي دهشتها ، ويقوم المخبول مهرولا إلى باب الشقة وينزل في سرعة مجنونة إلى الشارع لا يجيب الأسئلة التي تلاحقه .. وما أن يلمح أول تاكسى حتى يناديه وهو ما يزال يبكى ..

وقبيل المغرب كان عبد الله أفندى يسير معتمدا على ولده سعيد ناسيا كل شيء عن دفته .. فخطواته مضطربة تسرع حيناً وتتمهل حيناً ، ووجهه مضطرب يبتسم حيناً ويعبس حيناً ،

وحديثه إلى ابنه مضطرب ، ولكنه لا يعتف في هذا الحديث أبدا ، ولا يلقي فيه بأوامره وإنما هو حديث سلمى ، ميسور ، ولكنه مضطرب .

وصعدا معا إلى الطابق الأعلى دون أن يعد السلام ، ودون أن يراعى أى رقم فى صعوده ..

ومنذ ذلك اليوم لم يذهب عبد الله أفندى الى منزل السيد فتحى أبدا .. ومنذ ذلك اليوم تعلم عبد الله أفندى ألا يلقي لأبنائه بالأوامر الصارمة ، وإنما هو يناقش ويبحث ويفهمهم ما يريد فى غير صرامة ، وفى غير عنف ، وفى غير دقة ..

حنان وهوى

كان الليل قد مد ظلاله على الصحراء ، وكانت الخيل قد أضناها طول السفر ، وكان الرجال قد هد المسير أجسامهم فهم أشباح تسير تعلقت أبصارهم بالأفق ، والأفق عنهم مستر قد أسدل دونه المساء غلالة سوداء داكنة فهم لا يبصرون موضع الخطو من خيولهم ولكنهم مع ذلك يلقون إلى الأفق أبصارهم . وكان زعيم الركب « إياس » صامتا لا ينطق ، تحيط به المهابة ويلتف به الإجلال ، يغضى عنه أصحابه فتصمت ألسنتهم لاتبين عما مسهم من نصب . كان إياس فى صمته هذا وغموضه أشبه ما يكون بقطعة من الليل الذى أدركهم ، كان قوى الاحتمال صلب العود ، رمحه فى يده يشرعه إلى السماء ممسكا به فى تحد فكأنما هما معا تمثلان من الصخر قده فنان من الإغريق ..

• وطال الصمت واشتد الظلام وازدادت الجوعاء وفرسانها نصبا ، ولكن الطبيعة تأبى هذا الصمت ! ولا تحفل بقوة إياس أو صلابته أو جلاله ، فما يلبث القمر أن يرتفع رويدا من أقصى الأفق فيرى إياس رفاقه وقد مالت أعناقهم ، وانحنى ظهورهم ، وما يلبث أن يرى الخيل وقد تعثرت خطاها واضطرب مسيرها ! فيدرك حيثل أنه قد أن له أن يتعب وأن يروح إلى رفاقه ويشعل النار ليصطلوا بها ويأذن لهم فيسمروا معه ، فقد كان دأبهم معه ألا يبدأوا حديثا لم يبدأه هو . . فاذا طاب له أن يسمر فهو فرد منهم يبيع لهم أن يظهره على خافية أنفسهم وأن يسأله فيجيب عن خاصة شأنه ..

وأشار إياس إلى الصحاب وما هو إلا بعض الحين حتى كانت النيران تشق الليل عن ضياء . وألقى القوم أجسادهم على رمال الصحراء فأتاحت لهم مهادا ليأكلوا صلبا يريح الجسم ولا يلقى فيه الكسل ، وقال إياس :
— تعبتم اليوم يارفاق ؟!

فقال أحدهم :

- أجل وريك قد مسنا التعب !!
- فماذا تشاءون .. نوما و سمرأ ؟ ..
- بل سمرأ فما نظن النوم ليسعى الى أجفاننا ونحن على هذا الإجهاد
- ففيم تريدون أن تسمروا ؟
- أتريد أن تسألنا عن شؤوننا أم نسالك نحن ؟
- بل يسألكم أنا ..
- ولماذا لايتيح لنا أن نسالك فانت نخفى عنا مالا يجوز إخفاؤه عن قوم هم أقرب الناس إليك ؟
- فاسألوا إذن ..

- نراك لاتب النساء ولا تميل إليهن !! فإن عرضت لك إحداهن صرفتها عنك وانفلت
- إلى سائر مشاغلك ، وأنت الرجل في زهرة الفتوة ، وريعان الشباب ، ويريق العمر !! فمق
- يتصل أسرك بامرأة إن لم يتصل اليوم ؟
- وأطلق إياس تنبيذة لاهية ، وتراقصت في عينيه فمزع سترها الليل أن تبين وقال :
- من أحب الناس إليك يا قاسم ؟
- لا أفهم سؤالك . أيمن تقصد ؟ ..
- أقصد النساء جميعا ..
- من جميعا ؟
- من جميعا .
- وتدخل فيهن أمى ؟
- نعم ..
- فأمى أحب النساء إلى ..
- فتلك هى المصيبة عندى يا قاسم .. لكل رجل أم بدأ بها حبه للنساء .. أما أنا
- يا قاسم !! أما أنا فلا أم لى ..
- لا أم لك ؟ !

- مات أبى وأنا طفل لأعمى وتزوجت أمى رجلا قاسيا لا يرحم ! فكانت تعينه فى قسوته على ، ورأيت على وجه الأم أقسى صور الحياة !! يهون الخطب يا صديقى إن نزل بك من عدوك ، وقد تحتمله ان أذاك ممن لاتعرف ، وإنه يوجع ان وجهه إليك صديق .. ولكنه لا يهون .. لا يهون أبدا يا أخى إن أنزله بك من تلتمس من عنده الرحمة والحنان !! وهو قاتل يا أخى إن كان من أمك ! عرفت النساء أول ما عرفتهن على يد أمى القاسية هذه . فكرهت أمى

وكرهت فيها النساء جميعا هكذا يأخى عرفت النساء وهكذا صرت معكم .. أقطع الطريق
الآمن على سالكيه ، لارحة تأخذنى ، ولاضمير يردعنى ، ولاوازع من خبز يقعدى ، ومن أين
لى بهذه المعانى وقد سمعتها سماعا ولم أرها ؟ !

— بل أنت والله رقيق تسبق رحمتك شرك ، ويدرك عفوك بطشك ..
— أترانى هكذا ؟ لعل القسوة التى رأيتها فى أول العمر مست قلبى بشيء من الرقة ..
حدثتك عن نفسى يا صاحبى فأطلت وأماننا الصباح ملء بالعمل فهل لعل هجمة من النوم
تعيد إلينا بعض النشاط ..

ونام القوم والقمر يأخذ سبيله إلى المغرب ، وصحوا والشمس لم يبد فيها إلا شعاعات
ضئيلة كحمرة فى عين أصابها من السهر كلال ..

وركب إياس وركب صحبه وماكادت الخيل تسير حتى لاحت لهم قافلة ضخمة وما أسرع
مأمر إياس صحبه أن يتواروا خلف أكمة على الطريق ! فما أن بلغت إليهم القافلة حتى خرج
إياس وصحبه وأحاطوا بالقافلة فما أبدت مقاومة بل سلم رجالها النساء والمال . وكان بالقافلة
هودج ضخم أناخ به الجممل وخرجت منه امرأة رائعة الجمال بيضاء يشوب لونها حمرة ..
خرجت عاتكة وهى حائرة تحمل على صدرها الذهب والياقوت وليس فيها من جراحة إلا
يكسوها من الذهب وكريم الأحجار ما لا يقدر بثمن . ورأت رجلا أمام هودجها فسألته :

— بربك من رئيس هؤلاء القوم ؟

وأجاب إياس وقد أخذ بجياها :

— أنا .. رئيسهم ..

— أحقا ماتقول ؟ !

— إنه الحق ..

— فإنى لاجئة إليك لائذة برجولتك ، وإنى بنت الأكرمين ، خذ الأموال فلا تبق منها
شيئا .. خذ ما أحمله منها وما اقتنته ولكن حريقى ياسيدى .. لاتسلبنى حريقى ياسيدى فما
عرفت الأسر وما أظننى أطيعه .. أترك ترد مستجيرة بك لائذة بكرمك عائذة برجولتك ؟

وأخذ إياس بهذه المرأة التى تلجأ إليه ، وسره أن تتوسم فيه خيرا وهو يقود عصاة وأحب
أن يشكرها على هذا الخير الذى توقعته منه ، وأوشك أن يذكر أمه وما قاسى منها .. ولكن أين
هذه من أمه ؟ أين عينا أمه القاسية من هاتين العينين المسترحتين ؟ أين شفتا أمه المزومتان
لاتنفرجان الا عن الاساءة من هاتين الشفتين المنفرجتين هونا ترتعشان وتتهفان فى طلب
الرحمة .. لا .. انه لاصلة بين أمه وهذه .

— من أنت .. وما اسمك ؟

— أنا عاتكة بنت حويطب ، أبى يكرم الجار ، ويحبر اللائد ، ويعين على الزمان ، مارد
قاصدا اليه ، ولا قصر فى معروف .
— اذهبى يا بنت الكرام .. طليقة أنت و طليق مالك .
ثم التفت الى اخوانه فقال لهم :
— هبوا لى هذه القافلة .
ووهب الرفاق القافلة لإياس ، وسألت عاتكة عن إياس فعرفته ومضت دون أن تشكره
بغير نظرة لقيها إياس بقلبه فنغذت الى الأعماق واستقرت ..
وكان الأمير مايزال يبحث عن إياس وعصابته ، وكان جنده فى اثر إياس يريدون أن
يأخذوه لأمرهم ليحكم فيه حكمه ويرى رأيه ، وكأنما أراد هذا اليوم الذى أطلق فيه إياس
أسيرته أن يثبت فى حياة إياس فلا يزول أثره .
ما كادت القافلة المطلقة تغيب وما كاد إياس وجاعته ينفردون بالصحراء حتى أطبق عليهم
جند الأمير من كل صوب ، حاربوا .. ولكن أين الجماعة من جند الأمير ..
ومثل إياس أمام الأمير ، قطعة من العجز والاستخذاء ، أسفا ! كسيف الوجه ، حطيم
السيف لم يبق فيه من إياس الأمس بقية ، إلا من قوة الشخصية لمحة وإنما هو راعى يستجدى
العطف وقد كان يمنحه ، ويسأل الشفقة وقد كان يمتتها ، ويلتمس الغفران وما كان يعرفه ،
بقية رجل ! بقية باقية من إياس الأمس الذى كان يملأ الصحراء عفا وقهرا وجبروتا ! بقية هى
الجسم بلا كرامة ، وهى الدماء بلا عزة ، وهى المشاعر بلا حياة ..
وفى زاوية من زوايا الحجرة ألقى به الحراس كقطعة من الحمل وشاء الملك أن يزيده ذلا فما
التفت إليه ، بل هو ينظر فى أمور دولته يقيم من أمورها ما شاء ويصرف من شئونها ما يبغي حتى
إذا فرغ ولم يبق له من عمل يعمل به ، التفت إلى إياس فى ازدراء مهين ثم رفع نظره وقال
للحراس :
— لماذا جئتم به الى هنا ، ألم أمر أن تلقوا به الى السيف .
وامتقع وجه إياس .. وراح الحراس يتهايمسون يلقى كل منهم التبعة على صاحبه ،
ونحس إياس صوته بكلمات تحركت بها شفتاه بعض الحين حتى استطاع آخر الأمر أن يكتمل
الصوت هونا ويخرج إلى الفضاء ليبلغ مسامع الأمير ..
— ألتمس عفوكم يا مولاي ..
— أى عفو تريد وقد كنت تملأ الصحراء رعبا ؟
— يعلم الله وحده ماعدوت على وحيد ، ولا قسوت على فقير ..
— ومال الأغنياء ، أظننت نفسك إله تقسم الأرزاق ؟
— رضعت يا مولاي الحقد وأنا طفل صغير — كرهت أمى فكرهت الناس جميعهم .

- وماذا جنى الناس حتى تصيبهم بيلاتك ؟
- سعد الناس وماسعدت ، ورأوا العطف وذقت الهون ..
- فشارك الناس سعادتهم وانس حقدك . اعمل في شريف الاعمال تنل السعادة التي تبغيها ، أما أن تسرق وتتهب وتقطع الطريق الأمن على سالكيه فهذا اغتصاب للسعادة .
- والسعادة لا تغتصب أكنت حين تنام وتخلو إلى وسادتك ونفسك تحس أنك أبلغت نفسك منها ، ونلت من السعادة ما فقدت ؟
- شهد الله يامولاي .. لا ..
- فأى سعادة تلك التي تراهى وتهرف عن فقدانك لها . أنت لص ، خرج عن أوامر الدين ولا بد من عقابك .
- مولاي ، ان الله يقبل التوبة فوالله الذى خالفت أوامره والذى ما أشركت به يوما لو لم يمك بك جنودك لكنت الآن في موقفى هذا منك أطلب العفو تائباً راجعاً إلى الله ..
- وأى جديد قد ألم بك حتى تسلم نفسك بلا جنود ؟
- عرفت طريقى إلى السعادة الحققة يامولاي وقد كنت موشكاً أن أسير فيه ..
- وما الذى منعك ؟
- جنودك يامولاي .. توى أمامك الآن تخالها منبعثة من الخوف والله لا يبعثها إلا خوفاً من أن ألقى الله بلا توبة في الحياة .
- ايه إياس .. لا تخش هذا فان الله يعلم ما في القلوب ، وأما نحن لما نعرف غير الاعمال الظاهرة فإن قتلنا الآن فالله سبحانه وتعالى سيقبل توبتك في الآخرة ..
- انه سبحانه يقول إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، وانى يامولاي أتوب الآن ، وما كفرت بالله حتى أعود إلى الايمان ، وأما العمل الصالح فكل رجائى يامولاي أن تتيج لي الفرصة أن أعمله ..
- ما أرى إلى ذلك سبيلاً ..
- هبى لي الحياة يامولاي أعمل صالحاً قبل لقاء ربى .
- ألم تعمل في حياتك عملاً صالحاً ؟
- لعل يامولاي عملت ، ولكنى أتبع الحسنة بالسيئة والسيئات يامولاي يذهبن الحسنات .. مولاي هب لي الحياة ، تمه للمحياة انساناً نادماً على شر أو غل فيه ، مقبلاً على خير يهفو إليه ..
- وحياة الأمنين الذين روعت وأموال المسافرين التي نهبت ..
- إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ..
- وماذا أقول أنا لربى إن لقينى عافياً عن مجرم .. صافحاً عن لص ؟ ..
- الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ..

والتفت الأمير الى حراسه يقول لهم :

— ألقوا به فى السجن ..

وألقي إياس إلى السجن ينتظر الحكم عليه ، هكذا المصير ! لم يجفل من السجن ولم يخف فقد كان يرى فيه إحدى نهايتين لطريقه الذى اختاره لنفسه من الحياة ، كان يعلم أنه طريق لا بد أن ينتهى به إلى السجن أو إلى الموت . وقد كان السجن أقرب النهايتين وهو ذا فيه . ومن يدري لعله يؤدي به إلى الطريق الآخر ، فيجمع النهايتين فى واحدة والأمر لله من قبل ومن بعد ..

هكذا كان يفكر إياس حين دخل السجن يحمل كيسا مليئا بالمال وسأله إياس :

— ماذا تريد ؟

— امرأة تريد أن تلقاك ..

— تلقاى أنا ؟ ..

— نعم .. لقد رفضت أن أدخلها إليك ولكنها أعطتني هذا الكيس وبه مائة دينار ، ولم أر فى حياتي حجة مقننة مثل هذا المال الذى أحمله الآن .. مائة دينار ياسيدى ، إنها ستلغاك ، ستلغاك حتى وإن رفضت أنت أن تلقاها .

— ومن هي ؟ ماشأنا ؟ ماذا تريد ؟ ..

ولم يلتفت اليه السجن بل قال للمرأة :

— ادخلي ياسيدتى .. هذا هو طلبتك ..

ودخلت المرأة محجبة لا يبين منها شيء ، وما انحسر القاب عن وجهها حتى عرفها إياس .

— عاتكة ! ماذا جاء بك إلى هنا ؟ إلى فى السجن والعيون راصد لوراك أحد فأبلغ

الأمير أو أبلغ أباك فماذا أنت قائلة ؟

— وماذا يمكن أن أقول ، أسمع أنك سجين ولا أسارع إليك ؟ فلست اذن بنت الكرام .

— شكراً لله يا عاتكة .

— قد جئت بك بيباب وطعام ، وجئت بك بمال حتى لاتقف بك قلة المال أن تعطى السجن أو

من تشاء ..

ورأى إياس فى عاتكة الرحمة التى لم ينلها من أمه ، وهاجت إليها فى نفسه نوازح لا يدري كمها .. أمى خب ؟ ومن أين له أن يدري الحب ولذته ؟ أمى إذن عواطفه نحو أمه لم نجد أما فجاشت إلى هذه الفتاة فى ربيع العمر ؟ ومن أين له أن يدري عواطف البنوة إلى الأمومة ؟ فما هذه الصبوة التى ترقى فى مشاعره وما هذا الخفق الذى يأخذ بقلبه ، وما هذا العجز الذى يمسك بلسانه ، أهكذا الحب ؟

- لا تخف من أمرك شيئا يا إياس ..
- أنا لا أخفى شيئا ..
- هيه إياس .. لعلك تريد أن تبوح لى بشيء ..
- هيهات .. وكيف لى أن أبوح ، وأنا بين يدي الغيب لا أدري ما يحمل لى فى غده أمونا
- أم عيشا الموت خير منه ؟ هنا من وراء الحياة مع الحديد والقضبان .. بماذا أبوح يا عاتكة ؟
- قل ما بنفسك ودع الغد يأتى بما يشاء ..
- بربك يا عاتكة لا أطيق ، إن قلت ما أريد فأنا بين اثنتين .. إما أن تمحبينى فلا والله
- لا أطيق العيش بعدها والعقد فى قدمى لأطير إليك ، وأما أن تمنعني فتزداد نفسى كرها لنفسي ،
- ولا والله لا ألومك إن أنت أقصيتني عنك ، وإن قاطع طريق .. لص أضعت حياتي فى رمال
- الصحراء ..
- بروحى أنت يا إياس .. لا تغفل شيئا ، وعهد الله بينى وبينك لا أسمع منك شيئا إلا
- وأنت طليق ..
- وأخذت عاتكة سمعتها إلى الأمير وكان وجهها مقربا إليه فها وقفت بالباب حتى أذن لها الأمير
- وبين يديه وقفت ..
- أيها الأمير .. أحمل إليك توبة ، وأنت ظل الله فى الأرض فاقبل التوبة ترضى الله ..
- توبة من ؟
- توبة إياس ..
- وما شأنك به ؟
- وقصت عاتكة على الأمير ما كان من إياس حين هو فى الصحراء وحين هو فى السجن ..
- كانت تروى قصتها وجسمها ينتفض من الألم ولسانها يهدير وكأنها تروى لنفسها فها أن انتهت إلى
- نفسها واقفة فى رحاب الأمير وقد يبل الدمع لحيتة . إلا وقد انتهت من قصتها .. وأشرقت
- دموع الأمير فى عين عاتكة فها تماثلت نفسها أن تصيح ..
- عفا والله الأمير ..
- وطلع القمر على زوجين يسيران إلى الكعبة المقدسة .. هناك حيث يخلص إياس من
- ماضيه ليستقبل حياة جديد هو فيها وليد جديد .. حياة فيها رحمة وفيها حنان .. وفيها
- هوى ..

على الطريق

منذ سنوات بعيدة في مشرق يوم يمر بالناس سريعا ، كان يوم نفضت البيوت أبنائها إلى الشارع صغارا فهم أطفال تتردد الحروف في أفواههم قبل أن تصبح كلاما . . أو صبيان تعاني منهم الأمهات ما تعاني حتى يتعلموا ليس ثيابهم ويخرجوا إلى مدارسهم ، أو شباب يقفون أمام المرأة حتى لتكاد صورهم أن تنطبع على هذه المرأة ، أو فتيات ، منهن الجادات الحاسيات يرتدين ما يقرب من ملابس الرجال ، ومنهن المعجبات بأنفسهن الجميلات يمشن شعورهن أمام تارة ثم خلف تارة أو يعقسنه إلى يمين أو يلقين به إلى يسار أو هن يجعلن منه ذيل حصان أو حمار ، ثم ينتهى الأمر بالجميع من بنين وبنات ، من شباب وفتيات ، أن يلقفهم الطريق ليفضى بهم إلى حيث يجب أن يذهب كل منهم .

وقد كان اليوم هو افتتاح المدارس ، فالطلبة عائدون إلى معاهدهم وقد غمرت نفوس الأكثرية فيهم سعادة غامرة ، فهم عائدون إلى أصدقائهم وهم قد انتهوا من هذه البطالة التي استقبلوها أول الأمر فرحين مهللين والتي يودعونها اليوم فرحين مهللين فيبين الطرفين من أشهر ثلاثة فراغ طويل ، وضيق ثقيل ، فهم حائرون مع الوقت لا يعرفون كيف يقطعونه فهو يقطعهم بالملل والضجر والحنين ولو إلى الدراسة فان وسائل التسلية مهما كثرت لا تقا فراغ الشباب وهم ضجرون بهذا اليوم الذي قدر لهم فيه أن يلتقوا ثانية بمعادهم وتلك الوجوه التي لازمهم سنين ثم هى بسيلها الى أن تلازمهم سنين أخرى . .

هكذا كان أبناء الجيل يجمعهم الأمل في المستقبل وتفرق بهم مناحى التفكير إلى شتيت

المشاعر !!

ولكن فئة بعينها كانت مقبلة والفرح يغمر نفسها لا تجد بينها الحزين أو الأسف ، الأمل يشتعل في عينها اشتعالا ولو انكشفت نفوسهم لأخذ عينيك منها شعاع حافل بالنور يرمى إلى

المستقبل أضواءه ، يود لو أن السنين تقاصرت أو انحلت فيقرب البعيد ويدنو القصي .. كانت هذه الفئة هي الناجحة في شهادة البكالوريا والمقبلة على الجامعة أول إقبالها على الجامعة ذلك البناء الذي ظلوا مروا به فكان حافزهم إلى النجاح ، وباعثهم إلى روح المذاكرة وأملهم الواضح القائم أمامهم لا يحجبه غيب ولا تستريه الظنون ..

أقبلت تلك الفئة لم يتأخر من أفرادها فرد وتجمعت زرافاتهم ، كل أمام الكلية التي علق بها آماله وآمال أبويه معه .

وكانت كلية الحقوق مشجبا لأكثر الآمال ، فالواقفون أمامها من حامل شهادة الدراسة الثانوية كثيرون يخططون الإحصاء ويختلفون في تعدادهم الآراء ، حتى يخرج مسجل الكلية بالرأى الفصل والعدد الذي لا يقبل جدالا ، وإن كان يقبل الزيادة على مر الأيام . ويذهب الطلبة إلى مدرجهم وتنظم الدراسة وتنتهي الحصص .. آسف .. أقصد المحاضرة الأولى ، ويسود المرح والفرح ويقرب الطلبة إلى الطالبات ، وتعرض الطالبات عن الطلبة ، وتأتي المحاضرة الثانية ، وتتابع المحاضرات ، ويمر اليوم الدراسي ويكاد اليوم الأول من الكلية يفوت دون أن يحدث فيه جديد ، ونكاد لانخرج بهذه القصة التي تعانينا الآن لولا أن شاء الله فيلتقي خارج المدرج طالب وطالبة ثم يشاء سبحانه أن تكون القصة ..

ووفقا على محطة الترام فرحين أنها زملاء ، ولم يكونا من قبل زملاء ولم تجمعهما في يوم مدرسة واليوم جمعتها غرفة مهما تكن كبيرة متسعة إلا أنها على أية حال غرفة .. طال انتظارهما للترام ، فحدثها فأجاب ، فسخر من الأساتذة فضحكت ، فانتقد إلقاءهم فأعجبت ! فمدح بعضهم فوافقت ، فسألها اسمها فقالت ، فسألته اسمه وقال ، فأصبح حمدي وهند صديقين منذ اليوم ، وكان المنزلان متجاورين فالترام يحملهما في الصباح ويعود بهما في منتصف النهار أو أول الليل بعد الدراسة المسائية فهما على أي حال ، متلازمان في الذهاب والعودة ..

كانت صداقة .. حتى كان يوم اعترض حمدي بعض الطلبة وسأله أن ينتخب فلانا من الناس ليمثل السنة الأولى في مجلس الجامعة فقال :

- ولكني لا أعرفه ..
- ولماذا تعرفه ؟ ..
- لانتخبه !!
- وهل لابد أن تعرفه حتى تنتخبه ؟
- إنني لا أفضل خلق عند ترزى إلا بعد أن أعرف مهارته فكيف أضع ثقتي في شخصي لا أعرفه ؟
- يا أخى ما شأنك ، سنحضر لك من حزبه جنيتها .. موافق ؟

— لولا أنكم زملاء لعرفت كيف أجيب ، أما الآن فيكفى أن تعرفوا أنني لن أكلمكم بعد اليوم .

— يا أخى اسمع الكلام .. ماذا تظن أنك ستفعل بصوتك الذى ستعطيه ..
— أنا أعلم انه لن يفعل شيئا للمرشح ولكننى أعرف أنني يجب أن أحترمه ، وعلى كل حال لا تحدثونى فى هذا الشأن مرة أخرى ، بل ولا تحدثونى فى أى شأن ..

كان هذا النقاش على محطة الترام وكان حمدى ينتظر هندا ، وكانت قد جاءت ولكنها لم تشأ أن تشعره بوجودها ، حتى ينتهى من حديثه مع هؤلاء ، ثم مرت الأيام فأكملت ستين وحمدى كما هو يحترم نفسه ، يعلو عن الصغار ، يقتنع بالرأى فيدافع عنه أقوى ما يكون الدفاع ، ويعارض رأيا فيحاربه أقسى ما تكون الحرب !!

لم يكن حمدى جيلا ، بل لعله كان أقرب إلى الدمامة ، ولم يكن غنيا ، بل هو إلى الفقر أقرب فكانت هند لا تفكر فيه الا قدر ما يفكر صديق فى صديق آخر يعجب به ويشته إعجابه على مر الأيام ..

وفى يوم وجدت هند حمدى فى حال من الاضطراب الشديد فسألته فلم يملك نفسه أن يجيب فى حدة :

— آسف يا هند ، لن أذهب معك اليوم إلى المنزل ..
— خير إن شاء الله يا حمدى ؟ !
— كنت أود أن يكون خيرا ، ولكن للأسف إنه الشر الذى ليس بعده شر ..
— الله ، ماذا جرى يا حمدى ، قل بالله ولا تخف ..
— لقد سرق فراش امتحانا من الامتحانات وباعه الى ..
— وما يغضبك فى هذا ؟
— ما يغضبنى فى هذا يا هند ؟ ! أنت التى تسألين ؟ ! فراش يسرق سرا هو أقدس أسرار الكلية ويبيعه إلى التلاميذ بالثمن الفادح فينجع الغنى ويسقط الفقير ..

— فلماذا اشتريته يا أخى ؟
— حتى يكون فى يدى الدليل ..
— أى دليل ؟
— الدليل الذى أقدمه للأستاذ حتى يعرف أن الامتحان الذى وضعه قد سرق ..
— أتتوى أن تخبر الأستاذ ؟
— الآن الساعة ، فى هذه اللحظة ..
— هل أنت مجنون ؟ طريق النجاح أمامك وتقفله !!

- النجاح .. أهذا نجاح ؟ .. ذلك هو الفشل .. النجاح أن نسعى ثم نصل .. إن النجاح في العلم أن نحصله ونفهمه ونعبر عنه ، أما أن نشترى الشهادة بالمال والمستقبل بالخديعة والغش ، فذلك هو الفشل وذلك هو الزور الذى يلازمنا طول الحياة .. اننا في الجامعة ، والعلم الذى نحصله اليوم هو أدواتنا فى الغد فما نقول للمستحيل إذا وقفنا أمامه جهلاء ومعنا الشهادة أغبياء ونحمل ألقابا ؟ .. لا يا هند .. أنا لا أنتظر منك هذا السؤال !!

لم تستطع دمامة حمدى ولا فقره أن يقفا هذه المرة دون حبها لحمدى فأحبته ، أحببت فيه مثلا من الرجولة لم تشهده قبل اليوم ، وكان حبا .. !! ومرت الأيام وتخرج حمدى ، وتخرجت هند ، وعند باب الجامعة التفتت هند إلى حمدى وقالت :

- إلى أين ؟
- إلى أين أنت ؟
- إلى الحياة ..
- وحيدة ؟ !
- وحيدة ..
- الطريق طويل ..
- لابد أن أقطعه ..
- قدماك لا تقويان ..
- ليس لى غيرهما ..
- وذراعك لا يطيل ..
- لابد أن يعمل ..
- ألا تريدان ساعدا ؟
- لابد أن أعرفه ..
- ألا تعرفينى ؟
- أعرفك ..
- أترضين بى عونا على الحياة ، وصديقا إلى الأبد ؟
- إنك صديقى ..
- أترضينى زوجا ؟
- أرضاك ولكن ..
- ولكن ؟ !
- والداى ..
- أسألها ..
- سيوافقان ..

— الحمد لله ..

— وتزوجا ..

ومرت الأيام وضربت الأيدى الفتية في لجج الحياة وتغلبت عليها حيناً وغلبت أحياناً ، ثم أصبح للزوجين بنون ، فانقطعت الأم عن المكتب ومكثت في البيت وواصل الأب جهاده ، ولكن الزبائن قلّة والأطفال لا يرجون ، والأصدقاء يشيرون على حمدي أن يستعين بسمسار ولكنه يأبى في ترفع ويشمخ في عنف وهند ترى هذا فتزداد به إعجاباً يمازجه الغيظ المكتوم ، حتى إذا مرض طفل لها ولم يجدوا ثجناً للدواء لجأ حمدي إلى سمسار القضايا ، يشاطره - وهو أبله - جهده ويبحثه وأحست هند بعض الراحة نمازجها غضبة من ذلك الرجل الذي تنازل لأول مرة في حياته عن عقيدة تسلك بها ورأى اقتنع به ، ولكن الأمومة الملهوفة ما تلبث أن تغتفر ، ويأتي المال ، ويعرف سبيله إلى حمدي ، وتأتي القضايا ويعرضها حمدي على هند فتراها خاسرة ولكنها ترى حمدي يقبلها ليضمن مقدم الأتعاب ويزداد المال ولا تفكر العائلة في ثمن الدواء إذا مرض الطفل ، بل وتأمين العائلة كل ما تأتى به السنون من أحداث ولكن حمدي ما زال يعمل مع السمسار وما زال يقبل القضايا الخاسرة ويلفق لها من وراء ضميمه ، بل أنه أصبح لا يطلع هنداً على قضاياها ولكنها تقرؤها وترى أية هوة يتردى فيها حمدي ..

ويل للأهماء ! وويل للمال لقد أخذ منها زوجها ، وهل كان زوجها إلا ضميراً ورجولة وشرفاً ، لم يكن زوجها وجهاً جميلاً فهو دميم ولم يكن مالا كثيراً ، فقد كان فقيراً ، لم يكن إلا هذه الأخلاق ، ومن بين هذه القضايا رأيت هند قضية ترفعها شركة كبرى وسألت حمدي :

— لماذا أعطتكم الشركة هذه القضية اليس لديها عمام ؟

— أرايت شركة بغير عمام ؟

— إذن فلماذا تدافع عنها أنت ؟

— لأن أصبحت محاميها ..

— ولماذا لم تخبرني ؟ ..

— لأن سأصبح محاميها إذا كسبت هذه القضية .

— وأنت تعرف هذه القضية ؟

— أجل أعرفها ..

— لا بد أن محامي الشركة رفض المرافعة فيها وقلت أنت ؟

— نعم ..

— وشرفك .. وشرف المهنة ؟

— شرف المهنة .. لا شيء مقابل شرفي أنا ..

— وأين الشرف فيما تفعل ؟ !

— ان هذا خير من أن أستجدي أموال الناس لأشتري الدواء لابنى ..
— أتغالطى أنا يا حدى ؟ أنا أعرف رصيدك فى البنك .
— أنا لا أطيق هذا النقاش كل يوم ..
— أما أنا فلا أطيق هذا الانحدار كل يوم .. لقد تزوجت فيك المثل الرفيعة ، الشرف ،
الأمانة ..

— كل هذا تنازلت عنه ، ولن أبقى بالمنزل لأسمع هذه الخطب الجوفاء ..
يخرج ويفلق الباب خلفه ، ويجلس هند وحدها .. ماذا بقى لها من زوجها ولماذا تبقى معه
بعد اليوم ، ماذا يربطها ؟ ! ماذا تزوجت فيه ؟ إنها يوم تزوجته ، تزوجت أخلاقه ومثله ، أما
اليوم — وقد فقدتها — فهي لا تجد فيه شيئا .. اللهم إلا .. نعم اللهم إلا أنه أبو أولادها ،
نعم هذه المخلوقات الصغيرة هى التى تربطها إلى زوجها .. لا شيء إلا هذه المخلوقات ،
ولكن أتظل حياتها مع شخص تكرهه وتحترقه لأن أولادها يربطونها إليه ، لا .. لن تمكث ،
ولكنها إن تركته تكون قد جرت على أولادها هؤلاء جريمة تتضاءل أمامها جرائم حدى
جميعها .. ليت هؤلاء الأولاد يموتون إذن حتى تتخلص من هذا الزواج الذى أصبح هباء ..
نعم ليتهم يموتون .

ثم تصحو هند من هذا التفكير العميق جازعة هالعة .. لقد صرخ واحد من أولادها فهي
تجبرى إليه فى سرعة مجنونة .

— ابنى الحبيب .. ماذا بك .. لماذا تصرخ ..

حديث واقصاء

- دق جرس التليفون فى مكتب الأستاذ أحمد اسماعيل بالجريدة ، وانبعث إلى أذنه صوت ناعم حلو ..
- الأستاذ أحمد ؟
 - نعم يا أفنم ..
 - معجبة ..
 - قديمة ؟
 - بل جديدة ..
 - معجبة بماذا يا حسرة ؟
 - بجمالك ..
 - وأين رأيتنى ؟ ..
 - ماذا أيها الفنان .. هل لابد أن أراك حتى أعجب بجمالك ؟
 - لا .. فأتنى هله .. من الممكن أن تعجى بجمال على السمعة نسيت أن جمالى بعيد الصيت واسع الانتشار ..
 - ويقولون فنان ..
 - من هؤلاء الذين يقولون .. أنا قلت ؟
 - كلهم يقولون إنك فنان ..
 - لا عليك فاللغويون يقولون إن الفنان هو الحمار الوحشى .. لعلهم يقصدون أننى فنان بهذا المعنى ..
 - لا يا سيدى .. لم يقدرك أحد الى هذا الحد إنما هم يقصدون أنك فنان موهوب ، لأغانيك الحلوة .. أنا أعبد أغانيك ..

- وما لهذا ولجالي ؟
- ان هذا هو جالك .. لم تدرك هذا من أول لحظة أيها الفنان ..
- آه ! . يبدو لي أنك فنانة أنت أيضا ..
- وماله ! . يا ليتني كنت .. إذن لا لتقيت بك مباشرة وأبديت لك إعجابي وجها لوجه بدلا من هذا التليفون الذي يفصل بيننا ..

- أراه يصل بيننا ..
- أنكفتي أنت بهذا الوصل ؟
- اسمعي ، أنا لي أصدقاء كثيرون ، كل منهم أن يوقعوا بي في ورطة مضحكة .. وأنا يا بنت الناس كبرت على مسألة التليفون هذه فإن كان أحدهم أغراك فقلولي له استع ..
- آه . هذا ظنك .. لماذا كل هذا الشك ؟ . أعجيب أن تعجب بك فتاة جميلة ؟
- لا .. ليس عجيبا أن تعجب بي فتاة ، ولكن العجيب أن تكلمني في التليفون والأعجب أن تكون جميلة ..
- أنا لست جميلة ..
- لا يمكن أن تكون جميلة ..
- لماذا ؟

- لو كنت جميلة لما خفت من لقائي .. ولما استترت مني بالتليفون ..
- ومن قال لك إنى خائفة ؟
- حديثك هذا .. ولماذا لم تتيحي أن أراك بدلا من هذا الحديث ؟
- أولا .. أنا أجد في هذا الحديث لذة تفوق لذة اللقاء ، فأنت حين تحدثني تتخيلني في صورة حلوة رقيقة وأنتجيك أنا أيضا في صورة فنان رقيق أنيق متنسق اللبسات حلو الملامح وتظل هذه الصورة في ذهن كل منا حتى نلتقي ! فتتمدد الصورة التي في ذهنك حلالة ورقة وعذوبة بخطوط جسمي ، وينعيم الخيال ، وأراك أنا فأرى شعر لحيتك وشاربك ، ورباط رقبتك ولعله يكون قبيحا يوم نلتقي ، ووجهك ولعلك تكون متعبا حين أراك . الحديث يطلق الخيال واللقاء يهدده ، أنا أحب الحديث ..
- وأنا أحب اللقاء .. لا شأن لك بالخيال .. سأجد التعبير الذي أنجيله عنك بعد اللقاء ..

- يبدو أنني أنا الفنانة وأنت أنت المعجب .. كلامك واقعي ، لا خيال فيه ..
- اسمعي ياسنتي ، الواقع أنني معجب بكلامك ! وبخيالك ! وكفى أقسم لك أنني أستطيع أن أقرأ كلاما خيرا من هذا ان اقتصر الأمر بيننا على الكلام .. الكلام يأخذ كامل بهائه حين نرى المتحدث ، ومادمت لا أراك فأرجو ألا نستمر في الحديث ، هذا إلى جانب أنني هنا في مكتب العمل وأريد أن أفرغ للمواد المتراكمة أمامي ..

- أتريد أن تقطع الحديث ؟
- مادمت لا تريدين لقائى ..
- ومن قال لك اننى لا أريد ؟
- أنت ..
- أبدا ! أنا لم أقل .. كل ما فى الأمر اننى أحببت أن نتمتع بالحديث ما أمكننا ذلك ثم نلتقى ..
- ولكنى أريد أن نتمتع باللقاء ما أمكن ذلك ثم نتحدث .
- مستعجل أنت ؟
- نعم ..
- فأين تريد أن تلتقانى ؟ ..
- أنا أقعد عادة فى لاباس منذ الرابعة من بعد الظهر ..
- وكيف ستعرفنى ؟
- إنك أنت التى ستعرفينى . فى مجلة الاذاعة اليوم أحدث صورة لى .. إنها أنا .. اذا أعجبتك .. فأنا .. البسى .
- انها ستعجبنى لا شك ..
- بل فى ذلك شك .. الى اللقاء ..
- إلى اللقاء .
- وكان أحمد جالسا فى مقعده المختار يحل لاباس حين دلفت إلى المكان سيدة رائعة الجمال لم تتردد كثيرا قبل أن تقصد إليه وتجلس إلى النضد الذى اتخذته ..
- ماذا أقول صباح الخير أم مساء الخير ؟
- ولم يجد أحمد فى التحية شيئا جيلا ولا لباقة فقال لها فى بعض دهشة :
- قولى ما شئت فإن جمالك غفى عن أى تحية .
- لا أفهم ..
- بل تفهمين وتريدين أن أزيد .. ومن أجلك سأزيد .. جمالك تحية من الله لكل من يلتقى بك ، أنت وحدك تحية فلا حاجة بك الى أن تقولى صباح الخير أو مساء الخير ..
- وضحكت الفتاة ضحكة جذابة وقالت :
- لا والله أنا قصدت أن أعرف منك الجواب على سؤالى .. فنحن فى وقت لا تدرى أهو صباح أم مساء ؟
- أما ترين أن الحديث عن الصباح والمساء قد طال بيننا وهو موضوع بدائى ؟
- نعم أرى ذلك ولكن فيم تريد حديثنا ؟

.. لا أدرى ؟ فانت التي طلبتني وانت الحكم بما تريدن الحديث فيه ..

.. قليلة هي المواضيع التي أستطيع الحديث فيها ..

.. عجيبة !!

.. وأين العجب ؟

.. أنت في التليفون كنت تخلفين الحديث خلقا وتسرين به إلى الوجوه التي تريدن بلا تكلف ولا مشقة ولا عنت فأني جديد جد عليك فاجعلك تعجزين حتى عن بدء موضوع الحديث !!

وكانت ابتهامة تمهاد في الاستغناء تالوج وتنتفي على شفقي الفتاة ، ورأى أحمد هذا الوميض من الأبهام فاجب له بعض الشيء وهم أن يسألها عما أطلق هذه الابتسامه على شفقيها ولكنها عاجلته قافله :

.. التليفون شيء آخر ..

.. يظهر أنك أوت شيء آخر ..

وجزعت الفتاة جزعا شديدا أن تتضح معالنه على وجهها لولا شهيقها الشديد وسالت :

.. ماذا تقصد ؟

.. لا شيء ..

.. حسنا .. سأحدثك اذن مادام لا بد من الحديث . لقد رأيت فيلم السماء الزرقاء

وأعجبني جدا .. هل أعجبك ؟

.. ما الذي أعجبك فيه ؟

.. الممثل - حلو .. جميل جدا .. عيناه .. عيناه .. عيناه .. عجيبة من عجائب

الزمن !!

.. أكل ما أعجبك في الفيلم عينا الممثل - ألم تفكرى في المؤلف الذى بذل أقصى جهده أياما وشهورا لتمتعي أنت بساعة تشاهدين فيها الفيلم ؟ ألم يعجبك المخرج الذى أراق جهده وأعصابه ، ألم تفكرى في هذا الممثل ذى .. أكل ما في الفيلم عينا الممثل ؟ ..

.. يا أنخى لقد حيرتني !!

.. اسمعى يا سقى .. لا تحيرينى ولا أحيرك .. أنا سأصرف وحدثينى في التليفون ..

وقام أحمد عن المنضلة دون أن يلاحظ هذا الغيظ الذى على وجه الفتاة والذى لم تمهاد في إخفائه .

وقبل أن يستقر أحمد على كرسي مكتبه من بعد الظهر في اليوم ذاته دق جرس التليفون :

.. من ؟

- أنا ..
- أهلا .. أهلا ..
- أسمع في أهلا شوقا ..
- ولم لا ؟
- عجيبة ! كأنك لم تكن معي في الصباح ..
- أنا لم أكن معك في الصباح ..
- ألم نلتق في لباس ؟
- لم نلتق . لم تكون أنت ..
- وارتبكت الفتاة هونا ثم قالت :
- كيف ؟
- لا .. لقد رأيت في لباس فتاة جميلة كعرائس المولد ، تحسن التخطيط والترجيح وتضع الأحمر حيث يجب أن يوضع ، وتضع الأسود حيث لا بد له أن يرسم لكنها عاجزة لا تحسن شيئا آخر ، عاجزة ، لسانها ألكن وعقلها تافه .. وأنت لست كذلك ..
- أتشمتني ؟ ! أشكرك ..
- أنا أشمتك ولكن أنفى عنك هذه التفاهة التي رأيتها .. أتدريين لماذا رصبت أن ألقاك ؟ ..
- وبعد أن لاقيتني ..
- أقسمين لي أنك أنت التي كنت في لباس اليوم ..
-
- أقسمين ؟
- لا .. لا أقسم ..
- فلماذا أرسلت غيرك ؟
- لأن ..
- قولي .. لماذا ؟
- لأن أرى نفسي غير جميلة ..
- ومن أدراك ؟ ! إن من لها عقلك هذا لا يمكن إلا أن تكون جميلة ..
- أتعلم الآن بخيط من الأمل واه ضعيف وأخشى إن أنا لقيتك أن ينقطع أمل الأخير ..
- أنا أريدك أن تحبني .. وأخشى إن رأيتني أن تكرهني ..
- وماذا كنت تريدني أن تفعل ؟
- كنت سأجعل من صديقتي وجهي الذي ألقاك به ، وأكتفى أن تلتقي عقولنا في التليفون ..

ـ بل لابد أن ألقاهم جميعا ـ ألقى وجهك الذى يخفى جوهرة عقلك . لا تخافى شيئا ـ
فالجمال المختفى وراء الوجوه أبهى على الزمان وأخلد نصارة من جمال الوجوه . . لقد أحببت
حديثك ، وحديثك هو معالم عقلك ـ فلا تخشى ألا أعجب بوجهك . . تعالى . .
ـ سأجىء . .

وفى اليوم التالى التقت الفتاة بأحمد . . لم تكن جميلة ، وكان الخوف الذى ظل وجهها قد
جعلها إلى الفبح أقرب ، ولم يحدثها أحمد عن الجمال ولم تحدثه عنه بل سرعان ما جرى الحديث
بينهما موقفيا فى سموات من الفكر والأدب والفن والفتاة تلاحقه حيناً وتسبقه أحيانا ، وبعد
لحظات انحلت ظلال الخوف تنقشع عن وجهها رويدا رويدا لتجلى لأحمد وجهها فيه بساطة وفيه
روقة وفيه براعة وليس فيه جمال ـ وإن كان أحمد قد رأى فيه الجمال كل الجمال !
ولم يقم أحمد وحده ولا قامت وحدها ، وإنما تشابك ذراعاهما وسارا فى الطريق فترة لاقت
فترة ، وروحا لاقت روحا ، وقلبا لاقى قلبا . .

ولم يعد التليفون يدق فى مكتب أحمد كثيرا . . اللهم إلا إذا أرادت زوجته أن يشتري لها
شيئا قبل أن يعود الى البيت . . ماذا ؟ ! ألم تفهم ؟ ! لقد تزوجا . .

وظيفة دالمة

- (المنظر غرفة الأستاذ مجدى السيد المحامى وهو يجلس فيها ومعه أحد الموكلين) .
الموكل - أشكرك يا أستاذ على مجهودك ..
مجدى - لا شكر على واجب يا عم حسين ..
الموكل - مسألة الأتعاب يا أستاذ ..
مجدى - ألم تكلم فيها عبد البارى أفندى ؟
الموكل - كلمته فيها . يطلب كثيرا .. قلت أكرم الأستاذ عسى الله أن يخففها قرشين ..
مجدى - (وهو يلق الجرس) ان كانت الحكاية حكاية قرشين يا عم حسين فالمسألة بسيطة ..
الموكل - البركة فيك يا أستاذ ..
(يدخل عبد البارى وهو شاب نحيف ذو وجه قريب من الموميאות وفى أهل رأسه بضع شعيرات يصر عبد البارى أن يلصقها بالصابون) .
عبد البارى - طلبتى يا أستاذ .
مجدى - خذ عم حسين معك وأرحه فى الأتعاب .
عبد البارى - انه يا أستاذ يريد أن ..
مجدى - عبد البارى .. لا تطل .. أنا لا أناقش الأتعاب .. خذ معك وتفاهما ..
عبد البارى - ولكن يا أستاذ ..
مجدى - من غير لكن ..
عبد البارى - أمرك يا أستاذ ..
الموكل - أطل الله عمرك يا أستاذ .. ترفق بنا يا عم عبد البارى الدنيا غلاء ..

عبد البارى - (وهو يأخذ عم حسين إلى الخارج) يا عم حسين أنا عبد المأمور ..
تعال .. تعال ..

(يخرجان - يلتفت مجدى إلى التليفون ويهم بإدارة القرص ولكن ما يكاد حتى يدخل عبد
البارى مهرولاً فى فرح واضح) .

عبد البارى - البك وكيل النيابة يا أستاذ !!

مجدى - أى وكيل نيابة ؟

عبد البارى - البك وكيل النيابة زميل سعادتك ..

مجدى - أيمم ؟ لى زملاء كثيرون فى النيابة ..

عبد البارى - أنا لا أعرف اسمه يا أستاذ وإنما رأيته بالأمس فى الجنائيات وأنا أشاهد جلسة

الـ ...

مجدى - طيب .. طيب انتهينا .. سله عن اسمه وانتظر حتى أناديك ..

عبد البارى - والبك وكيل النيابة ...

مجدى - ألم تسمع ما قلت ؟

عبد البارى - سمعت يا أستاذ ..

(يخرج ويدير مجدى قرص التليفون)

مجدى - الهام .. ألم تخرجى بعد .. ماذا قال الدكتور ؟

...

مجدى - طيب .. وسمير نام ؟

...

مجدى - والحرارة انخفضت ؟ طيب .. أنا منتظرك بعد ساعة .. لا تتأخرى

وحياتك ..

(يضع الساعة ويدق الجرس وبعد برهة يظهر عبد البارى)

مجدى - أعرفت اسم الزائر ؟

عبد البارى - والله .. لم أجرؤ على السؤال ..

مجدى - كيف هذا ؟

عبد البارى - اسأل وكيل النيابة ؟

مجدى - طيب قل له يتفضل ..

عبد البارى - (صائحاً) يا حسن قل للبك يتفضل (يلتفت للأستاذ) عندنا قضية

سينظرها هو ..

مجدى - اخرج ..

عبد البارى - حاضر ..

(يخرج عبد البارى وحين يرى وكيل النيابة داخلا ينحنى وهو يزيد فى فتح الباب) .
 مجدى - من ا اهورانت .. شكرى كيف حالك ؟ وحشتنى والله .. أين كنت طول هذه
 المدة ؟ آه ! حقا لقد كنت فى الصعيد .. كلانا معذور اذن ..
 شكرى - كيف حالك يا أستاذ مجدى ؟
 مجدى - (مندهشاً) ماذا .. يا أستاذ ماذا ١٩
 شكرى - أسأل عن حالك ..
 مجدى - طيب .. طيب .. عرفت انك وكيل نيابة فلا لزوم لهذه الكلفة ..
 شكرى - آه . لا يا صديقى أنا لا أستطيع أن أفعل كما كنت فان زمن التهريج قد
 انقضى ..

مجدى - (وكأنما لا يكلم شكرى) عجيبة ا .
 شكرى - عجيبة ١٩
 مجدى - اننا نعرف الوقار الذى يصاب به الموظفون بعد التعيين ، وهو من النوع الذى
 لا يدوم طويلا ولكن يظهر أن اصابتك كانت شديدة ، بعض الشيء ..
 شكرى - لا يا أستاذ مجدى إنما يجب أن يضع الانسان نفسه فى موضعه الصحيح ..
 مجدى - وما موضعك الصحيح ؟
 شكرى - أنا وكيل نيابة ..
 مجدى - تهتاك الحارة ..
 شكرى - أما زلت تمزح ا . أهذا جزائى لأننى جئت إليك ؟
 مجدى - وكيف جئت ؟
 شكرى - قرأت اللافتة بالأمس فعزمت على زيارتك وقد أخبرتهم الآن فى المحكمة أننى
 ساكون عندك وجئت أزورك .
 مجدى - شرف عظيم ..
 شكرى - أهزل ١٩
 مجدى - لقد حرت معك يا شكرى .. إن كلمتك .. كما كنت أكلّمك فى عهدنا الأول
 قلت لى يا أستاذ مجدى وان بجلتك واحترمتك قلت إننى أهزل ا .
 شكرى - يظهر أنك لا تفهم الأمر .. افرض أنك جئت غدا مع متهم فى قضية
 أحققها ..
 مجدى - فرضنا .. وما البأس ١٩
 شكرى - ما موقفى أنا ؟
 مجدى - أنت هنا الآن فى قضية تحققها ١٩
 شكرى - لا ولكن ..

مجدى- هل فى المكتب متهم ؟
شكرى- انتظر على ..
مجدى- ماذا أنتظر ؟ هل هنا النيابة ؟
شكرى- يجب أن أحترم نفسى فى كل مكان ..
مجدى- أى احترام ذاك ! أنت فى بيتك هكذا .. أيناديك أخوك بيا أستاذ شكرى !
عفوا أقصد بيا شكرى بك ؟
شكرى- الأمر مختلف ..
مجدى- افرض أن أخاك حمام .. ماذا تفعل ؟
شكرى- حينئذ أمتنع عن نظر القضية التى يوكل فيها ..
مجدى- طيب هذا لأنه أخوك .. ولكن أصدقائك وزملاءك لو امتنعت عن كل قضية يوكلون فيها فإنك لن تحقق فى قضايا أبدا !
شكرى- ولكن يجب أن أحافظ على كرامتى ..
مجدى- وهل أهان أحد كرامتك ؟! إذا ناديتك باسمك أهنت كرامتك .. اسمع يا شكرى إن بيننا صلة هى الشهادة التى أحملها أنا وتحملها أنت ، أما كرامتك فالمحافظة عليها تكون بالبعد عن مواطن الريبة والارتفاع بمستوى أخلاقك تلك هى الكرامة يا صديقى ..
شكرى- ومن ؟
(يدق جرس التليفون ويرفع مجدى الساعة)
مجدى- نعم .. مكتب الأستاذ مجدى .. شكرى بك ! لحظة (يلتفت إلى الأستاذ شكرى) التليفون يطلبك ..
شكرى- آلو .. أنا شكرى .. ماذا ؟! الوزارة سقطت ومن أدراك ؟
-
شكرى- ومن الذى سيؤلف الوزارة .. الحزب الآخر ؟
(يضع الساعة فى يأس)
مجدى- ماذا .. أكنت مرشحا للوزارة ؟
شكرى- أرجوك يا مجدى ..
مجدى- ما أهمية سقوط الوزارة بالنسبة إليك .. مالىذى يجعلهم يطلبونك فى غير مكتبك ليبلغوك الخبر ؟
شكرى- الوزير .. الوزير الذى بها ..
مجدى- أى وزير ؟
شكرى- الوزير الذى كان سيسفح لى ..
مجدى- أى وزير وأى شفاة ؟

شكرى - لقد طلب الى النائب العام أن أستقيل لأن هناك اشاعات تتناولنى عنده بسوء .
 ولى وزير فى الوزارة ، أقصد كان لى قريب وزيرا فى الوزارة رجوته فوعدنى خيرا ..
 مجدى - وبعد ..
 شكرى - وهل فيها بعد ؟ استقالت الوزارة .. استقالت يا أستاذ .. يا مجدى ليس
 هناك أمل ..
 مجدى - هون عليك يا شكرى .. هونها تهن .. هذه الإشاعات كانت خطيرة ؟
 شكرى - بعض علاقات والإشاعات كانت فى حدود ضيقة يكتفى فيها بالنقل ..
 لكن ..
 مجدى - لاتدافع أمامى .. مادامت الإشاعات كانت فى حدود ضيقة فسمعتك مازالت
 شريفة ..

شكرى - مجدى .. أتقبلنى عندك فى المكتب ؟
 مجدى - ماذا تقول يا شكرى ؟
 شكرى - هل فى هذا غرابة ؟ أعمل معك بالأجر ؟
 مجدى - لا يا شكرى أما هذا فلا أقبله ..
 شكرى - أترفض طلبى وأنا فى هذه الحال ؟ ..

مجدى - طبعاً أرفض يا أنخى .. إنك زميل ولن تكون إلا زميل دائماً .. سوف تكون
 شريكى فى جميع أرباح المكتب سواء فى القضايا التى تتولاها أو فى غيرها ..
 شكرى - ليس عندى الآن مايكفى لمشاركتك مصاريف المكتب .
 مجدى - وأنا على استعداد لقبولها عندما تتوافر لديك ..
 شكرى - سبحان الله !!
 مجدى - ماذا يا شكرى ؟

شكرى - كنت أظن أن الوظيفة التى شغلتها هى كل شيء ! ظننتها الوظيفة الدائمة الباقية
 وإذا الله يكشف لى فى لحظة أن هناك وظيفة أودم وأبقى ..
 مجدى - أى وظيفة تلك ؟

شكرى - الصداقة .. من استطاع أن يحافظ عليها فقد استطاع أن يحافظ على الشيء
 الدائم فى الحياة .. أسأت إليك فأحسن وتكبرت فكنت أنخى الأكبر ..
 (يبدق جرس التليفون فيرفع مجدى الساعة)
 مجدى - نعم .. شكرى بك سيكلمك ..

شكرى - آلو .. ماذا .. لم تستقل .. حسنا .. اسمع اكتب خطاب استقالة بالصيغة المعتادة على ورق رسمى وأحضرها الى هنا ، أتعرف العنوان ؟ أسرع .. لا شأن لك .. فقط أسرع ..

مجدى - انتظر ..

شكرى - (يضع السماعة) ماذا أنتظر رجعت فى كلامك ؟

مجدى - لا .. ولكن ..

شكرى - ان شعورى بأخوتك وتجربتي فى هذه اللحظة البسيطة تساوى وظائف العالم أجمع .. لا ياعم لن أرجع اليها .. لن أرجع اليها أبداً ..

(يعانقه ويدخل عبد البارى فيجدهما متعانقين فيظهر السرور على وجهه)

عبد البارى - الست حرم ساعاتك ..

مجدى - دعها تفضل .. واسمع يا عبد البارى .. اجعل الخطاط يكتب لافتة باسم الأستاذ محمد شكرى المحامى وعلقها على الباب ..

عبد البارى - (فى حزن شديد) ماذا ؟ من ؟ البك وكيل النيابة ؟

مجدى - افعل ماقلت لك ..

عبد البارى - أمرك .. ولكن .. القضية !

مجدى - اخرج ..

عبد البارى - حاضر ..

شكرى - أى قضية ؟

مجدى - سأقصها عليك فيما بعد ..

(تدخل زوجة مجدى)

شكرى - (مسلما) محمد شكرى وكيل النيابة .. أقصد المحامى ..

مجدى - (ضاحكا) أهلا إلهام .. هذا زميل الأستاذ شكرى ..

إلهام - أهلا بالأستاذ ..

مجدى - لقد قبل الأستاذ شكرى بعد إلحاح أن يترك وظيفته كوكيل للنائب العام ويشاركنى فى المكتب فتخبرى مكانا نتعشى فيه الليلة احتفالاً بهذه المناسبة ..

إلهام - وهل هناك أحسن من البيت ؟ !

مجدى - وهو كذلك .. إلى البيت إذن .. إلى البيت يازميل العزيز ..

(تسبقهم إلهام فى الخروج)

شكرى - (فى عينيه نظرة شكر عميقة) ألف شكر ..

مجدى - (رافعا سبابه إلى فمه) اسكت ..

وانا .. ما ديبى

لا .. لست فقيراً ، فلو كنت فقيراً فلعل كنت أسكت أو أرضى بما كتب لى .
ولست جاهلاً . فلو كنت جاهلاً لما أحسست بهذا البلاء الذى قدر لى ، ولا أنا أبله أو
مجنون ولا ضعيف أو قبيح الوجه ، لا لست واحداً من هؤلاء جميعاً .. انه عيب واحد
الذى أعرفه فى نفسى ، لم أصنعه ، ولا يد لى فيه ولو كنت أعرف طريقة للتغلب عليه
لبادرت إلى اتباعها .. ولكن ليست هناك طريقة .. عيب واحد أعرفه فى نفسى .. هو
أمى .. نعم أمى .. ماذا أصنع ؟ هل أنا الذى اخترتها ، أو أنا صنعت بها ما هى
عليه .. لا .. لقد تم صنعها منذ زمن بعيد .. صنعها أبوها .. أو صنعتها أمها ، أو
صنعت هى نفسها .. لا أدرى ولكنى أدرى أننى لم أصنعها !! وأدري أيضاً أننى لم
أخترها لتكون أمى .. بل أن أبى هو الذى اختارها من بين نساء العالمين لتكون أما
لأبنائه ، ثم وجدت نفسى واحداً من هؤلاء الأبناء ..

لن أنا لها بشرٌ ولن أذكر عنها أى سوء فهمى تحببى ، ولا شرٌ بها أو سوء الا أنها تحببى
غاية الحب .. وحبها من نوع عجيب أوقع بى إلى ما أنا فيه اليوم !!

انها تحببى حباً عارماً مجنوناً ، لا تطيق عنى بعداً ، وهى منذ أول ما وعيت لا تطيق
أن أصنع ببدى شيئاً ، وإن أعجب ما أحسب له أننى نجحت ونلت الشهادة العالمية
برغم هذا التدليل الذى كانت تسكبه هى سكباً فياضاً بلا تفكير ، ومنذ ذلك الوعى
الأول - رأيت لها صديقة لا تفارقها فى نهار ولا ليل حتى تقتضى الضرورة الملحة ، أو
تفترقا لترى كل منهما شأن بيتها ثم تعودان لا تفترقان . ومنذ ذلك الوعى الأول رأيت
لهذه الصديقة ابنة أكبرها بسنوات قلائل . وقد كانت الابنة ترافق أمها فى زياراتها ،
محمولة على الاكتاف فى أول أمرها ، ثم ساعية بخطوات متعثرة ، أذكر أننى كنت

أضحك منها ، ثم استقامت خطواتها وأصبحت عريضة لا يقر لها قرار ..
وكنت في ذلك أشكر نفسي أن ألهو مع الطفلة ، ولا أرضى لنفسي أن تشاركني في
لهوى ولكنني كنت أراها دائما فلا أجد لرؤيتها صدى في نفسي غير أنها كانت تتعثر في
خطاها وكنت أضحك من تعثرها ..

ودار الزمان دورته وأصبحت الابنة المتعثرة الخطوات فتاة ريانة الصورة ! فيها جمال
لا يبهرك في النظرة الأولى ولكنك تدركه مع طول التأمل ، ومع بعض التفكير ، وهي
مؤدبة حسنة الحديث إذا تحدثت ، لا يروعك منها خيال جامع ، أو فكر متوثب .. وإنما
هي عقلية أكثر من القراءة وأحسن فهم ما قرأته ، كانت هكذا سامية ..
وحين أصبحت هكذا كنت أنا قد انتهيت من دراستي وخلفت وراثتي الجامع
لأستقبل الحياة . ولكن الحياة لم تشأ أن تستقبلني وحدي ، أو أن أمي لم تفك قيودي
وتطلقني لأستقبل الحياة وحدي بلا رباط يربطني بها . ففوجئت بها يوما وأنا أهم
بالخروج ..

— انتظر يا سميح فاني أريد أن أكلمك في أمر مهم ..
وقعدت بجوارها ..

— نعم ..

— أنت — الحمد لله — كبرت وأريد أن أفرح بك ..

— تقصدين الزواج ١٩

— نعم ..

— يا أمي ولماذا العجلة ، انني لم أكد أنتهي من الكلية وأريد أن أستريح قليلا ..
وابتسمت أمي وهي تقول :

— وهل الزواج تعب ١٩

— أريد أن أجد وظيفة أولا وتستقر أموري ثم أتزوج ..

— لا شأن لك بأمورك سأعطيك كل ما تحتاج إليه ..

— نعم يا أمي ولكنك لا تعرفين لذة المال الذي يكسبه الانسان بعمله .

— ما هذا الكلام الفارغ ١٩

— أهذا الكلام فارغ ١١

- .. طبعاً .. ابحت لك عن حاجة أخرى ..
- .. أمرك يا أمى .. إذا وجدت فتاة تعجبني قلت لك لتخطبها لى ..
- .. ولكنك خطبت فعلاً ..
- .. أنا ؟ ..
- .. نعم أنت ..
- .. وذعرت أن يكون كلامها جداً مزاح فـه ولو أنى استبعدت أن يكون كذلك فـاغتنصبت ضحكة منها من الانطلاق بقية خوف مازالت تتردد فى نفسى ..
- .. متى كان ذلك يا أمى ؟ أنا خطبت !!
- .. أنا يا أمى ؟
- .. نعم أنت ..
- .. أجادة أنت ؟
- .. كل الجدد ..
- .. كيف ، يا أمى ؟
- .. خطبت لك ..
- .. كيف خطبت لى ؟
- .. وما لى لا أفعل .. لقد كنت اعمل كل شىء لك ، ألا تسمح لى أن خطب لك !!
- .. شريكة حياتى ؟ المرأة التى سافقتى معها العمر كله !! ألا أختارها ؟ لقد صنعت لى كل شىء ولكنك تسمحين لى أن أختار رباط رقيق وقميصى وحلى .. ألا تسمحين لى أن أختار زوجتى ؟
- .. لقد انتقرتها وانتهى الأمر ..
- .. تقولين انك خطبت لى وأنا فى الخامسة من عمري ولا بد أن أهل الخاويش اعتبروا كلامك هزلاً ونسوا ما كان ..
- .. أنت وأهم فقد ظلمات أجود خطبتك كل يوم منذ أنت فى الخامسة من عمرك

حتى اليوم .. خمسة عشر عاما وأنا أذكر الخطبة بخطبة جديدة ، وتريد أنت أن تهدم هذا جميعه ١٩

— أهلم ماذا ؟ ما شأني أنا ١٩

— انها ليست خطيبي ، أنا لم أختبرها .. لقد اخترتها أنت فتزوجها أنت ..
— أنصت ، انها فتاة من أجهل الفتيات وأبوها غني واسع الغنى ، وأمها فنية هي الأخرى وليس لها إلا هي ، فأنت بذلك ستأمن على مستقبلك ومستقبل أولادك ..
— اذا كان المستقبل هو غنى أبيها وغنى أمها فهو مضمون لا شك .. وما المستقبل ان لم يكن المال ١٩

— المستقبل هو الحياة جميعها .. المال جزء فيها ولكنه جزء لا يزيد .. من هي هل أحبها أم لا ؟ هل تتوافق روحانا ، هل ..
— لا تخف .. انها سامية بنت عذيلة وأنت تعرفها وستزوجها ..
— لالن أفعل ..

— بل ستزوجها .. عليك أن تختار بين الزواج بها أو الافتراق عني إلى الأبد ..
— عنك أنت ١٩

— عني أنا فلو أن أصبى هذا عني أمرى قطعت ..
— نعم .. أهرفك أنك تفعلين هذا ..
— ستزوجها إذن ..
— أتزوجها ..

وتزوجتها .. مسكينة .. لو أنني أنا الذي اخترتها .. لو أنني الذي خطبتها لعشنا معا في أنها حياة ولكني لم أخطبها ولم أختبرها وإنما تزوجتها . كنت أرى فيها أمر أمي وتهديدها وعسفها بي وظلمها لي ، كنت أرى فيها حرمان من أن أختار أنا شريكة حياتي ، كنت أرى فيها جانبا مظلم من جوانب شبابي ، جانب اختياري أنا لزواجي ، فقدت هذه المتعة ففقدت اشراقا من اشراقات الشباب الكبرى ، ثم أصبحت زوجا دون أن تصحب زوجي ذكريات من نظرة التقت بأخرى ، أو ابتسامة أو تفكير . وويل للشباب يمضي دون أن يصحب معه ذكريات ١١ ذكريات الحب والاستخفاء والتفكير فيمن يجب ، وفي هذا تحبني هي أيضا .. لا ذكريات لي .. أنا زوج بلا ذكريات ..

ان زواجى حتما لا يحمى معك تلك الذكريات المادية المعروفة . . لم أقصد إلى أمى لأقول لها فى خجل فرحان « أريد أن أنخطب فلانة » لم تقصد هى إلى الدروس ، لأنظروا بما تحمل من أخبار ، لم أر أبى يفكر بعض الشيء ويتردد بعض الحين ثم يقول : ألا ترى أنك متعجل بعض الشيء ؟ على كل حال مبروك . . لا . . لم يتردد أبى . . فقد كان أبى لا يتردد فى أمر تصدده أمى . . لا ذكريات لى من الزواج إلا أمران : تزوجت إلا أنى وجدت نفسى زوجا ، زوجا لفتاة لا عيب فيها إلا أنها تمثل أمرا مفروضا على أن أنفذه لا ذنب لها وأعرف ذلك . . ولكى أنا أيضا ما ذنبى . . أصبح البيت جحيما لى وأنا الشاب فى ريمان العمر وهى الفتاة فى اشراقة الشباب ، أنا هنا فى الحان مع صديقتى التى اخترتها أنا ، والتى استخفى بها والتى أحقق بها ما حرمتنى أمى من تحقيقه . .

أنا هنا فى الحان ألبا إليه بعد عمل ، لا أرى زوجتى ولا ترائى إلا مضمورا فى آخر الليل ، ان كانت فى آخر الليل صاحبة ، أو مصدوعا فى أول النهار ، ان كانت فى أول النهار خالية . .

مسكنة سامية . . لقد كانت جديرة بزواج رائع ، بل لقد كانت جديرة بأن أحبها أنا لو أنى أنا الذى اختارها . . ولكن أمها وأمى دبرتا المؤامرة فقصت علينا أن نحيا حياة ، الموت خير منها . .

لقد فكرت أمها وأمى فى أن يتزوج الابن من الابنة ولم تفكر منهما فى الابن أو الابنة ، انها رغبة اشتعلت فى نفس كل منهما فكنا نحن وقودها وكانت حياتنا الحريق .

أنا هنا فى الحان أشرب مع صديقتى ، وزوجتى بالبيت لا أدري ماذا تفعل ؟ أعلم أنها مسكنة لا ذنب لها . . ولكن أنا . . ما ذنبى ؟



هو الله

كانت معربة مجنونة في رأس عالم يجب أن تكتب له الشهرة ، ويصعد إلى قمة
المجد ولم يسكت العالم عن التفكير وإنما أخذ يلذع بين اخوانه العلماء هذه الفكرة التي
سيطرت عليه ، وأراد العلماء الناشئون أن تكتب أسماؤهم كمساعدين لذلك العالم الكبير
فيفوزون بذلك سلام كثيرة إلى سماء المجد الذي يلمون به ..

كانت الفكرة عجيبة ! فهو يريد أن يصنع الأدميين خارج الأرحام ولكن ،
ما الروح ؟ هو يعلم أن الجسم متكون من خلايا وهو يعلم عمل كل خلية في كل جزء
من أجزاء هذا الجسم ، بل انه يعلم مما تكون هذه الخلية .. ولكن كيف تسير ، وكيف
تؤدي المهمة التي ألقها عليها الحياة ؟ لم يكن يعرف ، ما هي الروح وكيف يستطيع
الانسان أن يحيا ، ويسعى ، ويشعر ويحس ويتكلم ، ويفهم ، ويفرح ، ويحزن ،
كيف ؟ لم يكن يعرف ! وهل إذا وضع العناصر التي يتكون منها الجسم بعضها إلى بعض
تنتج تلك المعجزة الضخمة التي حيرت العقول ؟ ! كان يعلم أن وضع هذه العناصر
وخلطها لن يؤدي به إلا الفشل الحاسم السريع ..

وعجب العالم من هؤلاء الذين ينكرون الله !! كيف ينكرونه وينكرون معجزاته
وهم في أنفسهم معجزات لم يصل أحد إلى ادراك كتبها بعد ؟ ! وهذه عجيبة هذا أن يحاول
بعض الناس أن يثنيه عن فكرته جميعا ، فالنسل في ازدياد والمشكلة تحل بالإقلال منه
لا بالزيادة ، ولكن العالم ركب رأسه وأراد أن يثبت عبقريته ..

وأصبح تفكيره منحصرا في أن يهيئ في قوارير زجاجية جوا مماثلا لجو الأرحام يضع
فيه الحيوانات الإنسانية تسعة أشهر ثم تكون الولادة ..

واستمر في تجربته تلك السنين ، ومساعدوه من حوله يتظرون وفي كل مرة يرى سببا لفشل التجربة ، فيزيله ، وتمر الأعوام والأرحام الزجاجية عاقر ما تزال . . لا تهب البنين ولا البنات .

ثم شاء الله سبحانه وتعالى أن يسخر من هذه الحشرة المتعالة فأمر وقال للمقارورة كوني فكانت .

وكانت التجربة تجري على قارورتين فأخرجت احدهما ولدا ذكرا وأخرجت الأخرى الأنثى .

وفرح صاحب الفكرة وأذاع في العالم نجاح تجربته وارتقى إلى سماء المجد في لحظة واحدة . . لحظة أن بكى الطفل وبكت الطفلة .

وتسلى العلماء الصغار حبال المجد التي علقها كبيرهم ، واطمأنوا نفسا وقروا عينا ، لقد نجحوا في أكبر تجربة عرفها التاريخ وأرادوا أن ينسوا لحظهم أنهم لم ينشئوا انشاء وانما هيأوا جوا ، وتركهم ربك في غيهم يرحون . .

ولكن شيئا واحدا كان يعكر على العالم الظافر فرحته المجنونة . . ذلك أنه كان حين يضع سماعته على موضع القلب من الطفل أو الطفلة لا يسمع تلك الدقات المنتظمة التي يجب أن يسمعها ، وإنما كان يسمع هديرا كهدير البحر والصخب ، ويحاول أن يجد لذلك من العلم تعليلا ولكن هيهات !! فسكت عن الأمر وحسبه حتى عن مساعديه لينال المجد كاملا ، والتهتات خالصة ، حتى إذا خفت صوت المجد وبدأ صخب الناس ، وفرغ إلى معمله مرة أخرى بعد ضجيج الصحافة والاذاعة والتليفزيون والسينما همس إلى مساعده الأول بتلك الظاهرة التي تطالعه من هذين المخلوقين وحمل المساعده هذا السر في احساس بالخطورة وشعور بالرهبة واقترح على أستاذه ، أن يضع المخلوقين تحت الأشعة . .

وفي تكتم شديد أعدت أجهزة الأشعة ووضع قلبا الطفلين موضع البحث . . ولكن ما هذا ؟ نظر العالمان كل إلى الآخر نظرة ملؤها الدهشة والذهول ثم نظرا مرة أخرى إلى تلك الصورة التي ظهرت لهما في الأشعة . . لكم سخر الإله منها . . ان الطفلين بغير قلب ، لقد شاء الله أن تقوم الشرايين مباشرة بدون القلب ومحا القلب من أولاد القوارير . . ان حب الأمومة والرحمة التي يفيض بها قلب الأم هي التي تضع القلب في الطفل في رحم الأم . أما الزجاج البارد الأخرس فهيهات أن يهب القلب !! لقد استطاع العالم أن يجعل جوه مثل جو الرحم ، ولكنه لم يستطع أن يجعل فيه رحمة الأمومة . .

كتم العالمان الخبر عن الناس فقاما على الطفلين يهثان لهما الغذاء الأمثل حتى درج -
الطفلاق وتعلما الكلام وفهماه ، ثم ذهبا إلى المدرسة وهناك سمعا اخوانهما يتكلمون عن
أمهاتهم فتعجبوا ! ما معنى هذه الكلمة ؟ ما الذى تهدف إليه ؟ سالا العالمين فى المنزل
فشرحا لهما الأمر فتعلماه ، درسا كدروس المدرسة فى الجغرافيا والتاريخ ولكنها لم يحسا
به ..

وحين علم اخوانهما أن لا أم لهما ، أخذهم العجب ، بل إن الأساتذة أنفسهم قد
عجبوا من أمرهما ، فهم قد سمعوا أن شخصا يولد فلا يعرف أباه ، وأمه !! وسمع
الطفلاق فيما سمعا أن شيئا فى الحياة اسمه الرحمة وبآخر اسمه الحب وآخر اسمه الخنان
وآخر اسمه الفرح وآخر اسمه الحزن وآخر اسمه السعادة وآخر اسمه الشقاء .. سمعا
هذا جميعه وألحت هذه الألفاظ على أسماعهما ، فاذا سالا قائلها عن معناها حار كيف
يصفها ، ثم لا يجد مخرجا من حيرته إلا أن يقول هذه الأشياء لا يعرفها الناس فى الألفاظ
وإنما هى احساسات تضطرب بها النفس .. احساسات ؟ ! ما معنى هذه الكلمة
أيضا ؟ ! وهكذا لا يجد الطفلاق أحدا يسأله إلا العالمين بالمنزل - فيحاول العالمان أن
يترجما لهما ويحاولان أن يضعا التعاريف مثل تلك التى يعرفون بها النظريات العلمية ولكن
هيئات أن يفهم الطفلاق ولا يستطيع العالمان الكبيران أن يفهماها .. ولا يجدان أخيرا
شيئا يقولانه إلا أنه احساسات وتزداد حيرة الطفلين ولكن قليلا ما تمكث هذه الحيرة ..

إلا أن اسما معينا كان يسمعانه كثيرا فلا يفهماه مثل كل ما لا يفهماه ..
الله ؟ ! .. إنها يسألان العالمين عنه فيقولان الله الذى خلق كل شيء - وخلقنا ..

- وخلقكما .

- فلماذا يحمده من تصيبه سيارة فى الطريق ولماذا يحمده من ينال مالا كثيرا .

هو نفسه الله يحمده عندما يقع لهم ما يسمونه حزنا ويحمده عندما يتم لهم
ما يسمونه فرجا ..

- لأن الناس يؤمنون به ..

- يؤمنون ! . كيف يؤمنون ؟ !

- يؤمنون به أن يهبهم الصبر عند المصيبة ، ثم هم يشكرونه عند الفرح ..

ويسمع ولدا القوارير هذا الكلام فيضعانه من عقليهما حيث يضعان كل ما لم يفهماه
من قبل .. إلا أن ذلك ترك فيها غصة ، ولكن العالمين يضطران آخر الأمر أن يشرحا
لها أنها مختلفان عن الناس جميعا ويرويان لهما كيف جاءا إلى هاهنا الدنيا فلا يصيب هذا
من نفسيهما شيئا ولا يفسر لهما شيئا ..

وتمر الأعمار ويبلغ الطفلان مطالع الشباب الأولى فتتحكم النزوة فيهما . . نزوة لا تتحكم فيها عاطفة ولا شعور ويخشى العالمان على مصيرهما فيزوجان الفتاة من الفتى ، ويقيان المراسيم الدينية ولكن الفتاة والفتى لا يفهمان من هذه المراسيم شيئا وإنما يفهمان أنهما سيتزوجان ، ويفهمان هذا المعنى مجردا عن كل روحية فيه ، لقد سمعا أن الناس فيما بينهم يتحابون ثم يتزوجون ولكن ما هو الحب ؟ لم يعرف واحد منهما إنما قد عرف الرغبة . . فكان الزواج ثم كان لهما أطفال وكان الأطفال يموتون الواحد تلو الآخر فلا يحسان لذلك ألما ولا حزنا إنما هو شيء جاء فيما فرحوا به ثم ذهب فيما حزنوا عليه ويريان الناس من حولهما يحزنون ويريانهم يدمعون ويكون لمصائبهما فيعجبان من الناس . .

وتمر الصور أمامهما كثيرة متلاحقة فهما يريان الناس تفرح وتحزن وتغضب وتنسبط وتأنم وتصح وتشفى وتسعد ويريان الحياة أمامهما تضطرب وتنجو بهذه الإحساسات والمشاعر ، وهما عنها بمنأى ، بعيدان عن كل ما تزخر به فيشرب خاطر واحد إلى رأس كليهما فما يلبثان أن يذهبا للعالمين فيقول الفتى . .

— قلتما لنا أنتما اللذان سمعيتما لمجيتنا في هذا العالم .

— نعم . .

— فنحن نريد أن نخرجانا منه كما أدخلتينا فيه . .

— ولماذا ؟ !

— لأننا نعيش فيه ولا نحبه لأننا نأكل كما يأكل الناس ونشرب كما يشربون ونتعاشر كما يتعاشرون ولكننا لانحس كما يحسون . . إننا مشتاقان إلى الإيمان . . إلى السعادة . . إلى الشقاء . . إلى الألم . . إلى الفرح . . إلى الحزن . . إلى كل هذا الذي نراه يضطرب في إحساس الناس ولا يضطرب في أجسامنا . . لأننا لا إحساس لنا . نريد أن نموت . . ليس هذا العالم لنا . . إننا هنا غلطة . . إننا هنا سخرية . . لقد أراد الله أن يسخر منكما فكنا نحن . . ألم تقولا إنكما حاولتيا أن تصنعا مثلنا فما أفلحتيا . . نحن سخرية العالم منكما . . ألم تقولا إن من يموت يختاره الله إلى جواره ، نريد أن نذهب إلى هذا الجوار فهناك سيعطينا الله ما حرمانا منه هنا . .

ويقول أكبر العالمين :

— ولكننا لا نستطيع . . إن موتكما ليس من عملنا . .

— ولماذا ؟ ! إن الذين يقولون عنهم إنهم مجرمون يقتلون في كل يوم فاقتلنا مثليا

يفعلون . .

— إننا لسنا مجرمين . .

— بل أنتما أشد إجراما منهم . . ألم تفكرا حين قمتما بتجربتكما . . أى شيء هذا

الذى تفعلا وتزعمان أن لكما قلوبا .. وتزعمان إن لكما إحساسا .. إننا نحن - ونحن بلا قلب ولا إحساس - نفكر في العواقب ، أما أنت أيها العالم العبقري فلم تفكر في مصير انسان ليس بانسان . لقد أراد الله أن يسخر منك فكنا نحن .. فاقبلنا ..

- لا نستطيع ..

- اذن نقتلكما نحن ..

وأخرج الفقى من جيبه سكيناً وأراد أن يطعن به العالم الكبير ولكن كان يعرف ما يتويان فسرعان ما يخرج غدارته وسرعان ما يسقط ولدا القوارير صريعين مضرجين بدماء هي في أصلها تتسبب للانسان وإن كانت قد ربيت في بيت من زجاج ليس فيه من الانسانية عرق .. وتمت كلمة ربك واختار الفقى والفتاة إلى جواره وتكسرت القوارير ، فالرحم وحده هو الذى اختاره الله ليخرج منه الحياة .. والروح - قبل - من عنده سبحانه .. هو الله ..

سماء ولا أرض

تأهبت الجيوش لحرب ، ولم يطمئن الملك إلى قواده فهو يشرف على كل شأن . ولا حديث له إلا الجيش وما اكتمل من عدده ، وعتاده ، والمدينة قائمة لاتعرف قرارا ، والناس مضطربون ، فمن لا يذهب منهم سيقدم ابنه أو أخاه أو أباه ، يدفعون ضريبة الدم للوطن والدين ، والألسنة كلها تدور في أفواه أصحابها لا حديث لها إلا هذه الحرب ، والأعين كلها هالعة ، خائفة فهي تتجه إلى السماء داعية في خضوع ، راجية في الحاح ، ثم ترتد إلى الأرض وقد هدا هالعا واستقر مضطربا ، ولكن إلى حين قريب ، ثم ما تلبث أن تتجه مرة أخرى إلى السماء ، وهكذا تظل مترددة بين لطف السماء ، ورهبة الأرض . . والجيش لاه عن هؤلاء جميعا ، إلى الأعداد ، والتفكير فيها يحتاجه في تلك الرحلة التي قد تطول حتى نهاية هذه الدنيا ، وقد تقصر فهي إذن سنة أو بعض السنة ، يلاقون فيها الموت ويخادعون عن أنفسهم ، ويقودونه إلى أعدائهم ، والنساء باقيات . . والقليلات منهن القليلات يقفن إلى جانب أزواجهن يلهمنهم العزيمة ، ويوحين اليهم بالمصابرة . . مصابرة النفس ، ومصابرة العدو ، ومصابرة الزمن . .

ويصل الوحي إلى نفوس البعض ، أو هو يرتد عن النفوس الخائرة التي تذهب إلى الحرب لأنها لا تملك إلا ذهابا ، ولعل ذلك الوحي يصل إلى نفوس بعض الجنود فيجد ألا عمل له في هذه النفوس فهي مليئة بالإيمان ، مفعمة بالثقة ، وهبت نفسها لله وفي سبيله تحارب . .

وكان في المدينة شاعر . . أراد أن يذهب إلى تلك الحرب ، فقد كانت العقيدة تملأ جوانب نفسه ، وقد شب لا أمل له إلا أن يحارب أعداء الله في سبيل الله ، وقد كان الشاعر يعرف طريقه إلى قصر الملك . . بل كان يعرف طريقه إلى جلسة الملك ذاتها ،

فهو يذهب إلى هناك ويجلس .. وما هي إلا لحظات حتى ينتهي الملك من أوامره التي كان يصدرها متلاحقة قاطعة ، فقد كان الجيش في سبيله إلى الرحلة اذا ما أقبل الصباح ..

ويقف الشاعر فيلقى قصيدة رائعة ثم هو يسأل الملك أن يسمح له بالذهاب مع الجيش فيقول له الملك :

— ولكنك الشاعر الفرد ، لو فقدناك وجدنا لك عوضا ..

— أبفك الله يا مولاي ، أئمننى هذا حقى ؟

— وأنا أخشى عليك ..

— أنخشى على الموت يا مولاي ولا تخشى قولهم ، قد جبن حين نفر الناس إلى الجهاد ، وخاف حين هم القوم إلى النضال ..

— إنك يا أخى لتقول الشعر فتذهب النفس الحائرة قوة ، وتلهم الروح الناكسة إقداما ..

— شكر الله لك يا مولاي ، فأين يكون مكانى إذن إن لم يكن بين قوم يناضلون ، قد يتعرض لهم الموت فيصيب من عزيمتهم .. ألا أكون أنا أجدر الناس بالذهاب إلى الحرب فأرد خوفهم شجاعة ، وتراجعهم إقداما ..

— لكم أتمنى أن تبقى ، ولكننى لا أملك أن أبقيك فإليها أيها الشاعر .. إلى حيث تريد لنفسك ، وإلى حيث تريد لك نفسك من شوق .. أما اليوم فاننا سنريح أنفسنا ، من عناء ما كنا فيه ، ونهيه أرواحنا لما ستقدم عليه بليلة بيضاء ، ينيرها الأمل في المستقبل والإيمان بالله ، وما لا يغضبه سبحانه .

كان هذا النقاش يدور وقد جلست الجاريات ينتظرن انتهاءه حتى يقمن بالغناء وكان من الجاريات بثينة ، وكان شاعرنا يحب هذه الجارية حبا بعيدا عن الأمل ، فهو يعلم أن فقره يقصيه عن بثينة ، وهو يعلم أن لها في القصر مكانا ، وأن لها في قلب الأمير مكانا ..

ولكن هذه الهوة البعيدة لم تمنع أحلامه أن تجمع بين أسوار عقله ، وإن للأحلام جوها إلى المحال ، ولا بأس عليها ، فما هي الا سرحة ثم تصيح تلك الأحلام هباء لم يعرف بجموحها الا صاحبها ، وإنه لكاتم سرها لم يسمح لها يوما أن تذيع .. وهكذا كانت تتور أحلام شاعرنا شهاب به فتفكر في تلك السعادة التي قد تنهيا له لو أن حبا مثل حبه وقع في قلب بثينة ..

كانت بثينة إذن بين الجاريات ، وسمعت ذلك النقاش بين الأمير والشاعر فاشتد إعجابها بالشاعر ، فهي تعرفه شاعرا ينشئ القصائد الرائعات .. وهي تعرفه ينسج المعاني الخالدات ولكن لم تعرفه رجلا يبتكر الكرميات من الأخلاق ويتدع العظام من التضحية ..

وكانت ليلة ثم كانت الحرب فذهب إليها شهاب وأحلامه ما تزال تجمع به فيرد جماعها وبقيت بثينة وإعجابها بالشاعر قد يصبح بجانبه إعجاب برجولته .

ويند في الجيش إلى الحرب ، ويحمي الوطيس ، وتهم الهزيمة أن تحيق بجيش شهاب فما يمنحها عنهم إلا الليل ، الذي يرغم الأعداء أن يرددوا إلى خيامهم قبل أن يتم النصر لهم ، وإن كانوا قد وثقوا منه يكادون يحسون به بين أيديهم .

ويعود جيش الملك إلى جراحه يداوينا ، وقد انكسرت العزيمة ونحارت النفوس ، وأصبحو ولا أمانة لهم إلا أن يرجعوا إلى ديارهم بتلك الغلول التي أبقى عليها الليل ، ويرى الشاعر ما ألم بجيشه فيعرف أنه قد أن للسانه أن ينطلق ليرد النفوس الخائزات إلى شجاعتهما ، ويعيد الأفئدة الهالعة قوة واندفاعا ، ويذكر بقية الجيش الهزيم أن اللجنة تنتظر القادمين .. وينطلق شهاب يخطب ولم يكن حوله حين بدأ الا شرذمة ضئيلة استطاعت أن تخلص من أحزانها وخوفها لتقف قليلا إلى ذلك الفتى الذي استطاع أن يملك زمام نفسه ، فهو يدير الحديث في براعة وهو يبتكر المعاني النافذة آخذه سبيلها في قوة إلى قلوبهم ، ولم تلبث هذه الشرذمة إن اتسعت حتى أصبحت تضم الجيش كله ، وإذا الجيش لا يطيق أن يبيت ليلته على الهزيمة فهو يندفع في قوة عبقرية إلى الأعداء وكأنما هو جيش جديد غير ذلك الذي كان منذ صدر الصباح إلى غسق الليل ، فهو إذن لم يهزم ، وهو إذن لا يعرف الا أن الأعداء على مرمى القوس منه ، وإنه ليس بينه وبين اللجنة إلا أن يهزم هؤلاء الأعداء أو يموت .

ويندفع الجيش وصيحات شهاب ما زالت تدوى في جميع قلبه ، وكانت جيوش الأعداء تحفل بالنصر الذي أصبحوا منه أقرب من هذه الأرض التي يجلسون إليها . وكان احتفالهم بالنصر خيرا معتقة تدبر الرموس التقت بها نشوة معركة في نفوسهم من فرحة النصر ..

وهكذا التقى جيش المسلمين يدفعه الحزم على اللجنة ، وجيوش الأعداء يتعد بهم الحزم على الأرض ، التقت السماء والأرض ، والحق مدعا قويا ، بالقوة سكرانة لاهية ، التقى الجمعان فكان نصر المسلمين حليما كاملا وما أن انبلج الصبح حتى كانت جيوش الأعداء تولى الفرار وكانت جيوش المسلمين تتأهب للعودة إلى بلادها ، النصر فيها ، والفرح يحيط بها من كل جانب .

وجلس الملك إلى قواده وعرف منهم ما كان من أمر شهاب وخطبته فهو يرسل في طلبه فما يلبث أن يجيء فيقول له الملك :

- هيه يا شهاب لقد كان والله لسانك أقوى من الجيش .
- بل كان إيماني يا مولاي أقوى من العالم .
- أريد يا شهاب أن أكافئك .

- إنما لا يكافأ المرء لمثل هذا يا مولاي ، لقد كانت مكافأتي في العمل الذي أقوم به ، فقد كنت أحس وأنا أخطب قومي وأرى استجابتهم أنني أسعد الناس جميعا ، ولن تستطيع يا مولاي أن تهيب لي مثل هذه السعادة .. أجل يا مولاي كان عملي نفسه هو المكافأة التي أتمنى أن أنالها ..

- هو ما قلت يا شهاب وإنما أريد أن أعبر لك عن إكباري ، ولن يكون هذا التعبير إلا هدية .

- وإن رجوتك أن تعفي من قبولى الهدية ..
- أمرتك أن تقبلها ..
- ومالي إلى رد أمرك من سبيل يا مولاي ..
- قد جعلت لك قطعة من الأرض ، تلك التي تجاور بيتك ، وجعلت لك بثينة جاريتنا ، هي لك هدية .
- من يا مولاي ؟
- بثينة ..
- تقصد ذلك القوام الأهيف ، هاتين العينين الصافيتين ، هذا الفم الملائكي ، هذا الشعر الأليل ، هذه ..
- أجل إنها هي ومنذ الليلة هي ملكك ..

ويخرج الشاعر من ديوان الملك ، وقد ملك الغنى فما فرح به وملك بثينة ، فهو لا يدرى كيف يشكر الله على ما أنعم ، ثم هو ما يلبث أن يحسب كل ما كان من أمر الملك وأمره حلما من تلك الأحلام الجائعة التي تثور به فهو ينظر إلى الأوراق بيده فيرى فيها أن بثينة قد أصبحت على خالص ملكه .. يراه حقيقة في يده لا تحتمل تكذيبا فيضع الورقة في جيبه ولكن هيهات لها أن تستقر فهي خارجة بعد برهة إلى يده وعينه ، وهكذا تفلل الورقة بين طلي المصدق ونشر المكذب حتى يصل شهاب إلى منزله فيبهى أهله وأهله ما يبشرون به ، هذا الحلم الجامع الذي أصبح حقيقة يراه بعينه ويلمسها بيده بل يكاد يلمسها بفؤاده ، ويبحث عن حديث ويطول البحث والجارية صامته تنتظر ما تنفجر عنه هاتان الشفتان اللتان أصبحتا تتحركان في كل خطوة كتب عليها أن تمسحها ، وأخيرا تنفجر الشفتان .. شفتا شهاب فهو يقول :

- .. أتراك تعلمين فقري وتنظرين إلى غدى .. أحلم أن الفارق بين ما كنت فيه وبين ما أنت فيه كبير .. هل تعلمين ؟
- .. يا خفية الأمل !! حتى الشعراء ينظرون إلى الأرض .. ليس الفرق في المكان يا سيدي ..
- .. يعلم الله أن مكانا أنت فيه هو الجنة ، ولكنني أردت أن انظر من هينك ..
- .. أو هكذا تبصر عيناى ؟ !
- .. هكذا تبصر عيون النساء .
- .. بل قل هكذا تبصر عيون الإماء ..
- .. أنا لم أقل ..
- .. تريد أن تقول ..
- .. أحسبا على خافية الصدور ؟ !
- .. وهل الشاعر إلا صدره وما يخفى ؟ !
- .. أو شاعرة أنت ؟ !
- .. بغير شعر ..
- .. وكيف ؟
- .. ليخيل إلى أنك لست الشاعر ، هل الشعر عندك هو تلك الألفاظ الموصوفة على وزن ، منتهية بحرف متحد ، ما أشبه الشعر اذن بطريق مرصوف تحله الحدود المستوية ..
- .. بل الشاعر هو تلك الروح العالية ، ترفع عن الناس عبء التعبير عن الأهم وأفراحهم فتطلقها لهم في النغمة المتسقة واللفظ الكريم .. الشاعر روح ..
- .. فأين هي فيك ؟ !
- .. أفقدتها ؟
- .. فأني والله لأجدها في شعرك فألتلها ، وأفتقدتها من شخصك فأفقدتها ..
- .. أفقدت الروح ! !
- .. بل فقدتها كلامك ..
- .. كأنك لاتعرفين المحب إن لاقى الحبيب !
- .. فأين المحب وأين الحبيب !
- .. فأني أحبك ..
- .. أو رأيتني ؟
- .. مرات ..
- .. بين الجوارى ؟

- وما في ذلك ؟
- فأنت تحب متى تناسق الوجه وانسجام القوام .
- وما في ذلك أيضا ؟
- أو هكذا يحب الشاعر !
- فكيف يحب الشاعر ؟
- يحب الروح السامية لا الجسم المشوق ، يحب التفكير الرفيع فيمن يحب ..
- أو تفقدن الروح السامية ، والتفكير الرفيع !
- لئن كنت أفقدهما فأنا لا أعترف ..
- فأنتي أراهما ..
- كيف وانت لا تكلمني إلا اليوم ..
- أو يحتاج الحب الى أيام ؟
- بل الى سنين ..
- أى حب ذاك ؟
- الحب الأصيل !
- أو عرفته ..
- عرفته ..
- لغيري ؟
- لغيرك ..
- وتريدن أن أتركك له ..
- لم أقل ..
- ألا تطلعين كثيرا ..
- إذا كنت انسانا تكل الناس فالطلب فادح ، ولكنك الشاعر ..
- ولكني أحبك ..
- خيال .. لو لم يحبني الملك لك ما أحببني ..
- أنت الوهم الذي أجسمه كلما تخيلت الحبيب ..
- فأنت ضلتي .. ما هكذا يكون الحب .. ما هكذا يحب الشاعر !
- أليس الشاعر انسانا !
- بل هو الانسانية في أرقى مدارجها .. وما هكذا يحب .. ان كان حبك لي أبين نظرة فما أشبهك بالحيوان ينتار زوجة عندما ينظر اليها ، ولكن الانسان يختار حبيبه باتفاق الروح وانسجام الود ، واتحاد المثل الرفيع ..
- وحيى لك ..
- وهم ..

- أحبك .. ولكن من ذلك السابق ؟
- فتى ككل الفتيان ، ولكننى أحبه ، عاهدته وعاهدنى فما حث وما حثت ..
- أتحيينه وأنت لا تملكين نفسك ..
- لقد كنت عند مالكى سلعة يشتريها ويهدى بها أو يبيعها وله على حق الطاعة ، ولكن قلبى لم يخطفه الخاطف بعد وما اشتراه منى أو من خاطفى أحد ..
- ولكن الفتى خطفه منك ..
- بل أهديته اليه حبا بحب ..
- فان تبين لك أنه كاذب ..
- أعرض عنه .. وأحبه ..
- والجرح ..
- أضرم نفسى عليه ، وأمنعه أن يلتئم فهو بقية حب كريم ..
- أتأذنين لى فى الخروج ..
- إلى أين ؟
- إلى حبيبك ..
- أو تعرفه ؟
- نعم ..
- (ضاحكة) فما اسمه ؟
- المحب المخلص ..
- وما أدراك أنه مخلص !!
- ليس فى العالم انسان يجبه كل هذا الجمال بكل هذا الاخلاص ولا يخلص .. ولا يوجد غير مخلص واحد هو من تحبين ..
- فأنت تبارك هذا الحب !!
- انما الانسانية هى التى تباركه ..
- فأنت تعتقنى ١٩
- وهذه أوراقك ..
- فأنا حرة ١٩
- ليس لمثلك الرق ..
- فضل لا أنساه ..
- أنت صاحبتى ، لقد عرفت منك - وأنا الشاعر - الحب كيف يكون ١٩
- ولا تنتهى الليلة حتى يكون فتى بثينة قد جاء الى بيت شهاب ويتم زواجه بها ويخرجان ..
- نعم لم يكن الأمر غير حلم جامع من تلك الأحلام الجامحة التى تعربد فى ذهن شهاب وان يكن

في هذه المرة قد خرج الى عالم محسوس حقق به سعادة اثنين ثم عاد حلما ، كما كان يربط اليه
ذكريات فيها السعادة .. سعادة النفس الكريمة تقدم الخير ، وفيها الشقاء .. شقاء الروح
الشاعرة تحرم ممن تحب .. ولكنه على الحاليين حلم فرحان بالسعادة والشقاء جميعا .. اطمأن
الى صاحبه فضمه بين أحناء كريمة تزف الى السماء فما تعرف الأرض ..

الرحمة القاسية

دخل الساعى الى لطفى أفندى يحمل اليه ظرفا من النوع الرخيص الذى يلاقيك به أطفال الطريق . وقد كتب عليه الاسم « لطفى عبد الكريم » فى حروف واضحة وان كانت شوهاء .

وتناول لطفى الخطاب دون أن يلقى اليه اهتماما ، وألقاه الى جواره ريثما ينتهى من الأعمال التى لا بد له أن يقوم بها واستقر الخطاب فى موضعه ينتظر لطفى أن يفرغ . .

وفرغ لطفى من أعماله ، وكاد ينسى الخطاب ، لولا أن مرت بأذنه كلمة « البوسطة » ألقاها أحد زملائه الى آخر فتذكر تلك المهمة التى أدتها له البوسطة فى صباحه هذا وتذكر ذلك الخطاب الملقى الى جانبه فأخذ يبحث عنه حتى وجده وراح يفتحه فى كسل وهو لا يفكر فيما قد يحمله اليه الخطاب ، ولا يحاول حتى أن يخمن فى من يكون مرسله !!

وانفتح الخطاب أخيرا وبدأ لطفى يقرأ ، ثم مالبت ريقه أن جف وراح قلبه يخفق فى وجيب متدافع صاخب وتولت يديه رعشة نائرة ، وعلا وجهه شحوب قانط أصفر ، وانبعثت على جبهته قطرات من الماء فما يدرى أألقتها على جبهته يد صديق ، أم ثورة الدماء فى عروقه ؟ . . أصبح لطفى فى ومضة عين انسانا منفصلا عن العالم الذى يحيا فيه فهو لا يحس من حوله شيئا وانما هو بجميعه يحيا فى هذا الخطاب الرخيص الذى لقيه هذا اللقاء الفاتر . .

لقد كان هذا الخطاب الحقيقى يحمل أمرا كبيرا . .

وضع لطفى الخطاب أمامه وطلب الى الساعى أن يحضر له كوب ماء ، وانتظر حتى شربه وأغمض عينيه قليلا ثم عاد الى الخطاب ثانية يقرأ . . لا . لم يقد كوب الماء ، ولم تجد هذه الاغماضة التى أصابها . فالخطاب مازال يحمل نفس الكلمات ، أو مازالت هذه الكلمات تؤدى نفس المعانى ، وانما المصيبة ! . زوجته خائنة ! . سميرة التى بذل لها أجمل أيام الحياة والتى

ضمتها وایاه أحلى الأوقات .. عرفها وهو لم يتنه بعد من دراسته فكانت له فى هذه الأيام اشاراته تضىء له الطريق الى المستقبل ، وعرفته هى حين كانت آمالها فى المستقبل حائرة مضطربة فوجدت فيه مرتعا لآمالها وتحسبها لأحلامها .. والتقت الآمال منها والقبول من أسرتهما .. فكان الزوج ..

ومشت بهما الأيام ، لا يفكر يوما أنه أساء إليها ، ولا يذكر أنه مس كرامتها فى شىء . نعم انه يسمع عن هؤلاء الأزواج الذين يقبلون زوجاتهم كلها أصبحوا أو أمسوا . ويسمع عن هؤلاء الأزواج الذين لا يخرجون من بيوتهم الا اذا وقعوا بشغافهم على وجوه زوجاتهم ولا يرجعون الى بيوتهم الا وقوا مرة أخرى . ولكنه لم يأت مثل هذه السخافات وكيف يقبل أن يجعل من وجه زوجته دفتر حضور وغياب ! مثل ذلك الذى تلزمه وظيفته أن يوقع عليه داخلا وخارجا . وهو يسمع عن الأزواج الذين يدللون زوجاتهم فيمتدحون ثيابهن مهما تكن ثيابهن تلك ، ويمتدحون عقصة شعورهن على أية ناحية عقصن ذلك الشعر ، ولكنه هو لم يفعل مثل ذلك مع زوجته ..

لا .. انه لم يكن يدلل زوجته ولم يكن يقبلها مصباحا ومسيا ولم يكن يمتدح ثيابها وعقصة شعرها ، لقد كان يحترمها .. وهو يعتقد أنها ترضى منه بذلك الاحترام فهو يعرف عنها الذكاء الذى لا يقبل الملقى ، والخصاصة التى تأبى السخافات . نعم انه يلحظ أنها كثيرا ما كانت تغير الطريقة التى تصفف بها شعرها فكانت تجعله كدليل الحصان حينما أو كانت تلمه فى دائرة مكتملة وراء رأسها ولكنه لم يكن يلقى الى هذه التصفيفات بالا ، ولم يهتم اذ ذاك أن يمتدحها لها ، أو يذكر عنها شيئا بخير أو شر فقد كان يحب سميرة .. سميرة التى عرفها يافعا يدرج الى الشباب وشابا يصعد الى المستقبل . وسميره عنده أكبر من عقصة الشعر ومن تغيير الثوب ومن كل مظهر تتخذه انه يحب كيانها الذى أحبه يوما وما زال ..

أحب سميرة التى فضلتها على جميع من سعوا اليها خطابا والتى اختارتها بقلبها وعقلها من بين الكثيرين الذين تقدموا لخطبتها حين كان هو يكمل دروسه بالجامعة ! سميرة التى رفضت هؤلاء لتنتظره . حتى لقد رفضت ابن عمها نفسه وهو الشاب الواسع الثراء ، الجميل .. الأنيق .. نعم لقد رفضت محبى الأدهم بكل ثرائه وجماله وأناقته لتختاره وهو .. محبى الأدهم .. ألا يكون محبى هو من أرسل ذلك الخطاب ، وما له لا يكون . وما الذى يمنعه ؟ انه شاب حقير وان يكن ثريا ، ألم يجمع ثراه من التجارب القذرة التى تستخفى من القانون والتى يعظم فيها الربح لعظم المخاطرة التى تحيط بها ..

نعم انه محبى الذى أرسل الخطاب . ومن يكتب هذا الكلام الحقيقى الا حاقده حقير جاهل ، ويعود لطفى الى الخطاب مرة ثانية : « زوجتك تحونك .. رجل يأتى الى منزلك كل يوم .. بعد خروجك . أسأل زوجتك عن هذا الرجل .. مخلص .. ومن يكون المخلص ان لم يكن محبى ، انه مخلص للشر الذى يقتل بنفسه والحقد الذى يشتعل بقلبه منذ رفضته ابنة عمه حين تقدم لها وهو يعتقد أن ثراه لا يجعل لفتاة فرصة لتتردد فى قبول الزواج به . انه

من أرسل الخطاب وانه لكاذب . وحيث أن لطفى بعض الراحة تعاوده . .
! يعود رويدا رويدا الى تلك الحياة التى انفصل عنها منذ قرأ الخطاب . ثم أخذ يلوم
ذلك الشك الذى ساوره فى زوجته الحبيبة المخلصة وأحس أنه بلومه هذا لنفسه يعيد
لحائيته التى طارت منه ويقر فى نفسه الهدوء الذى زایلها . . ثم جاوز تأنيب نفسه الى
نفسها . . كيف يمكن أن يشك فى سميرة ألا ما أضعف ثقته ؟ أيكفى خطاب أحق
، ذلك النوع الذى يلاقيك به أطفال الطريق حتى تزعزع ثقته فى زوجته الوديدة ،
الى رجل ذلك الذى تقبل سميرة أن تخون زوجها معه ، انه لا يرى فيمن حوله رجلا
مأية من سميرة . أترأه مثلا ذلك الرجل الذى اتخذ المسكن المقابل لمسكنه ؟ ! ذلك
الزوجة الدميعة الغنية ، ولكن أى شيء فيه يعجب سميرة ! لأنه يتمتع ثوبها
معها وحسن اختيارها لحذائها وانسجام الحذاء والحقيبة ؟ لأنه يلقي هذه الكلمات
الرضى من سميرة فتخون زوجها الذى تحققت فيه آماله واستقر مستقبلها . لا . .
يكون الرجل هو ذلك الساكن ذو الزوجة الدميعة انه ليس الرجل وليس أى رجل
سميرة لعفيفة . .

بلغ لطفى بتفكيره الى هذا القرار حتى دعاه التليفون . من ؟ حمدى أفندى أبو
. . مات ؟ كيف ؟ كيف مات ؟ وهل يحتاج الموت الى انذار ؟ . مات . . فمن
ه . . لا أحد . . لم يبق لها فى هذه الدنيا العريضة غير زوجها كيف يبلغها الخبر ؟
سب أباه الى أقصى غايات الحب ، كانت ترى فيه حياتها جميعها ، فقد حرمت أمها
ما تزال ، فكان الأب منها أبا وأما . ولكم ألحت عليه أن يقيم معها حين تزوجت
و عليه ولكنه أبى ذلك وصمم على أن يعيش وحده لا يعينه الا معاشه الصغير ،
سميرة ، كيف يبلغها الخبر ؟ !

الى منزله وفتح الباب ودخل . . ما هذا المعطف ؟ انه يعرف هذا المعطف ، انه
ر الجديدي . اذن فقد كان الخطاب صادقا . اذن لسميرة خائنة . يقصد لطفى الى
ويهم أن يدخل ولكن ما تلبث يده أن تتجمد مكانها . ماذا ينتظر أن يرى ؟ وماذا
ن رأى مايتوقعه . ومرت بذهنه أمثال تلك المشاهد التى قرأ عنها فى الروايات والتى
السينما والتى تصور الزوج المخدوع . اذن فهو الزوج المخدوع ! لماذا ؟ لماذا تخدعه
اب لطفى الى موقفه على باب المخدع وقد تجمدت يده فى منتصف طريقها الى
ب . ثم ما لبث أن ترك مكانه وخرج هاربا من البيت الى حيث لا يدري وانما هى
وقه الى مجهول من أمره وطريق يسير به ولا يعنى منه شيئا . لقد عاش طول عمره
الصغار . عفيفا عن مزالق الشباب ، تأبى عليه كرامته أن يستخفى كما يستخفى
، وما كان يمنعه عن ذلك الا كبره واعتداده بكرامته ، ثم ها هو ذا أصبح على
حيرة بلا كرامة على الاطلاق . . ماذا يفعل ؟ أيطلقها ؟ فيعرف الناس جميعا بزوال

كرامته ؟ أقيم معها في منزل واحد فيظل أمام نفسه بلا كرامة ؟ أى الأمرين أكثر أهمية ؟ أن يكون أمام الناس بلا كرامة أم أن يكون أمام نفسه بلا كرامة ؟ وما الكرامة ؟ أليست هى أقوال الناس ورأيهم ؟ إذن فليبق حيناً ثم يصطنع غضبة ويطلقها ولكنها لا يطبق أن يرى تلك الزوجة الخادعة فكيف يحيا معها بضمها بيت ، بل وحجرة وفراش ؟ أما الفراش فلا . فسينفصل عنها ، والحجرة أيضا ، انه سينام منذ اليوم في الحجرة التى كانت مخصصة لأبيها حين كان ينام بها في زيارة . وعلى ذكر أبيها ، انها لم تعرف بعد ما أصابها في أبيها وكيف كان يمكن أن ينبتها ؟ ! وعلى ذكر أبيها أين تذهب سميرة ان هو طلقها اليوم ؟ الى الشارع فتعيش في البؤرة التى صنعتها هى لنفسها ؟ لكن لماذا خانت ؟ أبرضى أن يترك امرأة وحيدة بلا أب وبلا عائل في الطريق وحدها بلا معين ؟ نعم يرضى ولكن أليست هذه أنانية منه . إذن يظل معها طول عمره ؟ ! طول عمره مع خائنة ، خائنة دون أن يعرف سببا لهذه الخيانة ومع من . مع رجل لا يحسن من أمور الدنيا شيئا الا أن يمتدح عقصة الشعر وقماش الفستان ولون الحذاء ، وطراز الحقيبة إذن فيماذا يفعل ؟ أيلقى بعمره جميعه لامرأة تافهة تصدق التعلق الكاذب مع عابر سبيل ؟ نعم سيفعل . لقد طالما تغنى بالمثل العليا فليكن هو مثلا أعلى في . . في ماذا ؟ نعم ان الناس سينظرون اليه في مثله الأعلى على أنه مغفل خانع غمى ولكنه هو سينظر الى نفسه على أنه رجل ضحى بكرامته ليستر زوجته ويحميها من طريق موحش تسير فيه وحدها تفرسها ذئاب الطريق وضواريه فتقع يوما في يد ذلك الجار وربما في يد ابن عمها يحى الذى أرسل اليه هذا الخطاب . . ويل له من ذلك الخطاب ! لم يكن الخطاب هو السبب في ذهابه الى المنزل وانما موت حميه . نعم لقد مات حموه فلم يبق لزوجه الا هو وسيظل لها وسيضرب عليها نطاقا من الرقابة فلا تنفس الا وهو على علم بأنفاسها . .

اتخذ لطفى قراره هذا وهو يحس بهول هذا القرار فعاد أدراجه الى بيته يحاول أن يخفى النار الهائجة في صدره ولكنها تتوقد وتشتعل فعيناه حمراوان ، ووجهه مضرج باللهب وأنفاسه شعل . ويلتقى بزوجه فيكاد يصرخ في وجهها بما كشفه من خيانتها ولكنه يجد خبر موت أبيها قد غلب عليه فيقذف به في وجهها قذفا وتنهار سميرة فلا يدركها وانما يصدر أوامره صارمة قاسية ، وكأنما يشفى بما يعترها من ذهول حزين جازع وتذهل سميرة من موقف زوجها ذهولها من موت أبيها ولكنها لا يحفل بذهولها هذا وانما يدخل الى غرفة النوم فيأخذ حاجياتها منها ويخرج بها الى الغرفة الثانية فيزداد ذهول سميرة ولا تجد الوقت مناسبا لتسأله عن تصرفه الغريب هذا !! ولكنها في غمرة حزنها لا يفرتها أن تدرك أن شيئا خطيرا طرأ على زوجها . .

ومضى ذلك اليوم وتبعه أيام وتجد سميرة نفسها في موجة عاتية من أوامر زوجها الحازمة الصارمة التى لا تحتمل تعليلا في ظاهرها وان كانت في باطنها تحمل الشك الذى يكاد يصل الى المصارحة . ففي اليوم التالى لانتفاء المأتم أخبرها انه استأجر شقة في حي آخر ألقى اليها النبا دون أن يبدي سببا ودون أن يجعل لها مجالا للسؤال عن السبب . وأحست يومذاك أنه قد يكون

متشككا في أمرها . وانتقلت الى البيت الجديد . . كان يخرج الى عمله ثم يفاجئها في ساعات مختلفة من اليوم ليرى ماذا تصنع ؟ فأحست أن الأمر عنده بلغ مرتبة أعلى من الشك . وأصدر إليها الأوامر ألا تحيب طارقا على باب ، فأحست انه يكاد يكون على يقين من أمرها ، وكانت عندهما خادمة واحدة فاذا هي تجدد البيت مليئاً بالخدمات فأصبحن ثلاث في خدمتها وهي تعلم أنه بخيل لا يجب أن يبذل هذا المال الكثير فعرفت انه على يقين من أمرها . وانتظرت أن يفاجئها ولكن الشهور مرت وهو صامت لا يتكلم ويقيم في حجرة غير حجرتها . بل بالبيت ساعات مختلفة من النهار فلم يعد له موعد معين أبدا ! هو يعلم اذن أنها خائنة ، فلماذا يبقى عليها ، ان كبره وغطرسته يأبيان عليه أن يعلن الى الناس أن زوجته تخونه ولكن . . لا . . انها تعرفه . . لقد كان خليفاً أن يطلقها فور علمه بخيانتها ولكنه لم يفعل ، فلماذا ؟ لعله يشفق عليها . . نعم ان هذا أقرب الى تفكيره وهو أقرب لما تذكره من تغيره هذا المفاجيء والذي بدأ يوم مات أبوها . . نعم انها تذكرت ذلك اليوم . . تتذكره جميعه . .

انه يوهم نفسه الآن انه يضحي بنفسه ليضمن لها العيش ، ولكن أى عيش هذا الذى تحياه في بيت هو السجن ، زوجها فيه رقيب وليس زوجا ، يرقب أنفاسها التى تتردد في صدرها . . يفتح باب غرفتها في المساء ثم يقفله ليرى ان كانت وحدها أم لا ، يترك عمله مرات في خلال الاسبوع ليفاجئها من حيث لا تنتظر . يحيطها بالعيون الرواصد من الجواسيس ويطلق عليهم اسم الخدمات . لا . لا يمكن أن تظل على هذه الحياة . ولكن الى أين ؟

واضطرب لطفى في عمله ، وأصبحت الحياة حوله شكا ، فحيثما أدار عينيه وجد القلق والحيرة والهلح . يخل الى أن جميع من يلقاها يعرفون أنه زوج مخدوع . يفر من الطريق . يخشى أن يلقي فيه جاره القديم ، أو ابن عم زوجته محبى ، ويخشى أن يلقي أى جار لمنزله الاول الذى تمت فيه الحياة لا يستطيع أن يخلو بذهنه ليفكر في شيء غير الحياة ، لا يستطيع أن يخلو بحساسه الى شيء غير الشك . يعزم على السفر ويقطع التذكرة ويركب القطار ولكن قبل أن يتحرك القطار يكون هو قد قفز منه وسارع الى بيته ، يذهب الى السينما ويهم بالدخول فيقطع التذكرة ولكنه يسارع بها الى البيت . .

وسميرة لا تخرج من البيت أبدا ! بل باقية لاتبرحه ولكن ماذا تفعل في ذلك البيت ؟ ! انها تنظفه مرات ومرات ولكنه لا يستغرق معها تنظفه الا بعض الوقت ثم تفرغ الى هذا الشقاء الذى يحيط بها في عودة زوجها المفاجئة . وفي تلك العيون المبثوثة حوالها من خادمتها . . وذات يوم تذكر سميرة انها لم ترتب أوراق زوجها من زمن بعيد فتدخل الى حجرته وتفتح أحد الأدراج فيروعا هذا العدد الهائل من تذاكر القطارات وتذاكر السينما وكلها جديدة لم تستعمل ، وكأنما تمثلت هذه التذاكر أمام عينيها شقاء زوجها بها ولها . وكأنما رأت في هذه التذاكر السليمة جرميتها وعفو زوجها والعقاب الذى يقع عليها من جراء هذا العفو في لحظة .

فلا تكمل بحث الأوراق الأخرى وإنما هي تمسك قلما وتأتى بورقة وتكتب الى زوجها خطابا .
ويدخل الساعى الى لطفى بالخطاب يخبره أن خادمته قد جاءت به . ويفتح لطفى الخطاب
في لهفة ويقرا ..

« أعلم أنك تبغى على لأننى لا ملجأ لى اذا تركتك ، وأعلم انك تقوم بتضحيتك هذه
لترضى بها مثلاً أعل أقمته لنفسك ولكنك نسيت شيئا مهما فى تضحيتك هذه .. أنا هو ذلك
الشيء لقد قسوت أنت على نفسك - ما فى ذلك شك - ولكن قسوتك على أشد وأعظم . أنت
قاس على برحتك ، قاس على بمعطفك ، قاس على بسترى على ما تعلمه عنى ، ان تكن أنت قد
قبلت لنفسك هذه التضحية فأنا لا أقبلها . وان تكن ظننت الرحمة فى نفسك حين تأوينى فى
بيتك ، فاني أرى الرحمة فى أن أترك هذا البيت ، ان تكن الرحمة عندك أن تضمنا جدران بيت
على كره ، فاني أرى الرحمة فى تمثيل فى الفراق بيننا . فاني أعلم منذ زمن بعيد أن لا حياة بين
زوجين أحدهما خائن ولا حياة بين زوجين تقوم على المعطف دون الحب . اعطف على اليتيم
والمقطوع وابن السبيل أما زوجتك فأحبها أو طلقها ..

« لن نحمدى فى البيت حين تعود وأرجوك أن تعود بعد أن تنتهى من عملك فلم يعد هناك
ما يدعوك الى قطع عملك للعودة المفاجئة فأنا لست بالمتزل . وأرجوك قبل أن تعود أن تمر
بالمأذون وتطلقنى . أما أنا فسأعمل خادمة ، فان لم أجد عملا سأتسول على أبواب الأضرحة ،
وثق أنى بهذا أكون قد أنقذت نفسى من رحمتك القاسية » .

وقرا لطفى الخطاب وأعاد قراءته واغرورقت عيناه بالدموع . لقد حاول أن يضحى بشيء
لا يمكن التضحية به - كرامته - لم يستطع أن يجعل من نفسه مثلاً أعلى ولكنه سعيد بفشله
هذا ، سعيد بأنه غير ملزم الآن أن يترك عمله أو يقفز من القطار قبل أن يتحرك ، أو يدخل
البيت بتذكرة السينما كاملة بنصفها .. انه منذ اليوم سيمشى فى الشوارع مرحا لا يبالي أى
إنسان سيلقيه فى الطريق ، لقد تخلص من العار الذى حاول أن يقيم حوله تضحية ومثلاً
أعلى ..

وتخلص من تضحيته التى كلفته قطعة من حياته ، وكانت الأيام فيها باهته حائلة اللون
فمنذ اليوم ، أهلاً بالحياة ووداعاً أيتها التضحية ..

عودة السيد سكر

نعم فان اسمه السيد سكر ، والسيد اسم ، أطلقه عليه أبوه قبل أن تلغى الألقاب لتحل كلمة السيد محلها ، وأما السكر فهو اسم صنعت له القرية ، ولم يكن ذلك عن بله من أهلها ولا غفلة ، وإنما كان ذلك في الحرب الأخيرة ، حين أصبح السكر من المواد التي تشرف الحكومة على التصرف فيها ، فلا يعطى الا باذن . . وتصدى السيد للتجارة ولم يكن له بها شأن ، وإنما رأى تجارة التموين رابحة ، ففتح دكانا خاصا لتجارة السكر ، واستصدر رخصة للتجارة ، وهيمن على كل شيء حلو في البلدة ، فأصبح لا يستطيع أى انسان في القرية أن يشرب قهوة أو شايا بسكر الا اذا أذن له السيد ، وأصبح لا يستطيع أى انسان في البلدة أن يصنع فطيرة حلوة أو أرزا بلبن الا اذا كان صديقا صديقا للسيد . .

وفي القرية كثير ممن حاولوا مصادقة السيد ، فأبأها عليهم ، فلم يجردوا شيئا ينفسون به عن غضبهم إلا أن يطلقوا عليه « السيد سكر » فصحبه الاسم منذ ذلك الحين ، وهو فرح به ، راض عنه ، يكاد يوقع به ما يضطره الأمر الى توقيعه ، وقد نشأ جيل ما بعد الحرب لا يعرف أن للسيد سكر اسما آخر كان له قبل أن يلتصق به السكر ويصبح جزءا منه لا يتجزأ .

لم تقف تجارة السيد سكر عند السكر وحده ، بل تجاوزته الى مختلف أنواع البقالة ، وأصبح كثير الذهاب الى البندر ليشتري حاجيات دكانه ، وكان يذهب في كثير من الأحيان الى المعلم حسونة وهو من كبار التجار هناك ، وكان يشتري منه ما يحتاجه دكانه الصغير من بضاعة . توطدت الصداقة بين السيد والمعلم حسونة . حتى لقد دعاه المعلم الى زيارة بيته هو في القرية .

ولكنه كان منذ صباه يحب أن يظهر بالغنى والكرم ، وقد اقتضاه هذا الكثير من المال ، ولم تصده قلة المال عن التظاهر بالكرم والغنى .

وهكذا وجد نفسه آخر الأمر ويعد دعوات كثيرة أجابها للمعلم حسونة .. وجد نفسه مضطرا الى أن يقتطع بعضا من رأس ماله يجدد به منزله ويشتري أدوات مائدة ، استعداداً لدعوة المعلم حسونة .

حتى اذا أتم أهبته ، تجرأ وتقدم للمعلم حسونة ، ودعاه أن يشرف بيته في القرية .. هو والعائلة ..

وشرف المعلم حسونة مصطحبا معه ابنته وابنه ، وكانت الابنة غاية في الجمال ، ولم يكن السيد قد رآها قبل يوم دعوته هذه ، فها أن رآها حتى بهره جمالها ..

وقضى الضيوف يومهم مفرحون ، ولكن المضيف قضى يومه خائرا ملتعب الخاطر مشتت الفؤاد مصعوقا بجمال الابنة .. سكينه ..

وكثرت زيارات السيد للمعلم حسونة ، وازدادت الصلة وقوت ، والسيد يهتم في كل يوم أن يخطب سكينه من أبيها ، ثم يمسك بلسانه خجل لا يبارحه .

نعم لم يكن السيد يعرف عن سكينه الا أنها جميلة ، ولكنه أيضا لم يكن يعرف أن هناك شروطا أخرى الى جانب الجمال ، لابد من توافرها في زوجته .. لا .. لم يكن يعرف ولم يهمنه أن يعرف عن سكينه الا أنها جميلة ، والا أنها بنت المعلم حسونة .

وأخيرا لم يطق صبرا فتكلم .. ولكنه لم يكلم المعلم حسونة ، وإنما قصد الى خاله هو :

— خال .

— خير يا ابني .

— أريد يا خال أن تخطب لي .

— وماله يا ابني ما أحب الى أن أفعل .. أتريد أن أختار لك أم أنك اخترت ؟

— والله يا خال أنا اخترت .

— من العروس ؟ .. أظنها فاطمة ابنة عمك ، فأنت تميل لها منذ كنتما طفلين ..

— والله يا خال الزواج قسمة ونصيب ، وأنا اخترت من البندر .

وقال الخال ملهوقا :

— من البندر ؟

— نعم يا خال ..

— يا ابني ومالنا نحن ومالبندر .. ألم يعجبك أحد من أقاربك أو من البلد كلها حتى تختار من البندر ؟

— والله يا خال القسمة .

— وأي قسمة ؟ .. اننا مازلنا على البر .. ان شئت خطبت لك فاطمة .

- لا يا خال .
- يا ابني بنت البندر لا ترضى عن عيشتنا .
- لا عليك يا خال فأظن أنها سترضى .. فقد جاءت هنا مع أبيها وأعجبتها البلدة .
- أمرك يا ابني أخطب لك من تشاء .
- وهكذا ذهب السيد سكر الى المعلم حسونة وقد اصطحب خاله ليكون لسانه - بدلا من لسانه هذا الذى أعيته الحيلة - ويخطب له سكينه .
- وتكلم الحال وخطب سكينه فى لباقة أدهشت السيد ، وتم الأمر فى يسر ، وماهى الا بضعة شهور حتى شهدت القرية فرحا رائعا للسيد وهو يزف الى عروسة من البندر .
- واستقرت الحياة بالسيد ، وأخلت تجارتها تتسع بعد أن أصبح حموه يعينه بالمال والبضاعة ، واشترى السيد راديو وأصبح دكانه مجلس الصفوة المختارة من أهل القرية ، وكثر عند السيد الأوز والبط والفراخ ، وهيات له سكينه عيشا راضيا ، واستطاعت أن تحببه فيها ، الا أن بقاءها فى القرية لم يكن يرضيها أبدا ! ولكنها لم تشأ أن تفاتح زوجها فى ذلك ، لأنها تعرف مدى تعلقه بالقرية .
- وكانت سكينه خليفة أن تظل على صمتها مدة أطول من الزمان ، لو لم تظل أمها تستحثها أن تذهب الى البندر لتكون بجانبها ، حتى لم تجد سكينه بدا من أن تكلم زوجها .
- سيد ..
- نعم يا سكينه ..
- ماذا تنوى أن تفعل ؟
- فيم يا سكينه ؟
- فى حياتك .
- وأى شيء يمكن أن أفعل فيها ؟ ألسنت مبسوطة ؟
- مبسوطة والحمد لله .. ولكن ..
- ولكن ماذا يا سكينه ؟
- ولكن ألا تفكر انك قد تصبح أبا ، ويحتاج ابنك الى المدرسة .
- أحقا ماتقولين يا سكينه ؟
- والله لست متأكدة .
- على الله يا سكينه .
- ليس هذا ما أسألك عنه .
- ففيم سؤالك ؟
- سؤالى عن مستقبلك ، لقد أصبحت تاجرا كبيرا فى البلدة ..

- الحمد لله .
- ألا تريد أن تصبح أكبر من ذلك ؟ ..
- ومن هذا الذى لا يريد أن يكبر يا سكينه ؟
- أنت
- أنا ؟ .. ولماذا .. ؟
- وماذا تنتظر فى هذه القرية ؟ انك تاجر كبير مارست السوق وعرفت أسرارها وخبرتها كل
- خفية فيه : . لعلك تصبح أكبر من أبى نفسه .
- أصحيح يا سكينه ؟
- طبعاً وسأكلم أبى لبيح لك عن دكان بجواره وتصبح من تجار البندر ..

وكان الدكان موجوداً ، فقد أعدته أم سكينه منذ زمن بعيد ، وما هى الا أيام حتى شهدت القرية عرباً نفل تحمل بضاعة السيد ، وعربة أخرى تحمل أثاث السيد وحقائبه والأوز والفراخ والبطة ، شهدت القرية أيضاً السيد يحمل الراديو معه خشية أن تصيبه العربة بالعطب ، كما شهدت القرية أيضاً دكان السيد يقفل أبوابه على فراخ فيه ، ثم شهدت القرية هذا الموكب ينزح عنها ورأس السيد يتلفت خلفه فى حنين ، وينظر الى الأمام فى حيرة ، وأحس الناس أن السيد يترك الاستقرار الى حيث الحيرة والدوامه التى لا يعرف لها قراراً ..

ونزل السيد فى بيته الجديد بالبندر بجوار بيت المعلم حسونة وزار دكانه أيضاً فرضى عنه ، وبدأ يضع بضائعه .

وواجهت سكينه مشكلة الغذاء ، وخافت أن تطلب من السيد نقوداً لتشتري لحماً وخضراً وخبزاً ، كما يفعل أهل البندر فقد كانت فى القرية تذيب من الفراخ والحمام اذا أرادت أن تأكل لحماً ، وكانت حديقه المنزل الصغيرة تمدها بالخضر ، وكان الفرن يمددها بالخبز ..

ولكنها لم تفكر كثيراً ، فسرعان ماسحبت السكين ، وقصدت الى حيث انزوت الفراخ والأوز والبط ولكن هالها أن وجدت الفراخ كلها ميتة ، ووجدت الأوز والبط يترنح ، فأعملت السكين فيها جميعاً ..

وظل السيد أياماً عديدة كلما عاد الى المنزل وجد زوجته تقدم له الأوز والبط ، وعجب من حالها هذا ، ولكنه كان فى غمرة من الكساد التى استقبلته به المدينة ، فنى أن يسأل عن هذا الاسراف .. نسى هو وظلت الزوجة على عادتها ، ولكن التسمم لم ينس أن يسرى فى الأوز ، وكانت ليلة 11 فقد سعى التسمم أيضاً الى السيد وسكينه ، فما استطاعا أن يبلغا بيت المعلم حسونة الا بشق الأنفس ، وسارع المعلم بهما الى المستشفى ، وبقيتا بها أياماً يدفعان ثمن الأكل الدسم المحلى بالسّم ..

وعاد الزوجان الى البيت بعد شفائهما ، فوجداه قاعا صفصفا .. حتى الراديو لم يبق عليه
للصوص .. كل شيء أخذوه حتى بقايا الأوز والبط .. كل شيء .. لم يبق في البيت شيء ..
وفي الصباح الباكر من اليوم التالى شاهدت القرية عربية واحدة تحمل بضائع السيد وحدها
بلا حقائب ولا أثاث ولا أوز ولا بط ولا فراخ ، وشاهدت القرية السيد يمشى وراء البقية الباقية
من بضائعه وزوجته أمامه ، ويده فارغة .. لا تحمل الراديو ..

وبلغ الزوجان البيت ، وجلست سكرينة على الحصيرة ، والتفت الى السيد ..

— سيد ..

— ماذا تريدین ؟ ..

— ستصبح أبا يا سيد ..

— وماله ..

— أين سألد ..

— هنا .. هنا سيولد ابني ، وهنا سيتعلم ابني ، وهنا سيعمل ابني في الغيط أو في
الدكان ، أو في أى شيء ، ولكن هنا .. ستكون حياته ، وهنا سيكون مماته .. هنا على هذه
الأرض في هذه القرية .



● ذكريات بعيدة

ذكريات بعيدة

« ولى يوم دخلت إلى حجرتها لأجدها تحلف دموعها
وتودع الكراسى صندوقها دون أن تهتم بإدخالها إلى
الدولاب فقد أصبحت مطمئنة إننى لم أمد إليها يدي » .

ثابت تبجح لى كل مكان فى حجرتها ، فكلها ملعبى وكل شيء فيها من لعبى لا يدورنى عن
فيها أحد ، بل كانت تنهر كل من يحاول أن يبعدنى عن شيء لها ، فكل عزيز عندها
لى وكل آنية أو علبه أو منضدة قربان مقدم لنزوات طفولتى وعيى يدي ، وحين تصل
ى مقتنياتها تصبح بين يدي القدر لا ينقلها من الكسر أو التلف إلا الحظ وحده ، ولم يكن
رفيقاً بأشياء جدتى . فيها طالما حطمت لها من أشياء ويا طالما أتلفت لها من أدوات ،
لما انتهرت جدتى أبى أو أمى إذا حاول واحد منها أن يعاقبنى أو يردعنى عن حجرتها .
قد كنت أجد نفسى أسيراً لأوامر أبوى فى أى غرفة أدخلها فى البيت ، فأنا مقيد حيث
أن أحطم شيئاً أو المس شيئاً أو ألهو بشيء ، ويظل هذا القيد من الخوف لازماً حتى
إلى غرفة جدتى فأنا إذن حر طليق أحطم ما أشاء أن أحطم وألهو ما شاء لى اللهو ، أحس
هذه الغرفة أقوى من أمى وأبى جميعاً ، أقف منها بحصن يعجزان أن ينقلوا دونه إلى . .

بىء واحد لم تبحه لى جدتى ولم أكن أدرى سر حبها له ومنعنى عنه ، ولم يكن هذا الشيء
بانتباهى ، ولا بما يغرى الطفل أن يلهو به . . إنما هو صندوق قديم لا يبدو من قدمه إلا
التي تدل دلالة واضحة على الزمن الذى صنع فيه أما هو فقد كان أنيقاً دائماً ، فنحاسه

الذى يحليه ذو بريق لم يكن يوما خائباً وخشبه أنيق نظيف لم تستطع السنون أن تعدو على نظافته أو أناقته .

وكنت أرى جدتي في كل يوم تمسك به وتفتحه فينفرج عن كراسه ذات شريط جديد دائما ، يعلو الكراسه الكثير من غبار السنين أحال بياض أوراقها إلى غبشة كتلك التى تغشى نظرة الناظرة إلى التاريخ البعيد . وكانت جدتي تقلب صفحاتها الواحدة بعد الأخرى وتظل رانية إليها بنظرات حسيرة ، ولا تنتهى إلى الصفحة الأخيرة حتى تلدف سكباً من الدموع وحينئذ تعيد الكراسه إلى شريطها ثم تودعها في إعراز صندوقها الأثير .

وهكذا أصبح هذا الصندوق طلبتي الوحيدة ، فهو الشيء الوحيد عند جدتي الذى لم أستطع الوصول إليه ، فكنت كلما أقبلت عليه أريد أن أمسك به تفزع جدتي قائلة :

— إلا هذا ..

وتسارع إلى الكراسه تقفلها وتحيطها بالشريط في عجل ثم تعيدها إلى الصندوق دون أن تصل إلى مرحلة البكاء ، وهكذا كنت أعدو أيضاً على هذه الدمعات التى كانت ترتاح لها جدتي فأحرمها منها . وقد كان هذا على إيلامه لها أهون عندها من أن تترك الكراسه أو الصندوق بين يدي ويدي الحظ .

وكبرت رغبتى في الوصول إلى هذا الصندوق بل أصبحت كلما دخلت غرفة جدتي ألعب حول الدولاب الذى يستقر فيه الصندوق .. أمل ومطلبى .. لم أكن أفكر فيه إلا لأنه الشيء الوحيد الذى منعتنى عنه جدتي .. وحين كبرت بعض الشيء وذهبت إلى المدرسة ووجدتني أقلب في كراسات وأكتب فيها وأقرأ أصبحت أعجب من نفسى إننى لا أبكى كما نبكى جدتي حين ننظر في كراستها .. وهكذا أصبح الصندوق والكراسه التى تستلقى في أحضانه سراً عجبياً لا يفارق ذهنى غموضه ولا يكف تفكيرى عن محاولة الوصول إلى حقيقته واستجلاء ما يخفيه من أسباب تستجلب هذه الدمعات إلى عيني جدتي .. إننى أقرأ فلا أبكى فإذا يبكيها هى .. إننى قد أبكى حين أعجز عن القراءة وتمتد عصا المدرس إلى ولكننى حين أقرأ لا أجد ما يبكى .. ولقد حاولت مراراً أن أثير في نفسى مكان من الدموع حين أقرأ فإذا الدموع جامدة وإذا البكاء عصي عنيد لا يسعفى فيزداد سر جدتي وصندوقها استغلاقاً على .

وفي مرة فاجأت جدتي وهى تقفل كراستها وقد بلغت مرحلة الدموع وراحت دمعات تنهمر على وجهها الناصع البياض تركت فيه آثار السمن الذى أصبح نحافة وآثار السنين التى مرت غصونا كثيرة ..

ونظرت إلى جدتي ملياً وسألتها :

— لماذا تبكين ؟

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ألقيت فيها هذا السؤال ولكنها كانت دائما لا تقول شيئا سوى أن تنظر إلى صورة جدى التي علقته بحيث تظل رانية إليها من أريكتها التي لا تكاد تتركها ، ثم هي تتمالك أمر نفسها في سرعة حازمة وتحيد عن السؤال الذى ألقته وتقدم بين يدي قربانا جديداً مما تحفظه عندها لألعب به وأحطمه ، وكنت دائما أنخدع بهذا القربان عن السؤال الذى أبحث عن جوابه وأنصرف إلى ما قدمته إلى اللعب به أو أحطمه حسبا يقضى الحظ . وفى هذه المرة حين سألت جدى أجابتنى بنفس طريقتها وقدمت إلى كراسة وقلما وقالت :

— أكتب هنا ما تعلمته اليوم .

وكنت قد أعددت نفسى ألا أنخدع إلا أن الهدية كانت شيقة فقد كنت أحب الكراسيات حبا عارما لا أدري لماذا ؟ الأئني ظلمت سنوات عديدة أهفو إلى كراسة جدى أم لأن شكل الكراسة الجديدة كان أثيرا عندي دائما . . لا أدري ! ولكن الذى أذكره أننى خدعت فى هذه المرة أيضا وتناولت الكراسة ورحت أهوش صفحاتها بحروف ما تلبث أن تصبح رسوماً . . وقامت جدى إلى الدولاب فأودعته صندوقها وعادت إلى جلستها وراحت ترنو إلى وأنا أكتب أو أهفو إلى كراسيتى التى كانت جديدة . . وكان لا بد لعينيها أن تتجها إلى ما أخطه فى الكراسة وثبتت نظرتها فى كتابتى فترة طويلة ثم قالت .

— هشام . . أتعلمنى ؟

ونزل على السؤال كحدث مفاجيء لم أتوقعه ولم أجد بين شفتى إلا .

— ماذا ؟

فعدت جدى ترنو إلى فى ابتسامة طيبة ودود وقالت :

— أتعلمنى ؟

قلت لجدى وأنا أضحك :

— أتضحكين على ؟

وظلت ابتسامتها الطيبة على وجهها وهى تقول :

— لماذا ؟

فقلت فى براءة :

— إنك تقرئين الكراسة كل يوم وتبكين .

وعلت وجهها حمرة أكسبت السنين على وجهها جمالا ورونقا وقالت :

— آه يا عفريت . .

ومدت يدها تدغدغ ملتقى صدرى بلذاتى . . موطن تعلم أنه لا يخطئ .

إضحاكى . . فضحككت وضحكنا . . ومرت الأعوام .

كبرت وأصبحت أعرف أن جدتي في كراستها سرا ، وأصبحت أدرك أنه لا بد أن يكون هذا السر وثيق الصلة بذكرياتها ، وأصبحت أدرك أيضا أنه لا يجوز لي أن أقحم نفسي على ذكريات جدتي وسنين شبابها ، ولكن شوقى إلى معرفة هذا السر لم تخفف منه السنون بل لعلها زادتته تحرقاً .

وعرفت مع الأيام أيضا أن جدتي لا تعرف القراءة والكتابة وزادت معرفتى هذه السر استغلافاً ، كما زادت رغبتي في معرفته تغلغلا في نفسي ولكن حرصى على ألا أقحم نفسي على أسرارها أو على سرها الوحيد بالنسبة إلى جعلنى أحبط رغبتي هذه بسياج محكم من الصمت والتجاهل ، كلما رأيت كراستها الحبيبة بين يديها . .

وفى يوم دخلت إلى حجرتها لأجدها تخفف دموعها وتودع الكراسية صندوقها دون أن تهتم بإدخالها إلى الدولاب فقد أصبحت مطمئنة أننى لم أمد إليها يدى . حولت جدتي عينها عن صورة جدى . وابتسامة دافئة ما تزال معلقة بشفتيها وقالت :

- هشام . . ألا تنوى أن تعلمنى القراءة ؟
- وكدت أن أقول ، لماذا ، ولكنى سرعان ما نظرت إلى الصندوق فاخترت الكلمة من على شفتى قبل أن أطلقها وقلت :
- أنا تحت أمرك .
- وقالت وقد أشرق وجهها بالفرح
- صحيح ؟!
- فقلت شاعراً أننى أحقق لها أملاً كبيراً :
- طبعاً . .

فقلت فى حزم والاشراق على وجهها لا يبارحه .

- قم إلى هذا الدرج ستجد كراسات وأقلاما هات واحدة وقلما وتعال علمنى .

وبدأت أعلم جدتي ، دون أن أشق عليها فى التعليم فكنت أعلمها حرفين أو ثلاثة فى اليوم ولكن قليلا ما دامت هذه الأيام فقد هاجم جدتي مرض بدا فى أول أمره حيناً ثم ازداد خطورة وتحاولت أن أهيئها عن مرضها بالتعليم .

وحاولت هى أن تستجيب لى ولكن المرض كان أقوى منها ومنى فلم تستطع .

مرت أيام مرضها الأول وهى تستطيع أن تصل إلى الدولاب لتحضر الصندوق وتستطيع أيضا أن تصل إليه فتعيده ثم أقعدها المرض فكانت تطلب إلى أن أحضره لها وتطلب إلى أن

أعيده . وكانت دموعها تزداد غزارة .. حتى كان يوم قالت لي فيه :

— هشام .. بخيل إلى أننى سأموت قبل أن أتعلم القراءة .

فقلت لها في تأثر بالغ

— بعد الشر عنك ياسقى .

فقالت وقد علت وجهها حمرة من الخجل كخجل العذارى .

— أتعرف ما تحويه هذه الكراسى واحتضنت الكراسى في حب كأنها تحتضن السنين والذكريات

وقلت لها :

— لا ...

فازداد وجهها حمرة وعذرية وقالت :

— إنها مذكرات جدك .. فقلت :

— مذكرات جدى ؟

— دخلت إلى مكتبه فوجدته يقرأها وسألته عنها فقال إنها مذكرات حبيبى لك كنت أكتبها أيام خطبتنا .

— أكان يراك وأنتما خطيبان ؟

— ألا تعرف أن أبى عقد عقدى على جدك ثم انتظرنا فترة طويلة حتى يتم جدك التعليم وهكذا كان يراى دون أن نتزوج . وكان يكتب هذه المذكرات بعد كل لقاء لنا وكنا نلتقى كل يوم تقريبا .

ونظرت إليها في خبث وقلت :

— أكنت تريه وحدك ؟

فازدادت خجلا وخالط صوته نغم من الفرح النشوان وهى تقول :

— امش يا قليل الأدب .. كنت القاه أمام أمى وإخوتى ..

— آه — طيب — طيب .. لا تزعل ..

وقالت جدى والنشوة ما تزال فى عينيها القديمتين وقد خالطها البريق فيها عينا فتاة فى بواكير

الشباب حتى خيل إلى أن جدى عادت بعينيها وجهها القانى من الخجل إلى تلك السن التى

خطبها فيها جدى .. قالت :

— هشام

ثم صمتت فقلت :

— نعم

فقالت

— هشام .. أقرأ لى هذه المذكرات ؟

فسارعت أقول وقد أحسست أنى موشك أن أصل إلى أعماق سرها :
— يا سلام يا سقى .. اقراها واقراها واقراها .

فقلت على عادتها :

— صحيح ؟

فقلت :

— صحيح جداً

فقلت فى استخذاء .

— قم إلى الباب واقفله بالمفتاح فلأنك أول من يقرؤها .. فأننا كما تعلم لم أقرأها أبداً ولم أبجها لأحد أبداً .. اقراها لى أنت .. هل أحسنت إقفال الباب ؟

وكننت قد رجعت عن الباب واستويت على كرسى بجوارها ، وأعطيتى الكراسى فأخذتها بيد ملهوفة وراحت هى ترنو إلى صورة جدى متهيئة لأن تسمع هذا الكلام الذى استغلق عليها السنوات الطوال . وفتحت الكراسى وقبل أن أعلو بصوتى لأسمعها رحت أمر يعينى على الصفحة الأولى .

لقد كانت كراسى ذكريات لاشك فى ذلك . ولكن لم تكن جدى هى محور هذه الذكريات .. كان جدى يحب فتاة أخرى غير زوجته .. رعاك الله يا جدتى كم أضعت من دموع وكم أفنيت من أوقات وكم بذلت من جهد فى تمجيد الشريط الذى يلم الذكريات وفى تنظيف الصندوق الذى ينضم على المذكرات .. وانتاب لسانى نوع من الشلل الداهش الحزين واجتاح قلبى عاصف من الألم والحرق والإشفاق على جدتى والحب لها ، وفى لمحة خاطفة انجبه ذهنى إلى طريق آخر .. هل كانت سدى هذه الدموع .. هل كانت هذه المجهودات التى بذلتها فى المحافظة على الصندوق وتمجيد الشريط بلا جدوى .. هل كانت نظراتها الطويلة على السنين الطويلة فى صفحات الكراسى هباء أكانت جدتى تسعد بشيء قدر سعادتها بهذه النظرات الجاهلة وهذه الدموع المنسكبة وهذه العناية البالغة ألم يستطع جدى أن يترك لها فى هذه الكراسى الخادعة حياة لها نحيبها فى سنوات الكهولة والشيخوخة لقد سعدت جدتى بالكراسى سواء كان ما تحويه حبا لها أم خداعا لها لقد سعدت . لقد خيل إلى أن الصفحات قد أصبحت مطبوعة برسوم حروفها فى عقل جدتى وعلى قلبها مطبوعة بحروف أكثر ثبوتا وبقاء وغمقا من هذه الحروف الملقاة على صفحات الكراسى . وخيل إلى أن نظرات جدتى قد احتفرت على السنين حفرا فى أوراق المذكرات أكثر جمالا من كل حب وأصدق إحساساً من كل كلام أيلهب هذا جميعه سدى وأيقظتنى جدتى من سرحتى الطويلة لتقول فى صوت تردد بين الخجل والتشوق والفرح

— اقرأ

ونظرت إلى جدى طويلا وقلت :

— يا سلام ياسقى .. كم كان يحبك جدى .. كم كان يحبك ...

ونظرت جدى إلى الصورة المظلة عليها وابتسمت وهى تقول وقد تعثرت الألفاظ

بـخجلها :

— نعم .. أعرف .. اقرأ

ورحت أقرأ جاعلاً اسم الحبيبة التى تروى عنها المذكرات هو اسم جدى حلدا دائما مبتعدا دائما عن كل لقاء لم يكن فى بيت ، مختارا الكلام العام الذى لا توحيه مناسبة بعينها .. وظللت أقرأ وظل وجه جدى يتهلل ونظرتها إلى الصورة تزداد إنعاما فإن غشت عينها الدموع راحت تزيمها عن عينها وتنعم فى صورة جدى حتى انتهت من المذكرات ولم تكن طويلة وهذأت .. لقد بلغت آخرها ولم أخطئ ونظرت إلى جدى ورأيتها فى سبحتها ما تزال رانية إلى الصورة فحولت نظرى إلى الصورة معها وخيل إلى أن جدى يتسم لى شاكرا فابتسمت له أنا أيضا رغم ما جعلنى أعانى من حيرة وحسرة على ذكريات جدى ، ورغم المجهود الذى بذلته لأستر حقيقة مذكراته ..

نعم لقد حطمت فى غرفة جدى كل مقتنياتها العزيزة ولكنى تركت لها أحلامها المودعة فى صندوق الذكريات والسنوات الطوال من الحب التى عاشتها فى ظله لم أحطم منها شيئا ..

حـمـيرة

« وكانما اهتدى صميذة إلى النجاة من حيرته فما هي إلا دقائق
غير معدودة حتى كان جالسا إلى فهيمة ويمتع عينيه بفهيمة التي
طالما اعجب بها وطالما تمنى أن تكون زوجته » .

استقيظت نفيسة مع الفجر وراحت تسخن العيش وتعد الفطور لزوجها صميذة ثم
قصدت إليه فوكزته فتقلب في فراشه بين اليقظة والنوم فما هي إلا الوكزة الثانية كان صاحبها
يسأل :

- مالك ؟
- لا شيء . الشمس طلعت .
- وما شأنى بها إن طلعت .. هل أنا خفير على باب الشمس ؟
- والله فايق على الصبح ... قم ... خيز ريقك واذهب إلى المكتب .
- المكتب ؟
- نعم المكتب ... أليس اليوم موعدك مع إسمايل أفندى لترى حسابك ؟
- آه ... صحيح ... ولكن إسمايل أفندى لا يذهب إلى المكتب قبل الساعة
العاشرة .
- وما البأس ... انتظره حتى تأخذ حسابك قبل أن يمضى الفلاحون الآخرون
ويعطلونك .
- ياستى وماذا ورائى ، وما البأس أن يعطلون وهل سأذهب إلى المحكمة ؟

- المحكمة ... العفو .. لا يافالح لن تذهب إلى المحكمة ولكن ستذهب إلى البندر .
- البندر؟ ماذا أفعل في البندر؟
- ماذا جرى لعقلك؟ ألا تدري ماذا ستفعل في البندر ... أنا أريد جلبابا وملابس
- وبنتك تريد أن تجهز ... أنسيت ... لقد واعدنا حستين أننا سنزوجه منها بعد القطن مباشرة
- وابنتك على لا بد أن يذهب للدكتور ... لن يعيش إذا تركناه بهذا الحال .
- أمن أجل ضعف بسيط يذهب إلى الدكتور؟
- أهذا ضعف بسيط ... الولد لا يستطيع أن يمشي خطوتين ، وأنت في كل يوم تقول
- إنك ستأخذه إلى الدكتور بعد القطن ... أجنت ...
- هيه وماذا أيضاً .
- وأنت تريد ملابس ... الشتاء داخل علينا وليس عندك شيء يدفئك .
- والفلوس تكفى لكل هذا؟
- ولماذا لا تكفى .. أم ترى يكفيننا من الساقية نعبها ... تزرع أربعة أفدنة وتشقى
- طول السنة ثم لا تجد ما يكفى لهذه الأشياء البسيطة ... تكفى ... لا بد أن تكفى الفلوس .
- وإن لم تكف ماذا أفعل بها ... أرجعها لإسماعيل أفندى .
- يا أخى قم وجعت قلبي على الصبح .
- وهل هذا صبح؟
- ألا يعجبك؟
- أيعجبك أنت؟
- وما الذى لا يعجبك يا سى صميذة ... ماذا تغير علينا .. ألسنت أنا أنا نفيسة التى
- حفيت رجلاك لتتزوج منى .. أصبحت لا أعجبك اليوم ... والله عشنا وشقنا .
- أنا ... أنا حفيت رجلاى؟
- لا أنا ... أظن أنا التى خطبتك ... هه ... انطق .
- أعوذ بالله ... يا شيخه اتقى الله ... ألا تكفين عن النكد أبداً؟ ارحمى ...
- ارحمى ... أنا لحم ودم .
- والله أعلم لحم فقط ... بلا دم .. أين الدم عند أب لا يريد أن يعالج ابنه المريض .
- أعوذ بالله ... أين السم الهارى؟
- على الطبلية ... قم ألقى حبة ماء على وجهك وتسمم وتوكل على الله .
- أتعرفين الله أنت؟
- الحمد لله .. أصلى الفرض والسنة ، وشريفة ونظيفة ولا يستطيع أحد أن يقول عنى
- كلمة ... أما أنت ...
- نعم ... مالى أنا؟

- ألا تعرف ... الحشيش قاطع نفسك وكل يوم تجرى وراء امرأة وذيلك نجس .
 — وما شأن الحشيش بالدين ؟
 — اخرس ... وأنت ماذا تفهم في الدين يا ضلالى .. قم ... ونخل لها نهاية .
 — وإن لم أخل لها نهاية ماذا ستفعلين ؟
 — هه ... سأترك لك المكان لتستريح .
 — ونخرجت نفيسة من الحجرة وقال صميذة :
- غورى ... امرأة نكدية ... أهذا صباح يا عالم ... الله يقطعك يا نفيسة ويقطع من
 أشار على بك .. قال تملك فدانين .. وصدقت .. وكنت عبيطاً مجنوناً ... الفدادين تملكها
 أمها ... أم ممسكة حريصة ، بلغت التسعين وترفض أن تموت قال تملك فدانين صدقت ،
 وحسبت الأم ستموت عن قريب ولكن الظاهر والله اعلم — أننا جميعاً سنموت وستظل أمها
 بهانة على ظهر الدنيا تملك الفدانين وتخرج لنا لسانها ونحن في الآخرة ...
- وقبل أن يكمل دخل إلى الحجرة ابنه على ... ضعيفاً هزيراً لا يكاد يقيم مشيته .
 واستقبله الأب باشاً أول الأمر ولكنه ما لبث أن قطب جبينه وأحس قلبه كأنما تعصره يد شديدة
 البأس قوية ...
 — مالك يا على ؟
 وصمت على وعاد الأب يقول :
 — لا والله يا ابنى إنك مريض فعلاً ... يا نفيسة . وجاءه صوت امرأته ثم ما لبث أن
 تبعث صوتها إلى الحجرة .
 — مالك ... ماذا تريد ؟
 — جهزى على ... سأخذه إلى الدكتور اليوم .
 — أزغرد لك ...
 — الولد مريض جداً .
 — ألم أقل لك ... إنه لا يأكل شيئاً مطلقاً .
 — جهز به .

ونخرج صميذة إلى الطريق وما لبث ذهنه أن ترك مرض على وفكر في زوجته هذه التى تأبى
 إلا أن تصب عليه السخبط في كل يوم ... ثم عاد يفكر فيها ينتظره من حساب عند الكاتب ..
 ماذا سيدفع لهذا الكاتب في عامه هذا ... ترى ماذا سيبقى له ... إنه يزرع أربعة أفدنة إن
 بقى له أقل من مائة جنيه فلا شك أن الكاتب سرقه ... مائة جنيه على الأقل ... ماذا أفعل
 بالمائة جنيه ؟ أولاً أهيص الليلة ... أذهب إلى عبد الباقي أبو سليمان وأشتري نصف
 قرش ... لا بل قرشاً ... أنا لم أدخن قرشاً في حياتى أبداً ... سأدخن الليلة قرشاً ...

وسأمر بطبيعة الحال على فهيمة العضلة وسأجدها واقفة بباب بيتها كعادتها وقد شمרת عن ذراعين ينسكب عليهما ضوء المصباح فهما في لون العسل النحل ذى الشمع الصافي ويلي من ذراعيتها ... لماذا لم أتزوجها ... الفدانان ... قطع الله من أشار على بها وبالفدانين .. كانت فهيمة أولى ... جمال كجمال الصور في الجرائد ... ترى هل الحور العين في الجنة سيكون في جمال فهيمة .. وأنا من يوصلني إلى الجنة ... أنا عاص ... أمن أجل الحشيش ... إنما الخمر والميسر ... الخمر ... الخمر ... وما صلة الخمر بالحشيش ... كل مسكر خمر ... كلام مشايخ ... وهم ألا يشربون الحشيش ... إنهم كالأطباء يحرمون الدخان ويشربون مائة سيجارة في اليوم ... يبيأ لي أن المشايخ ضمنوا الدخول إلى الجنة فهم يفعلون ما يريدون ... وما لهم لا يضمنون الدخول إليها وهم يرشدون الناس إلى الصراط المستقيم ... أهم يرشدون ...

وقطع عليه تفكيره صوت فتوح البرموني وهو يقول له :

- صباح الخير يا صميذة .
- صباح الخير يا فتوح .. هل جاء إسماعيل أفندى إلى المكتب ؟
- نعم .
- أكنت هناك ؟
- نعم .
- هل تحاسببت ؟
- أنا غلطان يا صميذة .
- لماذا ؟
- لأن قلت لك صباح الخير
- لماذا ... ماذا فعلت لك ؟
- مائة سؤال .. يا رجل حرام عليك .. ألا تعرف كيف يكون الحال بعد الحساب ؟
- آه ... والله لك الحق ... سلام عليكم .
- وعليكم السلام .

وفي عزمة القادم على الخطير من الأمر حث صميذة أقدامه أن تسرع فأسرعت ودخل إلى إسماعيل ، وكأنه يهاجم قلعة عسيرة الأبواب وقال في زفير مضطرب بعض الشيء .

- السلام عليكم .

ونظر إليه إسماعيل أفندى طويلا ... طويلا ... وكلما طالت النظرة من إسماعيل لمحت الحلة من صميذة حتى إذا أجاب إسماعيل أفندى .

- وعليكم السلام .

في صوت يجمع إلى السخرية عدم المبالاة والهزء . كان صميذة وقد أصبح أقرب إلى الخوف منه إلى اعتدال المزاج أو الجرأة لا قدر الله .

فإن إسماعيل أفندى هذا على كل شيء قدير . . . وقال صميذة في صوت أصابه كثير من التخاذل :

— هل حسابي جاهز يا إسماعيل بك ؟

وقال إسماعيل أفندى في صوته الساخر لا يزال .

— نعم يا خلف الحيايب .

وحاول صميذة أن يستمد من مزاح إسماعيل أفندى بعض شجاعة فقال في صوت يتأرجح بين الرهبة والجرأة :

— تشكر . . . كم بقي لي ؟

وأمسك إسماعيل أفندى بدفتره الكبير وراح يردد :

— صميذة عبد التواب . . . صميذة عبد التواب . . . ها هو ذا يا سيدي . . . جملة ماله مليون خمسمائة وجنيه مائتان وستة عشر جنيها .

وحينئذ صفتى قلب صميذة من الفرح . . . ثروة . . . إذن فسيذخن قرشين من الخشيش . . . قرشين وإن فقد الوعي بعدها سنة بأكملها .

وتابع إسماعيل قراءة الحساب .

— منه يا سيدي منه . . . منه . . . أربعون جنيهاً قسط شراء وستة وستون جنيهاً وأربعمائة مليون وإيجار وأربعون جنيهاً وسبعون ملياً كيهوى وثمانية جنيهاً خفر وثمانية جنيهاً رى وثمانية جنيهاً مقابل استخدام آلات وسبعة جنيهاً مقابل إدارة : المجموع يا سيدي مائة وسبعون جنيهاً . . . وأربعمائة وسبعون ملياً .

وسقط صميذة مشدوها هلعا على الكرسي .

ماذا !

ودون أن ينظر إليه إسماعيل أفندى تابع حسابه .

يكون مجموع ما بقي له يا سيد . . . تسعة وعشرون جنيهاً وثلاثون ملياً .

وعاد صميذة يقول في لهفة :

— ماذا ؟

ودون أن ينظر إليه إسماعيل أفندى قال :

— انتظر .

- ثم أخذ يمحهم بالأرقام مهمة لا تكاد تفصح ثم قال :
- تمام تسعة وعشرون جنيهاً وثلاثون ملياً .
- سنة أسود من الخبر يا أولاد ... كم يا إسماعيل أفندى ... كم ... ؟
- كشر إسماعيل أفندى عن أنيابه في غضبة مستأسدة :
- ما سمعت ... إن كان هذا جميعه من أجل الجنيه الذى أخذه منك كل سنة فلا داعى له .
- وتريد جنيهاً أيضاً يا إسماعيل أفندى .
- أنت حر ... وعلى كل حال السنوات القادمة أكثر من الفائتة .. لا تفضب في السنة القادمة إن جعلت غيرك يقدم عليك في الرى أو أخرت عنك الكياوى أو إذا .. وقاطعه صميده ..
- وتريد جنيهاً أيضاً يا إسماعيل أفندى .
- وقال إسماعيل أفندى في جراءة وعدم مبالاة .
- يا أخى قلت لك أنت حر ... قم ... قم ...
- أمرك يا إسماعيل أفندى ... أمرك ... خذ الجنيه يا إسماعيل أفندى .
- لا أبداً ... لا لزوم له .
- أنا غلطان يا إسماعيل أفندى .
- أبداً ... لماذا ...
- هات رأسك ... أبوسها .
- لا ... لا ... أنا لست بزعلان ... خذ .. هذه هى نفودك .
- وهذا هو جنيحك ... لا تكن غضباناً يا إسماعيل أفندى ... سلام عليكم .
- وقال إسماعيل أفندى لهجته الساخرة المازقة .
- وعليكم السلام يا سيدى ورحمة الله وبركاته .
- وخرج صميده إلى الطريق ... أهذه هى نتيجة الشقاء لمدة عام بأكمله ... ماذا أفعل الآن ... أعلن الولد هو أهم شيء الآن ... الولد ... مسكين على .
- وقصد صميده إلى بيته وصحب ابنه إلى البندر .
- وفجأة الطبيب هناك بأن الطفل مريض بالزائدة الدودية ولا بد أن تجرى له عملية لاستئصالها .
- وكم تكلف هذه العملية ؟
- عشرة جنيهات .

ولم يزد : حمل ابنة على كتفه ولم يشتر شيئاً مما أرادته زوجته أن يشتري وعاد إلى القرية ... ماذا سيفعل ... عشرة جنيهات للعملية وجهاز البنت هذه هي السنة الثالثة في خطبتها كيف يؤخر زواجها بعد الآن ... لقد قبض مهرأ ثلاثين جنيهاً لابد أن يقدم جهازاً بأربعين جنيهاً على الأقل من أين لي بالأربعين جنيهاً ونفيسة تريد ملابس وأنا أريد ملابس ... ماذا سأفعل بهذا المبلغ ...

سار يفكر تفكره قدماه إلى حيث لا يدري له مقصداً أو إلى حيث تعدد رغبة خفية اتجاهه ومقصده ... كان يقصد بيت عبد الباقي وقبل أن يبلغه تصدلت له فهمية وهي تقول :

— ماذا بك يا صميذة ؟

وصحا صميذة على صوت فهمية فإذا هو ينفض عن نفسه كل ما هي فيه من حيرة .

— لا شيء يا فهمية ... لا شيء .

— لماذا لا تزور ؟

— أنا خدام .

— تعال .

— أشتري نصف ... أشتري قرشاً من عبد الباقي وأجىء حالا .

— وأنا ألعب الفحيم في انتظارك .

وكأنها اهتدى صميذة إلى النجاة من حيرته فما هي إلا دقائق غير معدودة حتى كان جالساً إلى فهمية ويمتدح عينيه بفهمية التي طالما أعجب بها وطالما تمنى أن تكون زوجته ... وما هي إلا أنفاس قلائل حتى قال :

— فهمية ... أتزوجيني ؟

— وكم تدفع مهرأ ؟

— وكم يرضيك ؟

— ثلاثون جنيها .

— لا أملك إلا خمسة وعشرين .

— لأجل خاطرک ... لقد كنت عزمت بعد المرحوم ألا أتزوج أبداً . ولكن أنت ...

أنت ... لا أستطيع أن أرفض لك امرأ .

— متى نتزوج ؟

— متى تشاء .

— الآن .

— الآن .

وجاء المأذون وخرج واطمان صميده بعد حيرة فلم يعد يحاول أن يفكر كيف سيواجه
المطالب المتزاخمة حوله ... لقد انتهت حيرته ... لا لم يعد حائراً ... لم يعد حائراً على
الإطلاق .

زواج

وكان الزواج وأقبلت هبة عليه إقبالة خائفة أول أمرها
لما تدرى ما مصيرها مع شخص لم تفكر يوماً أنه سيكون
زوجها وإنما هو ابن العم .

حلوة هي . . كالأمل . . كالموعد وقد حققه اللقاء . . كالنشوة وقد عربدت . . حلوة
كالقلب السكران . . كالفكرة الحاملة . . كالذكريات المأنوسة الهائنة ، عينان ساجيتان فيهما إلى
الحب دعوة وفيهما العفة المنبعة وشعر منسرح كآمال الشباب ، ولم دقيق ذو تعبير يختلط بين
الدعوة والتمتع لما يدرى من يراها والابتسامة وامضة عن شفيتها ماذا تقول ؟ ولا يجد من يراها
بدأً من أن يتسم ثم يقف الأمر به عند الابتسام يردعه جمالها وابتسامتها أن يزيد .

نشأت بين إخوة من الذكور فالببت لا عمل له إلا أن يتقصى رغباتها فيحققها فمطلبها أمر
قبل أن تبين عنه إنما هي الإشارة العابرة أو التلميح البعيد فإذا ما أرادت قد تم ، وكان للذكور
صحاب وكان للعائلة أقارب ولكن الجميع كان يقف منها موقف المكبر المعجب ولم يستطع أحد
أن يقف منها موقف المحب ، والشباب يعدو إلى الفتيات في خطى واسعة فليتهم سنوات
الطفولة التهاماً فما أسرع ما كبرت هبة وما أسرع ما أخذت أمها ثم أبوها يتلفتان حولها عن
العريس الذي يصلح لها ثم ما أسرع ما أصبحا يتلفتان عن أى عريس ولكن السنين تقالا
بطيئات وجمال هبة الصارخ يقف دون الشباب أن يتقدموا فكأنما هذا الجمال سياج حولها لا يرى
أحد من الشباب نفسه أهلاً أن يعدوه إليها ، كان الأقارب والأصحاب ينظرون إليها وكأنها في
مستشرف رفيع لا سبيل أن يرقى إليه واحد منهم .

وتستطيع هبة أن تطلب إلى أبيها ما تشاء . ويستطيع أبوها أن يقدم إليها ما تصبو إليه لكنها أبداً لا تستطيع أن تقول كبرت ولا يستطيع أبوها أن يجيب إشارتها إن هي قالت .

فكانت هبة تنظر إلى الأيام نظرة واجفة هالعة . . . ماذا لها في مطوى الغيب . . . أين تلقى بها خوافي المستقبل . . أتراها تصبح . . لا . . إنها لا تطيق أن تنطق الكلمة . . أتصبح عانساً . . ويلي . . أهذا الجبال كله لا يجد من يقدره . . كيف . . إنها لا تنسى النظرات الحافلة بالإعجاب والإكبار وهي تحيط بها . . يأتى إلى البيت أقرباؤها ويأتى أصدقاء كثيرون ويأتى ويأتى . . إلى البيت ابن عمها مسعود .

وكلهم . . كلهم يرنو إليها في إكبار ذاهل . . . أما مسعود . . . مسعود فإنه يتطلع إليها أملاً بعيد المآل ولكن الأمر يقف به عند هذا التطلع لا يزيد منذ هما طفلان ونظرتة لا تتغير وما هو هذا يسمى في حياته سعيًا حثيثاً موفقاً وينال شهادته ثم يلقي إلى الحياة آماله فتستجيب له الحياة استجابتها الباسمة ويصبح مسعود ذا شأن ولكنه مع ذلك يخشى أن يتقدم لخطبة ابنة عمه فجأها أعظم من أن يرضى به زوجاً ولا يحس مسعود بهذا الموقف الضئيل الذي هيأه جمالها لها . والأب يرى زيارات ابن أخيه ويرى نظراته الواهة المحبة ثم يرى إحجامه وصمته ويمسك به كبر الأب أن يشجعه ، والأم ترى ما يراه الأب ويسمك بها خوفها من زوجها أن تصطنع ما تصطنعه الأمهات من تشجيع الخطيب أن يخاطب بناتهن ولكن الأيام تمر والابنة تكبر والسنون إذا مرت بالبنات الناهدات فهي قلق وذعر والأوقات كالحة والتفكير هلع حتى المرأة لم تعد تستطيع أن تمنع هبة ما كانت تمنحه لها من فرح وطمأنينة بل إن خوفها يزداد كلما شاهدت جمالها . وهي ترى مسعوداً وقد كانت تراه منذ هما طفلان ولم يكن يزيد عندها عن فتي مثل كل الفتيان الذين يقفون حول سياج جمالها وقفة العباد أمام الوثن . ولو لم تمر بها السنون القليلة لكان مسعود هذا أبعد ما يكون عن تفكيرها وآمالها . فقد كان لها من أصدقاء إخوانها ومن أقاربها من لا يقارن بمسعود في لباقة وذكاؤه أو قوة شخصيته . أما مسعود فما هو إلا تلميذ يحسن أن يذكر دروسه ويحسن أن ينجح في الامتحان ثم هو لا يحسن بعد هذا من الحياة شيئاً . وحين أفليح مسعود في الحياة لم يكن الأمر عندها يعدو أن فتي من أقاربها أطاع رئيسه فأحسن رئيسه إليه بأن رفاه وأصبح الأقارب يتحادثون عن ذكاؤه وعن تقدمه ولم تستطع يوماً أن تتصور أن مسعوداً يستطيع أن يؤدي عملاً يتسم ببعض ذكاء أو ببعض لماحية أو بعض فهم . إنما هو مؤوس يحسن إطاعة الرؤساء أو رئيس يحسن تنفيذ ما رسمه له رؤساء آخرون وهكذا لم تستطع أن تجارى أقاربها في إعجابهم بمسعود ، ولكنها مع ذلك لا تمنع نفسها أن تفرح بهذه النظرة الداهلة الدالة على الإعجاب الشديد والإكبار المأخوذ الداهل التي تعلق بأهداب مسعود منذها طفلان حتى سمعت بها الأيام هذا السعي الحثيث فجعلت منها فتاة تكاد تصبح عانساً وجعلت منه فتي ناجحاً يلهج بنجاحه الأقارب والأصدقاء .

وتمر الأيام ويوشك الأب أن يتنازل عن كبرياه ويحمد الأم أن خوفها على مستقبل ابنتها أعظم من خوفها غضب زوجها فما أن يأتي مسعود لزيارتها حتى تعمل على أن تحتل به وتلقى الحديث وكأنها لا تقصد ما يرمى إليه :

— ماذا جرى يا مسعود يا ابني ؟

— ماذا يا أبلتي ؟

— ألا تلاحظ أنك كبرت ؟

— نعم .. أعرف ..

— وماذا تنتظر .

وفهم مسعود ما تقصد إليه أو كاد ولكنه قال في تظاهر شديد بالغناء ماذا أنتظر في ماذا ؟

وأطلقت الست أم هبة تنهيدة . عاجبة طويلة ثم قالت بعد أن مصت شفيتها :

— ألا تعرف ؟

وكأنما ألصقت هذه الحركات ابتسامة على شفوي مسعود فهو يبتسم في تخابث ساذج ويقول :

— يا بني الشيء لا ينجل من أوانه .. لابد أن تتزوج يا مسعود وظل مسعود رانياً إلى أبلته في دهشة وقد اضطربت في نفسه آمال عريضة كانت تراود نفسه في بأس باهت متخاذل ويكاد الآن يراها حقيقة يخشى أن يصدقها ثم تعود إلى خذلانه فيصبح يومه شراً من أمس وغده أشد قنماً من ماضيه . فإن الآمال مهما تكن راهنة بعيدة التحقيق أحل مذاقاً من مرارة اليأس ويوشك أن يقول فيخلله لسانه أن يقول وتعينه زوجة عمه :

— ألف يتمنى كلمة منك يا مسعود .. وافق أنت ولا شأن لك .

ويقول مسعود ذاهلاً :

— ألف يتمنى أن يزوجني ؟

— أنت لا تعرف حقيقة مكانتك يا مسعود ..

— إذن فأنا أتمنى ..

وعاده الخوف فارتج عليه وعادت زوجة عمه إلى إسعافه ..

— قل .. قل ماذا تتمنى ولا شأن لك .. اترك الباقي لي أنا .. واستجمع وقال في سرعة

من يخشى ألا يكمل جنته ..

— أتمنى أن أتزوج ...

وأشرقت الابتسامة في وجه أم هبة وهي تطلق .

— هـ ..

وقال مسعود :

— هبة .

وسارعت الأم تقول :

— فهي لك ..

وأجملت مسعود الفرحة فصمت حيناً ثم قال :

— لا ..

وعاد الذعر إلى الأم ..

— ماذا .. ألا تريدها ؟

— بل أريدها ..

— فهي لك .

— لا .. لا أريدها هكذا ..

— وكيف تريدها إذن ؟

— إذا قبلت أنت أن تزوجيها لي فمعنى هذا أنك أنت ترضين عني .. أو أنك ترضين عن الوظيفة التي أشغلها والمرتب الذي أناله وأنا أريد أن ترضي هي .. وأن ترضي برغبتها الخالصة دون أي تأثير منك أو من عني .

وعادت الإشرقة إلى نفس الست فقد كانت تدرك ما تعانيه ابتتها من مخاوف .

وكان الزواج وأقبلت هبة عليه إقبالة خائفة أول أمرها لما تدرى ما مصيرها مع شخص لم تفكر يوماً أنه سيكون زوجها وإنما هو ابن العم الحفجول ، والمحب الواله الداهل إذا نظر إليها . ما الزواج من رجل لم تره .. إلا فاعراً فاه من الدهش والفم الفاخر لا ينطق فهو لا ينطق ، أثراء يتضح عن رجل يجيد فن الحياة كما يجيد أن يفرج شفته وكما يجيد أن يطيع الرؤساء وينفذ أوامره ؟ أثراء ، يحسن من الحياة ما يحسن من الوظيفة .. ؟ !

وأقبل مسعود على الزواج إقبالة مذهول أيضاً فقد كانت الآمال — إن شئت هذه الآمال أن تبلغ به أقصى غاياتها — مهيء له أنه يستطيع أن ينال من هبة نظرة رضا . أما أن تهيب له ابتسامه عطف أو حتى ابتسامه بغير عطف أما هذه فإن آماله لم تجرؤ أن تصل إليها ولكنه اليوم ينال هبة بجميعها بابتساماتها بل بقبلاتها ... ماذا ؟ نعم بقبلاتها بل بكل شيء بل ... والأعجب من هذا أنها لا تستطيع أن تمنح إنساناً آخر في العالم ما تمنحه له من نفسها ولا استثناء من هذه القاعدة . لا ينال إنسان آخر في العالم ما يناله هو من هبة .. لماذا .. ماذا أنا .. وماذا أصبحت حتى أنال كل هذا الهناء أترأها تحبني أم أنها .. ؟ أم أنها ماذا ؟ .. ما الذي يجعلها

تقبلني زوجا إن لم تكن تحبني المحبني .. ومالي لا أسأله .. عجيب أمر الناس . أترأها ستقول لي أكرهك إن كانت تكرهني .. وإن كانت تكرهني وكانت عندها الشجاعة التي تقول لي أكرهك أترأى أصدقها ... سأقول لنفسى حيثك .. لا .. إنما هى تريد أن تلهب حوى لها ولا يمكن أن تكرهني ، فإن أحداً لا يصدق أن من يحبها تكرهه .. وترى هل أصدقها إن قالت إنها تحبني .. أترأى إذا خلوت إلى نفسى أصدق من أعياق قلبى أنها تحبني ؟ ! عجيب أمر نفسى هذه .. كثيرة الشكوك لا تصدق ما يملو لها ولا تصدق ما يسؤوها دائمة الحيرة عذبة الالطمشان ثائرة متقلبة . وكيف لها أن ترضى أو تطمئن وهى لا تدرى ماذا يرضيها وهى لا تدرى أين الحقيقة في مشاعر من تحب بل هى لا تدرى إن كانت تريد هذه الحقيقة أم لا تريد لها فما كنت لأسعى إلى معرفة الحقيقة لو أن معرفتى هذه تنتهى بى إلى إن هبة لا تحبني أنا لا أريد حقيقة المشاعر فالمشاعر لا سبيل لى إليها وإن كان هناك سبيل فأنا لا أريده ... أنا أريد الواقع دون الباعث إليه .. أريد ما أراه أمامى ولا أريد أن أعرف لماذا يحصل . ما لى وللنفوس وما تخفيه إنها أحرار وغابات تستخفى بين شعابها الكثة وحوش أشد ضراوة وفتكا من وحوش الغابات والأحراش ، ما لى وللنفوس وما تخفيه ، إن هبة زوجتى وكفىنى منها أنها زوجتى وكفىنى من الحياة أننى زوجها .

وفى اندفاعة محمومة هالعة استبق مسعود الأيام ليتم الزواج لها هو إلا بعض زمن حق كانت هبة ومسعود فى بيت واحد ولم يستطع مسعود على رغم ما ناقش به نفسه من كذب وصدق لم يستطع إلا أن يسأل هبة .

- هبة .. هل تحبيني ؟
- لقد تزوجتك ..
- ليس هذا جواب سؤالى ..
- بل إن سؤالك لن يجاب بأبلغ من هذا .
- قد تزوجيني دون حب ..
- لو كنت نشأت في بيت غير بيت أبى لجاز لك أن تقول هذا ..
- لا أفهم .
- أنت تعرف أن أبى لا يمكن أن يفعل شيئاً لا أرضى عنه فكيف يزوجنى دون رضائى .
- قد ترضين أن تزوجى منى ولا تستطيعين أن تحبيني .
- هراء ... إن الزواج أشد قوة من الحب .
- فأنت لا تدرين الحب .. أنا أحبك حبا لا أجد شيئاً فى العالم أقوى منه .
- بل أنك أنت الذى لا تعرف الحب .. اننى حين أقبلك زوجاً أضع حياتى وحياة أولادى كلها أمانة بين يديك وليس فى العالم حب أقوى من هذا ..

— إذن فأنت ..

— لقد تزوجتك .. أليس كذلك ؟

ولم تكن هبة كاذبة فيما ظهرت به من حب فهي منذ تزوجت مسعودا وهي تقنع نفسها أنها تحبه ولما كانت نفسها ذات إباء وكبرياء فقد سرعان ما صدقت أنها تحبه بل أنها زادت فافتنعت أنها تحبه .. منذ هما طفلان .. وهكذا اطمأنت هبة أنها لم تتزوج زيجة ملهوفة تخشى أن يفوتها القطار فهي تتعلق بالعربة الأخيرة منه وإنما هي تتزوج زواجاً تقوم أسسه على الحب وأنها إنما تستقل من القطار أوفى عرباته راحة تصعد إليها في لا عجلة لاهفة ولا اندفاع طائشة هالعة إنها تصعد مطمئنة الخطوات على ريث من أمرها وتدبر هادئة مستريح . فهي إذن تحبه وهي لأنها تحبه تتزوج منه .. اقتنعت ومرت عام .. بل لم يكدهم أن يمر .. ودخلت هبة إلى زوجها حجرة مكتبه وعلى كفها طفلها الأول سعيد وقالت هبة وهي تغالب الدموع أن تنفجر من عينيها ..

— هل أستطيع أن أكلحك ؟

— ودون أن يرفع رأسه عما يقرأ قال ..

— تفضل ..

— تذكر يوم زواجنا ؟

— فقاطعها :

— لا زلت تذكرين ؟

وقالت في غيظ مكبوت :

— ليس الوقت طويلا على كل حال ..

— لقد جاء في أثناء هذا الوقت ولد باكملة .

— نعم .. ولكن ليس الوقت طويلا مع ذلك . تذكر أنني قلت لك إنني أضاع حياتي وحياة أولادي أمانة بين يديك .

— نعم .. وهأنت ترين أني أعمل ليل نهار لأوفر لك ولسعيد كل أسباب السعادة ..

— لقد نسيت أن بين طوايا حياتي هذه التي أودعتها أمانة في يديك كرامتي . إنها أهدى ما تضمه حياتي من مقومات ..

— فلسفة عالية على .

— بل حقيقة إن كنت تجهلها فأنت تجهل الكرامة .

— وهل مسست كرامتك ؟

— أولا هذه اللهجة التي تكلمني بها .

— ما لها ؟

وعلا صوتها في غيظ .

- أنت تعرف ماها وإلا فأنت تقبل أن يكلمك بها الناس ..
- لعل كنت مشغولا على أننى لم أقصد أن أمس كرامتك .. المثل هذا ...
- لا تكمل . لقد أردت أن أنبهك إلى شيء أخطر من ذلك .. أنت تخرج مع سكرتيرتك ..
- وذهل مسعود وقال فى حيرة :
- مع من ... أنتجسسين على ؟
- لا .. ولكن أخبارك تصل إلى دون أن أسعى إليها .
- وما البأس أن يراى الناس مع سكرتيرتى ..
- فى غير مواعيد العمل ..
- وفى أى وقت .
- تلك هى إذن كرامتى المضاعة .. فعليك أن تختار .. أن أبقي فى البيت أو تبقي على سكرتيرتك .
- لا يمكن أن أختار .. لا يمكن ..
- لماذا .. ماذا بينكما ؟
- إنها زوجتى .
- قالها وعادت إلى فمه الانفراجة البلهاء وإلى عينيه النظرة الداهلة وحدثت فيه هبة طويلا .. ثم احتضنت ابنها وتركت الغرفة .. وحاولت . وحاولت كثيراً أن تترك البيت ولكن ذراعى طفلها الواهيتين كانتا تمسكان بها بيت الأب فى عنف جبار لا تطيق التغلب عليه ...
- لهى باقية ... باقية .

خطابان

« أنت يا صديقي أحبيت في مجدك وأحبيت في صورتك
التي رسمتها .. أحبيت في رأى النقاد في عملك .. ولن
يبنى من هذا جميعه شيء » .

لم تعرف خطه على الظرف فقد كانت المرة الأولى التي يكتب لها . ويبد مرثقة أمسكت
الخطاب :

أطويل طريقنا أم قصير ؟ إلى أين تفودين خطاى ؟ . عرفتك منذ عرفتك هوى جامعا وحبا
عاصفا ، وأفانين من السعادة يشوبها الخوف واللوان من الهناء يخالطها الأسى فيما استمتعت
بسعادة ولا خوف ولا هناء ولا أسى مثل هذه المتعة التي ذقتها من نبرة صوتك وفيها الحنان أو
نبرته وفيها غضب ، أو من عينيك أنظر إليهما فهما واد من الحب الظليل الحار العاصف
النضير ، ثم أنظر إليهما فهما حينما خوف وهما حينما أسى وهما حينما كل شيء ووميض وإبهال .

إلى أين بنا الطريق . إلى أين ؟ أطويل سبيلنا .. لكم أرجو أن يطول ؟ أم قصير .. لكم
أخشى أن يقصر ؟ .

أنت خائفة .. دائماً إذا خلوت إلى فكرك وخلصت من فؤادك .. تخافين ، ثرية أنت
باذخة الثراء . وأنا لا أملك إلا هذه الريشة التي أرسم بها .. ولكنى أكسب منها أموالا طائلة
إن لم تصل إلى إيراد ثرائك فهي لا تقل عنه كثيراً . ولكنك مع ذلك خائفة .. وتأبين أن تقولى
مبعث خوفك ويبيء لك الوهم أننى لا أعرفه .. لماذا يظن الناس دائماً أن غيرهم أقل منهم
ذكاء ؟ إننى أعرف خوفك ومبعثه ، بل إنى أيضاً أ مهد لك العذر أن تخافى ويشد بك الخوف ،

فقد شاء حظك أو شاء حظى أن يتقدم لخطبتك قبلى إنسان كشفت حقيقة نفسه فإذا هو ولا مطمع له إلا مالك فأنت منذ ذلك اليوم تأبين أن تصدقى أن بين الناس من يجبك لأنك أنت ..

أنت وحدك بلا مال ولا ثراء .. مسكينة أنت لكم تنظرين إلى المرأة .. ولكم تكليدين ما تقول لك المرأة .. أنت جميلة .. ألا تدرين أنك جميلة .. ألا تدرين .. أنذكرين أول يوم رأيتك فيه ؟ أنذكرين ماذا فعلنا ؟ لم أكن أعرفك وإنما رأيت هذه الوضاعة تشع من حولك فإذا ما حولك جميعاً لا شيء إلا أنت ، وقد كان ما حولك كثيراً . أضواء باهتة ونساء جثن يشهدن عرض الأزياء فجعلن من أنفسهن معرض أزياء .. ومعرض جواهر أيضاً . وموسيقى حنون ناعمة ونساء صنعتهن أيد ماهرة صناع يعرضن أنفسهن قبل أن يعرضن أزياء المتاجر ، وصخب وتصفيق وضجيج .. تلاشى هذا جميعاً ولم يبق في عيني إلا أنت .. أنت وحدك وجمالك الصاحب على الضجيج حلو الرنين عذب الأغاني باهر وهاب . وظللت أرنو إليك فيما شهدت من الأزياء أو النساء أو الأضواء شيئاً .. وحين قارب الحفل الانتهاء كنت أنت وثقت أن عينين من مئات العيون لم ترتفع عنك وكنت أنا قد بلغت من حيرى يأساً . فما أدرى كيف يتم بيننا اللقاء .. لم أكن أريد حينذاك إلا أن يقدمنى إليك أحد .. وكالغريق فى المحيط المترامى الأطراف تمتد إليه يد لا يدرى من أين امتدت ، جثت أنت .. نعم .. أنت صوب المائدة التى أجلس عليها .. وحملت .. ولكنك كنت ما زلت قادمة إلى المائدة ، وحملت ، ودارت بذهنى احتمالات فيما ستفعلن .. أترك ستورين فى أن ظللت أرنو إليك طوال العرض .. أترك ستصفيين وجهى .. أترك ؟ لم يستطع واحد من هذه الاحتمالات أن يمنع الفرحه التى راحت تهز قلبى هزاً .. فإنى سأتعرف بك ، ناثرة كنت أو غاضبة لا يهم .. المهم أننى سأتعرف إليك .. وجثت .. ووقفت إلى مائدتى وظللت جالساً أحلق منتظراً هجومك أو منتظراً ما هو أشد من هجومك ولكنك لم تفعل شيئاً من هذا وإنما مددت يداً طيبة إلى أخفى التى كنت قد نسيتها مع ما نسيت من ناس وأشياء .. وحينئذ وقفت وقبل أن أعرف اسمك قلت ..

— أسمحين يا سيدتى أن أرسم لك صورة ؟

وكان من الطبيعى أن تنظرى إلى نظرتك إلى مجنون ولم أحفل حينذاك بما تظنين ، وإنما كانت لففى إلى أن أرسم صورة لك هى كل ما يسيطر على .. خيل إلى أننى لو رسمت صورة لك سجلت قطعة فريدة من إبداع الخالق لا تتكرر ولا يجوز لها أن تتكرر فالعمل الفنى إذا ما أعيد سقط عنه جلاله . لم أحفل بما قد يتوالب إلى ذهنك من أفكار فما رايك ؟ وما ظنك بى أننى مجنون إذا ما قارنته بهذا العمل الفنى الكبير الذى أريد أن أسجله .. ولا أدرى لماذا فكرت فى هذه اللحظة العابرة أن حياتى الفنية .. بل حياتى متوقفة على لفظة منك . وأدركت أخفى الموقف وسارعت .

- أخى فريد حسنى .
- ولم تزل عنك دهشتك كلها ولكنك قلت فى نغمة حسية الجرس .
- أهلا وسهلا .
- وقالت أخى :
- طبعاً تعرفين أنه رسام .
- وابتسمت لما رأيت ابتسامة أحلى مما رأيت على وجهك .
- إن لم أكن أعرف فقد عرفنى هو وضحكت أخى ولم أملك أن أضحك ، وقلت أنت :
- أراك متعجلاً على أن ترسمنى .
- الآن قبل اللحظة الآتية .
- يا سلام ... ولماذا العجلة ؟
- أخشى أن تمر الأيام على هذا الجمال . بل أخشى أن تمر الدقائق .
- وضحكت وضحكت أخى ثم تهممت أسأريك فجأة وقلت :
- أتعرف من أنا ؟
- وقلت وأعتقد أن وجهى كان ساذجاً وأنا أقول :
- أبداً ... ولكنى لم أعرف لجمالك مثيلاً .
- وعادت الابتسامة إلى وجهك ثم قلت .
- أخشى أن يكون هذا غزلاً .
- أنت تعرفين من أنا ؟
- نعم قرأت عنك ورأيت لك بعض الصور .
- أعتقدين أنى أقبل لكرايمى أن أقول ما أقول لمجرد الغزل ؟
- إذن ..
- أنا يا سيدى .. رسام .. رسام رأى وجهها لم ير له مثلاً من قبل وما يعتقد أنه سبرى له مثيلاً من بعد .. أنت عندى الآن وجه ، مجرد وجه . أنا لا أعرف من أنت ولا يهمنى أن أعرف .. إنما أعرف هذا الوجه .. ولا أريد أن يمر الزمن قبل أن أرسم هذا الجمال فيه .. وأنا لا أريد منك إلا رسمك .. إنه جمال أراد له الله أن يكون واحدة ندية للبشرية العانية .. سيدى أخشى أن يمر الزمن .. أى قدر ضئيل من الزمن على هذا الوجه وأنا أريده هو الآن .
- أخشى الزمن إلى هذا الحد ؟
- قاس لا يرسم الجمال .. لو كان الزمن يعقل لم يرجمالك هذا فتركه دون أن يوقع عليه بغضونه أو يلمس شعرك الزاهى المتكبر بثلجه ولكن الزمن يمر ولا يعفى أحداً .. وأريد أن أرسمك قبل أن يمر .

وارتسمت في عينيك أمواج من الخوف وأمواج من الفرح وازداد بهما الشعاع وقلت :
— لك أن ترسمنى .

أنت لم تعرفى أى أمل حققته بألفاظك القليلة هذه . . والتقينا بعد ذلك وكانت صورتك
التي كتب عنها النقاد أضعاف ما كتبوا عن صوري جميعاً وبلغت من المجد فوق ما كنت أهفو
إليه . ولكن شيئاً من هذا لم يجعلنى أطير بهذين الجناحين اللذين كنت أطير بهما وأنا أرنو إليك في
أول لقاء أو هذين اللذين كنت أطير بهما وأنا جالس إليك . . لقد عبدت الله المصور في صورتك
وأحببتك آية من آيات الفن الأسمى الإلهي . . أحببتك منحة من السماء وأحببتك أملاً في
وأحببتك جمالاً لا يطاوله جمال ، وحاولت أن أخطبك ولكنك رفضت . . لم أكن أتوقع هذا
الرفض أبداً . . نعم عرفت عن ماضى أيامك هذه الخطبة الفاشلة التي أرادها طامع في
مالك . . ولكنك تعلمين أنى لا أطمع في مالك . . أترك من أجل غلطة واحدة من الزمان
تعرضين عن الحياة ومن أجل خطيئة واحدة من رجل ترفضين جميع القاصدين إليك ؟
لا أظن . .

فمن تستقبل الحياة إن لم تكن أنت ؟ وعلى من تقبل الحياة إن لم تقبل عليك أنت ؟ أنت في
جمالك هذا الشاهق الأسمى ، وفي شبابك هذا الزاخر بالحياة . . اجعلنى منى حياتك فانت كل
حياتى .

ولم يعرف خطها على الظرف فقد كانت المرة الأولى التي تكتب فيها إليه . ويبد مرثفة
أمسك بالخطاب :

لكم تشبه يا صديقى ذلك الفتى الذى تقدم إلى خطيبى طامعاً في مالى . لا تجزع . . فإنك
مثله لا فارق بينكما ولا اختلاف . . لقد أحب كل منكما شيئاً زائلاً منى . . أحب هو المال
وما أسرع ما يزول المال وأحببت أنت الجمال وما أسرع ما يزول الجمال . وأنت تعلم وأنت تذكر
كم كنت ملهوفاً على رسم صوري قبل أن تمرى الأيام فتطمس جمال وجهى وتذهب بشعرى
المتكبر المزهو . أنت شبيه بذلك الفتى كلاهما أحب زائلاً . أنت يا صديقى لم تحببى أنا . . أنا
جميعاً بكل شيء في ، بروحى وجمالى وفكرى ومالى وكل ما يكون هذا الكيان الذى أمثله في هذه
الحياة . . لو أنك يا صديقى أحببتنى جميعاً إذن لهدأ خاطرى واطمأن ولقبلك زوجاً قاتلة
لنفسى . . إن ذهب الجمال بقيت الروح وإن ذهب المال بقى الفكر . . ولكنك واأسفاه . . لم
تحب إلا جمال وجهى فقط . . وما أسرع ما يزول . . أجل ما أسرع ما يزول .

أنت يا صديقى أحببت في مجذك وأحببت في صورتك التي رسمتها . . وأحببت في رأى
النقاد في عملك . . ولن يبقى من هذا جميعه شيء . . ستجدد مجذك بصورة أخرى وسيقول

النقاد عما سوف ترسمه كلاماً ينسبك ما قالوه عن صورتى ولن يبقى منى لك إلا وهم تقف دونه من الأيام سدوف وضباب .

لقد التقى جمال وجهى بريشة الفنان فيك ولن يخلق هذا اللقاء حباً . لو التقت الروح منى بالروح منك لو التقيت أنا جميعاً بك لكنت الآن سعيدة ولكنت الآن آمنة حين أقول لك إنى أقبلك زوجاً .

إنى يا صديقى قد أحبيتك . . وقد أحبيت فيك شيئاً خالداً . . أحبيت فنك . . وفنك هو روحك ولكم كنت أمل أن أجد خطابك هذا الذى قرأته والذى أردته إليك يخبرنى أن لى عندك ما لك عندى ولكنك ، وهذا ما أحبه فيك ، صريح لا تبدى إلا ما تخفى . . ولقد وجدتكم تحب فى شيئاً أنا واثقة أنه لن يدوم . فأيام الربيع قصيرة ، وهى للمرأة أشد قصراً فإن جاء الخريف وتلاه الشتاء وبحث حولى ولم أجدك فواضيعتى يوم ذاك . . واضيعتى . . لأننى أيتها الصديق الحبيب ممن يعدون للشتاء منذ هم الربيع . ولكم يؤلمنى أن أخبرك أننى لن أقبل عرضك هذا . فالشتاء وخاصة شتاء المرأة بارد قارس باهت وما أحب أن ألقاه وحدى لقد نعمت بما نلته منك . وبحسبى هذا من جمالى ذكرى . ولن أقول وداعاً . . فإننى أحب دائماً أن أراك ، وسأظل دائماً أراك فالصداقة تستطيع أن تمتد إلى كل الفصول . . فإلى اللقاء . . إلى لقاء دائم .



مسودة الزغاريد

« وكانت فائزة نحس بنظرائه سواء كانت تراهما أو
كانت مولية له ظهرها .. كانت نحس النظرات
ولا تراها » .

كانت الحاجة زكية لا تترك فرصة دون أن تطالب زوجها الحاج عبد الرحيم العجل بأن
يزوج ابنها مدبولي الذي تجاوز مطالع الشباب والذي ترى أمه أن زواجه قد تأخر .

ولم يكن الشيخ عبد الرحيم يؤجل طلب زوجته عن فقر فهو بحمد الله غني يملك عشرة
أفدنة تنتظر الزيادة . وما كان يماطلها عن بخل فهو يحب ابنه أشد الحب ولا يرجو من حياته
شيئاً إلا أن يسعد ابنه الوحيد هذا .. بل أن السبب الحقيقي الذي من أجله لا يريد الشيخ
إنهاء الزواج هو هذا الحب الذي يكتنه لابنه ، وقد كانت مطالبة زوجته تزيد إصراراً على
التأجيل الذي قد يصل إلى الإحجام .. وكيف يقبل على تزويج ولده وهو ينظر إلى أمه هذه
المعجزة التي لا يكاد جلدها أن يخفي عظامها . كومة من العظام حاول على السنين الطويلة ..
الطويلة جداً أن يكسوها لحماً فلم تغلح محاولاته جميعاً .

لا يزال الشيخ عبد الرحيم يذكر ذلك اليوم الأغر الذي أخبره فيه أبوه أنه كبر وأصبح لأبد
له من الزواج عملاً بالحديث الشريف من استطاع منكُم الباءة فليتزوج ولم يصبر أبوه حتى يختار
هو العروس بل اختيرت له وتم الاتفاق على زواجهما دون أن يراها ودخل بها .. وكانت ليلة
أسود من الخبر .. كانت عظاماً ولم تكن زوجة .. وقد كانت أحلامه .. كل أحلامه أن يتزوج
من امرأة .. امرأة ثقيلة الأرداف حتى لا تستطيع حملها ، إذا أمسك بلراعها غاصت أصابعه

في تجاويف ومجهوف من البشرية الحية الطازجة . . فإذا زوجته هذه العجفاء الهزيلة وصبر نفسه وقال قد أستطيع على الأيام أن أسمنها فانا في تسمين العجول بارع مشهود لي في القرية جميعاً . ولكن براعته في تسمين العجول لم تجد شيئاً في تسمين الزوجة .

وعاش معها عشرين عاماً تزيدها الأعوام هزالا وتزيده هو يأساً وضيقاً بالزواج . وقد جعله ينصب نفسه مبشراً ضد الزواج فلا حديث له إلا أن ينفر الشباب من الإقدام على نصف دينهم وهو لا ينتهي عن ذكر الأيام الخالكة الظلمة التي قضاه في ظل زواج جاف من امرأة ليس فيها من صفات المرأة إلا أن اسمها في دفتر المواليد أنثى .

لم يحقق الزواج إذن من أحلام الشيخ عبد الرحيم شيئاً وأنه يريد ابنه أن يستمتع بحياته ويخشي عليه أن يلقى في الزواج ما لاقاه أبوه من أهوال تطالعه بها الحاجة عزيزة التي ازدادت على الأيام عظاماً وازداد وجهها غضبناً وازداد زوجها منها نفوراً ولها كرها .

ولم يكن الشيخ يجد شيئاً يُفرح كربه منذ أيام زواجه الأولى إلا أن يظل ليله يستمع إلى فتيان القرية الذين أصبحوا على الأيام شيوخاً مثله وهم يروون مغامراتهم مع نساء . . نساء مكتملات لا كومات من العظام كذلك التي يتركها في البيت .

وحديث الرجال في القرية لا ينتهي حول النساء . فالأفواه لا تمّل من ترديده والأذان لا تمّل من سماعه . فكيف إذن بالشيخ عبد الرحيم وهو الرجل الذي يعتبر نفسه غير متزوج .

أما مدبولي ابن الشيخ عبد الرحيم فله في الزواج مذهب آخر . . فهو يفلح الأرض منذ استطاع أن يمسك القنّاس . وقد كان يشاهد فائزة وهي تقدم بالطعام لأبيها صالح أبو عرابي الذي يعمل في حقل الشيخ عبد الرحيم . وكان يعجب بقوامها الفارع وبابتسامتها التي تومض ومضاً إذا سمحت للخمار الذي تضعه على نصف وجهها أن يسقط وكان يتدلّه بهاتين العينين يشع منها بريق من الحياة ونشوة من الشباب . وكان يظل رانياً إليها وهي مقبلة ثم يظل رانياً إليها وقد حملت الأواني فارغة وعادت بها فلا تمّل النظر . . وكانت فائزة تحس بنظراته سواء كانت تراها أو كانت مولية لها ظهرها . . كانت تحس النظرات ولا تراها . وكانت تحس معها نشوة تدغدغ فؤادها الغرير ثم تحس لدعة من الفقر فإن الزواج غير متوقع بينها وبين ابن الشيخ عبد الرحيم الثرى القانط من الحياة والكاره للزواج كرها أصبح في مثل شهرة الشيخ نفسه .

وكان مدبولي يعلم أن أباه لن يقبل هذا الزواج . . فهو يعلم أن أباه لا يحب من النساء إلا المليئات وفائزة في مقاييس أبيه عجفاء لا تصلح للزواج . . كما أنه يعرف أن أباه يجب أن يزيد ألدنته العشرة ببضعة ألدنة أخرى تجلبها له زوج ابنه ولن تجلب ابنة صالح أبو عرابي شيئاً يزيد هذه الألدنة . . بل هي ولا شك ستكلفه مهراً وليلة زفاف وفيما يتطلع قد يصبح مع الأيام عدة أفواه من الأطفال . وهكذا كان مدبولي يدرك أن أباه لن يُرحب بهذا الزواج بحال من

الأحوال .. فلم يجد مناصاً من أن يكتسب هواه ويتظاهر امام أبيه أنه يوافقه على رأيه .
 وكان من بين أصدقاء الشيخ عبد الرحيم . أحمد أفندي متولى . رجل عاش عمره نصف
 فلاح ونصف حضرى فهو يذهب إلى المدينة كل يوم وللبيت فى القرية كل ليلة . وقد تزوج من
 المدينة وجلب زوجته معه إلى القرية وامتدت صداقات الزوجة بزوجات أصدقاء زوجها ..
 وكانت زكية من بين أولئك الصديقات . وقد استطاع الشيخ عبد الرحيم أن يرى زوجة أحمد
 أفندي من بعيد ، وقد كانت هذه الرؤية البعيدة تكفيه أن يحكم على جمالها فما كان يعنيه من
 جمالها إلا أنها ذات قوام ملاء بل هى تزيد عن القوام الملاء فكان يكن لها إعجاباً ويكن لزوجها
 حسداً وتزداد حسرته بامرأته العجفاء .

وفى يوم قالت زكية لزوجها :

— يا شيخ عبد الرحيم

وأجابه فى نفوره الذى لا يتغير :

— مالك ؟

— والدلة الست هانم تعيش أنت .

— حماة أحمد أفندي ؟

— نعم . والمآثم اليوم فى البندر ، ألا أذهب للعزاء ؟

— طبعاً .. أطلب لك عربة ونذهب معا ..

وذهبا .. وبينما هما عائدان رأى الشيخ عبد الرحيم فى عيني زوجته كلاماً يشور بها أن
 تتحدث فلم يحاول أن يسألها حتى إذا بلغا المنزل واستقر بهما المقام أو كاد قالت زكية :

— أما يا شيخ عبد الرحيم ربنا رضى علينا .

— خير ..

— الست هانم لها ابنة أخت لو أصبحت من نصيب مدبولى .. وقاطعها الشيخ عبد
 الرحيم :

— يا امرأة حظى فى عينك حبة ملح .. أتذهين للعزاء فتخططين لابنك ؟

— يا أخى الحى أبقى من الميت .. بنت .. أما بنت .. مال وجمال .

— يا امرأة اعقلى .

— والله لو رأيتها لعرفت أننى أنا العاقلة .. وأنها تتمنى النسب .

— ماذا ؟

— أمها تتمنى .

— هل سألتها ؟

... النسوان يفهمن لغة بعضهم بعضا .. أخذت منها في الحديث وأعطيت فوجدتها راغبة
فينا أشد الرغبة ..

... في ماتم أمها !

... وماله .. أمها مريضة من عشرين سنة .. أنتظران نظل البنت عانسا لأن ستمها ماتت
عن مائة سنة يا أخى أرجو أن نعيش مثل عمرها .. أو حتى أقل بثلاثين سنة . المهم أن أم
البنت ..

ويقاطعها الشيخ عبد الرحيم .

... خطبت البنت من أمها في ماتم أم أمها .

وقالت زكية في حزم :

... نعم .. وقبلت .. لو رأيته تعذرون .. عود يا شيخ عبد الرحيم ..

... وقال الشيخ عبد الرحيم في سرعة .

... هيه .. رفيعه ..

... العفو عود .. عود ملء ووجه كالقمر وأبوها غنى ..

... عرفت الأخبار كلها .

... بعد الأربعين نتوكل على الله .

ولم يحب الشيخ عبد الرحيم .. ومرت الأيام الأربعون .. مرت على الناس جميعاً سريعة
لاسمه لها ولكنها مرت في بيت الشيخ عبد الرحيم وهو لا يسمع شيئاً إلا عن جمال البنت .

علية وحلاوة علية وعود علية وغنى أبي علية وطيبة أم علية حتى أصبحت علية داء
مستعصماً في لسان زكية وفي أذن الشيخ عبد الرحيم وفي حياته . إنها المرأة حين تريد .. وقد
أرادت زكية فبهيات أن يعصى الشيخ عبد الرحيم كان بين اثنتين أن يطيع زوجها أو يذهب
واحد منها إلى مستشفى المجاذيب ، . ولما كان الرجل لا يريد لنفسه ولا لزوجته هذا النهاية
فقد أسلم أمره لله وأطاع زوجته . وكلم أحمد أفندى أن يجدد لهم موعداً عند عديله ويحدد
الموعد. ويخرج موكب الشيخ عبد الرحيم ليخطب لابن الشيخ عبد الرحيم .

ولو كنت في القرية يومذاك لرأيت الشيخ عبد الرحيم في عمامته الجديدة وجبته المهنعة من
الجوخ الأخضر وتمنتها الفنتان الحريري ذو الخطوط الحمراء ولرأيت الشيخ وقد أفلت ذهنه من
الحلاق بعد أن سلخها فهي كالجذرة لولا بعض البودرة التي يعذر عليها العرق فتتناقص .

ولرأيت السم زكية في فستانها الكريب دشن وقد غطته بالمعطف الأسود الحريري والتخلت
على رأسها خماراً يدور حول أسفل ذقنها شأن سيدات المدن .

ولرأت خادمة المنزل في فستان جديد وقد صحبتها الست زكية لتكون مظهر غنى ودلالة سيادة أمام الأصهار .. وقد امتنع مدبولي عن الذهاب أول الأمر ولكن أباه تحت وطأة الحاح أمه أمره فأدخل نفسه في الجلباب الحريري الجديد والمعطف الصوفي الذي وضعه على نفسه على رغم الحر الشديد وأدخل رأسه في طربوش أحضره له أبوه .. وخرج الموكب ..

ولم تستطع زكية حين رأت نفسها وزوجها وابنها ، والخدمة في العربة ذات الجياد المطهمة لم تستطع أن تملك نفسها فأطلقت زغرودة عريضة تردّد صداها في القرية جميعا ولكنها لم تكتف بها بل ظلت طوال مرور العربة في القرية تطلق الزغاريد ، وتفسر لزوجها السبب في كل زغرودة تطلقها .. فهله للحاجة فهيمة .. حبيبة العمر ولا بد أن تشاركها الفرحه وهذه لفاطمة العدو اللدود التي كرهتها منذ دخلت القرية ، وهذه للحاجة منيرة الحاضنة لتستدعي زغرودتها المشهورة وهكذا حتى خرجت العربة من القرية .

ولو أنك انتظرت في القرية بضغّ ساعات لوجدت هذا الركب عائدا كما هو لم يتغير منه شيء أبدا إلا الزغرودة وزكية .. كان الركب عائدا بالعربة نفسها وزكية واقفة في العربة وقد رفعت الحمار الذي كان يغطي رأسها وصفحتى وجهها وأمست به يديها كليتها وراحت تحركه ذهابا وجيئة خلف رأسها . ثم راحت في الوقت نفسه ترسل الأصوات الناثحة الصارخة والكلمات الفاجعة .. يا مصيبي .. يا قلة بخي .. يا خيبي عملتها يدي .. وتقلب عينك في الركب فتجد الجميع لم يغب منهم أحد ولم يمت أحد بل أنك تجد أيضا السعادة في وجوه الجميع ..

لقد ذهب الشيخ عبد الرحيم وخطب عليه فعلا .. الفرق الوحيد أنه لم يخطبها لابنه مدبولي وإنما خطبها لنفسه ولعل هذا يفسر لك كل شيء من حزن زكية ونواحيها إلى سعادة الآخرين وفرحهم .

فالشيخ عبد الرحيم فرح لأنه حقق أملة آخر الأمر . ومدبولي فرح لأن أباه قبل أن يزوجه فائزة مقابل أن يتزوج هو هلمية والخدمة فرحة لأن فرحين سيقامان في المنزل بدلا من فرح واحد .



وجاهات نظر

« ولم أستطع السكوت ، فهاجتها في عنف .. وثبت إلى
ذهي الابتسامات التي تومض وتختفي ، ووثب إلى ذهني
ذلك الرجل الذي يلازمها ولا يتركها ، ، فثرت ، .

قالت الزوجة : نعم إنه كان يشتري لي كل ما كنت أتمنى أن ألبسه .. فسأتين ومعاطف
من فراء الثعلب ومن فراء أجنة الخراف ذلك الذي نقول عنه الأستراكان شديد الغلاء ومعاطف
من الزيلين والأزمين والقيزون .. لا أدري ما هي هذه الأنواع من الفراء .. أو أنفي على الأقل
لم أكن أحريها وإنما لبستها جميعا ، وأثرت بها من الإعجاب ما أثرت بل أثرت بها أيضا الحسد
والحقد في نفوس الصديقات وغير الصديقات وكان يشتري لي المجوهرات والحل .. من الماس
واللؤلؤ والزمرد وغير هذا من الأحجار التي يخالها الناس لروعتها صناعية وهي حقيقية بعيدة
الجلود والأصول . وكنا نقطن مسكنا إن رأه مخرج السينما لأخرج عنه فيلما وأسماه بيت
الأحلام .. أثاث من شتى الدول وبيوت الأثاث في العالم أسهمت فيه بأوفى نصيب وكانت
السيارة لا تكمل العام عندنا ، فهي دائما أحدث طرازاً وهي دائما أغلى نوعاً .

وأشهد لم يكن زوجي زئراً نساء ، وأستطيع أن أقول عن ثقة إنه لو أحب أن يكون زئراً نساء
لأتاحت له نساء كثيرات - وكثيرات جداً - أن يتحل بهذا اللقب ، ولكنه لم يكن .. وقد كان
زوجي لا يشرب الخمر إلا في حفلات تظم قوماً تصله بهم مصلحة عمل .. وكان حينذاك
حريصاً كل الحرص ، خبيراً عميق الخبرة .. فإن كان للناس الذين تربطهم به مصلحة ميل إلى
الشراب فهو يقدمه لهم إن كانوا في بيته ، وهو يطنب في وصف المشروب الذي يقدمه ،
ويتحدث عنه في إحاطة وعلم ومرونة . وإن كان هؤلاء القوم من الذين يميلون إلى الصلاة وذكر

الله والتمثل بآياته ، فهو حينئذ يمسك بمسبحة من المرجان الأحمر ذات جليلة من خالص الذهب ، ثم هو يدير الحديث إلى النحو الذى يستهويهم فيتحدث بالإحاطة والدربة والمرونة نفسها التى يتحدث بها عن الحمر وأنواعها . . وإذا أبدى أحد الجالسين إعجابه بالمسبحة نظر إلى هذا المعجب فلن كان ذا مكانة قد تنفعه ، عاجل يُهدى إليه المسبحة ، ويُصر على هذا الإهداء ، حتى يأخذها المعجب ، وإن لم يكن ذا مكانة كبرى استطاع فى لباقة أن يلوى الحديث إلى وجهة تبعده عن المسبحة . وكان منظر زوجى طريفاً حين يدعو إلى بيته فريقين ممن يرجو لديهم نفعاً ، أحد الفريقين من هواة الحمر ، والفريق الثانى من هواة الدين ، فكنت تراه يمسك كأسه بيد ، وإحدى مسابحه المرجانية باليد الأخرى ، ويدير الحديث على الناحيتين موجهاً إلى كل فريق الحديث الذى يُرضيه .

كانت مصالحه هى كل شيء فى حياته ، وما كان هذا ليفضبنى لولا أننى وجدت نفسى فى بيته مصلحة من مصالحه ، ووسيلة من وسائله للبلوغ إلى أغراضه ، فهو لم يقدم لى هدية من حلّى أو ملابس إلا وشفعها بجملته الخالدة أحضرت لك هذا لأننا سنتناول العشاء الليلة عند فلان بك أو فلان باشا .

كان ينجيل إلى أننى معرض يضع عليه غناه ليرسل الثقة بما ألبس أو أتخلّى به إلى نفوس المتعاملين معه . لم ألبس شيئاً غالياً إلا لأعرض على فلان أو فلان من الناس لم ألبس شيئاً له ولم ألبس شيئاً لنفسى ، ولم ألبس شيئاً لأننى أستحقه . . . ينسى عيد ميلادى وعيد زواجى وأعياد ميلاد أولادنا ، ولكنه لا ينسى أبداً أن يحمل لى معطفاً أو حلية غالية ، لأننا سنتناول العشاء أو الغداء فى مكان يضم قوما ذوى أهمية .

وكانت حياتى معه أشبه ما تكون بحياة الزائرين الرسميين فى البلاد الأجنبية فهو كل صباح يطالعنى ببرنامج اليوم من زيارات ومواعيد ، فأترك بطاقة فى بيت فلان ، أو ألبى دعوة من فلان ، أو أدهو فلانا آخر إلى وليمة . . قد يجهد الزائر الرسمى ضمن البرنامج فترة يقضيها فى حرية ليشاهد معالم المدينة التى يزورها أما أنا فلم يكن لى هذا الحق ، فالبرنامج لا يفوت يوماً ، والبرنامج كامل لا يترك ساعة ، وقد يداخل الزائر اليومى أمل أن تنتهى الزيارة الرسمية ويعود إلى بلاده وحرته أما أنا فلا أمل لى ، فهو زوجى ومصالحه تزداد كلها تقدمت به الأيام ، والبرنامج ثابت لا يتغير فيه إلا الأشخاص .

تقطعت صلتى بالبيت ، تقطعت صلتى بالأولاد ، وأصبحت جزءاً من سيارته ، ومعرضاً لغناه ، ووسيلة لآماله .

ومرضت يوماً فاعتذرت عن عدم تنفيذ البرنامج ، لازمت سريرى وجاء هو من الخارج وسأل أمه عنى ، فقالت إننى خرجت ، ولكنه دخل لوجدنى نائمة فى السرير فسألنى :

— أين كنت ؟

— هنا .

— أمى تقول إنك خرجت .

— لم يحصل .

— أمى لا تكذب .

— وأنا لم أخرج .

وشتمنى وشتمته ، وتركنى وخرج ، قمت إلى ملاسبى فجمعتها وخرجت تاركة الحبل والمعاطف لتتفع زوجته القادمة فى الدعوات التى ستليها .

ولم يطل بى الانتظار فى بيت أبى فقد جاءت ورقة الطلاق .

* * *

وقال الزوج : لا أعرف سيدة تملك من القراء أو الحبل ما كانت تملكه زوجتى . . . لم أقدم إليها إلا أغلى الأشياء وأثمنها . ولم أر يوما ابتسامة شكر على وجهها . . لم ترض عن شيء أهديته إليها ، لم أر فى عينيها تلك السعادة التى طمعت يوما أن أراها فى عينيها . . لم يكن ينقصها شيء ، ولكنها مع ذلك كانت ساخطة دائماً مغضبة دائماً ، لا ترضى ولا تدع لى فرصة أهنأ فيها بالسعادة التى حاولت أن أخلقها فى بيتنا بالمال الوافر الذى بذلت فى سبيله دمي وأعصابى .

كان الأصدقاء يدعوننا إلى الحفلات فتعتذر بوهكة ، أو تدعى المرض ، وحين أعود أجدها قد خرجت مع أصدقاء آخرين ، وإذا سألتها أين كنت ثارت وغضبت وراحت تصرخ فى وجهى ، فأسكت أو أذهب إلى أمى فى غرفتها حتى تنام زوجتى فأعود إلى غرفتى . . وكنت أخشى أن أطلقها فأجنى على أولادى ، وإن كان هذا التفكير فى ذاته يحتاج إلى إمعان . . فهى لم تكن تهتم بالأولاد ولا تعبا بهم ، بل كنت أنا أراقب سيرهم فى الدراسة ، وأرعى من أمرهم مالا ترعاه هى ، وإن شغلتنى الحياة قامت أمى على شأنهم فى حذب بفتقدونه فى حضن أمهم فلا يهدونه . . إلا أننى — مع ذلك — كنت واثقا أن الأم ضرورة للأولاد لا يطيقون عنها غناء فصبرت طالما ألحت أمى أن أقسو أو أطلق ، فكنت أتغاضى عن قولها وأصبر . . فالطلاق فى حياة رجال الأعمال فضيحة ، وأنا لا أخب أن يلوك الناس اسمى ، فقد يؤثر هذا على مصالحى وعلى أولادى .

تكرر منها الاعتذار عن الحفلات التى تدعى إليها ، وتكرر اعتذارى أنا أيضا بمريضها ، وكنت ألح على الوجوه التى تسمع الاعتذار شبح ابتسامة لا تبدو حتى تفنى ، ولكن بعد أن تركت فى نفسى هاجسا قوى الوخز ثم لاحظت أنها تلازم مجموعة معينة فى خروجها ، ولا حظت أن

بين هذه المجموعة رجلا في مثل سنها غير متزوج ، ولا حظت أن هذا الرجل بالذات هو الذى يأتى بها إلى البيت ، ولا يفارق الجماعة حتى تفارقها هى وداخلنى الشك ، ولكنى أبعدته عن نفسى بحرصى على بيقى وسمعتى وسمعة أولادها .. أولادى ..

وفى يوم ادعت المرض وخرجت إلى عشاء كنت مدعوا إليه عند « . . . » باشا وحين رجعت ذهبت إلى أمى أسألتها هل زوجتى بخير فأنبأتنى أنها لم تعد إلا منذ دقائق . . . وقصصت حجرة نومنا فوجدتها فى السرير .

— أين كنت ؟

— هنا .

— أمى تقول انك خرجت .

— لم يحصل .

— أمى لا تكذب .

— وأنا لم أخرج .

ولم أستطع السكوت ، فهاجمتها فى عنف .. وثبت إلى ذهنى الابتسامات التى تومض وتختفى ، ووثب إلى ذهنى ذلك الرجل الذى يلازمها ولا يتركها .. فثرت .. وتركت لها الحجرة لأنام فى حجرة أخرى . وفى الصباح كانت قد غادرت البيت تاركة المجوهرات والفراء . وكانت الابتسامات ما تزال تلح على تفكيرى ، وكانت صورة صديقها مازالت ماثلة أمام عيني .. فطلقتها .

* * *

وقالت أم الزوج .

لم أر رجلا كان يهتم بزوجه مثل ما كان يهتم ابنى بزوجه ، ولم أر امرأة تقابل الهدايا الثمينة التى يقدمها إليها زوجها بهذا البرود والتعالى اللذين كانت تقابل بهما زوجة ابنى هدايا ابنى .. ومع ذلك لم يكن ابنى يكف عن إحضار الهدايا إليها ، ولم تكف هى عن برودها وتعاليتها .. ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان .. إلا أنها كانت تهمل أولادها .. أولاد ابنى ، فأقوم أنا على شأنهم ، وأرعى أمرهم مع أن صحى لا تحتل هذا ، ولكن ماذا كنت أفعل وأنا أراهم ضائعين ، ولا يهتم بهم أحد أو يراقب ماكلهم وملبسهم إلا الخدم . وانتهى بهم وبى الأمر أننى كنت أقرب إليهم من أمهم ، يحبوننى أكثر من حبهم لها ، ويلجأون إلى فى مطالبهم ، ولا يلجأون إليها .. فما كانوا ليجدوها فى البيت لو أرادوا اللجوء إليها .

ولو كانت تصاحب زوجها فى الدعوات التى يضطره عمله إلى تليبيتها لسكت .. فإن ابنى من رجال الأعمال الكبار ، وأصدقائه من الأغنياء ذوى الجاه والسلطان ، ولكنها مع ذلك لم

تكن تأبه بهؤلاء الأصدقاء العظام ، بل كانت تخرج دائماً مع أصدقاء لها ، لا هم في العير ولا في النفر ، ومع ذلك لم أكن أتكلم ، وكم جاءني ابني يشكوها إلى فكنت أقول لا عليك يا ابني إنما زوجتك على كل حال وأم أولادك فاحتملها فيسكت — يا عيني يا ابني — ولا يتكلم .

إلا أنني سمعت من صديقتي أن همسا يدور حول صلة بين زوجة ابني وبين صديق لها في الجماعة التي تخرج معها دائماً . وسمعة النساء هي شرفهن وشرف أزواجهن وأولادهن . . ماذا أفعل ؟ إن كان ما سمعت صحيحاً فهي مصيبة ، وإن لم يكن صحيحاً فإن هذه أمور الكذب فيها كالصدق ، والسمعة هي السنة الناس ، ومادامت الألسنة تتحرك في الأفواه فالفضيحة واقعة ، يستوى في ذلك الكذب والصدق . . هل أخبر ابني ؟ . . . لم أجرو فقد أشفقت عليه أن أفعل . أطلب إليه أن يطلقها ؟ . سيسألني لماذا وقد كنت تدافعين عنها .

وجاءت من عند ربنا . . عاد يوماً من عشاء كان مدعوا إليه ، ولم تذهب هي بدعوى المرض : وسألني عند عودته عن صحتها ، فأخبرته أنها لم تعد إلا منذ قليل . . ولم أكن كاذبة . . الحمد لله لقد أصبح ابني سعيداً في بيته . . ولم يشعر الأولاد بنقص في حياتهم . .

أتسألني ما الحق في هذا جميعه ؟ . . . وهل أدري ؟ . . وكيف أدري ؟ . . . أتستطيع أنت أن تدري ؟ . .



استغفر الله

« وبلغت به الجرأة أنه صار يعلق البندقية على كتفه ويطلب
البهائم في رائحة النهار فإذا مقودها في يده ثم ما هي إلا يوم أو
بعض يوم حتى تلحق به الفدية » .

بكرت الشمس إلى مكانها من السماء فوجدت جماعة من قرية المهديّة قد خرجوا من ديارهم
وأخذوا سمتهم إلى طريق القرية الرئيسي الذي يؤدي إلى موقف السيارات العامة وكان بينهم
اتفاقاً صامتاً على المكان الذي يقصدون ، فقد ألقى كل منهم إلى الآخر تحية وحاول كل منهم
ما وسعه الجهد أن يكسو صوته برنين من الفرح . وساروا طريقهم . كانوا خمسة رجال عبد
الصمد الحياتي ومسعود عبد الخالق وراضي عبد الرحمن والسيد أبو الليل ومحمد العضل ،
وكانوا يقصدون إلى السجن ليستقبلوا سعد الله الحياتي بعد أن قضى في السجن خمسة عشر عاماً
لارتكابه جريمة سرقة .

فأما عبد الصمد فهو أبو سعد الله . وأما مسعود وراضي والسعيد أبو الليل فهم أفراد
العصابة القديمة وأما محمد العضل فهو شاب لم يعد الثانية والعشرين من عمره . أطبق الصمت
عليهم بعد أن تبادلوا التحية وذهل كل منهم إلى الماضي والحاضر والمستقبل يفكر فيما كان وما هو
كائن وما يحمله خروج سعد الله من جديد على حياته .

أما عبد الصمد فهو يدعو الله أن يهدي ابنه إلى صراط مستقيم حتى يتيح له الأمن على
حياته ومستقبله وما تلبث الآمال أن ترنو إليه بعين طيبة . خمسة عشر عاماً لا شك أنها قد هدت
العاصي وأسلسّت من طباع سعد الله ما كان جامعاً . . وها قد تبيأ له من الأرض ما يكفيه فلو

أنه فلح أرضه لا ستغنى عن الليل وما فيه من سرقات مضرحة بالدماء . . . أكان سعد الله يسرق للمال أم هو حب المخاطرة والتلف على مديح من معه والحرص على هذا الخوف يشيعه في كل من حوله من ناس وبلدان ولكن خمسة عشر عاماً قد مضت فأى طريق يا ترى يسير فيه سعد الله . وأما مسعود فقد كان يفكر في خروج سعد الله تفكيراً يختلف كل الاختلاف عن تفكير عبد الصمد . فقد قضى هذه السنوات يفلح الأرض في غير معرفة بأسرارها فامتنعت الأرض أن تكافئ جهده فهو منذ ذلك الحين في فقر مدقع صاحبه احتقار قوم كانوا يُظهرون له الولاء في ظل سعد الله حتى إذا خلوا به بعيداً عن زعيمه أنزلوا به المذلة والهوان وقد كان يعلم أنه لا يقدر على الليل وحده فهو منذ بدأ حياته فيه تعود أن يكون مقوداً غير قائد . وهكذا رضى عن المخاطرة التي تعود عليه بالريح الوافر بكسرة من خبز يغمسها في الزجر العنيف الذي يأخذه به صاحب الأرض متولى العضل . فهو اليوم في فرحة غامرة . . لقد عادت أيام المجد أو هي بسبيلها أن تعود ولينزّلن الأحوال بكل هؤلاء الذين اعتدوا على كرامته وليكونن متولى العضل في الطليعة منهم .

وأما راضى عبد الرحمن فهو حائر لا يدرى مصيره . فهو في هذه السنوات قد أخذ نفسه أن يقوم بالسرقات الصغيرة التي لا تحتاج إلى كثير من شجاعته وليس يدرى اليوم أيستطيع أن يخاطر بحياته مرة أخرى ويشارك سعد الله في مغامراته التي تغلب عليها الجرأة المجنونة التي لا تعباً بالعواقب . . . فلقد تزوج وأصبح له طفلان وهو يريد لطفلين الطفلين أن يجدا أباهما حتى يشتد عودهما ويتمكنا من لقاء الحياة .

وأما السيد أبو الليل فقد نجش المسير حفاظاً على الود القديم ، فما عاد له من الليل مأرب فقد أصبح اليوم عجوزاً يتوكأ إلى الستين من عمره .

وأما محمد العضل فهو ابن متولى العضل شب منذ وعى الحديث وهو لا يسمع من مسعود حديثاً إلا حديث سعد الله وأيام مجده الأول فأحلامه منذ ذلك الحين ومسالك فكره لا موضوع لها إلا سعد الله إن نام رآه وإن صحا تحيله وإن لعب مع الأطفال كانت اللعبة حوادث سعد الله إذا سمي به السن إلى الشباب كان سعد الله مثله الأعلى .

وشاءت الأقدار أن يكون محمد العضل ضامر الجسم هزيلاً ضئيلاً وأدرك — منذ توقف جسمه عن النمو ألا سبيل له أن يكون شبيهاً لسعد الله أوفيقاً له في مغامراته . . فالتفت إلى أرض أبيه يزرعها فأتقن زرعها وأخذ يحمل عن مسعود بعض عبثه راضياً أن يكون الثمن حديث مسعود عن سعد الله . . فما منعه ضعف جسمه أن يحب سعد الله بل لعل هذا الضعف قد زاده حبا له وإقبالا على الحديث يجرى عنه . فهو لهذا يتخذ سبيله مع هؤلاء القوم ليرحب

بالقادم العزيز ويراه في أول لحظة يتمكن فيها من رؤيته لا يريد أن تفوته هذه الفرصة التي قضى الأعوام الطوال في انتظارها .

وبلغ القوم السجن والشمس تعلن الظهيرة ولم يطل بهم الانتظار حتى خرج إليهم سعد الله الجبائي . وتعانق الأب وولده ثم فرغ سعد الله إلى أصدقائه حتى إذا بلغ إلى محمد قدمه إليه مسعود بأنه ابن متولى العضل فصافحه وأشار الأب إلى سيارة أجرة قريبة من السجن وركبوا فيها جميعاً واتجه الركب إلى القرية . وحين اقتربت السيارة من المهدي . وجدوا جماعة كبيرة من الناس منتظرة بظاهر البلدة تعلن فرحها بالطفل والمزمار . وأصر المستقبلون أن ينزل سعد الله من السيارة ويدخل بلدته بين مظاهر الحفاوة هذه التي ينتظرونه بها . . وكان ما أرادوا .

وحين استقر بهم المقام في بيت عبد الصمد دار الحديث بعيداً عن السجن وإنما هي أنباء القرية وما جرى فيها . واستمع سعد الله واستمع ولكن سؤالاً ما يزال يلح عليه إلحاحاً غير هين يريد أن يلقيه ولكنه ينتظر من القوم أن يفصحوا عنه دون سؤال ولكن الأحاديث تدور والأنباء تلقى إليه واحداً بعد الآخر وليس عن جواب هذا السؤال كلام . وكأنما دبر القوم مؤامرة صمت فيها يتصل بهذا الموضوع وطال صبر سعد الله وطال حتى لم يعد يستطيع صمتاً .
— أين عبد الهادي الأكتع ؟

وكانما كان الحديث آلة عظيمة الضجيج أصابها العطب فجأة فهوم الصمت المفاجيء على أجزائها . . صمت الجميع ونظر كل منهم إلى الآخر وعاد سعد الله يقول :
— خير يا جماعة . . هل أصابه شيء ؟

وعاد الصمت مرة أخرى وعاد سعد الله يقول :
— لا بد أن شيئاً أصابه وأنتم تحفون . . لا يمكن أن يتأخر الأكتع عن لقائي .
وكان سعد الله محقاً . . فعبد الهادي رفيق العمر . . لعب وسعد الله في الملعب الصغير في ظل الطفولة ثم كان صديقه الأول ويده اليمنى في مغامراته — لقد صاحب سعد الله حياة الأكتع جميعاً . . بل لقد شاهد الحادثة التي جعلت اسمه الأكتع . في ذلك اليوم السحيق البعد من تاريخها يوم داست الجاموسة على ذراعه وتناوله حلاق الصحة بما زاده سوءاً حتى إذا أدركه الطبيب أصلح ما أمكنه لإصلاحه من الدراع المهشم فظل عبد الهادي بعد ذلك بذراع يشنى ولا يمتد ولم تكتف القرية بهذا الذي أصابه وإنما أطلقت اسم الأكتع فلازمه وظل يكبر معه ومع الأيام حتى اندثر اسمه الأصلي وهو عبد الهادي أبو جراد . وحين كان سعد الله يمازحه .

— أراك لم تغضب من قول الناس عنك الأكتع .
فكان يقول في ابتسامة خالية من الغضب :
— الحقيقة أن اسم الأكتع أحسن عندي من اسمي الأول فسعد الله بحق إذن حين يسأل

عن الأكنع ويلج في السؤال ولم يجد مسعود بدأ آخر الأمر من أن يقول :
- لقد كون عصابة وأصبح رئيسها وأظنه يخشى أن يجيء حتى لا تجعل منه مساعداً مرة أخرى .

وتصعق القوم دهشة آخلة حين يجدون سعد الله قد انفجر ضاحكاً مقهقهاً لا يتوقف ثم يقول والضحكة مازالت عالقة بالفاظ حديثه :

- .. لا .. حد الله بيني وبين هذا .. دعوه يأت ، فلن يجد عندي ما يخشاه .

ويفرح الأب بهذه الإجابة تدنيه من الأمل الذي طالما داعبه ، وتبدأ الحيرة في خاطر راضي ويقول في نفسه « بركة يا جامع .. » ويأخذ الجزع بمجامع مسعود فإنه يرى الأمل الذي عاش له طول هذه الفترة يوشك أن يوبى ولكنه ما يلبث أن يقول لنفسه يطمئنها لعله ينتوى أمراً جليلاً لا يصلح له الأكنع وتوشك نفسه أن تصدقه . ويظل محمد العضل حائراً لا يدري ما يقصد إليه سعد الله بهذا الحديث الذي يسوقه .

ويأتى الغداء فهو غداء ضخم فخم يتصدره خروف بأكمله ويعود الحديث إلى الضحيج يصاحبه ضحيج آخر من مطالب الطاعمين حتى إذا رفعت الأطباق والصواني علا في السماء صوت الأذان فإذا بسعد الله يصاحب كلمات الأذان .

- الله أكبر ... الله أكبر ... هيا يا أبى تقدمنا لنصلى العصر .

ويقلب ملء بالفرح تقدم عبد الصمد وخلجات السرور تهرز صوته هزا .

- الله أكبر الله أكبر

وانتظمت الصفوف من خلفه ولكن مسعود لا يطيق . لم تعد الأيام القادمة تحمل له من المجد الضائع شيئاً فهو ينفتل من باب البيت ويلحق به محمد العضل .. أهذا هو سعد الله ! ها هو ذا يقيم الصلاة شأنه القرية جميعاً .. لكم غررت به الأحلام ..

شاع أمر سعد الله بين الناس وتسامعت القرى من حوله أنه قد تاب إلى صراط مستقيم وأنه يقيم الصلاة ولا يقبل الحرام ... وباركوا منه هذه التوبة وفرح هو بمباركتهم وسعت به وبهم الأيام .. عجيب أمر هؤلاء الناس ما له يرى من كان يحبيه خائفاً مرحباً قائماً غير جالس قد أصبح اليوم يلقيه في سر وهدهو وجالساً غير قائم ؟ أترأه اختار طريقاً غير نجدير به ؟ أين التحايا الهاتفة ؟ أين الترحاب المشرق .. أين الإجلال والإكبار حيث بدأ ؟ أين هذا جميعه ؟ بل إن بعضهم قد زاد الهوان هواناً فأصبح يطالب بحقه في رى أرضه قبل أن تروى أرض سعد الله .. وأن بعضهم ليطالب بالجرن قبل أن يدرس قمح سعد الله حاول أن يقول « اختشوا » أو « النار لا تأكل حطبها كله » أو يقول « أنا سعد الله » فلا يرى إلا ابتسامة متهافئة

ووجهاً مزوراً وحديثاً على الشفاه يوشك أن يقول « كان زمان » لولا أن تمسك به بقية من خوف أو بقية من ذكرى

بل إن مسعود لم يعد يأتى إليه فإن مر أحدهما بالآخر فتحية عابرة لا أثر فيها من الماضى الطويل ... بل الأدهى من ذلك .. محمد العضل الذى أحس فى أول لقاء لها أنه يحمل له إكباراً وتقديساً .. هذا المحمد العضل الهزيل الضامر القمى ينظر إليه فى سخط وكان بينهما ثاراً دفيناً . هيه يا دنيا .. أهكدا .. ألا بد لى أن أحمل السلاح الصاحب القاتل حتى أنال التبجيل والاحترام ؟ أما يكفى سلاح الإيمان والطيبة ؟ والاسم القديم ألا يكفى ؟ ألا يكفى ؟ تحمل سعد الله هذه الأيام فى صبر راض نفسه عليه لا يبدو منه غير الصمت ولكنه فى دخيلته كان مرجلاً يغلى وكان يحس أنه يصبر فيزيده شعوره بأنه يصبر ثورة على ثورته .

وفى يوم صبحا سعد الله من نومه فلقيه من أهله وجوم وصمت ، ما لبث أن عرف أسبابه ... لقد سرقت البهائم فى الليل .. جاموسة وثور وبقرة .

لم يكن بين البركان فى نفسه وبين أن يثور إلا قشرة رقيقة إن هى انتزعت فهى الثورة الأخذة الماحقة . ولم يكن ما انتزع قشره . وإنما هه ضربة تغور فى أعماق النفس وتغور حتى تصل إلى القاع .. هل قدر لسعد الله أن يقبل هذا ؟ لا ودون ذلك الحياة والموت .

لم يتمهل سعد الله فقد طالما تمهل ... انطلق إلى مسعود
— سلاحك عندك ؟

— نعم .

— هاته واتبعنى .

وانسعر سعد الله الهادى الطيب ليعود سعد الله الجامع الذى لا يقف به أحد أو شيء ... هو النار .. قتل الأتبع أول ما قتل واسترد بهائمهم .. ثم أصبح يقتل الناس ويأخذ بهائمهم .. ثم أصبح يأخذها ويردها بعد دفع الفدية عنها .. ومحمد العضل يتسمع هذه الأنباء فتعود نفسه إلى إكبارها لسعد الله ويزداد الإكبار ويزداد .. فقد أصبح يسمع الأحداث ويشهد آثارها ... وإنه اليوم ليتقرب إلى سعد الله ولكن سعد الله اليوم يشيع عنه فى عزة واستكبار ... وعادت القرية تقف لسعد الله للاح ظله أو شبيه لظله من بعيد ، وعادت الحياة تسقى أرض سعد أول ما تسقى . وأصبح الجرن يدرس قمح سعد الله أول ما يدرس ... عاد سعد الله على أروع ما يمكن أن يعود .

وبلغت به الجرأة أنه صار يعلق البندقية على كتفه ويطلب البهائم فى راحة النهار فإذا مقودها فى يده ثم ما هى إلا يوم أو بعض يوم حتى تلحق به الفدية .

وفى يوم قصد سعد الله إلى حيث يربط محمد العضل بهائم وطلب إليه البهائم . وذهل العضل . . . فهو لم يفكر يوما أنه سيكون ضحية لسعد الله . . إنه يحبه ويعجب به ويقدره على أن تكون الضحايا قوما آخرين . . . أما هو . . . إنه لم يتصور هذا في يوم من الأيام وبفم فاغر من الدهشة وقلب كسير من الحزن أسلمه مقود البهائم . . وعاد إلى أبيه يخبره أن سعد الله يطلب خمسين جنيها فدية للجاموسة والبقرة والحمار وثأر أبوه ثم خرج يدبر أمره . لم يتم العضل بالخمسين جنيها وإنما راعه هذا الذى حدث إذن فهذه هى البطولة التى كان يحلم بها . . إذن قتلك هى آماله وأحلامه ومثله العليا يا لضبيعة عمره . . . أهذا هو المجد الذى لم يتصوره إلا ويشب اسم سعد الله إلى ذهنه وروحه وقلبه ؟ ١٩

عادت البهائم بعد أن دفعت الفدية ولكن نفس سعد الله لم تكن قد شفيت من محمد العضل الذى ظل فترة طويلة يتجاهله . . . ونفس مسعود أيضا لم تكن قد شفيت من الهوان الذى لقيه خمسة عشر عاما على يد متولى العضل . فما هى إلا أيام قلائل أخرى حتى ذهب سعد الله ومسعود إلى محمد العضل وقد أبى سعد الله أن يصحب أحداً آخر من أفراد عصابته فما كان محمد العضل جديراً بغير اثنين وإنهما لكثير وحين بلغ الاثنان مكان محمد وجدا إلى جواره رجلين آخرين يرقبان جملين لهما يرتعيان فقال سعد الله .
— لقد تضاعف الصيد .

ودون أن يكلف نفسه عناء استعمال البندقية المعلقة على كتفه تقدم إلى الرجلين وطلب إليهما أن يسلماه جليهما ففعلا صامتين . وأمسك مسعود بزمام الجمليين وتقدم سعد الله إلى محمد يطلب إليه البهائم ونظر إليه محمد نظرة حسيرة نائرة . . هذا الهوان الذى لا هوان مثله . . . أمرتين في أيام قلائل أ يكون هذا إلا تحدياً ؟ وقبل أن يجيب ؟ بل وقبل أن يمعن التفكير وجد نفسه يرفع الفأس في ثورة مجنونة ويهوى بها على سعد الله وفى لحظة خاطفة كان واحد من صاحبي الجمليين قد هوى على مسعود فجرده من سلاحه ثم انهال عليه ضرباً ، ولم تمض لحظات حتى كان سعد الله ومسعود خبراً مضى وجثتين يتولى أمرهما النهر الصغير الذى يروى قرية المهديّة فيما يروى .

وأدهش القرية هذا الهدوء الذى ران عليها بضعة أيام . . . ثم ما لبثت دهشتها أن زالت يوم أعلن موت سعد الله ومسعود ولكن دهشة أخرى صغيرة كانت تنتظر القرية . . لقد أصبح محمد العضل تقياً لا يترك فرضاً أو سنة . . . ولاتنى شفتاه عن التمتعة وأصابه عن تحريك حبات المسبحة . ولو قدر لأحد أن يسمع حديثه إلى الله لما سمع منه إلا استغفر الله . . استغفر الله استغفر . . .

طوق حول العنق

« وقرأت خطابها على أمين .. ولم يصدق أمين أذنيه .. أصبح ما تتلوه عليه زوجته .. أحقاً يتحقق الأمل » .

وكيف لا يحبها فيبلغ حبها أقصى غايات الحب ، وكيف لا تحبه فتفتى فيه وترى الدنيا فلا تراها إلا من خلال عينيه ، تلتقى بالحياة فلا تلتقى بها إلا من خلال نفسه .
إنها هواء القديم الجديد ، إنها هواء الطفل وهواء الفتى وهواء الشاب إنها حياته .
وإنه هوى الأيام الخالية من الطفولة وهوى الأحلام الغريرة من الشباب وإنه هوى المستقبل النشوان الضاحك الجدلان .

تعارفا في المهد وقد جمعت بينهما أخوة تجمع بين أميها وصداقة تجمع بين أبويها وتعارفا في ذلك السجن الصغير من الطفولة ، وذلك الملعب الذى تحيط به الأمهات أطفالهن أن تقودهم الخطوات الجاهلة إلى سلم لا يرحم الطفولة أو تقودهم هذه الخطوات إلى مقتنيات في البيت غالية لا ترحمها الطفولة القاسية ... لعبا في ذلك السور الصغير الذى كان يحيط بهما ، وما لبث هذا السور أن أصبح حجرة ثم غما معها فكان فناء ثم غما ونما فكان الحياة .

استقبلاها أول أمرها لهواً ولعباً ونظرة إلى المستقبل مشرقة الابتسام ونظرة إلى الماضى ندية الحنين . لم يخطبها أبوه ولم تخطبها أمه ... فقد كان زواجه بها أمراً مقررأ معروفاً .. الكلام الرسمى فيه يضيف على حقيقته وواقعه شكاً وما كان هناك شك كان يعرف أنه سيتزوجها كما يعرف أنه ذاهب إلى كلية الهندسة وكانت تعرف أنها ستزوجه كما تعرف أنه لابد لكل فتاة أن تتزوج .

وفى انتظار انتهائه من كلية الهندسة انتظمت هى فى كلية الآداب . وقالت فى نفسها
سأسبقه فى التخرج بعام ، ويكفىنى هذا العام لأجهز بيت الزوجية .

وفى هذه الشعاعات الحلوة من الأوهام استقبل كل من العروسين الحبيبين حياته فى
الجامعة . وانطلق كلاهما لاهثا يعدو السنين يدفعه الحب ويغذبه الأمل فما عرفت كلية الهندسة
طالبا انتهب علومها فى إقبال ووعى كما كان أمين ، وما عرفت كلية الآداب ، طالبة تقبل على
موادها فى إشراق وثقة ونجاح كما كانت وفاء .

ومرت السنوات الأربع قصارا باللقاء النشوان ، والأمل المزهى . . . طوالا بالأيام
العصيبة من المذاكرة والساعات المفزعة من الامتحانات . مرت السنوات وتخرجت وفاء فى كلية
الآداب وفرغت إلى تجهيز بيتها وظل أمين يمانى عامه الأخير فى كلية الهندسة باذلا أقصى غايات
الجهد أن يكون نجاحه خليقا بما يرجوه لنفسه من مستقبل وما يرجوه له حبه من مكان .
ونال أمين شهادته وأصبح معيدا بكلية الهندسة . وكانت وفاء قد انتهت من جهاز البيت .
وكانت ليلة أصبح عليها الصباح فإذا الحلم واقع ، وإذا آمال السنين كلها حقيقة يعيشها كلاهما
بكل نبضة سعيدة من قلبه وبكل خليجة فرحانة من دمائه .

اجتمعت السنين الماضية جميعها والآمال التى كانت آمالا . والوعود التى كانت وعودا ،
والأحلام التى طالما طافت بعيونها الوسنانة الهائمة الراضية الآمنة . . . اجتمعت جميعها فإذا
السعادة بعض من أيامها ، وإذا الحياة وقد طالعتها بأيام صافية هى الحلم وهى الأمل وهى
الواقع .

وكانت كلية الهندسة قد رشحت لبعثة إلى إنجلترا وما هى إلا أشهر قلائل حتى تقرر هذه
البعثة وقرر هو وهى أن يذهبا معا فتدرس هى فى الآداب ويدرس هو فى الهندسة ويرجع كلاهما
يحمل شهادة الدكتوراه .

وهكذا شاءت الحياة أن تشغلها بالبعثة عن الملالة التى يجدها السعيد من السعادة فانطلق
كل منهما يجهز لها فى انشغاله فرحان يجتمعان عند الليل أو يتواعدان على لقاء فى المحال هيفا
كلاهما أن يفرغا من الشراء قبل يوم السفر .

وكان يوم . . طلبها بالتليفون واتفقا على لقاء . . . وهناك التقيا وفى يدها الورقة التى كتب
بها ما يحتاجان إليه .

وقال أمين :

— هل مازالت أماننا أشياء كثيرة ؟

— أوشكنا ننتهى .

- أين تريد أن نذهب أولاً ؟
- نذهب إلى التريزى فاليوم موعد البروفة .
- آه فعلاً ... ولكن أخشى أن يعطلنا .
- لا تخف
- لنذهب أولاً للشراء ثم نذهب إليه قبل الرواح .
- ما تشاء .

ولم يذهب أمين ووفاء إلى التريزى بل ولم يذهبا للشراء وإنما قادته إلى سيارة للاجرة أنزلتهما عند باب البيت وقادت خطواته إلى حجرة نومه . ملهوفة جازعة فما استقر بها المقام حتى كانت يدها على التليفون تستدعى كل من تعرفه من الأطباء .

عمى ... عمى كامل ... ولا أمل فى الابصار . لم تكن عبثاً هذه السعادة الطويلة فقد كانت الأيام حُبالي عن مستقبل شائه أسود مقيت ، عمى ... وهو المهندس ... ماذا يصلح للدنيا بعد اليوم ... لا شيء ... لا شيء إلا هذا الكرسي وذلك الفراش وذلك الطعام الذى يلقى فى جوفه لا يعرف لونه إلا بالذكرى ... لا شيء إلا آلة خربة تدور واقفة فلا تغنى فإنها لا تغنى إلا إذا تحركت ورأت ... لا شيء إلا ظلام يراه وظلام فى مستقبله ... لا شيء .

أيعمى أمين ... زوجى ... فديته ... بعينى ... بحياتى وبأغلى من العين والحياة إن كان هناك أغلى من العين والحياة .

وهل ينفع الأسى أو ينفع الغداء ... هيهات .

مرت الأيام سوداء قائمة السواد لا وميض فيها من الأمل إلا هذه الخطابات التى راح أمين يملئها على زوجته إلى جميع الأطباء العالمين يشرح لهم حالته شرحاً دقيقاً مفصلاً مستعينا بالأطباء الذين حملوا إليه نبأ الفاجعة ، وعاد البريد بالإجابات فكانت وفاء تقرأها وحدها وكانت وفاء تحرقها وحدها فقد كانت جميعها تحمل حريق الآمال ، وكان أمين يسأل وكانت تجيبه أن الرد على الخطابات لم يأت بعد فيتردد أمله بين اليأس والرجاء وتلدوى هى وحدها فى وهدة اليأس .

ثم جاء خطاب من لندن ... أن عملية يمكن أن تتم لهذه الحالة لو تبرع له شخص بإحدى عينيه . وفى حزم مستقر ويد ثابتة كتبت وفاء خطاباً آخر ... إن عملية يمكن أن تتم إذا جاءت هذه الحالة إلى لندن حيث يمكن العثور على عين سليمة من بنك العيون .

وقرأت خطابها على أمين . ولم يصدق أمين أذنيه .. أصبح ما تلووه عليه زوجته ...

أحقاً يتحقق الأمل ... فما هذه النبذة الواجفة الحزينة التى شاعت فى صوت وفاء فلم تستطع أن تتغلب عليها بمظاهرة الفرح التى قدمت بها للخطاب التى قرأتها بها ...

كانت البعثة للدكتوراه فلتكن بعثة للحياة ... وللدكتوراه أيضاً ... ولم لا ياوفاء ...
إذا نجحت العملية ... إذا نجحت ... نحقق آمالنا ... وفاء ... لم لا ... فيم أنت
مفكرة ياوفاء ... وفاء ... واستطاعت وفاء أن تصحو بما تفكر فيه لتقول له في نبرة تترجح
بين الأسى ومحاولة الفرح :

— آه ... نعم ... ولم لا .
وسافراً يداً تمسك يداً ، وقلبا واجفا يهدى قلبا واجفا ، وأملا حزينا خائفا يقود أملا سعيدا
خائفا ... سافرا .

وقمت العملية ، بل تمت العمليتان ... انتزعت عين مليئة بالحياة من وجه وفاء ووضعت
مكانها عين جامدة موات . وانتزعت عين جامدة موات من وجه أمين ووضعت مكانها عين مليئة
بالحياة ... هي عين زوجته أطل منها إلى الحياة ...

فذاك عيناى أمين ... أما كنت أرى الدنيا فلا أراها إلا من خلال عينيك ... وفذاك
نفسى أمين أما كنت التقى بها إلا من خلال نفسك ... فذاك أمين فذاك .

ورأى أمين ... رأى الحياة مرة أخرى ، وهتك هذا الستار الذى أسدله عماه بينه وبين
الدنيا وقد كان أعظم ما يكون إقبالا عليها ... رأى ورأى إلى نفسه فى المرأة ... فأما عينه
التي لا ترى فهي كما هي حوراء جميلة لا يستطيع أحد أن يعرف أنها لا ترى ... فما كان بها من
عيب إلا أنها لا ترى ... وفاء ... إلى إلى أرى ... وفاء ... إلى ... ونظر إليها
ثانية ... وثالثة ... ثم حدى ... ، وأطال التحديق أطرقت وفاء فرفع وجهها إليه فرأى
الدموع تسيل ورأى عينا حمراء من أثر الدموع وعينا جامدة ... وفاء ... وفى صرخة أطلقها
الخوف والحب والشعور بالتضحية التي بذلتها له عرف كل شيء ... أهذه عينك التي أرى
بها ... وفاء ... ودون أن يبالي بأوامر الأطباء ، أو يحاذر على الأمل الذى انفسح أمامه
انتفض من سريره وركع تحت أقدامها يقبل أقدامها ... بل يقبل خذاءها .

— أصبحت بعين واحدة ياأمين .
— أحب عينك التي لا ترى أكثر من حبي لعينك التي ترى .. بل أكثر من حبي لعيني التي
ترى ... وفاء .. ويكى ويكى ... وقالت وفاء :
— لقد وهبت لك عيني فاحرص عليها ولا تضع عيني عبثا .

ورنّت الكلمة فى أذنه واستقام معناها فى عقله فامتثل أمرها وأطاع أوامر الأطباء ...
ونجحت العملية وخرج إلى الحياة .

وعاد الزوجان إلى أمهلها القديم من الدكتوراه . وانتظم كل منهما فى عمله .

وتعود أمين أن يرى زوجته بعين ترى وبأخرى جامدة . وتعود أن يرى حبيها له في عين حين يرى عينها الأخرى باردة خامدة لا حب فيها ولا مشاعر ولا حياة ويكاد يضيّق ثم يذكر أنه لولا هذه العين ما رأى حبا ولا حياة ، وأنه لولا هذه العين لظلت عينا وفاء لها تنظران إليه بإشفاق ما أبغضه سواء رآه أو لم يره . ثم يحس خليفا من المشاعر بعضها ساخط لأن زوجته لا ترى بغير عين واحدة ، وبعضها ناثرا لأن تضحية زوجته من أجله لا سبيل إلى ردها أو شكرانها ، وبعضها ضائق لأنها بتضحيتها قد أحاطت عنقه بمثل طوق الكلب الوفي لا يستطيع عن سيده فكاكها وبعضها خزيان لأنه يسمح لهذه الأفكار أن تمر بخاطره .

والح عليه شعوره بأنه كلب يدين بالوفاء لزوجته وكان هذا الشعور لا يبارحه بل هو يطالعه حتى وهو في دراسته وكثيرا ما فكر أن يتحرر منه ثم ما يلبث أن يعود إليه مرغما كارها . وكانت سكرتيرة الكلية التي يعمل بها فتاة في ريق العمر وكانت ترى بعينها كليهما وكانت عيناها جيلتين تفيضان بالحياة وبالجرأة وكانت بينها صداقة واستطاعت الصداقة أن تتطور في يوم من الأيام إلى موعد . أول موعد يعقده أمين مع فتاة أخرى غير وفاء .

عاد أمين إلى البيت ولم تكن وفاء به ووضع على نفسه أنفوس ما يملكه من ثياب وتائق فبالغ في التائق ونظر إلى المرأة فطالعه وجهه جميلا وطالعه قامته ممشوقة ونسى أنه ينظر بعين وفاء ولم يعد يذكر إلا أنه يرى مشاعر تنبعث من عينيها معا لا من عين واحدة وإلا أنه يريد ألا يصبح كلبا وملاه الزهو بشبابه وجماله ونزل إلى الطريق وسارها خطوات خطوات قليلة ثم أراد أن يعبر الشارع في زهوه ما يزال فإذا سيارة في الطريق تغول الطريق في سرعة نافذة تندفع إليه ، وكانت آتية من جهة عينة التي ترى فإذا هو ينسى زهوه ينتفض في لهفة محب للحياة يوشك أن يموت فإذا هو على الطوار الآخر لم تمس منه السيارة إلا طرف حدائه الحمد لله ماذا لو كانت هذه السيارة قادمة من الجهة الأخرى الجهة التي لا تبصر بل ماذا لو لم تكن لي عين وهبتها لي زوجتي زوجتي الحبيبة وفاء وفاء التي لا ترى إلا بعين واحدة الأخرى هي التي أنقذتني الآن ، يالى من كلب .

وظل واقفا على الطوار حائرا خزيانا ناثرا يضع أصبعه بين ياقة قميصه وبين عنقه إن الطوق ما يزال حول عنقه .



ربيع

وواليوم عاد الربيع .. هكذا يقول الوقت ولكن أين الربيع
مع الخوف ... أين الربيع .

أهلا ربيع ... جئت في موعدي لم تستطع قوة أن تدفعك عن أن تعود في موعدي ، جئت لم
تتأخر وما كان لك أن تتقدم ، جئت وقال الناس جاء الربيع ، لفظة تحركت بها ألسنتهم ثم
استكانت الألسنة وانطبقت الشفاه على الشفاه وهوم حول الناس صمت وانقطع حديث
وتطلعت العيون إلى فراغ حزنها يملاء وما حاولت أذن أن تمتد فالناس ، كل الناس وأنا منهم
يعلمون أن ليس في الأجواء موسيقاك ، ولا نظر الناس يبحثون عن آثارك ، فليست هناك
الأزاهير والورود ، لا ولا هناك المدي الأخضر المنبسط مثل كف طيبة حنون ، وليس في الماء
صفائك ولا في الجو أنسامك ، بل إن العبق الذي كان ينتشر مع مجيئك تخلف اليوم عنك فما في
الجو من عبق شذاك شلى .

أين أنت إذن أيها الربيع ؟ أين أنت ؟ ألم تعد إلا موعدا يحل وموعدا ينقضي ؟ فهل أنت
إذن الربيع ؟ أين الجمال في موكبك أين البهجة التي كانت تسير في ركابك ؟ أين البدر الذي
كان صديقا لمقدمك ؟

أين أنت في نفوسنا ؟ .. أين هذا السرور الذي نحس به قبل أن نحس بك يدب في
خوافي خلجاتنا ديبيا وإن الخطر واضح الأثر ، يتمشى في هدوء ولكن في نشوة .. أيها الربيع
هل جئت حقا ؟ نعم لقد جئت فهذا موعدي وما أحسب إلا أنني أقسوعليك قسوة منتظر لموعدي
أخلفه صاحبه ، أو قسوة من ينتظر الخير فلا يجده ، وإنني لأعلم أنك براء من كل تهمة ألصقها

بك ، فما ذنبك أيها المسكين في موسيقى تخلفت عن مواكبك وجمال انحسر عن رفقتك وعقب صدف عن مسيرك . . لا ، لا ذنب لك في هذا ولا جريرة ، إنما نحن البشر . . لكم أسخر من نفسى حين أضمت نفسى في البشرية إلى هؤلاء الذين وقفوا دون رفقتك فصدهم عن المجيء وما أنا ؟ شخص يعيش على هامش الدنيا لا تحس به الدنيا وتجتمع في نفسى كل أحزان الدنيا وآلام البشر . ولكن ما ذنبى ؟ يلهو كنيدي هناك في الضفة الأخرى من العالم أو يعبث خروشوف هناك في عالم آخر لا أدري من أمره شيئا ، فإذا هو كنيدي وعبث خروشوف ينصبان على أنا . . أنا هنا في مصر فالرعب يملأ قلبى ونفسى ومشاعرى فلا أرى من الربيع إلا تاريخه معلقا على صفحة ملصوقة بجدار .

لعلك أيها الربيع قد جئت ومعك هذه الرفقة التى تعودنا أن ترافقك كلما جئت ولكن أنا . . أنا لا أحس شيئا منك ، وما لى أنا إذن كانت موسيقاك معك مادمت لا أسمعها أو كان جمالك في ركابك مادمت لا أراه أو كان العبق منك يتشرب شذاه مادمت لا أشمه وكيف لى أن أحس بشيء من هذا وأنا خائف إن خلا قلبى من الخوف فليتج للغضب الثائر تصبه على زوجتى . . زوجتى المقيمة ببيت يضل عنه الهواء ، وتتعر دون الشمس في زقاق متفرع عن حارة صادرة عن شارع نابت عن طريق عام بحى اسمه باب الشعرية .

زوجتى هذه أفتها قراءة الجرائد وقد انصبت هذه الأفة على حياتى أنا تنفصها ، فانا من حياتى هذه في إظلام الظلام أعظم منه إشراقا . زوجتى خدوجة بنت الشيخ عبد الصمد تعلمت القراءة على يد أبيها في الكتاب وشقيت أنا بما تعلمت وبما تقرأ . زوجتى خدوجة بنت الشيخ عبد الصمد تتابع كنيدي واجتماعاته وخروشوف وأحاديثه فإن اختلفا — وهما لا يتفقا — فنهاري أسود من الحبر ، والحرب تقوم في بيتى متوقعة الحرب في العالم ، وويل لى من خدوجة وويل لى من كنيدي . وويل لى من خروشوف . . يا لسخرية الحديث ، جاء الزمن وأصبحت خدوجة توضع مع ساسة العالم . . العالم جميعه . . البشرية برمتها ، خدوجة . . خدوجة عبد الصمد توضع معهم جملة واحدة وسبحان الذى يغير ولا يتغير . ترى هل أحس كنيدي إذا ما دعا لحديث صحفى أو أحس خروشوف في تفكيره السياسى ، هل أحس واحد واحد منها أن هنا . . هنا في مصر . . وفي زقاق من حارة من شارع من طريق واحدة اسمها خدوجة عبد الصمد تسود عيشة زوجها ، بل وعيشة أولادها أيضا تبعا لركاب كل واحد منها .

ما هذا العالم العجيب ؟ كيف يتاح لفردين مثلى لا يزيد واحد منها عنى شيئا فكل منهما يأكل ويشرب ويمرض ويقطع طريقه إلى الموت ويقع في الخطأ أكثر مما يصادف من الصواب ، كيف يتاح لهذين . . وحدهما أن يؤثرا في حياتنا كل هذا التأثير ؟ كيف استطاعا أن يدخلوا إلى بيتى . . بيتى المنزوى عن البشرية ، المستخفى وراء الأزقة والحرارى والبيوت وبقايا البيوت بل والخرابات كيف استطاعا أن يدخلوا إليه ويسيطروا عليه ويتحكموا في مصائر من به ؟ بل كيف

استطاعا أن يجعلا موسيقى الربيع قصفا من القنابل وزهر الربيع دماء من الجراح ، وجمال الربيع رعبا من الغد وعلما من المستقبل ١٩ من أعطاهما هذا الحق من حوله لها ١٩ أنا لم أنتخب كنيدي ولم أشارك في اختيار خروشوف ، فلماذا يمنعان عنى الربيع ١٩ ولماذا يثيران بيتي على فهو جحيم لا أطيقه ولا أجد لى ملجأ غيره ١٩

هأنذا فى الطريق العام ، لا أستطيع أن أعود إلى البيت والبركة فى كنيدي وخروشوف وأزمة ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية .. أصدق هذا أحد يا عالم ١٩ أهذا معقول ما لى أنا ولألمانيا ولكنيدي وخروشوف ١٩ هل قلت لها اختلغا ١٩ زوجتى بثاقب نظرها تريدنا أن نهجر لى بيت أبيها فى الريف ، تريد ابني الأكبر أن يترك الكلية الحربية ، وابني الأصغر أن يترك كلية الطب وهذه الرغبات جميعها على أنا وحدي أن أنقلها مضافاً إليها مطلب آخر بسيط .. أن أترك وظيفتى فى القاهرة .. نعم تلك حالها منذ الحرب العالمية الثانية .

فقد فقدنا فى إحدى الغارات طفلنا الأول وكنت موظفاً آنذاك فى الإسكندرية ويعلم الله وأعتقد أن الجميع يعلمون اننى لم أكلّم هتلر بشأن الحرب ولا فاتحت تشرشل فى أمرها ، وإنما قامت الحرب بينهما وانضم إلى كل منهما من انضم دون أن أتدخل أنا فى هذا الموضوع على الإطلاق ، ولم تكن لى صلة بالحرب ولدى الذى فقدته وزوجتى التى فقدت عقلها أو تكاد منذ ذلك اليوم . أصبحت كلما ثارت بوادر خلاف عالمى ثور ثورتها ، وتروح تهباً المنافذ من الخطر المحدث بها وبنا وأخرج من البيت وأظل هائما على وجهى لا أمل لى إلا أن تنام فاعدو فى خلسة من نومها وأنام لأعد نفسى لغد لا يختلف كثيراً عن اليوم وأظل عمرى طريد الأفكار والأخبار ورعب زوجتى ولا أجد ما يخفف على بعدى عن البيت إلا الجلوس إلى المقهى .. ولكن الأصدقاء هناك أيضا لا يسلمون من الخوف .. هم يتحدثون عن الغد فى رعب يخافون أن يلاقوا الحياة وليس فى يدهم من مال ما يستطيعون به أن يواجهوا الحياة ويخافون أن تقوم الحرب فتختطف أرواحهم أو أرواح أحبائهم ويخافون ألا تقوم الحرب فيظل الكساد ناشراً عليهم بلواه ، ويخافون من رؤسائهم .. ويخافون من رؤسائهم .. خوف .. خوف فى نفوسهم .

أحاول أن ألعب أى شيء مما يلعبون ولكن أين لى بأرواحهم تصفو للعب وأين لى بروحى أنا تصفو للعب ، فأطوى اللعب ونعود إلى الحديث أو نعود إلى الخوف .. هلع يحيط بى .. هلع يحيط بى فى البيت وفى المقهى ، ولا أحب الوحدة ، وأخشى نفسى إذا انفردت بى فقد تعودت أن تخلق من الحديث ما يملؤنى رعباً أو ما يملؤنى ضيقاً .

واليوم عاد الربيع .. هكذا يقول الوقت ولكن أين الربيع مع الخوف ١٩ أين الربيع ١٩ ويل هؤلاء الزعماء . كيف استطاعوا أن يحطموا الربيع ... الربيع ١٩ يحطمون الربيع . وبيتى ١٩ أيحطمون بيتى ١٩

كم أحب الجلوس إلى ولدى .. كلاهما شاب في بواكير الشباب الأولى .. أريد أن اتمتع
بهما ... بنظرتي إلى المستقبل ، ويحدثهما عما ينتظران من الحياة .. ولكن ما لهما صامتين
يرنون إلى الحياة بعين ذاهلة ... جاهلة ... نعم ... أعلم .. لقد تدخل كنيدي
وخروشوف في حياتهما هما أيضا .. ماذا ينتظران من غدهما .. ألها غدا ... ويل أين
أذهب ... مالي ولهذا جميعه ... أريد أن أترك هذا جميعا وأريد أن أرى الربيع اليس في
مصر ... مصر جنة الله في الأرض .. ربيع .. أين أجد الربيع .. ؟ .. في النيل أبي الدنيا
وأعظم ما جرى فيها من أنهار .. أصل الحضارات وأولها وقبرها .. النيل الضخم العريض
الطويل .. أما أجد حوله ربيعا .. ظلا من الربيع .. إن لم يكن إلى ربيع سبيل ويل للنيل ..
ماله يجرى هكذا صامتا .. أين الضحك في موجاته ، أين الربيع في رفاق مائه .. أين
النيل ١٩

أترى أجد الربيع في الحديقة .. أية حديقة .. حديقة من حدائق القاهرة الكثيرة البهيجة
المترامية الأطراف .. لا ربيع هناك .. !

ويل لم أكن فيما مضى من سنوات أبحث عن الربيع بل كان هو من يبحث عني ، وكان
دائما يجدن .. لا .. لا ربيع .. ومع ذلك فهناك في بيتي ورقة معلقة على الحائط تقول حل
الربيع .. فأين الربيع .. ؟؟

ترى ماذا تفعلين الآن يا خدوجة ؟ .. ماذا تراك تفعلين . أنت بجوار الراديو كشأنك دائما
تتصيدن الأنباء لتذكي بها الرعب في نفسك .. وكأن ما بنفسك من رعب لا يكفيك . ألا
يكفيك ما فعلت من تشريد زوجك لا يعود إلى البيت أو تنامي ، وتشتيت ولديك يجاهد كل
منها أن يترك البيت ما أمكنته الفرصة .. وأنت أنت تتابعين خروشوف وكنيدي وتتكهنين
وترين المستقبل وليس فيه إلا الحرب .. رحماك يارب .

أين أذهب الآن ؟ ضاقت بي الطرق .. تمنيت أن أجد الربيع في الطريق العام فلم أجد
الربيع وفقدت نفسي ولم أجد إلا خوفا .. خوفا الذي لا يتركني وكراهي أن أعود إلى البيت .
ومالي من سبيل غير العودة إلى البيت .

أترى أجد أحدا من ولدي قد عاد .. أترى أستطيع أن أجلس إلى واحد منها بعض
الوقت .. أريد أن أجلس إلى واحد من ولدى .. ها هوذا النور ينبعث من منزلي .. إنه نور
خافت لا إشراق فيه .. نور المصباح الذي تضعه زوجتي على الراديو .. إذن فهي وحدها ..
حسبي الله ونعم الوكيل .. لا بد أن أدخل لقد تعبت قدمي .. نعم أعرف أول سؤال
ستقوله .. أعرفه .. أعرفه هل أحضرت جريدة بعد الظهر ! لا يمكن إلا أن تسأل هذا
السؤال .. هيه ... بسم الله الرحمن الرحيم .. ها هي ذى قد سألت سؤاها ... هل

أحضرت جريدة بعد الظهر ؟ .. يارب ... يارب ... أنت وحدك من تستطيع إنقاذى من
كنيدى وخروشوف ... و ... خدوجة ...



ولدى .. ألا تعود

« وماذا يهمنى من أمره مادمت أنت لى ويداك الصغيرتان تعرفان
طريقهما إلى وجهى ولسانك المضطرب الصغير يعرف طريقه إلى
قلبى » .

ولدى .. لماذا يا ولدى .. لماذا ... أنت كل شيء فى حياتى ، وليس فى حياتى معنى
أعيش له وبه إلا أنت ، أنت كذلك منذ عرفتك ، ومنذ عرفت أنت الحياة فقد جئت إلى يا بنى
وأنا أضيق بحياتى مع أبيك ، فقد تزوجته على غير رغبة منى .. أنت تعلم ذلك — نعم
تعلمه .. لقد أخبرتك بقصة زواجى من أبيك ، نعم وكنت تضيق بها وأرى ضيقك فى عينيك
كلما أعدت عليك القصة ولكن لماذا تضيق ؟ .. ولن أقول إن لم أقل لك ؟ وعلى من أعيد قولى
إن لم أعده عليك ؟ حملتك تسعة أشهر وحملت عبك اثنين وعشرين عاما وخمسة أشهر ، ألا
تحتمل أنت فى مقابل هذا الكثير الذى بذلته وأبدله لك أن تستمع إلى أكرر قصة يريحنى أن
أكررها .

أخبرنى بربك .. أكنت تضيق بهذه القصة لو كانت ميرفت هى التى تروىها لك وتكرر
روايتها .. لا أظن . قد رأيتك وهى جالسة أمامك تتحدث — وعلى فكرة — هى لا تمجيد
الحديث ، ورأيتك أنت تستمع لحديثها بعينيك ووجهك وكل ومضة فى جبينك ، وكل ابتسامة
على فمك .. لكم كرهت ميرفت وهى ابنة أختى ، بل لكم كرهت أختى لماذا تنال منك ما لا
أستطيع أن أنال ؟ أنا التى لم أعرف حياتى إلا يوم عرفتك ، والتى لا أعرف لحياتى معنى إلا
بك . فقد تزوجت أباك كما قلت لك وأنا لا أحبه فقد كان أبى يعمل فى وزارة المالية وكان يتوق
إلى زواجى بأى إنسان . فكان أباك . كان زميلا له فى المكتب وقد رقى بعد عامين رئيسا لأبى

وقد كان أبى يكبره بسنوات وسنوات وكانت حجة الحكومة فى تعيين أبىك رئيساً لأبى حجة عجيبة تدعو للدهشة . فقد قيل يومذاك إن أباك حاصل على الشهادة العالية فى حين لم يكن أبى حاصل إلا على الابتدائية . ولعل هذا كان صحيحاً ولكن الحكومة نسبت فى ذلك الحين أن الابتدائية التى حصل عليها أهم بكثير من الشهادات العالية مهما تكن عالية . ولكن الحكومة أرادت أن أتزوج من أبىك فجعلته رئيساً له .

وفى يوم اجتمع أبى وأمى ليجهزا لزواج أختى — خالتك — وكان أبى يرى أن الظروف المالية تقتضى أن يقتصر الزواج على الزواج وحده بغير شىء حوله ولكن أمى وقد كانت قوية الحجة بارعة فى التأثير على أبى أصرت على الفرح . وما أقرب الحجة لإليها . أول فرح يدخل بيتى . أول ابنة تزوجها إن لم نفرح بها ولها فبمن نفرح ولن . . . وتقرر الفرح . وتقرر معه أن نشترى فساتين جديدة لى ولأمى واشترت الفستان ، كنت أفكر فى هذا الفستان كثيراً قبل موعد الفرح ، حتى إننى لم أكن محتاجة للبحث حين أخذت أمى ثمن الملابس من أبى . كنت أعرف المكان وأعرف ما أريد واشترته . يا ليتك رأيتنى يومذاك . لا تقل ميرفت ولا غير ميرفت .

جمال طبيعى لا يحتاج إلى يد تصنعه ، شعر مرسل وعينان واسعتان وفم صغير أحمر ودماغ فى وجنتى تترى بأحر هذه الأيام الباهت . وشباب وفرح . جمال لم تعرفوه أنتم يا أبناء هذه الأيام . حتى إننى — وهذا سر بيننا — خشيت أن تغار منى أختى وهى العروس ، بل إنه يخيل إلى . وهذا أيضاً بيننا . إنها فعلاً كانت تغار منى ، فكنت اختفى عن عينيها كلما تلاقينا أثناء الفرح . ولكن ماذا كان بيدى أن أفعل . كانت العيون جميعها مصوبة إلى لا تريد أن ترتفع عنى ، حتى لقد كنت أريد أن أقول للناس . عيب بصوا للعروس فلست أنا العروس ، ولكن كنت واثقة أننى مهما أقل لهم فلن يفيد قولى شيئاً . كانوا يا حسن يا ابنى مشدودين إلى بعيونهم كأنما هو السحر . كلام بيننا ، كنت فرحة بهذا الاهتمام وكنت زعلانة فى الوقت نفسه أن تغضب خالتك ، ولكن ما بهم . لقد كانت آخر ليلة لها معى فقد كانت فى طريقها إلى بيت زوجها . وكنت أحسب فى ذلك اليوم أنه ليس فى العالم شخص يستحق هذا الجمال الذى كنت عليه

كان أبوك طبعاً ضمن المدعوين . ورأى فى ذلك اليوم ، الفستان الجديد فى لونه الزاهى الحافظ للعيون والشباب يملأ الحياة من حولى والعيون كأنما هى جزء من تفصيطة الفستان لا تنفصل عنه . أحببى . . . لم أحس به فى ذلك اليوم . إلا أننى اضطرت أن أقدم إليه الشراب تنفيذاً لأوامر والدى ، وكان شكله . . . ماذا أقول ؟ أخاف أن أقول لك إنه لم يكن جميلاً فتظن أن ذلك ليس صحيحاً ، أو أننى أقوله لأنه هجرنى قبل موته ، ولكن هذه هى الحقيقة . لم يكن جميلاً — أعجبك قولى أم لم يعجبك — فأنت دائماً تغضب كلما ذكرت أباك بما لا يرضى حبك له . . . قل لى . . . لماذا تحبه ؟ النهاية ، أنت دائماً ناكر للجميل ، وهل أدل

على ذلك من تركك لى الآن . لم أحب أباك فى النظرة الأولى . وقد كانت الطامة الكبرى حين جاء أبى فى اليوم التالى وهو لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الفرح وأخبرنى أن أباك خطبى لم يكن رفضى ذا قيمة . وتزوجت أباك . ولم أعرف الفرح فى يوم فرحى ولم أعرفه فى الأيام التالية . كنت أعتقد أننى أستحق من هو خير من أبىك أعلم أنك ستقول فى نفسك الآن كما كنت تقول دائماً ليس هناك خير من أبى . نعم كنت دائماً تقاطعنى بهذه الجملة التقليدية كلها بلغت من حكايتى إلى هذا الموضع . ولكن ماذا بهم رأيك ؟ إن رأى أنا هو المهم ، أنا التى عاشته وتزوجته فلم أر منه يوماً أحكى عنه . لم يقل يوماً كلمة تشرح قلبى ، أجهل نفسى ما وسعنى الجهد فلا يقول إلا كلمة عابرة « أنت حلوة من غير تجميل » وسكت أو يتكلم فى موضوعات أخرى . كنت أرى جمالى فى المرأة ولا أجد منه ما يؤكد رأىى فى نفسى . ولكن حين كان يجد تقصيراً منى فى شئون البيت كان يغضب كل الغضب ويتهمنى بأنى لا أهتم بغير جمالى ولو كان يفهم — لا تغضب — لعلم أن جمالى هذا شيء عظيم يستحق كل ما كنت أبذله للمحافظة عليه . كانت حياتى جحيماً حتى جئت أنت فعرفت الحياة يوم جئت أنت . كم كنت أحبك وكم أحبك . أذكرك ويداك الصغيرتان على وجهى ولسانك يشوه الحروف ويجملها وتقول فى براءة « إنت حلوه . . حلوه حلوه يا ماما » كنت حياتى . حتى لم يعد يهمنى غضب أبىك فى كثير أو قليل . وماذا يهمنى من أمره مادمت أنت لى ويداك الصغيرتان تعرفان طريقهما إلى وجهى ولسانك المضطرب الصغير يعرف طريقه إلى قلبى . . أفرغت فيك حبنى جميعاً . . حبنى كله ، حب الطفولة فى أحلامها الباكورة الغريبة وحب الشباب فى أوهامه المجنونة ، وحب الماضى الذى أدخلته ولم أجد من أقدمه له ، وحب المستقبل الذى كنت أفكر فيه فترتاح نفسى من ضوضاء أبىك وشجاره . وأردت لى ، لى وحدى لا يشاركنى فىك أحد . كم كنت أحسد مريم العذراء لأنها أنجبت المسيح بغير أب وكم كنت أرجو فى وهمى وأنت بين يدى ووجهى بين يديك لو كنت مثل المسيح بلا أب أنت أيضاً .

وحين ذهبت إلى المدرسة . كان أبوك يريد أن تذهب ماشياً شأنك شأن الطلبة جميعاً ولكنى رفضت وأصررت على أن تأتى إليك عربة كل يوم لتذهب بك إلى المدرسة . وجاءت العربة . وجئتى تبكى لأنى منع العربة وأجعلك مثل إخوانك لأنهم يسخرون منك ومن هذه العربة ولكنى كنت أعلم أنك صغير لا تعرف مصلحة نفسك نعم لم أقبل رجاءك فى هذا اليوم . فقد كنت أشتى عليك عوادى الطريق . وكان لا بد لى أن أكون أنا عقلك مادمت لم تعد بعد ذا عقل يعرف الخير لك . وكان هذا السبب نفسه هو الذى جعلنى أرفض أن أخرج فى رحلات مع الطلبة ، كيف كان يمكن أن أتركك إلى حيث لا أدري ، لقد ذهبت إلى المدرسة لأنى لم أكن أستطيع أن أسمعك عنها أما أن تذهب إلى الرحلات أيضاً . فهذا ما لم أكن أستطيع أن أقبله منها تكن الدموع التى تسيل منك غزيرة كبيرة .

اسمع يا حسن لقد كان أبوك يغار منك ولهذا كان يريدك أن تباعد عني ما وسعه الجهد .
لهذا كان يريدك أن تذهب إلى الرحلات ولهذا كان يريدك أن تخرج لتلعب مع من كان يسميهم
أصدقاءك ولهذا كان يحاول أن يوقع بيني وبينك حين نذهب لنشترى ملابس فكان يريدك أنت
أن تختار ومعنى أنا أن أختار لك فقد كان لابد لي أن أكون أنا ذوقك مادمت لم تعد ذا ذوق
يعرف الجميل اللائق بك .

ولما أعيت أباك الحيل تركني . نعم تركني لأن كنت أحبك ولم أكن أحبه . ولما تزوج هذه
المرأة التي تزوجها أراد أن يغضني ولكن ماذا يهمني من أمره مادمت أنت قد بقيت لي .
وظللت طوال أيام دراستك ، أنا التي أعد لك مأكلك وأنا التي اشتري لك ملابسك وأنا
التي أختارها — وأنت تعرف ذوقي — وأنا التي لا أتركك وحدك أبداً حتى في المذاكرة .
نعم . . لم أكن أقبل أن تذهب إلى أحد لتذاكر معه . وحتى حين كان أصدقاؤك يأتون إليك
ليذاكروا معك كنت أحاول أن أكون معكم طول الوقت ، ولا أدري لماذا كف أصدقاؤك في
الأيام الأخيرة من دراستك أن يحضروا إلى البيت ؟ الشيء الوحيد الذي لم أستطع أن أثنيك عنه
هو إصرارك على الدخول إلى الجامعة في حين كنت أنا قد أعددت لك وظيفة بالبالكوريا
ساعدتني على تهيئتها لك صديقة العمر نفيدة . ولكنك أصررت وكنت أعلم أنك ستدخل إلى
الجامعة سواء رضيت أنا أو لم أرض فأبوك في ذلك الحين كان قد مات وأصبح المجلس الحسبي
هو أبوك الجديد ، وكنت أعلم أن أباك هذا الجديد سيؤيدك فيما تريد فقبلت على مضض ولكن
لعلك اليوم ترى أنني كنت على صواب فلو كنت قبلت الوظيفة لكنت اليوم متزوجاً من زهرة
ابنة نفيدة وكنت موظفاً معها ولكنك ركبت رأسك فسكت وتزوجت زهرة . الفتاة الوحيدة التي
كنت أحب أن تتزوجها فهي مثلك ربيتها على يدي ، وكنت تقول إنها لا تعجبك ولكني كنت
واقفة أنك ستقبل الزواج بها أخيراً .

المهم . . ما فات فات فقد دخلت إلى الجامعة وحصلت على ليسانس الآداب كما كنت
تحب ولكني رأيت منك بعد ذلك عجباً ، فأنت تحب أن تخرج من البيت وتحب أن تذهب إلى
بيت خالتك وأتممت المصيبة بأن طلبت مني أن أخطب لك ميرفت ابنة خالتك . أتظن أنني
أرضى لك هذا ؟ قلت لك لا . ورحت أبحث ولكنك فجأة ودون أن أعرف سبباً تركت البيت
ولم تعد . . لماذا ؟ .

ماذا فعلت أنا حتى تركني . . أي أم في العالم كانت تفعل لابنها ما فعلته أنا لك . لقد
حلت عنك عبء الحياة جميعاً ولو كان في استطاعتي أن أذاكر بدلا منك لذاكرت عنك ولكنك
كأبيك تحبجد المعروف وتنكر ما حباك الله به من نعم ، فلو كان يعلم أي زوجة يضمها بيته
ما ترك بيته وتزوج غيري ولو كنت تعلم أي أم متفانية أنا لما فعلت ما فعلت . ماذا فعلت لك
حتى تركني ماذا فعلت ؟ أمن أجل ميرفت ؟ لا أظن . فانا أعلم أن أمها لن تقبل أن تزوجك

بها إلا إذا وافقت أنا وأنا لن أوافق بل إن أمها حين علمت برفضى أقسمت ألا تزوجها لك على أية حال ، فها دام الأمل فى زواجك منها قد انقطع فلماذا تركنى ؟ ومن يرمى شأنك اليوم من يختار لك ملابسك فى الصباح ومن الذى تستطيع أن تعرف أى لون من أربطة الرقبة يتفق مع الحلة التى ترتديها ؟ بل من سيشترى ملابسك ومن سيعد طعامك ويصنع لك من الأصناف ما تحب ، ومن ؟ ومن ؟ ولدى عد إلى .. فانا وحدى فى هذا العالم أنا التى لا ترى العالم إلا أنت .. حسن .. هل تعود ؟

الانتظار

ويتركه الأطباء ليختلوا بأنفسهم وطبهم وليصدروا القرار
النهائي على يده . ؟ يدي .. ماذا فعلت يدي .. إن آخر
ما فعلته يدي هو تسلم هذا المبلغ .

كان مفيد في عجلة من أمره فهو لا يطيق هذه الفترة من الانتظار التي أرغمه عليها الدكتور
عبد الوهاب المجازي رئيس مجلس إدارة الشركة الهندسية الفنية وكما قفز مفيد من كرسيه
يريد أن يعود إلى الموعد الآخر الذي ينتظره في مكتبه وليكتبه يذكر المبلغ الذي سيحبه من لقائه
بالدكتور عبد الوهاب فيعود إلى كرسيه في إذعان مكروه ومدوه محتاج وتمر الدقائق وتكرر
الغفوات ويتكرر التذكر فيتكرر الإذعان ثم الهدوء . نعم إن الموعد الذي ينتظره في مكتبه ذو
ريح هو الآخر ولكن أين الريح الغريبة من ريح الشركات ؟ وأي الشركات ؟ الشركة الهندسية
الفنية ؟ لا . . . لا سبيل إلى القيام ولا إلى الغضب ولا سبيل أيضاً إلى الخروج عجب
أمر الناس هأنذا في مكتب مفتوح الأبواب وليس بيني وبين الخروج إلا أن أخطو فإذا أنا خارج
الغرفة فأخضع من هذا الضيق الذي أحسه في الانتظار وأذهب إلى حيث أريد وأثار لكرامتي
التي أحس دقائق الانتظار وكأنها جناجر تتوالى عليها فتزف كرامتي وتزف ولكن هل بقي
من كرامتي دماء ؟ لكم التظلمنا ولكم نزفت الكرامة لكن بقي من دماء الكرامة
بعضاً فقدت شيء فقد كانت كرامتي إذن ذات ذخيرة من الدماء عظيمة المقدار ترى هل
بقي من الكرامة شيء ؟ ويل . . . لكم أظلم نفسي وأحمل كرامتي فوق ما تحتمل لقد أكلها
العمل ، نحتها ذرة ذرة وقطرة قطرة فهي هباء من الهباء أو هي كما يقول هواة الأدب أثر من بعد
عين وإلا فهالي مازلت جالسا إلى الكرسي ، والأبواب مفتحة أمامي ، مالي لا أخطو بخطوي

إلى الخارج . . . إنه لا يقيد الإنسان إلا نفسه . . . إنما الحرية مقدار ما أحس به أنا في نفسي من حرية نفسي . . . لن يستطيع أحد ولا شيء أن يمنع الحرية عن نفسي وإنما أنا . . . أنا وحدي الذي أكبل نفسي بالأغلال وهيئات لكل حريات العالم أن تحرر نفسا أراد لها صاحبها أن تكبل بالقيود . . . أضاع بالسوق كرامتي وحريتي وأكل كل شيء في حياتي . . . ها أنذا أبدو مثل حر وأنا أشد عبودية من العبيد ، وإلا فما بقائي وقد تأخر الرجل . . . تأخر . . . أنا أعرف أن أصول الصنعة تجعله يتأخر . . . يريدني أن أشعر بأهميته ، ويريد أن أشعر بحاجتي إليه وعدم حاجته إلى . . . لقد درت في السوق وعرفت أسرارها ، أما كان الأجدر بالدكتور عبد الوهاب أن يدرك أن هذه الصغائر لن تكون ذات أثر في الصفقة ؟

. . . ألم يعلم الدكتور عبد الوهاب أي رجل أنا ؟ ولكن يبدو أن صفة الأدب التي غلبت على أول اشتغالي بالسوق لا تريد أن تفارقتني . . . إن كل من يعاملني لا ينسى أنني كنت أعمل بالأدب أي أنني كنت فنانا . . . فأننا إذن في عرفهم سارح في دنيا من الخيالات والأوهام . . . ما كان أعزها . . . لقد أقفلت ما بين نفسي وبين الأدب منذ الشهور الأولى التي نزلت فيها إلى دنيا الأعمال . . . تلك حسنة أثبتها لنفسي ولا أنساها . . . كيف أقول للناس كونوا شرفاء . . . أحبوا إخوانكم . . . الهناءة في رضا النفس . . . اسعدوا . . . عيشوا . . . تمتعوا . . . أحسوا بالجمال . . . أقول وأقول . . . وأنا . . . أنا نفسي أتغاضي عن الشرف . . . و . . .

وقبل أن يكمل دخل الحجرة رجل وحياء وجلس . . . وأمعن مفيد فيه النظر . . . شخص أصلح الرأس واسع العينين تبرز منها الحديقة بروزا يشعر الناظر إليه أنه يبحث عن شيء لا يدريه ولكنه لا يزال يبحث عنه . وأحس الرجل بعيني مفيد الفاحصة فعاجله قائلا :

— الأستاذ مفيد ؟

ودهش مفيد شيئا ما . . . ولكن ما أسرع ما تغلب على دهشته فقد علمه السوق أن يتغلب على كل الملامح التي تلدها المشاعر على وجهه وقال :

— نعم يا أفندم . . . أنا هو .

— لعل حضرتك مندهش لأنى عرفتك ؟

— لا أبدا . . .

— طبعا أنت رجل شهير . . . وأديب معروف . . . وقال مفيد في نفسه . . . وهذه مصيبة أخرى في السوق . . . دائما يستعملون الأدب في التأثير على . . . لم يبق لي من الأدب إلا أن يتملقني به من يريد أن يسلبني شيئا . . . كم هو مجرم هذا السوق . . . يقطع صلتني بالأدب ولا يكتفى بهذا بل يتخذ منه سلاحا لنهبي . . . مجرم هذا السوق . . . مجرم . . . وصحبا مفيد على الرجل يقول له في ود :

- لماذا لم تعد تكتب أنا من عشاق أدبك ؟
- وفي شعور بالمرارة العميقة قال مفيد :
- حضرتك تريد مقابلة الدكتور عبد الوهاب ؟
- وأخذ الرجل وقال في تردد يوشك أن يكون لعنة :
- نعم ... نعم .
- وقال مفيد في لهجة لا تنسم بالود :
- ولكنى على موعد معه ..
- الواقع أننى لم أجد السكرتير .
- أليس بالخارج ؟
- لا ...
- اسمح لى أذن أبحث عنه ليحدد لك موعداً .
- وهم مفيد أن يقف ولكن الرجل عاجله :
- ولكنى أريد أن أجلس معك وأتعارف بك .
- ولكنى الآن على موعد مع الدكتور عبد الوهاب .
- وما البأس ... نتحدث حتى يحىء ... فأنا منذ زمن بعيد من المعجيين ...
- أعتقد أننا يمكن أن نتكلم فى الأدب الآن ؟
- ولم لا ؟
- اسمع يا سيدى ... لقد مرت على بالسوق سنوات عديدة ... فأرجو أن يدخل هذا
- فى اعتبارك عند حديثنا فى الأدب .
- ونظر الرجل نظرة باهتة إلى مفيد وتراجعت حدقته قليلا إلى محجربها .. ثم تغلب على
- نفسه فى هدوء وكأما لم يحس بما يخفيه كلام مفيد ... وقال فى نفس اللهجة التى كان يتكلم بها
- عن الأدب .
- الصنفقة التى تريد فيها الدكتور عبد الوهاب ...
- أهى لحسابك الخاص أم لحساب شركة أخرى ؟ وأحسن مفيد أن الحديث أصبح يتفق وجو
- الحجرة التى يجلسان بها ... فقال فى مداورة :
- بماذا تراك تحيب لو كنت فى مكانى ؟
- وعادت النظرة الباهتة وأعقبها الهدوء ولكنه لم يملك نفسه أن قال :
- يظهر أننى لم أكن أقدرك حق قدرك يا مفيد بك
- كلنا معرضون للخطأ
- ما هو الريح الذى تنتظره منها ؟
- نفس الريح الذى تنتظره أنت على الأقل

— فما رأيك لو أخذت نصفه الآن وتنازلت لى عنها ؟
— هذا يتوقف على مقدار تقديرك للريح والدعاية التى أحصل عليها عند نجاحى فى هذه المهمة ... وغير هذا بما لا يخفى على ذكائك ... وأرجو أن يدخل ... وانتهت المساومة بمفيد يضع فى جيبه شيكا بمبلغ خمسة آلاف جنيه ويخرج مسرعاً دون أن يقابل الدكتور عبد الوهاب .

لم يكن مفيد يتوقع أن تتم الصفقة على هذه الصورة .. فهو سعيد بما ناله من سعادة غامرة ... حتى لقد نسى هذا الحديث الطويل عن الأدب ونفسه وما صنعه السوق ... ونسى ما كان يرمى به نفسه ... بل هو الآن راض عن نفسه كل الرضا يسكب عليها ألوانا من المديح وأفانين من الإعجاب . فإن حاولت نفسه أن تصده عن هذا الغرور ارتفعت يده فى لا شعور مأخوذ إلى ممكن الشيك فى جيبه فما هى إلا أن يعود المديح لنفسه والإعجاب بها بملان عليه آفاق الحياة فلا يرى من الطريق أمامه إلا الفرح والبهجة والإعجاب والسعادة .. ولما كانت هذه الأشياء جميعاً لا تغنى مع السيارات التى تقطع الطرق وتريد الناس أن ينظروا بعينهم لا ببهجتهم فقد صدمته سيارة .. وصحا من رضائه عن نفسه مسجى بسرير مستشفى وجانبه ممرضة .

— أين أنا ؟

سؤال ما أسرع ما تبين غيباه فسارع يقول دون أن ينتظر إجابة :
— هل الإصابة خطيرة ؟

— خير إن شاء الله ... هدأ الله على السلامة ... دقيقة واحدة أنادى الدكتور

وجاء الطبيب وفى كلمات قلائل تبين ما حدث له .. لقد مرت السيارة على يده اليمنى فأحدثت بها تمشياً فى العظام وتمتكا فى الأنسجة — والطبيب وحده لا يستطيع أن يقرر ما يفعله فهو يرسل فى طلب كونسلتو ليقرر ما يتخذله إزاء هذه اليد ... ويخرج الطبيب ويعود مفيد إلى نفسه ... يدى ... ماذا يصنعون بيدي ؟ لماذا ؟ ماذا فعلت يدي ماذا فعلت ؟ . ويأتى الكونسلتو ويجمع حول يد مفيد وجوه متجهمة وما تلبث أن تنصرف عنه لتتنظر إلى صور الأشعة التى تمثل الحالة التى صارت إليها يده ... ويسأل مفيد ... ويسأل ... فلا تحببه إلا مهمة ترجع بين الأمل واليأس ويتركه الأطباء ليختلوا بأنفسهم وطبهم وليصدروا القرار النهائى على يده ... يدى ... ماذا فعلت يدي ؟ إن آخر ما فعلته يدي هو تسليم هذا المبلغ ... خمسة آلاف جنيه ... أكنت صاحب حق فيه ... أى مجهود بذلت لأناله ... اسمى فى السوق وسمعتى ومقدرتى البارة على إتمام الصفقات ... نعم أوهمت الرجل أننى كنت سأكسب عشرين ألف جنيه ولكن هو أيضاً كان يطمع فى الريح ولو لم يكن كذلك لما أعطانى هذا المبلغ ... كذبت عليه ... نعم كذبت ولكن هل يعرف السوق إلا الكذب ؟ لو لم يكن

مقدراً لنفسه وبعاً يزيد عن عشرين ألف جنيه لما أعطاني هذا المبلغ ولكنني كذبت ... غالطت ضميرى ... أين ضميرى ... ألم أقل إننى فقدته منذ زمن طويل ؟ منذ نزلت إلى السوق ... كان آخر عمل تدخل فيه ضميرى هو تحويلي عن الأدب وإبائي أن أبشر بالفضيلة وأنا غارق في الرذيلة ... ولكن ... ألم تكن يدى هى التى كتبت ما كتبت من أدب ؟ وكنت أدعو إلى الأخوة والحب والتسامح والسعادة ... ثم بعد ... أصبحت من رجال الأعمال فالحياة أصبحت عندي لا شيء إلا أن أكسب ... أصبحت يدى التى كانت تعمل للناس جميعاً ... الناس في كل العالم ... الذين أحرفهم والذين لا أحرفهم ... الذين يقرأون والذين لا يقرأون ... أصبحت يدى هذه لا تعمل شيئاً إلا أن تضع في جيبي نفوداً أصبحت فائدتها الوحيدة أن تجعلني غنياً ... دون حتى أن أفكر في سعادتي ... كنت سعيداً بيدي وهي تكتب للناس ... ألم أكن سعيداً وهي تكسب لي أموالاً ؟ قدمت بها الرشاوى ... حطمت بها ضمائر الناس ... مالى ولهم ... لقد كانوا على استعداد لبيع ضمائرهم لأي مشتر ... فما البأس بي أن أشتري بضاعة معروضة في السوق ... وأصبح غنياً ... وألقى الأمن على مستقبل ولكن أترى أحسست بهذا الأمن ... أبدأ ... كلما زادت ثروتي زاد خوئي من المستقبل ... خيف هذا المستقبل لمن يكسب مالا ... فقدت ضميرى وقلبي ... و... لا ... لا أريد أن أفقد يدى ... إنها لم تصنع شيئاً تستحق من أجله أن ... أن ... أخاف أن أقول الكلمة ... أترامهم يحكمون عليها بالبر ؟ أنا لم أسرق ماله من لا يعودون ... إن بقيت يدى عدت للكتابة ... أترى أصلح اليوم أن أكتب ... أبشر مرة أخرى بالسعادة والأمن .. الأمن من داخل نفسي لا من خارجها .. الأمن من القلوب لا من المال ... هذه القلوب الواجفة الهالعة التي تطير شعاعاً من الخوف والتي ترمى بنفسها إلى مستقبل الأيام ارتقاء يائساً مذعوراً أترى أستطيع أن أقول لها إن أمثلك في ذاتك لا في خارجك وحريرتك من داخلك لا يجرؤ إنسان أن يعدو عليها حتى تقبل أنت أن تتخل عنها ؟ فما عرف الأمن إلا في ظل الحرية وما عاشت الحرية إلا في ظل الأمن ... هل أستطيع أن أقول هذا للناس ... إن بقيت يدى أقول .. أقول .. ولكن هل تبقى يدى ولكن ... إنى أستطيع أن أقول حتى لو فقدت يدى ... الأمن يشيع في نفسي ... حريقى عادت إلى ... فليقطعوا يدى فسيبقى لي أمني وحريرتي وحيي للناس وسأستطيع أن أقول بلساني وإن لم فيقلبي وسيفهمون ... فما سمع الناس حديثاً أوضح من حديث صادر عن قلب ... سأقول ... وسأكتب وسيفهمون ...

ودخل الأطباء وعلى وجوههم هذا القناع من الجمود الذي ألقاه العلم على وجوههم منذ أصبحوا كباراً وفوجئوا بمفيد يقول في مرح :

— اضحكوا أيها الأطباء ... مهما يكن قراركم فهو أقل قبحا من هذا الجمود على وجوهكم ... لا ... أنا لم أجن ولكنني عدت إلى الأمن ... وإلى الحرية ... إلى نفسي .

على رغم الأيام

« وشاعت ابتسامة حلوة في وجهها ثم أقفلت الكتاب دون
أن تعنى بثنى الورقة التي كانت تقرأها ، .

على مقربة قريبة من قريتنا تقع قريته ، وقد تعود أن يقيم بقريته أكثر أيام العام لا يمل منها ولا يفسح ، وهو من تلقى علومه بانجلترا . وهو منى بمثابة العم في القرابة والسن معا . . . فهو في آخر الحلقة السادسة من عمره . عهده منذ بدأت أتبين الأشياء ففى الشعر في جمال فكان يميل إلى حين يداعب الهواه شعره أن شعره موجات صغيرة من الفضة تتجاوب مع النسائم التي تتواكب إليه وعهده منذ تبينت الأشياء أنيقا لا تتخلى عنه الأناقة أبدا . . . فهو أنيق بمعطفه الأبيض وجلبابه الحريري الذي يلبسه في صيف القرية . . . وهو أنيق بمعطفه الصوفى وجلبابه الذي يتخله في الشتاء . . . وهو أنيق غاية الأناقة إذا قصد القاهرة فهو يرتدى من الحلل أحسنها وأبدعها ذوقا ، يصاحبها رباط العنق من أغل طراز والجوارب المتقن بأجل عناية . . . لا تستطيع حين تلقاه في القاهرة إلا أن تذكر لوردات الإنجليز الذين رُى بينهم .

عاد إلى القاهرة في أول الحرب العالمية الأولى وتولى الإشراف على أرضه وأرض إخوته ، ولم تكن مساحة الأرض كبيرة ، ولكنه كان لا يتركها أبدا ، ويتولى زراعتها بنفسه ، يجد في ذلك لذة لا تدانيها لذة . . وقد حاول إخوته منذ عاد أن يزوجه ، ولكنه كان يرفض دائما دون أن يبدي لرفضه سببا . وإنما هي لا قاطعة ، أو لا لطيفة رقيقة شأن أحاديثه جميعا ، ولكنها لا دائما ، ويلا سبب .

كنت أقصد إليه كلما ذهبت إلى القرية . وكنت آخذ رأيه في المسائل الزراعية التي أحتاج فيها إلى رأى . وقد كان رأيه دائما مدعما بالعلم والتجربة معا . . فدراسته في انجلترا كانت زراعية وطول عهده بالأرض زوجه بالكثير من التجارب البصيرة . . وقد سألته في يوم . .

— لماذا لم تتزوج .. ؟

فنظر إلى الأفق البعيد وابتدت على شفثيه الرقيقتين ظلال ابتسامة حنون ، ثم قال :

— غافلتني السنون فوجدت نفسى حيث لا أستطيع الزواج ..

— ولماذا كنت ترفض ..

وعادت الابتسامة وطال تحديقه إلى الأفق البعيد ، ومرت بعينيه طيوف تتباين بين السعادة والحزن ، وظل صامتا ، فأكرمت صمته ، ولم أعد إلى السؤال .

تعود كلما جاء إلى القاهرة أن يدعو بالتليفون فأنضى معه بعض الوقت وفى يوم جاء إلى القاهرة والتقىنا على منضدة فى مينا هاوس وانساب الحديث بيننا وقد تعودت أن أسعد بنغمات حديثه ، فهو همس منغموم فيه عدوية ورقة وهدهو .. وكانت عيناه إليه الباب .. عينان هادئتان فارقتهما الدهشة لكثرة ما مر بهما ولكن بريقا من أيام الشباب مازال يطل منها .. وإن كان بريقا عجوزا عدت عليه السنون .

وفى لحظة خيل إلى أنه ليس هو ، أو أنه قد عاد إلى شبابه الذى رأته عليه فى الصورة المعلقة ببنيته بالقرية ، بل خيل إلى فى ومضة عابرة أن شعره الفضى لم يعد فضيا .. وجمد على حاله هذا ونظرت إلى حيث ينظر فإذا سيدة وقور ليست مصرية على أية حال شعرها فضى كشعره وإن كان غزيرا ، طويلة القامة فى غير امتلاء ولا نحافة ، تطل السنون من عينيها ولكنها إطلالة فيها حنان ودعة . وقفت السيدة على الباب وكانت تنفض المكان بعينيها تبحث عن مكان حتى إذا يشت أوشكت أن تولينا ظهرها وتتركنا ، ولكنى شعرت بزلزال فى النضد الذى أجلس إليه ، وإذا الشيخ الذى كان بجانبى قد أصبح بجانب السيدة ناداها فالتفتت ونظرت إليه فإذا هى أيضا يطوف بها ذلك الطائف الذى مس الرجل وإذا أنا ينحيل إلى فى اللحظة أنها لم تعد هى . ورأيت يحتضن يديها فى راحتيه ويظل كل منها يرنو إلى الآخر بعض الحين فى صمت ثم يفيضان وقد أقبل فوج جديد يريد أن يدخل إلى المكان .. فبتركان الفنلق جميعا ويخرجان دون أن يحفل بى العم ودون حتى أن يلتفت إلى .

تركت مكانى وقت ، وفى باكر الصباح دق جرس التليفون وكان هو المتحدث .

— أريدك اليوم .

— أنا تحت أمرك .

— اليوم جميعه .

— اليوم جميعه .. منذ متى تريدنى ؟

— منذ الآن .

وما هى إلا بعض دقائق حتى كنت عنده . لم أسأله فقد وجدت الذكريات تفيض على

لسانه يريد أن يرويا لاي إنسان يلاقيه . وكنت أنا . قال ونظرة تقطر سعادة تنسكب من عينيه :

— في أول عهدي بالجلترة دعاني أحد أصدقائي إلى حفلة يقيمها بيته وقد لبث دعوته ملهوفاً ، لما كان لي من أصدقاء إلا ندرة جمعتني بهم فصول المدرسة . . لم يكن غيوف صديقي إلا قلة من الصفوة وكان من بينهم أختان ، كان جلوسى إلى جانب ييسى ، وكان حديثها منطلقاً في خفة وكانت مرحلة اللفة ، قريبة الفهم ، سريعة الإقبال . لم يطل بنا الحديث حتى سألتها إن كانت تسمح لي أن أزورها فرحبت وكانت أختها ليزا تمر بنا فاستوقفتها وقدمتني إليها فصالحتهى وانصرفت لم تلبث وانتهى الحفل . وفي ضحى اليوم التالى ركبت دراجتى فصعدت إلى بيتهم ، فقد كان في مكان لا يمكن أن أصل إليه إلا بالدراجة ، أو بعربة خاصة لم أكن محتاجاً أن أدق الجرس ، فقد وجدت ليزا جالسة في شرفة البيت تقرا . أسندت دراجتى إلى درابزين الشرفة الخشبي ورحت أبعده السلم متعمداً أن أثير بجلدائى تأثيراً انتباهها ولكنى لم أفلح في انتزاعها من الكتاب ولم أجد بداً آخر الأمر من أن ألقى تحية متعثرة توشك أن تسقط في الطريق إلى أذنيها ، ولكنها مع ذلك أفلحت في أن تجعلها ترفع رأسها عن الكتاب لتلقى إلى تحية باسمه قد تتسم بالأدب أو قد تتسم بالرقه ولكنها أبداً لا تتسم بالترحيب ، كما أنها لا تحمل معنى واحداً يدل على أنها تعرفنى أو حتى تذكر أين التقت بي ، لم أجد بداً من أن أذكرها بنفسى ، وليس أثقل على نفسى من أن أقدم نفسى . . . فقلت أسأله عن أختها لعل في سؤالى عنها ما يذكرها بي . سألتها :

— أين ييسى .

وتذكرت . . . أو بدا لي أنها تذكرت . . فقد عادت تبتسم ابتسامه أخرى أكثر لإناسا من الأولى ، ثم قالت :

— إنها خرجت تشتري بعض أشياء ، ملكنى الإعجاب بليزا ، تمنيت لو كانت هي من جلست إليها في حفلة الأمس وتمنيت أن أجد سبباً يبقينى معها فتستبدلنى بهذا الكتاب في يدها . وتقرأ ما بنفسى من الإعجاب لها وأقرأ في عينها الحفاواين من بساطة الأمل ، وديع الشباب . . تمنيت ولم أجد ما أحقق به أمنياى إلا سؤالاً متعثرًا آخر .

— لعلها لن تتأخر .

وظلت الابتسامه الأنيسة على وجهها وهي تقول :

— بل ستأخر على ما أظن .

كانت الإجابة أمراً صريحاً لي بالانصراف ، لم تبعث ابتسامتها ، ولا كلمة أظن الشك في نفسى من أنها تريد أن انصرف . ووجدت نفسه ألقى بتحية وداع متعثرة واستدير إلى السلم

أنزله في تفكير عميق . . ماذا يمكن أن يبقى هنا ؟ أمكن مثلا أن أقع على السلم فأعرج فأبقى ! . . ولكن ماذا تفعل هذه الدرجات القلائل ، إنها أهون من أن تصيبني بجرح يستحق البقاء . . ماذا يمكن أن يحدث . كنت قد وصلت إلى دراجتي ، ودون أن أنظر إلى اتجاه يدي مددتها لأمسك بالمقود فإذا مسار في الدرابزين يجرحني . . . آه . . قلتها في صوت مباغت واهن ، ثم ما لبثت أن تذكرت أمل في أن أجرح ، فنظرت إلى الجرح ثم هزرت رأسي ، لقد كان الجرح أهون من أن أطلب له دواء ، وأهون من أن أذكره ، ولكن فكرة ما لبثت أن ومضت في ذهني . نظرت إليها فوجدت الكتاب قد اختطفها مرة أخرى فما لبثت أن نزعته المسار من مكانه وأهويت به على عجلة الدراجة فأفرغتها من الهواء ، كنت أحس بهواء العجلة وهو خارج وكأنه يقضي على الحيرة التي خالطتني وعلى اليأس الذي ملك نفسي حتى إذا استقر حديد العجلة على الأرض اطمأنت نفسي وهذا مضطرب ، وعدت أصعد لأقول في صوت مازلت أذكر رنة الفرح فيه حتى اليوم .

— لقد فسدت دراجتي فكيف السبيل أن أعود إلى البيت وشاعت ابتسامة حلوة في وجهها ثم أقفلت الكتاب دون أن تعني بثني الورقة التي كانت تقرأها . . وقالت :

— انتظر حتى تأتي ييسى ، فقد أخذت العربية معها .
وقبل أن تتم جملتها كنت قد أخذت مكانا بجانبها ، وأنا أسأل :

— أتقود ييسى العربية ؟
فقال والابتسامة على وجهها مازال :

— نعم .
— ألا تخاف الجلياد ؟
— إنه جواد واحد يجبننا ونحبه ولا نخافه .

وتحدثنا . . وتحدثنا . . وتأخرت ييسى وأنا أدعو الله أن تزيد من تأخرها وأقبلت على ليزا إقبالة محب قديم لا صديق جديد ، وأقبلت هي على حديثي . . فما قلت رأيا إلا وجدتتها تراه ، وما ذكرت من ميلوها ميلا إلا وجدتني مثلها فيه ، وكانت عيناي دائماً التحديق في عينها يجوس في أطواء نفسها فأجدني أزداد حبا لها . . كان لابد أن تعود ييسى وقد عادت . ونظرت إلى جلستها ، وابتسمت :

— أراك قد لبثت الدعوة .
وقلت في فرح :

— وهل كان يمكن ألا أسيها .

- وقصت ليزا على أختها ما كان من أمر الدراجة . . وبدأ على بيسي أنها لم تكن محتاجة إلى هذا الشرح فما كنت في حياتها غير عابر سبيل أو عابر سفر إن صح التعبير . قالت :
- فهل اركب لأذهب بك إلى بيتك .
فنظرت إلى ليزا وأنا أقول في حيرة :
- هلم . . .
- كم كانت الدراجة مباركة في يومنا هذا ، فإنه ما لبثت أن وجدت فيها الملجأ مرة أخرى .
- ماذا سأفعل بالدراجة !
- وسكنت ليزا وقالت بيسي .
- اتركها .
- وماذا أفعل ؟ إنني لا أسير إلا بها . .
وقالت ليزا :
- اسمع . . امسك بدراجتك وسر وأسير معك على أن تصاحبنا بيسي بالعربة لتعود .
ونظرت بيسي إلينا ثم ما لبثت أن أغرقت في الضحك ثم قالت :
- ألم تقولى إنه ينتظرون منذ ساعة أو أكثر لأعود به بالعربة ؟
وكأنما أدركت ليزا ما يخفيه ضحك أختها ؟ ولكنها قالت في بلاهة حبيبة :
- نعم .
وأكملت بيسي حديثها .
- ففيم كان انتظاره مادام سيعود سائرا على أية حال ؟ لم تراك كنت تريدين له العربة لتسير إلى جانبه لا ليركبها ، أم تراك كنت تريدين العربة لتعود بك أنت ؟
ثم عادت تضحك مرة أخرى . . وقالت ليزا :
- وماذا نفعل ، مادام لا يريد أن يترك الدراجة .
واصطنعت بيسي الجلد وهى تقول :
- نعم أنت مُحَقَّة . ماذا يمكن أن نفعل . . هلم بنا .
- وسرنا . . أمسك بدراجتى وليزا إلى جانبي وبيسى تقود العربة تسبقنا أحيانا أو يطيب لها أن تضحك منا فتبطئ حتى تظل بجانبنا . وفى مرة من المرات التى شاءت فيها بيسي أن تتيح لنا خلوة من الحديث قالت ليزا :

- أتعبت ؟
قلت في فرح :
— أنا ؟ أبداً .
فقلت وابتسامة مأكرة على فمها .
— على كل حال عليك أن تتحمل تبعه فعلتك .
وأخذت بحديتها وقلت :
— أئمة فعله ؟
— ما ذنب الدراجة حتى تفسد إطارها ، وما ذنب درابزين بيتنا حتى تخلع مساميره .
ظل حبي لها ينمو مع الأيام حتى كان يوم عرضت عليها فيه أن نتزوج فقالت :
— نعم أتمنى ذلك ؟ ولكن أمهلنى بضعة أيام .
— متى أعرف الجواب .
— فى أى يوم نحن .
— اليوم الأحد .
— إذن ففى يوم الأحد .

لم يكن ساسة العالم على علم بهذا الوعد ، فإنه لم يقدر لى أن أشهد هذا الأحد فى انجلترا وإنما وجدتنى بين عشية وصباح على مركب ينقلنى إلى مصر . . . لم أبال الأوامر وقصدت إليها فى البيت قبيل الرحيل فلم أجد بالبيت أحدا ؟ فتركت خطابا دستته تحت الباب ، ثم وضعت فى المركب لأجد نفسى بمصر ، لا تسألنى كم من الخطابات أرسلت بعد ذلك ولا تسألنى كم خطابات تسلمت . فاما ما أرسلته فلا أذكر عدده لكثرة وأما ما تسلمته فأذكر عدده لانعدامه . لم تصلنى منها كلمة . ولكننى مع ذلك ظللت أكتب . وأكتب فقد أصبحت الكتابة إليها هى كل ما بقى لى من حبي ومن شبابى ومن حياتى كلها إلى بلا زواج ولا ولد فانا بلا أمل . لم يكن لى إلا هذه الخطابات فظللت أكتبها حتى أمس . . أمس صباحا قبل أن أفاك . . كنت قد أودعت البريد خطابا إليها . لا لم أستطع السفر . . خشيت . . خشيت أن تصدمنى الحقيقة هناك فأعلم أنها ماتت أو تزوجت ففضلت أن أحيا بأملى الواهن الشاحب الضئيل عن لقاء الحق الواضح الصريح القوى ، فلم أسافر . . حتى كان يمسه ولقيتها . . لقد تركوا بيتهم وتركوا الحى وتركوا المدينة ، فلم تعد إليها منى كلمة . . . ولقد . . .

وانسكبت الدموع من عينيه وهو يقول :

— ولقد جاءت إلى مصر بين الحريين ، وعادت تهيء بعد الحرب الثانية على أمل واهن أن تلقاني أو تسمع عني حتى أمس ولقد ...

وازدادت الدموع انسكاباً من عينيه واختلج صوته في أجهاشة حب والهة شابة ..

— ولقد انتظرتني فلم تتزوج .

لم تنته حكاية الشيخ . فقد كان يريد مني كمحام أن يعد الإجراءات لزواجه ... نعم زواجه هو ابن الستين أو أبو الستين منها ... منها هي .. نعم وانها في الرابعة والخمسين .

وبعد أيام ذهبت إلى العم في القرية أهنته بالزواج وأهنيء به العمة الجديدة .. كانا جالسين هناك بين النخيل فكنت أرى فيهما قوة أقوى من النخيل ومن الأيام ومن الحروب ومن القادة الذين يشعلون نيران العالم .. لقد تغلبا على كل السفاكين الذين أراقوا دماء البشرية . وتزوجا آخر الأمر وإن كان هو في الستين وإن كانت هي في الرابعة والخمسين ولكن ماذا يهم ... لقد التقت فيهما حياة واحدة عاشت سنين طويلة ... طويلة جدا حياتين .

قال ودمعة فرحانة تتلألأ في عينيه مترددة بين بقاء أو انهيار .

— لقد تزوجت شباي يا بني ... لقد تزوجت شباي .. ووجدت دمعة تطفر إلى عيني أنا الآخر جعلت العمة ليذا تقول في فرح :

ولم يسمح له تأثيره أن يعيد ما قال واستطعت أن أتغلب على خلجات الفرحانة لأترجم لها جملته . وطفرت إلى عينيها هي الأخرى وهي تقول :

— إنه زوجي من أربعين عاماً .



يا لها من أيام

« زوجان .. أحدثها عن شأني وما عرض لي في يومي ..
وتحدثني عن شأني وما مر ما بين أمور .. وما كان أفقه
ما أرويه لها .. وما كان أبسط ما تحكيه لي ، »

طويل هذا الليل ولكن ، أين هو من الزمن .. إنه نقطة لا تزيد من كتاب الزمن الكبير
الذي حارت في بدايته العقول وجهلت المقادير نهايته .. نقطة هذا الليل لا تزيد .. ولكنه
طويل ... وما أنا الذي أحسه طويلا ... رقم من ملايين الأرقام .. بل من ملايين
الملايين ... ولكن أنا كل شيء ... أنا هذا العالم .. فما العالم بالنسبة إلى إن لم أكن أنا فيه ،
أحس بذاتي .. بعظمتها وقد يراى الناس لا شيء .. ولكن مالى وللناس وما يظنونهم ..
ما يفسرون رأيهم مادمت أرى نفسى شيئا خطيرا جديرا بالاحترام .. آه .. يا لها من فلسفة
بائسة أصطنعها لنفسي اصطناعا فما تجدى ، وأظل يومي وليل هذا الطويل ألقتها كرامتي الجريحة
فما تشقى الجراح ولا تبرا الطعنة ولا هى تلهمنى من الصبر بصيصا أذود به عن نفسى هذا البؤس
الذي يحيطها .

أعظيم أنا .. يا لها من سخرية كبيرة ... أخطير شأني .. يا لى من ضائع لا قيمة له ..
ويا لى من أحمق أصجل إلى الأمر لا أدري بواعثه أو عواقبه .

أحببتها .. نعم أحببتها كما أحببت طفولتي الباكرة ، وشبابى الندى ، وأيامى الفتية ،
وأحلامي المنضورة .

أحببتها منذ الأيام صغار قصار يملأها مرح الطفولة ويسمات الملعب وعبث الصغر وكبرنا

فكان للقلب عند اللقاء وجيب عرفناه منذ دقاته الأولى . . . إنه الحب يعلن نفسه باسمه الصريح بعد أن كان متخفياً وراء كرة الملعب وعبث الصبيبة . . . هو الحب كاملاً كما عرفه قيس وليلى . . . وجيل وبشينة . . . ورومي وجلييت وغيرهم ممن دمغوا التاريخ بحبهم أو ممن خلقوا الكتاب حبهم .

وكان أبي وأبوها صديقين . . . وفي ظل هذه الصداقة اتصل الحب دون أن ينمو فقد كان بالغاً مداه لا يملك بعد عتفه ولا بعد ثموه ثموا . ومرت بنا الأيام أروى حبي بلقاء قصير ، أو ابتسامة حلوة ، أو كلمة منغمومة . . . لم أخطبها ولم أكن في حاجة إلى خطبتها فقد كان زواجنا أمراً مقرر لا يحتاج إلى خطبة .

كان أبي ينتظر أن أتم تعليمي حتى يزوجني لها ، وكان أبوها ينتظر الشيء نفسه حتى يتم هذا الزواج .

وكنا جارين ، ولعل هذا الحوار فرض علينا رقابة أشد والعجيب في الأمر أن أبي كان أشد دقة في رقبته من أبيها فلم يكن يسمح لها أن تخطوا إلى لحظة . . . فإن جاءت البيت فهو فيه لا يرحه حتى تخرج منها يكن وراءه من أعمال . وإن حاولت أن أذهب إلى بيتها كان حريصاً أن يعلم بوجود أبيها هناك .

نعم . . . كان يتيم الأم منذ الطفولة المبكرة ، وكانت ترعى أمري امرأة كبيرة السن وأنا في المهمل وظلت قائمة على شأني حتى اليوم . . . وكان أمراً كأمري . . . امرأة كبيرة ترعاها منذ لا تعرف متى ومازالت في بيتهم حتى اليوم . . . نعم حتى اليوم . . .

لم يكن أبي ، ولا أبوها ، يكتفى برقابة هاتين الحاضنتين ، وكانتا تفرضان علينا قيوداً قاسية نلقاها بالبشر ، والابتسامة المختلسة ، وبالمجادعة الطويلة أن نحظى بلقاء معها يكن قصيراً بعيداً عن أعين الرقباء .

أنسألي ماذا كنا نقول في هذه اللقاءات . . . ؟ زوجان يعلمان أنهما زوجان ويتحدثان كزوجين بلا قبلاط ولا عناق . وما حاجتنا إلى ذلك ونحن ننتظر الغد القريب فتقبل ونعانق ما اشرء لنا الهوى المشبوب والحب الطاهر العميق .

زوجان . . . أحدثها عن شأني وما عرض لي في يومي . . . وتحديثني عن شأنها وما مر بها من أمور . . . وما كان اتفه ما أرويه لها . . . وما كان أبسط ما تحكيه لي . . . ولكن كان لنا نحن الدنيا بما وسعت . . . كانت سعادتي وحياتي التي أحيالها وأمل الذي أسعى إليه ، كان حبي كمل شيء لي . . . وما أظنه إلا كان كل شيء لها . . .

كنت أحدثها عن المدرسين حين كنت تلميذاً صغيراً ، وكانت تحدثني عن المدرسات ، ثم صرت أحدثها عن الجامعة والمحاضرات ، وكانت تحدثني عن البيت وما تلقى فيه من كسل

الخدام وإلحاح الباعة حين بلغنا بواكير الشباب . وأظلم بعد اللقاء ساعات أعيش اللقاء مرات ومرات ، وأتمثلها وهى تمحكى أو تسمع . . تضحك أو تغضب ثم أفيق إلى كئيب أنصب عليها فى وعى وإصرار ، أتعجل الأيام والسنين ليجمعنا البيت بلا رقيب إلا الحب ، ولا أعين من أبيها ولا أبى .

لم يكن أبى غنياً ولا كان أبوها . . فقد كانا من الموظفين القدامى الذين يعتمدون على الستر أكثر اعتيادهم على الربيع وكان الستر يكفيننا ، فملابستنا نظيفة وبيوتنا توفر لنا ما نهفو اليه من راحة ، وكان أبوها يعلم دخل أبى ، يعلمه كما يعلم دخل نفسه ، كما كان أبى يعلم خاصة شأنهم لا يجهل من أمرهم أمراً . . وكانا متفقين عليه الزواج وكل منهما على علم تام بحال الآخر . كاغن الزواج مقررأ لا شك فيه . . كان كذلك . . حتى نجحت فى السنة الثالثة فى الكلية وأصبحت على أعتاب السنة النهائية وكان رأى أبيها ورأى أبى أن نقضى جميعا الصيف فى الإسكندرية . . فانتقلنا إليها .

وهناك كنا نقضى يومنا جميعاً معا لا نفترق حتى لقد كنا نأكل معا وتولت هى القيام بشأنا وأعطها أبى نصيباً من المصاريف . . وكأنما أراد أبى أن يشعرها بقرب الزواج ، وكأنما أراد أن تضم العائلة حياة واحدة . . فلم يكن يفصل بين سكنناها وسكننا غير جدار . . عشانها حياة واحدة تزيدنا الرقابة المفروضة علينا شغفاً ومتعة ، وتلتقى العيون منا فى عناق طويل يسخر من الرقابة ويفضى بنا إلى عالم علوى ملء بالهوى والأحلام والأمال .

ياها من أيام . . إن كنت أحسست بذاتى ، أو كنت أحببت حياتى فمن ضياء هذه الأيام . .

كنا نجلس إلى الشاطئ . . البحر تحت أقدامنا ، يعدو الماء على أقدامنا وقد يعدو على ملابستنا ونحن من نجوى العيون فى حديث يشغلنا عن الله والبحر . . ويرتفع بنا إلى سماوات هيهات أن يبلغها سمو .

وكنت إذا انفردت بنفسى . . لم أفكر إلا فى هذه الأوقات الهنيئة التى جمعتنا ، فلا أنشغل عنها إلا بها . وكان أبى يعلم ما أنا فيه . . فنظرت إلى نظرة العالم بشأنى ، يخيل إليه أن الحب الذى بنفسى هو نفسه الحب الذى عرفه الناس منذ عرف الناس الحب . . ويا طالما فكرت . . أهذا الحب الذى أحمله هو نفسه الحب الذى عرفه الناس . . أم هو أشد عنفاً وأعمق جذوراً وأبعد غوراً . . ثم يخيل إلى أن حبنى فرد لم يعرفه أحد قبل ولن يعرفه أحد بعدى .

وبينا أنا فى هجعة الأصيل أفكر فيها تعودت أن أفكر فيه . . نادى أبى من حجرتة فسارعت إليه ، فوجدته يعانى آلاما بدت آثارها على كل نامة فى وجهه ، ماذا بك يا أبى . .

سؤال أطلقته وأنا أرى ما به ولا أجرى ما أصنع ، ولم أجد ما أفعله إلا أن أتركه عدواً إلى الدار المجاورة إلى أبيها أستصرخه أن يغشنا ، وعاد الرجل معي يسارع الخطو ثم يعدو حتى إذا بلغنا أبي وجدناه وقد زوّد به الألم حتى لا تكاد شفتاه تيين .. تركتهم ونزلت عدواً أبحث عن طبيب وما كدت أجد لافتة تحمل اسم طبيب عليها حتى وعدت به إلى المنزل .. لم يكن الأمر محتاجاً إلى طبيب .. وإنما إلى مغفرة الله .. لم يقل الطبيب إلا جملة واحدة كانت كل شيء . يرحمه الله .

وداعاً أيام الهناء .. لقد مات أبي والتقيت لأول مرة بالحياة وحدي .. كم هي قاسية عاتية ، وكم نلهو في رعاية الآباء ، وكم كانت أعبائها صغيرة بقدر ما نرى من الحياة .. تلك الحياة التي يجعل عنا آبائنا عبثاً جميعاً .. كم يحملون العبء .. كم نجهل نحن ما يحملن .. لكم فكرت في ضالة شأني حين طالعت الحياة وحدي .. كيف أشكر أبي على ما كان يردّه عني من شؤون الدنيا .. لكم كنت عاقاً وإن لم أخالفه يوماً . كيف أستطيع اليوم .. وقد مات .. أن أشكره .. وأى شكر يجزى غلق فضله .. وسكب خيره وموفوره به .. لا .. لا شكر يفنى .

ذهبت إلى القاهرة .. وأقمنا ليالي المأتم وظل عمي سعد يرمي شأني .. كما كان يرعاه أبي .. وظل يهديني إلى مالا أعرف .

ومر بعض الحين .. ثم فوجئت بعمي سعد ينقطع فجأة .. وانتظرت يومين ثم ذهبت إليه .. فإذا الوجه الضاحك أصبح كاشراً ، واللقاء الرحب أصبح ضيقاً وإذ بنجوى لا تلقاني ، وأسأل عنها فيجيبني أبوها في عنف .. إنها مشغولة .. وأخرج .

وداعاً أيام الهناء .. وداعاً أحلام الطفولة والصبا والشباب .. وداعاً .. فما الأيام بالأيام التي عهدت ، ولا الآمال بمحققة .. والافها هذا العنف بعد اللين ، وما هذا الجفاء بعد الرقة .

لم أشأ أن أترك الظنون تقودني إلى اليأس .. فعدت إليه مرة أخرى في اليوم التالي .. فوجدت الجفاء كما تركته في أمس .

— عمي ، أخطأت في شيء .. ؟

قال في غلظة ..

— لماذا ... ؟

— أرى عنفاً في اللقاء وجفاءً في الحديث .

— أنت وأهم .

— فإذا لا تلقاني نجوى .

ووجدت وجهه قد أدير وازداد غلظة وهو يقول ..

— ولماذا تلقاها ..

— لماذا ألقاها .. ؟ ..

— نعم .. لماذا تلقاها .. ؟

— أليست .. أليست خطيئتي ..

— هل خطبتها ...

نعم .. إنه الحق ما يقول .. لم أخطبها .. ولكن ألم يكن كل ما كان بيننا خطبة ولكن ..

لم أجد ما أقول إلا :

— فإني أخطبها الآن ..

وازداد صوت عمي غلظة وهو يقول ..

— وأنا أرفض الخطبة ..

أصبح الظن إذن حقيقة .. فوداعا إذن أيام الهناء .. وداعا آمال الحياة جميعا .. ولولا بقية من إيمان قللت للحياة جميعها وداعا .. وداعا بائسا .. أى شيء فيك أيتها الحياة أبقى له .. هذا الصديق الذى يموت الموت ، أم هذا الحب الذى قضيت له وبه حياتي ، ثم لم يخلف إلا ذكريات كانت هباء فأمست تعاسة ، وكانت منى أصبحت يأساً .

تركت الحى الذى كنت أقطعه ، وحاولت أن أقطع ما بيني وبين هذه الحياة التى كنت أعيشها ، وحاولت أن أمزق هذه الخيوط الضخمة من السنين الطوال التى تربطني بذلك الماضي .. حاولت .. ولكن هيهات .. وكيف للنفس أن تنشطر جزءين وكيف للحياة أن تنفصل أولها عن آخرها وماضيها عن حاضرها .. إنها حياتي .. واحدة لا تنقسم ولا تنشطر ولا تنفصل ..

ومرت الأيام .. ثقيلة بطيئة .. حاولت أن أقطعها بالذاكرة .. وكنت قد تعودت أن أهو بالذاكرة عن كل شيء .. ونجحت ، ولم أفرح بالنجاح .. وماذا يجدى النجاح .. وأى أمل يمكن أن يفسحه لى ..

وفى يوم طالعتنى الجريدة بنعى عمي سعد .. فوجدت نفسى أسارع إلى الحى ودخلت إلى البيت فوجدت وجوها أعرف أصحابها فهم أقرباؤه ولكنى عبرتهم أبحث عن نجوى فلم أجدها .. ولم أجد إلا الحاضنة التى كانت تقوم بشئها .. سألته فى لهفة .

— أين نجوى ..

فإذا بالمرأة فى نشيج يمزق الأفئدة .. وأعدت السؤال فى لهفة أشد ..

- أين نجوى ..
- وأجابته المرأة ..
- لقد ماتت من شهرين .. !!
- ماذا ...
- ماتت . لقد كانت مريضة بالسل .
- منذ متى .. ؟
- منذ كنت نخطبها .
- أمن أجل هذا ...
- نعم من أجل هذا رفض أن يزوجه لك .. لقد اتفقنا على أن يرفض خطبتك حتى لا تدفعك الشفقة إلى الزواج بها ..
- وصرخت في وجهها أسأها ..
- وأين هو .. ؟
- وظنن المرأة أنى جنتت .. وسألت في ذهول ..
- من .. ؟
- أين هو .. أين عمى سعد ..
- وقالت المرأة :
- ألا تعرف .. ؟
- نعم .. أعرف أنه مات .. أين هو .. ؟
- في حجرته يا ابني ..
- ودخلت إلى الغرفة ووقفت أمام هذا الوفاء الراحل ، وأطرقت إلى الأرض وأنا أقول ..
- أشكرك .. وأعتذر إليك .. !!

سودا إليك يا أبى

لقد كنت هناك فى الحانة ولكن أصحابى هم الشاربون
وكنيت جليسم .. أصدقاء الدراسة وأرادوا أن يحتفلوا
بنجاحهم بالشراب وأبيت أن أشاركهم ، ورأيتنى فيماذا
أقول لك وماذا أصنع .

اليوم أبى .. اليوم فقط أستطيع أن أجثو عند قدميك أسألك والعفو والغفران ... عفو
وإن لم أرتكب ذنبا .. ولكنى بحسبى من الذنب أنك غاضب ... وبحسبى من الأيام سودا
أن ألقاها وأنت عفى غير راض .. سنوات يا أبى منذ تركتك .. لم تغب عنى لحظة ..
كنت أتمثلك فى كل طريق أروده ، فأنت الأصل الذى كنت أسعى إليه .. لا شيء إلا
أنت ... أنت وحدك يا أبى ، فما أطيق وحقق الحياة بغير تلك البسمة التى تشرق على وجهك
وتشرق لنا بها الأيام والأزمان والآمال والمستقبل . لا ... أطيق ...

تركتك لأضرب فى الأرض فكانت ابتسامتك هذه أمل أراها أينما أدرت وجهى .. لقد
كانت قطعة من نفسى .. بل لقد كانت أغل قطعة فى نفسى .. أبى إن أكن أصبت فى الحياة
نجمها ، فلأننى كنت أطالع هذه الابتسامة دائما ... كنت أراها عند الشدة الأخلة فينفرج من
الأزمة ما كان مستحكما ، وكنيت أراها عند النصر فيزداد النصر عظمة وازداد أنا تواضعا ...
كانت ابتسامتك المصباح فى الظلام وكانت عند الفجر مجلاه وإشراقته .

أبى أترك أتذكركم من الأعوام مرت لم ترنى فيها بل إننى حتى الآن لم أكتب إليك .. عشرة
أعوام كاملة ، وقد قصدت أن أكتب إليك اليوم لأننى احتفل اليوم بعيد مولدى .. لقد ولدت
فى نفس اليوم الذى غضبت منى فيه وطردتنى ... فأردت يا أبى أن أكتب هذا فى نفس

اليوم .. يوم مولدى .. فإنه ينحى إلى أننى ولدت فى هذا اليوم مرتين .. مرة يوم التقيت بالحياة وعطفك يحيط بى ، ومرة يوم التقيت بالحياة وحدى بلا عون حين طردتنى .

أبى أنظنى غضبت أن طردتنى .. أنظن أننى انقطعت عنك طوال هذه المدة لم أعتذر ولم آت ولم أبحث عند قدميك لأننى ذو كرامة .. لا وحقك .. فلانى عندك أنت لا كرامة لى .. فانا أعلم أن حبك يرمى من كرامتى ما لا أراه . لم يكن انقطاعى لشيء من هذا ... وإنما لشيء آخر ستعرفه فى نهاية هذا الكتاب ...

أبى أتذكر يوم طردتنى .. نعم يا أبى .. إنك تذكر ولكنك لم تعرف الحقيقة حتى اليوم ولم أشأ أن أخبرك بها .. فقد كنت أخشى ألا تصدقنى ، وقد كنت ومازلت أحبك حبا بمعنى أن أتحالف إشارة منك مهما تكن هذه الإشارة صادرة عن ظن لم يثبت ، أو اعتقاد لم يتأكد . كنت ومازلت لا أجد لكلمة تصدر منك إلا الطاعة فأطعت ، وخرجت ... ومرت عشر سنوات . أما أنا فلم أكتب إليك لفكرة تسلطت على ذهنى وألحت عليه وملكت على كل أمرى وأما أنت فلم تسأل عن ولدك لأنك كنت تعرف من أمره كل شيء وكنت تطمئن على حياته دون أن تظهر له ذلك .

نعم يا أبى .. لقد كنت أعلم أنك واقف على كل خطوة فى حياتى لا تخفى عنك خافية وقد كنت أبيع لمن أعرف أنه يملكك أن يعرف من أمرى كل شيء ...

أبى .. أترانى جاحداً لآلى انقطعت عنك طوال هذه الفترة .. أبى .. أترانى ظالماً لحق الأبوة إن لم أقصد إليك هذه السنوات جميعها ... أترانى أبى كذلك ... لا وحقك لم أكن ...

أبى ... طوال عشر سنوات كنت أراك فى كل أسبوع مرة أو مرتين أو ثلاثة ... كنت يا أبى أتخفى وراء الجدران فى مواعيد خروجك من المنزل وأطمئن وأترقبك وأزود نفسى بمحياك ثم أعود إلى الحياة وحدى ... ولقد مرضت يا أبى فكنت أرسل إلى عمى زيدان خادمك الذى تولى أمرى بعد وفاة أمى ... كنت أرسل إليه وأنا خارج الدار أعرف دقائق مرضك انصرف بعد أن استحلته بأغظ الأيمان ألا يخبرك بمقدمى ... نعم يا أبى .. أدري أنك كنت تتمنى فى لحظات مرضك هذا أن ترائى ... ولكن هذه الفكرة التى تسلطت على ذهنى ووجدانى منعتنى أن أفعل .. منعتنى أن أنتهز فرصة مرضك لاستمنحك الرضا وأسالك الغفران ... تذكر يا أبى أنك طردتنى فى اليوم ذاته الذى ظهرت فيه نتيجة اللىسانس وكنت ناجحاً بتفوق ... طردتنى يومذاك وأنا عائد إلى المنزل فى المزيغ الأخير من الليل ... رأيتنى قبل عودتك أجلس إلى مائدة فى حانة أشرب الخمر ... وأنت رجل يخاف الله ... وأغضبك أن يشرب الخمر ابنك الذى تعرفه يقيم الصلاة فى مواقيتها ... كبر فى نفسك أن يخادعك ولدك فيصل فى

البيت ويشرب الخمر في الحانة . أعرف أن فكرة المخادعة هذه هي التي أثارتك أعلم ولكن ...

أبى وحياتك لم أشرب الخمر ... لم أشربها يومذاك ولم أشربها حتى اليوم ، ولكن أكنت تصدقني حيثل لو دفعت التهمة عن نفسي ... لقد رأيتني رأى العين فكيف ينهض إنكارى دون رقبتك .

لقد كنت هناك في الحانة ولكن صحابى هم الشاربون وكنت جليسههم .. أصدقاء الدراسة وأرادوا أن يحتفلوا بنجاحهم بالشراب وأبيت أن أشاركهم ، ورأيتني فهاذا أقول لك وماذا أصنع .

طردتني يومذاك وأعلم أنك كنت تُقدر أنني سأغيب عن البيت بضعة أيام أعود بعدها ... وإلا فأين أولى وجهى وأنا خريج جديد بلا مال ولا مأوى ولا وظيفة ... كان تقديرى معقولاً حكيماً ، وقد أردتني أن أحس سوء الذنب الذى ظننت أنني ارتكبته ... ذنب المخادعة ولكنك حين طردتني يا أبى أردت أن أثبت لك حى كاملاً خالصاً عميقاً متيناً فكانت هذه الفترة الطويلة التى لم ترفى فيها .

كان في جيبى تلك الليلة خمسة جنيهات هي كل مالى ، قضيت الليل سائراً وكان الصيف عطوفاً حانياً فلم أكن في حاجة إلى مكان أبيت فيه ... قضيت الليلة مع أريكة في حديقة ... عجيبة .. نعم أنا ابنك الذى كنت ترعاه رعاية مرهقة مدللة ابنك الذى كانت له حجرة خاصة منذ لا يذكر متى ، والذى كان يسعى بين يديه الخدم .. ابنك هذا قضى ليلته مع أريكة في حديقة .

وفي الصباح الباكر قصدت صديقاً أبوه من كبار المحامين ورجوته أن يلحقني بكتب أبيه ورحب بي المحامى الكبير وجعل لى راتباً ظنه هو رمزياً وأتبرته أنا حياتى التى لا حياة لى ألا به ...

كان مرتبى عشرة جنيهات في الشهر ... وعملت . عملت بكل جهدى وبكل ضميرى وبكل إحساسى وأشهد يا أبى أنك نشأتني فأحسننت فكان العمل عندي واجباً مقدساً ، لا أتخلف عن أقل دقايقه شأننا وقرأت وتاملت القضايا وكنت أطالب بالمزيد منها لما مر عامان حتى كان اسمى معروفاً لدى المحاكم وحتى كان مرتبى ثلاثين جنيهاً ولكنى رجوت أستأفنى أن يسمح لى بتركه لأفتح مكتبى الجديد ... وفتحتته وثابرت واجتهدت وقرأت اسمى يا أبى فى الجرائد مرات عديدة فقد أصبح الناس يعتبروننى من أحسن المحامين . وإننى أملك اليوم ثروة تقينى إلى المدى الطويل ، وأنا ما أزال فى بواكير الشباب الأولى وأنى أحب عملى ولا أتركه .

لهذا يا أبى أجدنى خليفاً بأن أجثو عند قدميك أطلب الصفح والغفران فهل تراك تصفح .
كنت أعيش هذه السنوات مع كفاح . . لا أمل لى إلا فى هذه اللحظة التى أنا فيها الآن أن أراك
تقرأ خطابى الذى كتبته وقدمته لك بيدى وأنا راكع عند قدميك حتى تقبلى بيديك .
أبى أردت أن أقصد إلى رحابك وأنا غنى من المال قادر على مواجهة الدنيا لا أحتاج من
كريم يديك إلا لمسة الأب وإلا هذه الابتسامة التى شققت بها وإليها طريقى .
إن هذا الخطاب الذى بين يديك قديم . . . ولد فى ذهنى وفى قلبى يوم طردتنى ومازلت
أكتبه كل يوم وأعيد كتابته . . . فهو أملى .

لم يكن أملى منذ ذلك اليوم أن أنجح ، لا ولا أن أكون غنياً ، لا ولا أن أصبح بين المشاهير
وإنما كان أملى أن أركع فى مكانى هذا عند قدميك وأنا غنى ناجح مشهور لا ألتبس منك إلا
الصفح والرضا والأبوة وإنها لكثير .

أردت أن أعوذ بك أنت لا أن أعوذ بمالك . . . وأردت أن ألتجأ إليك . . . إليك أنت لا
إلى بيتك . . أردت أن أطلب صفحك ورضاك وأنا فى غنى عن الحاجة المادية . . . فأنا أحبك
حبا ما كنت لتدريه لولا هذه السنوات . . . كيف كنت تدرى مدى حبنى لك إن لم تترى مرثياً
عند اعتابك أطلب حُبك فى غنى عن مالك .

حرمت نفسى منك عشر سنوات وحرمتك منى هذا السنوات من أجل هذه اللحظة . . أبى
إن أرى هذه اللحظة تعدل العمر جميعه . . . ألا تراها أنت كذلك . . .

فكرة — أهى مجنونة أم حكيمة ؟ — لا أدرى وإنما سيطرت على منذ طردتنى . . .
أقسمت ألا أعود إليك إلا بعد أن أستطيع القيام بأمر نفسى ولا أطلب الصفح إلا من أجل
رضاك وحبك . . .

إن تكن صفحت يا أبى عن هذه السنوات التى حرمتك منى ، وإن تكن راضياً فمد يديك
قبلها وضمنى إليك ، وإن لم فدعنى إذن فى مكانى حتى ترضى . . . فما أحب أن أظل عمرى
جميعه فى مكانى هذا منك وأنت فى مكانك هذا منى .

* * *

ويبد بلبنتها الدموع أقام الأب ولده ، ويقلب يفيض بالشوق ارمى الفتى على يد أبيه يقبلها
ويضمها . . . ذخره وحياته وأمله وأبوه .

● هذه اللعبة

هذه اللعبة

عادت ناهد إلى البيت فرحة غاية الفرح ، يصفق قلبها سرورا ، وراحت تبحث عن أمها في غرف البيت جميعا حتى إذا لم تجدّها نبتت في نفسها غصة صغيرة سرعان ما طغت على فرحها ، وراحت تلجأ إلى التليفون ولم تجد أقرب إليها من صديقتها ليل لتخبرها بهذا الفرح الذي يملأ نفسها وأدارت القرص وسرعان ما جاء صوت قائم من الطرف الآخر . عاجلته قائلة :

— ليل موجودة ؟

— موجودة ..

— وترك الصوت التليفون وجاء صوت ليل قائما هو الآخر ولكن ناهد سارعت قائلة :

— هيه ياليل ..

— هيه ياناها ..

— هل نجحت ..

— لا .

— لم تنجحي ..

وخفتت الفرحة في نفس ناهد ولم تستطع أن تخبرها أنها هي نجحت ، وإنما كل ما فعلته أن

قالت في صوت شاحب :

— لا عليك .. سامر عليك

ووضعت الساعة وعادت تفكر فيما يمكن أن تفعله . وضاعت بالبقاء في حجرة مغلقة فقامت إلى الشباك ففتحته .. إنه هناك .. ذلك الفتى في البيت المقابل الذي لا يكف عنها فلا تجدى معه كل هذه القسوة التي تعامله بها . ونظر إليها وابتسم فأقفلت الشباك وعادت إلى

الانتظار مرة أخرى . حائرة بفرحتها . . . جلست إلى مكتب زوج أمها . فهو مكان لا تستطيع الجلوس فيه إن كانت أمها أو زوج أمها بالبيت . وراحت تفتح الأدراج وكأنها تقوم بمغامرة تريد بها أن تفتح المنافذ لفرحتها الحبيسة . وفجأة التقت بمسدس ملقى في الدرج ونظرت إليه طويلا . . . وكأنها لا تصدق أن هذه الآلة الصغيرة تقتل وتقطع حياة انسان ضخم مملأ الحياة ويروح ويحيى ويتكلم وقد يكون ذا سلطان فهو يتحكم في نفوس البشر فهذا يعيش وهذا لا يجد العيش . . . نظرت إلى المسدس الصغير كيف تستطيع هذه الآلة الصغيرة التي تشبه اللعبة . . . بل هي أدنى إلى فكرة اللعب أن تجمت حياة انسان من بين أهله وذويه . . . وكيف تقضي عليه حتى وإن كان جبارا ذا سطوة ونفوذ وسلطان . . . كزوج أمها مثلا ذلك الذي يسيطر عليها في عنف وبأس وجبروت . . . والذي رأت موظفيه في الشركة وهم يرجفون من ذكر اسمه رجفة تتضاءل أمام هولها رجفة العابد المؤمن العميق الايمان ان ذكر أمامه اسم الله أو اسم الشيطان . . . بمسدس كهذا . . . نعم كهذا . . . بل برصاصة منه صغيرة دقيقة أهون في سمكها من سمك هذه الفتحة في مقدمة المسدس حتى ولو كان زوج أمها . وسارعت تقفل الدرج وعادت إلى فرحتها وإلى حيرتها بهذه الفرحة . وفجأة طغى تفكيرها على ضجيج فرحها من تنتظر ؟ أنتتظر زوج أمها الشرعي . . . وماذا سيفعل قد يفضل فيخرج كلمة مبروك ، وكأنه يفرج حنجرتة عن دمية ميتة لا تحمل معنى . . . وقد لا يقول شيئا الا أن يموء أما أمها فقد تفرح حقا ولكن ماذا تراها فاعلة أمام زوجها الباطش الجبار . . . قد تضحك وقد تقول مبروك يا حبيبي ثم تمسك بعنان عواطفها في عنف فقد أمرها زوجها ألا تدلل ابنتها وهي له مطيعة . . . ماذا ترجو اذن ناهد لفرحتها . لا شيء . . . فقد عاشت في ظل زوج أمها لا تجمد لفرحتها عند أمها أو زوجها مكانا أو تجمد لحزنها عند أى منها يد أسية أو قلبا عاطفا . كالزهرة البرية التي تشق طريقها في الجو وحيدة فريدة لا من يؤنس ولا من يتهمد . إنها ما تزال تذكر أباهها ولكن ماذا تفيد الذكريات مع الواقع الأليم الا أن تزيد الألم قسوة وعنف . . . فكم كانت ترجو أن تنسى حنان أبيها حتى لا تستهول قسوة زوج أمها . . . فلو كانت لم تر الحنان لما عرفته ولما احتاجت إليه ولحسبت أن الدنيا كل الدنيا ليس فيها آلام تشقى بها من صلف وترفع وتأنيب وخشونة . ولو كانت تجمد أباهها لاستطاعت أن تقول نجحت ولا استطاعت قبل ذلك أن تقول له الكثير الذي لم تستطع أن تقوله لأحد ولا استطاعت من بعد أن تقول الكثير الذي تعرف انها تحتاج أن تقوله ولكن لمن تقول . . . ألا بد لها أن تقول . . .

وما الحياة ان خلت من القول وقلب يعطف على قلب ونفس تؤنس وحشة نفس ؟

ودخل زوج أمها وطالعتة هي فرحة مبتلدة .

— نجحت يا عمى .

ونظر إليها لحظة ثم قال : « هيه » . . . وما لبثت أن جاءت أمها فابتدرت قائلة :

. نجحت يانينا .

وفى حركة لا شعورية احتضنتها أمها فى نشوة طبيعية وهى تقول :

— مبروك .. ألف مبروك وأحست ناهد أن عيني أمها التقتا بعيني زوجها .. أحست بلقاء العيون فى صوت أمها وهو يعاجلها قائلاً فى شيء من الجفاء المصطنع .
— كان لابد أن تنجحى .. أكنت تتظيرين غير هذا .

وانسحبت الأم من أحضان ابنتها وقصدت إلى غرفتها وما لبث زوجها أن تبعها ونحيل لناهد أنه يريد أن يعاتبها على ما بدا منها من فرحة لم تحكم زماها .. وأطرت ناهد لحظات .. ثم أحست أنها تريد أن تفتح الشباك .. ولا تدري لماذا أرادت أن تفتح الشباك ولكنها توجهت إليه وفتحته بيد ثابتة كمن صممت على شيء .. وفى الشباك المواجه وجدت الفتى يطاردها بابتسامته .. ووجدت ابتسامته مستقرة على فمه كما تركها منذ أغلقت الشباك فى المرة الأولى .. وابتسمت . ولم يصدق الفتى عينيه فراح يفرك عينه وعاد ينظر إليها وقد رسم الابتسامة على فمه فوجد الابتسامة ما تزال على شفتي ناهد لم تركها .. ورقص الفتى فى الشباك فضحكت ناهد من أعماق قلبها .. وكأنها أحست أنها قالت « نجحت » للشخص المناسب ، وأشار لها الفتى أن يلتقيا وأومات أن نعم وأشار إليها أن الآن وأومات أن نعم وقصدت إلى أمها فأبلغتها أنها تريد أن تزور ليل ، ووافقت الأم ونزلت إلى الطريق .

ومنذ ذاك اليوم لم تكن تحتاج إلى أحد تفضى إليه بفرحتها ، أو تزجى إليه بالأمها فقد أغناها ماجد عن هذه الحاجة .. فهو كل شيء لها فى الحياة . شاب من الريف يقيم وحده فى القاهرة ليكمل تعليمه فى كلية الآداب قسم الفلسفة ، عذب الحديث عطف عليها يتلمس رغباتها لينفذها ، ولم تكن رغباتها كثيرة فما كانت تريد إلا أذنًا وقلبا ، وقد كان ماجد ما تريد .

وبيت ماجد خال وبיתה هى لا رقيب فيه فالأم كثيرة الخروج وزوج الأم كثير المشاغل . واستطاعت الصلة بينها وبين ماجد أن تظل بريئة فترة من الزمان ولكن البيت الخالى .. والرقيب الغائب .. والحنان من ماجد .. والقسوة من زوج الأم .. كل هذا استطاع أن يجعل الصلة غير بريئة .

ولم تجزع ناهد أول الأمر ولكن عارضا عرض كان لابد أن تجزع له .. لقد أوشكت أن تثمر هذه الثمرة التى يتمناها كثير من الآباء والأمهات فلا يصيبون من أمنياتهم إلا خيبة والنمى يتمنى كثير آخرون من ذوى الصلات المستورة أن تظل مستورة فتتوهم عليهم الطبيعة وتصمم على أن تهب لهم ما هم عنه فى غنى أى غنى .. كانت ناهد تحمل ثمرة بحثها عن الحنان عند ماجد .

وأخبرته .. وجزع الفتى ولجأ إلى صديق له في كلية الطب ولكن صديقه خذله ، وذهب إلى طبيب ممن يتقاضون من أجل هذه العملية أجرا فاحشا ولكن الطبيب ما لبث أن قال لها :
— لا .. لا يمكن أن تحتمل العملية ..

وخرجوا وقصدا إلى بيت ماجد .. وأطرق ماجد حزينا ونظرت هي إليه طويلا ثم قالت له :

— في أى سنة أنت من سنوات دراستك ؟

ونظر إليها مندهشا بعض الحين ثم قال :

— ألا تعرفين ؟

— قلت لى إنك فى السنة النهائية ولكن الآن أريد أن أعرف الحقيقة .

— إذن

— إنها الحقيقة .

— إذن ماذا ؟

— أراك لا تريد أن تفهم .

— وهل تظنين أن ما يمنعنى عن الزواج هو دراسى ؟

— إذن فإذا ؟

— إلى فلاح .

— وهل لا يتزوج الفلاحون .

— يتزوجون ولكن ..

— ولكن ماذا .

— ألا تفهمين ؟

— أكاد أفهم .

— الفلاحون لا يتزوجون هكذا .

— أأنت تعرف أنك أول انسان عرفته .

— ليس هذا ما أخشاه .

— فماذا تخشى ؟

— أخشى ألا أكون الأخير .

ونظرت إليه ناهدا طويلا .. القسوة .. كل قسوة فى الوجود أرحم من هذا الذى سمعته الآن .

وقامت إلى بيتها كسيرة حزينة .. وقصدت إلى البهو وحيدة .. تريد أن تبكى فلا تجد الدموع . انها ليست الأولى فى هذا الموقف لا ولن تكون الأخيرة ولكن السعيدات الأخريات

يجدون فيه من يقف إلى جانبيه .. يجدون أمهاتهم .. فأين أمها .. لا يعرف أى إنسان هذه الكارثة التى تشقى بها إلا أمها .. فمن لها .. من .. لا أحد .. لا أحد .. لماذا .. فعلت بنفسها هذا .

إنها تدرى لماذا .. تدرى حتى لتحسب أنها تعود إلى ما فعلته مرة أخرى إن عادت الأيام الفهقرى إلا أنها كانت تمنى أن تجد فى ماجد الرجل الذى توهمته .. أو تجد من الزمان بعض عطف يعوضها عن عطف الأبوة أو الأمومة ولكن لا .. فالزمن المقترس لم يشأ أن يبب لها شيئا مما يبب للآخرى . أى فضل للآخرى إن يكن شريفات لماذا يسقطن .. وهل كل الرجال مثل ماجد .. هذا الذى صرع مستقبلها بما فعل وشرفها بما قال .

وجلست إلى المكتب وراحت تفتح أدراجها والتفت مرة أخرى بالسدس .. هذه اللعبة التى تهت حياة الناس إنها تريدنا الآن .. تريدنا بكل خلجة من خلجات نفسها .

أمسكت بالسدس وجلست ولم تطل بها جلستها فسرعان ما دخل إليها زوج أمها وقبل أن يقول فى صوته العنيف الطاغى ماذا تفعلين كانت هى قد أطلقت الرصاصة الأولى وترنح الرجل الشامخ فاتبعت رصاصتها ثانية وثالثة ورابعة حتى صارت تضغط على الزناد فلا يطلق إلا فراغا .. ولم تبال فراغ المسدس من رصاصه بل راحت تضغط وتضغط .

الظل

تفضل ياسيدى بالجلوس . لا لن نجد منضدة خالية . ان المقهى الآن بالذات لا تخلو فيه منضدة . لملك لا تعرف هذا المقهى ياسيدى ، انه مقهى الموسيقين وأفراد الكورس وهم الآن يتناولون غداءهم ليعودوا إلى الاذاعة وهكذا تمجدهم يزحمون المقهى . في هذا الوقت بالذات يزحمون المقهى . ثم هم إذا فرغوا يجلسون هنا أيضا ليجدهم من يريدهم في عمل . . لماذا تظل واقفا ياسيدى . . تفضل ياسيدى بالجلوس . لا لا تندم ان كلمتك دون سابق معرفة فاني كثيرا ما رأيتك ، وجهك مألوف بالنسبة لي . ثم انك ستسدي الى معروفا كبيرا إذا جلست فاني أريد أن أتكلم . . أريد أن أقول وكل هؤلاء سمعوا ما أريد أن أقوله ولكني مع ذلك أريد أن أقوله مرة أخرى تفضل بالجلوس وأعدك انك لن تشعر بالملل فحكايي — على كل حال — لا تجلب الملل . . شكرا . . والآن هل تأمر بقهوة أم بكازوزة . . أنا الذي سأدفع فانه يسعدني أن أجد من احكى له . . لا شك أنك تريد عبد المنعم قاصد . . انت شاعر وهو يلحن لك . . أليس كذلك . . نعم أنا متأكد . . سيأتي عبد المنعم حالا . . كازوزة ؟ حسنا . . ياكوشة . . ياكوشة . زجاجة كازوزة وحسابها عندي . وعجل ياكوشة أتريد أن تجمع الآن . أولا أحب أن أعرفك بنفسى . أنا ياسيدى جزء على عشرة من انسان وأحيانا أنا جزء على عشرين من انسان . وأحيانا ولكن قليلا ما أصبح جزءا على ثلاثين من انسان . وعلى كل حال أنا لست انسانا كاملا لم أكن كذلك في يوم من الأيام . تصور اننى حتى وأنا في بطن أمي كنت نصف انسان . نعم إن لي أخا توأما شاركني المكان الوحيد الذي يمكن أن أكون فيه انسانا كاملا ، واحدا صحيحا . ونحن نزلنا إلى الحياة ظلللت أحسن اننى لست انسانا كاملا . العجب ان هذا الشعور لم يكن يراود أخى أبدا كنت أسأله :

— ألمحس انك انسان كامل .

وكان يقول في عظمة بلهاء :

— كامل ونصف .

يظهر أن الشعور بالكمال تسرب اليه جميعا ونحن في بطن أمنا ولم يبق لي منه شيء .
وأكدت الحياة معنى هذا النقص في نفسى ، لم أنفرد بشيء أبدا ، كنا إذا أكلنا تقاسمت أنا
وأخى الطعام ، وإذا ما اشترى أبى لي شيئا كان لابد أن يشتري نفس الشيء لأخى كنت أخشى
أن ينسى يوما ويحضر لي فردة حذاء ولأخى فردة حذاء وذهبنا إلى المدرسة . وكان أخى ذكيا
يحسن المذاكرة ويحسن الاجابة على المدرس ويحسن الاستماع ويحسن أن يجعلهم يقولون عنه انه
تلميذ ممتاز . وكنت في أول عهدي بالمدرسة مثله . ولكن حين تقدمت به السن والدراسة بعض
الشيء نبت في رأسى فكرة لا أدرى مأتاها . . جميع الأفكار تأتى من حيث لا ندرى ولكنها تؤثر
في حياتنا حتى نهاية الحياة . . مصاير الانسان ياسيدى مرتبطة بفكرة كهذه الفكرة التى نبتت في
رأسى ونقلتها . . تصور ياسيدى مجرد فكرة طيف من ظن ، لمحة من أوهام . ظل من رأى ،
مجرد فكرة فإذا أنا الذى ترائى اليوم وإذا أخى — والعقبى لأمالك — مدير خطير يحرك بسبابته
عشرات من الكيانات البشرية من أمثالى . . كانت فكرة ياسيدى . . لا . . لا أريد أن أكون
مثل أخى أريد أن أكون . . أنا . . أنا . أنا فقد بحثت عن أنا هذه كثيرا وقررت — ما دمت لم
أجد — أن أخلقها أنا . . وخلقتها ياسيدى فإذا هى هذا المخلوق الشائه الذى تراه الآن
أمامك . . جزءا من عشرة من انسان أو جزءا من عشرين أو جزءا من ثلاثين . . كانت فكرة
مجرد فكرة . . كثيرا ما تطوف بأذهان أقوام لكنهم لم يتفكروا ، وانما . . أنا . . أنا . .
نقلتها . . قلت في نفسى لن أكون صورة لأخى . . لا لن أكون . . ساكون أنا منفردا في كيان
لا أمثال هذا الأخ فيما يسعى اليه من آمال ولا فيما يسير فيه من طريق . . انى شبيه له في الحلقة
ولكنى لن أكون شبيها له في الآمال والأحلام . . كنت قد مللت أن أكون نسخة كربون من
أخى . . كانت فكرة . . لو تركتها تلدوب مع الأفكار الأخرى التى تراود عقل ، لو انى لم
أتمسك . . لو . . بغيضة (لو) هذه ياسيدى الشاعر أليس كذلك . . أتعجبك (لو) هذه
ياسيدى . . انها لفظ الحسرة على ما فات والألم على الماضي . لفظه لا تحمل الا اليأس لعلك
تحبها في شعرك لأنها تعطيك الفرص للظهور بمظهر الحزين الأسى . . هذا المظهر الذى يحب
الشعراء دائما أن يتخلوه . . أكره أنا (لو) هذه ياسيدى لو كنت تركتها تلدوب لكان شائى غير
شائى . . المهم انى نقلتها . . أهملت المذاكرة وكنت أجاهد ألا ألتفت في الحصة وأجاهد أن
أجعلهم يقولون عنى تلميذ فاشل أتعرف ياسيدى اننى لم ألاق النجاح الا نادرا في حياتى أقول
نادرا لأخادع نفسى الحقيقة اننى لم ألاق النجاح الا في هذه المرة . . نجحت ياسيدى في أن
أكون تلميذا فاشلا . . نجحت في ذلك نجاحا جعل أبى يتنهد إلى اليأس الكامل من أن أكمل
دراسى . . وأخرجنى . .

كان يومى الأول مع الفراغ وزملائى في المدرسة يوما عجيبا بالنسبة لى ياسيدى حتى لقد
خطر لي أن أعدل عن فكرى وأعود إلى مدرستى ولكن هذه الفكرة . . فكرة العدول ياسيدى

سرعان ما ذابت وتلاشت ورحلت إلى حيث لا أدري ولا يدري أحد .. أتعرف أين تذهب الأفكار ياسيدى .. لا ما أظنك تعرف ، بل ما أظن أن أحدا يعرف .. قضيت اليوم وحيدا ، ولكنى كنت فردا .. شعرت بالتوحد .. لم أجد نفسى بين صفوف التلاميذ ولا وجدت نفسى جزءا من جماعة ، بل وجدت نفسى فردا كاملا . ولكن لسبب لا أدريه لم أشعر بهذه الانفرادية وإنما شعرت بالضياع .. كم هو مر مذاق هذا الضياع ياسيدى حتى لقد أضاع على شعورى بالتفرد .

وكان لى زميل سبقنى إلى الطريق فلحبت إليه فوجدته قد حقق آماله فى كمنجة يحملها وتخرج له أنفاما . وكان سعيدا ، وأصبحت فى أيام الفلاسى وأنا لأعمل لى إلا أن أستمع للموسيقى التى ترسلها كمنجة صديقى الذى سبقنى إلى الطريق .. لا لم أكن حينذاك أقدر النغمة الحلوة ولا النغمة الرديئة . وإنما كنت أستمع .. أشرب فنجان قهوة .. يسعدنى أن أقدمه لك .. أشربها مضبوطة .. ياكوشة فنجان قهوة مضبوطة .. لا .. لا تشكرنى .. فانه يسعدنى أن أقول .. خيل الى بعد حين اننى أستطيع أن أفهم النغمات ، ورحت أستمع موسيقى صديقى وشيئا فشيئا وانتهى الجراءة أن أدندن وما لبثت أن غنيت .. نعم كنت أغنى مع موسيقى صديقى وقال صديقى الله وحين سمعتها وجدت (أنا) التى كنت أبحث عنها .. وجدت نفسى أحس بالتفرد ياسيدى .. أصبحت أغنى وأجد من يقول الله ..

ونسكت بلفظة الاستحسان هذه واسترسلت .. غنيت ، وكان صديقى يدهو بعضا من يعرفهم ويعرف هو وأغنى أنا .. والعجيب ياسيدى أنهم كانوا يقولون الله .. لا أدري أى دافع كان يبعثهم إلى قولها .. أصبحت الآن لا أدري .. أما فى ذلك الحين فقد كنت واثقا أن صوتى رخيخ .. كنت واثقا ياسيدى .. ولا أدري كيف استطاع صديقى أن يدبر لنا ليلة نغنى فيها فى فرح .. فرح كامل يجلس فيه المدعوون والعريس والعروس وأغنى أنا ويعرف هو على كمنجة ويعرف آخر على عود ويدق ثالث على طبله .. وأغنى .. وغنيت ياسيدى وقال الناس الله .. لا لم يكونوا ساخرين .. قالوا الله ولكن ما أقل ما قالوها .. إن هى إلا دقيقة أو اثنتان وإذا بالكراسى تقلد الينا وإذا الفرح يصبح ميدانا للمصارعة وإذا نحن وأهل المغنى والموسيقى نتمسح حجابا نحتفى فيه ولكن كأنما كان المدعوون لا يريدون أن يضربوا أحدا الا العازلين ..

نجدونا بحياتنا ولكن لم ننج من الجروح والكدمات ضع القهوة هنا يا كوشة .. هل الماء بارد .. شكرا يا كوشة .. العجيب ياسيدى أن هذه الحادثة كانت تتكرر فى الأفراح التى ندعى إليها بطريقة منتظمة لا تخطئ .. لم تكمل حفلا أبدا . يثبت ياسيدى . وكفرت بالتفرد وكفرت بنفسى وكفرت بكل شيء الا الساء .. أتعرف ياسيدى أن فكرة الكفر بالساء لم تخالفنى أبدا .. ان عقل لا يتصور أن الساء تتركنا ، كما لا يتصور عقل أن تكون هذه الدنيا هى نهاية القصة . أنا مؤمن بالله وبالحياة الأخرى ، ولم أفقد إيمانى هذا فى أشد الأوقات حلوة

وسودا . مات أبى يا سيدى وأنا أقطع طريقى فى الفشل . وازدادت الدنيا سودا أمام عيني ولكنى لم أكفر بالله . . وفجأة قال صديقى صاحب الكمنجة إنه تعرف على شخص يستطيع أن يجعلنى أغنى وحين سألته (ولا يضربنى المستمعون) قال (ولا يضربك المستمعون) قلت (كيف ؟) قال (ستغنى فى كورس) كورس ؟؟ وأعود شخصا غير كامل مرة أخرى . . طلبت إليه ألا يذكر هذا العرض أمامى . . طلبت منه ذلك فى صلب وكبرياء ولكن قليلا مادام هذا الصلف وذلك الكبرياء . . كان أبى موظفا وكان يعولنى وهو حى ولكنه حين مات لم يترك لى شيئا الا خوفاً أن أشعر بأننى انسان لا يكتمل الا بغيره ، جعلت يا سيدى فذهبت الى صديقى ولم ينتظر أن أطلب . . يبدو أن منظرى وحده كان كافيا ، وأصبحت أحد أفراد الكورس أغنى مع غيرى ولا يتبين أحد صوتى انما صدى بين الأصدا ظل يختلط بظلال جزء على عشرة أو عشرين أو ثلاثين من انسان . . انسان لا يعرف جنسه فهو خليط من رجال ونساء وأطفال أحيانا . ولكنى لم أعد جائعا وان عدت الى شعورى بعدم الاكتمال لا يا سيدى ان قصتى لم تكتمل . . كنت يا سيدى ملزما أن أشتري بدلة سهرة . . كنت أبدو فيها أنيقا . فحين كنت أهاجر منزلى وأنا لابسها تسارع بنات الحارة الى النظر من الشبابيك وكنت أحس بالزهو فى داخل . . زهو سرعان ما يزاملنى حين أجد نفسى أكمل الانسان الظل فى الحفل . ولكن فتاة من بين أولئك الفتيات أعجبتنى وخطبتها وتزوجتها وعشنا معا سعداء أول الأمر . . لم تكن تعرف معنى أننى كورس . . لم تكن تتصور اننى جزء من ظل انسان . . حتى جاء التلفزيون فكانت ترائى فيه . . أجل اشتريت جهازا فيمن اشترى فلعلك لا تعرف يا سيدى ان مهنتى تدر على ربعا لا بأس به . . أترى السيارة التى هناك . . هى قديمة نعم . . ولكنى أملكها . . رأيت زوجتى فى التلفزيون . . رأت المهنة التى أمتنها . . سيدى عدت يوما من إحدى الحفلات فوجدت زوجتى قد غادرت البيت وحين ذهبت اليها أحول أرجاعها . . قالت أريد شخصا موجودا لا ضائعا خاليا لا يبين . . أريد انسانا لا جزءا من انسان . . ما حزننى يا سيدى . . لقد تركت أنا فترة الحزن من زمن بعيد . . انما أقص عليك لآنى لم أعد أجد حزنا فيا أقص . . لا ياسيدى أنا لست سعيدا وانما أنا قانع . . لا تصدق يا سيدى أن السعادة هى القناعة . . وانما القناعة هى الشقاء . . هى ركود يا سيدى ولكنى أرتضيه . . أرتضيه لآنى لا أملك له دفعا ولا عنه حولا . . ماذا يا سيدى ألا تنتظر عبد المنعم قاصد . . لا بد أنه قادم الآن . . لا بأس يا سيدى . . أمرك . . سأخبره بقدمك . . مع السلامة يا سيدى . . مع السلامة . . يا كوشة . . يا كوشة كم تريد . . نعم كازوذة وقهوة . . وهذه خمسة قروش لك يا كوشة شكرا يا كوشة .

رحلة

كان مكانها في الطائرة بجانبه ولم تعره الضفائا ، فقد كانت المرة الأولى التي تركب فيها طائرة ، وكان كل ما يسعى إليه ذهنها أن تقرأ ما تحفظه من القرآن : قليلا ما كانت تلجأ إلى القرآن وهكذا كان محضوها فيه يقل كلما لجأت إليه ، فهي تجهد ذهنها بحثا عن السور القصار . ويخونها ذهنها الخائف المذعور فلا تذكر الا « قل هو الله أحد » وتكمل السورة وتبحث عن غيرها فلا يقودها ذهنها إلى غير (قل هو الله أحد) فتعيدها وتعيدها ولا تقول غيرها وهو بجانبها ينظر إليها وطيف ابتسامة لطيف بغمه . وتظل هي تقرأ قل هو الله أحد حتى تجهد نفسها آخر الامر قد اطمأنت إلى تخليق الطائرة في الهواء وتفيق إلى نفسها من ذعرها وتتنظر حوالها وترى وترى الابتسامة وتوشك أن تلاحقها بابتسامة . وتتفرس فيه . فتى أسمر الوجه سمرة غير مصرية حلو الملامح ذلى العينين حليق الشعر أسوده . في وجهه ساحة وطية وحب .. حب للحياة ولكل شيء في الحياة ويتتهز فرصة نظرها إليه فيقول في انجليزية نقية :

— أخافانة أنت إلى هذا الحد ؟

وتدهش أنه عرف بخوفها على رغم جهله بالعربية فتقول :

— كيف عرفت انى خافانة ؟

— لكل دين تعاويله .

— نعم إلى خافانة .. الحقيقة أنى كنت خافانة . ولكننى الآن أشعر بالطمأنينة .

— أترى كان لما تتممين به أثر فى هذه الطمانينة .

— لا أدرى .. ولكننى الآن غير خافانة .

— أنت مصرية ؟

— نعم .

- ما هذا الذى كنت تقولينه ؟
- كلام من كتابنا .
- مسلمة أنت ؟
- نعم .
- أهذا هو القرآن ؟
- كلمات قليلة منه .
- أنا أيضا أقول كلاما حين أكون خائفا .
- من الانجيل ؟
- لست مسيحيا .
- إذن ؟
- أنا بوذى .
- من الهند أنت ؟
- نعم .
- وهل كنت خائفا ؟
- فى هذه المرة لا .. إنها ليست المرة الأولى التى أركب فيها الطائرة .
- هل خفت فى المرة الأولى ؟
- المشاعر الانسانية واحدة فى جميع أنحاء العالم ومهما تختلف الأديان .
- أنت مسافر إلى لندن ؟
- نعم وأنت ؟
- إلى لندن أيضا .
- للدراسة ؟
- نعم وأنت ؟
- للدراسة ... كنت فى أجازة وماتلدا عائلة منها .
- ألا تشعر بالغيرة فى لندن ؟
- إننى أشعر بالغيرة بمجرد بعدى عن بيتى .
- أخاف من الغربة .
- هى المرة الأولى التى تغافلين فيها أهلك ؟
- لم أبت ليلة خارج منزلى .. بل لم أبت ليلة بعيدة عن أختى .
- أظنها غير سعيدة بسفرى ؟
- مسكينة كانت تحاول أن تخفى الدموع حتى لا أراها .
- لم تحاول أسرتك أن تمنعك من السفر ؟

— حاولت أمي ولكن أبي متحرر التفكير ورأى أنني متقدمة في دراستي فلم يشأ أن يجرمني هذه الفرصة .

— وجرى الحديث .. حدثته عن أبيها وأمي وأختها وأخيها .. وحدثها عن إخوتها الثلاثة من الذكور والأربع من النساء فعرفت أسماءهم وأسماءهن وعرفت المتزوجة منهن ومن لا تزال تنتظر الزوج وعرفت ماذا يفعل إخوته من الذكور عرفت أعمالهم جميعا .. ساعة واحدة كان كل منهما يعرف كل شيء عن الآخر وجرى الحديث ونسيت الطائرة ونسيت الخوف ونسيت أباهما وأختها وأخاهما نسيتهم بالحديث عنهم .. نسيت لهفتهم في يوم سفرها ونسيت الجنز في عيني أمها والضيق في عيني أختها والشعور بالمغامرة في عيني أبيها والشوق إلى المجهول في عيني أخيها .. نسيت المشاعر التي ودعوها بها في غبار الحديث وعن حياتهم اليومية ، وفجأة اهتزت الطائرة هزة عيفة وهوم الصمت على المسافرين وعاد إليها الخوف ولم تشعر بنفسها وهي تمسك بيده في ذهول ولم تشعر أيضا بيده وهو يطبقها على يدها المرتجفة . وبعد لحظات أنبأهم صوت قائد الطائرة أنهم في خطر وأنه يحاول أن يتغلب على هذا الخطر .

ونظرت إلى جارها التي أصبح صديقها وتكلمت حينها وتكلمت حينها وساد الصمت دقائق طويلة .. طويلة .. ثم ارتفع صوت قائد الطائرة .
الطائرة .

— اقترنا من لندن .. الله معنا .

وعادت إلى « قل هو الله أحد » تقولها بقلبيها ونظرت إلى جارها ووجدته يقول كلاما لا تفهم منه شيئا . وحين لامست الطائرة أرض المطار وجدت نفسها في حضن هريش وهي ما تزال تردد « قل هو الله أحد » وحين انفصلت عنه انفجرت باكيا ضاحكة متممة بكلمات السورة الوحيدة التي أصبحت لا تحفظ غيرها .

واستمرت الصلة بينها وبين هريش حتى أصبحت تقضي كل أوقات فراغها معه . حسست في صبحته أمنا . واستطاعت برفقته أن تغلب على الغربة أغلب ساعات النهار . ولكن الوحدة كانت تغمرها فلما كليا تلقفتها الحجرة التي استأجرها لها عند أسرة صديقه .

وفي يوم سألها هريش ونظرة الحب تشع من عينيه :

— سلوى .. أريد أن أتزوجك .

— كيف ؟

— هكذا .

— ولكن ديننا يحرم الزواج بك .

— أعلم .

— وصمتت بعض الحين ولكنها ما لبثت أن وافقت على الزواج وتم الزواج على غير علم من أحد إلا الموظفين المختصين .

— ومرت الأيام وسلوى تكتب لأهلها لا تمسر أن تحبرهم بما تم في أمرها حتى كان يوم شعرت بألم في جنبها ، لم تحفل به أول الأمر ولكن الألم ازداد ولم تستطع أن تكتم أمره عن هريش . وطالعها الطيب بالحقيقة القاتلة . . المرض قاتل لا سبيل إلى التغلب عليه .

ونظرت سلوى إلى هريش وأنعمت النظر ولم تجد شيئا تقوله الا . .
— أنا أسفة . . لم أستطع أن أحقق لك السعادة التي كنت أتمنى أن أحققها لك .

ولم يستطع هريش أن يتحمل العبء وحده . وفوجئت أسرة سلوى بخطاب موقع من هريش أن ابنتهم مريضة . وظن الأب أن التوقيع لأحد زملائها ولم يفكر إلا في مرض ابنته فسرعان ما ذهب إليها في لندن . . ووجدها على فراش الموت ووجد معها هريش . وما هي الا لحظات حتى تين ما فعلته ابنته . وأوشك أن يتركها ليمود إلى القاهرة ولكن سلوى نادته في صوت واهن ضعيف :

أبي .

ووجد نفسه يقول دون ريث وتفكير .

لم أهد أباك .

الى هنا وحيدة .

— لي رجاء لا يستطيع أن يحققه لي هريش .

— لا تنطقى اسمه .

— فهو رجاء لن يحققه لي إلا أنت .

— لا أريد أن أسمع .

— أريد أن أدفن كمسلمة .

وانهار الأب الحزين باكيا . . انها مازالت مسلمة . .

— هل أشركت بالله ياسلوى . . هل أشركت بالله .

— أريد أن أدفن كما يدفن المسلمون .

فهرسة

أمسك شريف بالجريدة في لفة جاحة وراح يبحث عن نتيجة المسابقة التي تقدم إليها بكتابه الأول . وطال بحثه عن هذه الأسطر التي ينشدها حتى عثر عليها آخر الأمر . وإذا هو يجد اسم قصته يشرق في العنوان . وإنها الأولى . لقد اختيرت قصته أولى القصص على كل هذا الحشد الذي تدافع إلى المسابقة . لم تكن آماله جريئة إلى هذا الحد . إن آماله لم تحدثه يوماً أنه قد يكون الأول . لقد كانت غاية الآمال عنده أن يذكر اسمه من بين عشرة أوائل . وهو ما يزال يذكر كيف كان يردع هذه الآمال ويلزمها مكاناً قصياً في بعيد نفسه ولا يتيح لها أبداً أن تلح عليه فقد كان يخشى أن تعده بما لا تطيق الأيام تحقيقه .

ولكن ها هي ذى الأيام تهب له حقيقة قائمة لم تستطع الآمال أن ترسمها له ، أسرع شريف إلى البيت وعدا السلام عدوا حتى دخل إلى زوجته .

- سهر .
- هه شريف .
- تصوري .. تصوري .
- خيراً .
- الأولى .. ليست الثانية ولا العاشرة .. الأولى .
- من هي ؟
- قصتي الأولى .. اختاروا قصتي . الأولى .. الأولى .
- الأولى .. مبروك .. وكم سيعطونك ؟
- لا أعرف ولكنها .. الأولى .. الأولى .. تصوري .
- طيب يا أنسى تصورنا وبعد ..

- وهل فيها بعد .. الشهرة المجد .
- عظيم .. مبروك .
- ولكنك لست فرحانة .
- وماذا تريدني أن أفعل لأكون فرحانة ؟

وعندئذ أفاق شريف من فرحته .. فعلاً .. ماذا يريدنا أن تفعل لتكون فرحانة .. ومنذ متى استقبلت أضيافه بأكثر من هذا الهدوء الذي لا ينبيء عن شيء من فرح أو حزن أو أي شعور لو كانت امرأة غيرها لو كانت امرأة جياشة الشعور لطلب إليها أن ترقص .. نعم ترقص يفتل هو باب الحجرة وترقص هي ، وتقبله ، ثم تعود وترقص وتقبله دون أن تقول مبروك .. هذه المبروك الجملة العاجزة .. لو كانت امرأة أخرى لما قالتها .. كان يريدنا زوجة تستقبل معه المبروك إن ألقيت إليه ولا تقولها .. ولكن هذه هي زوجته ولن يملك لها تغييراً .. أفاق شريف إلى نفسه وإلى فرحته هذه الطفلة وعاد إلى حقيقة سنه . رجل في الثلاثين من عمره وقور الملامح ثابت التفكير يجب أحياناً أن يكون طفلاً فيجد أمامه هدوء زوجته فيعود مرة أخرى إلى سابق وقاره .

ينزل شريف إلى الشارع يبحث عن صديق يفجر أمامه فرحته ولكن إذا كانت زوجته تنكر عليه هذه الفرحة الطاغية فكيف بالصديق .. لا إنه لا يريد صديقاً .. بل صديقة .. أنثى تقفل عليها حجرة ويأخذها بين ذراعيه ويتبادلان الفرحة حيناً والحب أحياناً فيترود من ساعة اللقاء طاقة كبرى من الاشراف يلقي به هذه الحياة المعتمنة حوله .

صديقة . ومن الصديقة .. نجوى زميلته في الصحيفة التي يشتغل بها .. فكثيراً ما أبدت إعجابها بما يكتب .. ولكن نجوى .. نعم نجوى .. لا .. لا يمكن .. لقد كانت تبدي إعجابها مليئاً بالنقد والموازنة والمقاييس الفنية .. كان إعجابها منهجياً لا تبعثه الأنثى التي في نجوى بقدر ما هو صادر عن نجوى خريجة الأداب ، إن الذي ينشده ، إعجاب امرأة برجل إعجاباً ساذجاً بلا نقد ولا مقاييس ولا موازنة ولا دراسة .. يريدنا معجبة بكل ما يكتب وبالطريقة التي يكتب بها ، بل وبالطريقة التي يمك بها قلمه ويميل بها حل صفحاته .. لا .. نجوى لا تصلح .. فمن اذن ..

وفي غمرة هذا التفكير كانت سيارة شريف قد وصلت به دون أن يحس إلى الجريدة فلم يبق إلا وهو ينزل من سيارته في طريقه إلى مكتبه بالجريدة ، وحينئذ تذكر أنه لا عمل لديه بالجريدة في مثل هذه الساعة ولكن هذا لم يشه عن الدخول إلى مكتبه . فقد كان خالياً من كل عمل فرحان تتجمع فرحته في قلبه ولا يجد لها متفصلاً ، فتمنى لو يجد أي شيء يفرج عن فرحته المكبوتة تلك .. أي شيء حتى ولو كان عملاً .

وسرعان ما تحققت أمنيته .. لقد وجد على مكتبه كومة من رسائل القراء تنتظر فراح يفتحها الواحدة بعد الأخرى ، وأخذ يكتب رده على كل منها وأحاط به عمله فنتسى كل شيء عن فرحته وعن الصديقة التي يريد لها ، وعن نعيم زوجته وجهودها ، فلم يبق أمامه إلا هؤلاء الغربان الذين يعانون الآلام في حياتهم ويلجأون إليه يسألونه لها شفاء .

وفتح باب الغرفة عن فتاة حلوة تسأل في رقة وعلوية :
 - الأستاذة نجوى موجودة ؟
 ودون أن يرفع شريف عينيه إلى هذه الفتاة المطلة عليه قال :
 - لا .

فعادت الفتنة تقول :
 - ممكن أنتظرها ؟
 ودون أن يرفع نظره قال :
 - تفضل .

وراح هو في دوامة الرسائل مشغولاً عن الفتاة وعن نجوى وعن كل شيء .. ولم تمض دقائق حتى قال شريف وهو في غمرته ما يزال :

- مصيبة .. مسكين .
 فقالت الفتاة :
 - نعم ؟
 - مسكين .. لا حول ولا قوة إلا بالله .
 فقالت الفتاة :

- أتكلمني يا أستاذ ؟
 وحينئذ رفع شريف رأسه إلى الفتاة وهي تقول مرة أخرى :
 - أتكلمني ؟
 فتلعثم شريف أمام هذا الجمال الذي أهمله وقد ساءه هذا الجمود الذي عامل به الزائر فراح يقول في تردد :
 - نعم .. لا .. أقصد .. مسكين مسكين ذلك الرجل .. أقصد ..

وانفجرت في الحجرة ضحكة مدوية أعقبتها قهقهة عالية تتحدى الجريئة التي تموج بمن فيها ، وتتحدى كل أصول يضعها العرف ، ضحكة خالية متخلصة من كل شيء يعوقها ، وإنما هي تبحث عن طريق لها لتجد نفسها متفجرة في الجو حرة موحدة بهيجة بلا عراقيل ولا عوائق .

وانفتحت عينا شريف دهشاً فأصبحتا في اتساع فمه المدهول ، ولكن قليلاً ما لازمه الدهش فقد أطلق هو الآخر ضحكة عالية مقهقهة طال احتباسها في نفسه فنمت وشبت حتى أصبحت ضحكة قوية رائعة جدلانة لا يذكر أنها صدرت عنه منذ كان طفلاً .

وفي خفوت الضحك اختلط صوت شريف والفتاة وهما يقولان :

— مالك يا أستاذ ؟

— ما الذى يضحكك يا ست ؟

وعادا يضحكان مرة أخرى وراحت هى تقول بالفاظ يقطعها الضحك :

— أنا أضحك منك وأنت ؟

ونجهم وجهه فجأة وقال :

— منى .. منى أنا .. أكل هذا الضحك .. منى أنا .. أنا يا ست ؟

— نعم منك .

— هل أنا مضحك إلى هذا الحد ؟

— وأكثر .

— ولماذا ؟

— ألا تعرف ؟

— إن كان وجهى على ما أعهد فأننا لا أعرف أنه يضحك إلى هذا الحد .

— لا ليس وجهك .

— أهى ملاسنى اذن ؟

— أبداً .. أبداً .

— اذن ؟

— أتقصد أنك لا تعرف ؟

— لا أعرف فى شيئاً يضحك إلى هذا الحد ..

— أفهم من هذا أنك لم تحس أنك كنت تكلم نفسك .

— ماذا قلت لنفسى ؟

وراحت تقلد صوته وهى تقول :

— مسكين .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

— أهذا يضحك ؟

— وهل يمكن ألا أضحك ؟

— ألم تقدرى أننى أقرأ شيئاً يستدعى الشفقة .. أكل ما أمك من الأمر أننى كنت أكلم

نفسى .. ألم تفكرى لحظة قبل أن تضحكى فى هذا الذى كنت أقرأ خطابه .

— يبدو أنك تريد أن قلبها إلى نكد .
— قولى لى يا آنسة .. هل عرفت النكد طوال عمرك ؟
— يا أخى افرجها .. ألا تعرف أنت الفرح .
— الفرح ..

وعاد إلى فرحته الحبيسة ونظر إلى الفتاة الفاتنة ولاحظ فتنتها لأول مرة .. ولكنه لم يحس نفسه مأخوذاً بجمالها .. أحس فيها شيئاً يمنعه أن يعجب بها وعادت تقول :
— ألا تعرف الفرح ؟
ونظر إليها ملياً ثم وضع الخطابات فى درج مكتبه وقال فى جد :
— عن اذنك .

وخرج من الغرفة .. يعمل فى نفسه فرحته الحبيسة وآلام القراء وضحك الفتاة وجمالها الذى لم يذهله تحتلط المعانى والصور جميعها فى نفسه فلا يكاد يفكر فى شيء حتى يشب آخر إلى سطح تفكيره ، ولكن فكرة الفرح الحبيس كانت أقوى هذه المعانى فى نفسه .. لماذا لم تفرح زوجته معه .. لماذا .. وركب وفكر فى القصة التى فازت .. إنها عن الحب الزوجى .. عن الحياة الحلوة فى ظل الزوجية .. كلام قصاصين .. من يقرأ قصته يظنه أسعد زوج فى العالم .. كلا .. نعم إن زوجتى لا بأس بها .. فهى تحبى وأحبها ولكن لماذا لا تتشئى معى حين أكون سعيداً .. ولماذا لا أرى الشقاء كاملاً على وجهها حين أكون نكساً .. لماذا .. أكنت أحب أن أرى الشقاء على وجهها حين أنا نكس ؟ إذن فتعاسى حيثل تعاستان ، بؤسى بؤسان ، ولكنى أحب أن أراها طائرة من الفرح إذا سعدت .. ولكن لماذا لا أنخدع أنا بكامن الفرح فى نفسها .. أنا فرحان لماذا لا أدعوها الليلة إلى العشاء فى الخارج ثم نذهب معاً إلى السينما أو إلى الهواء فى الهرم .. أو إلى أى مكان .. وبلغ بيته ودخل إلى البهو وكانت زوجته بجانب التليفون وراها وهى تضع الساعة دون أن تتكلم وسألها :

— ماذا .. لماذا وضعت الساعة ؟

— النمرة مشغولة .

— آه ..

وتركها ودخل إلى حجراته دون أن يدعوها إلى شيء .. لماذا .. لا يدرى .. استلقى على السرير وراح يفكر مرة أخرى .. إنه فرحان .. وراح يفكر أيضاً أنه لم يقدم إلى نفسه شيئاً يشعرها به أنه فرحان ، وجاءه صوت قرص التليفون وهو يستدير ثم صوت زوجته وكأنه يهيم فأصاخ السمع :

— ألونينا .. أطلبك من ساعة مع من كنت تتكلمين .. أنا .. كنت أكلم صاحباتى ..
لا عليك .. تصورى .. تصورى يا نينا .. شريف طلع الأول فى مسابقة القصة أنا فرحانة

جداً يا نينا .. أنا فخورة به .. لا .. المسألة ليست مسألة فلوس .. إنما أنا فرحانة ..
لماذا .. لماذا كيف .. لأنه فرحان .. و لأنه فنان .. ولأنه زوجي أنا فرحانة يا نينا .
وأحسن شريف لأول مرة منذ طالع الجريدة أن فرحته قد أفرج عنها وأنها موجودة وأنه سعيد
وأنه أسعد انسان في العالم .. وفي صوت يرتعش بالنشوة نادى من غرفة النوم ..

- سهير .

وقالت سهير دون أن تبين في صوتها نبرة خاصة .

- هـه .

- الليلة نتعشى في سميراميس في السطح .. ونذهب بعد ذلك إلى الفيلم الذي قلت لي

عليه .

تقرير الطبيب

دخل الشيخ حمادة الطبيب إلى ساحة داره ونادى فى حزم :

— محمود .. يا محمود .

وسرعان ما جاء محمود يجيب نداء أبيه :

— نعم يا بابا .

— تجهز للسفر .

— ماذا يا بابا ؟

— سنسافر باكر لمصر لاشترى لك ملابس الأزهر وأشوف لك مكاناً تسكن فيه .

— باكر يا بابا ؟

— نعم باكر .

ووجم محمود لحظات وقال الأب وقد أوشك صبره أن ينفد :

— مالك .. ألم تكن تعرف أنك ستسافر ؟

— يا بابا أنا لا أريد أن أسافر .

— لماذا يا ولد ؟

— يا بابا .. أنا لا أريد أن أسافر .

— ستسافر غصباً عنك .

وأطرق محمود إلى الأرض ودون أن يحس تسلفت دمعات من عينيه جاهد أن يخفيها فتأبث عليه وراحت تسيل ، ودخلت أمه وهالها أن ترى وحيدها يبكى هذا البكاء الصامت العميق فدقت صدرها وقالت :

— ماذا يا بابا محمود .. ماذا فعلت للولد ؟

- أريده أن يسافر إلى الأزهر .
- وماله يا محمود .. ولماذا لا تريد أن تسافر ؟
- وراحت تربت ظهره في حنان .
- يا أم أريد أن أبقى هنا .
- لماذا يا بني .. العلام حلو .
- يا أم أريد أن أبقى مع ..
- ولم يكمل الجملة واستحثه أبوه في صوت يجمع الحنان إلى الحزم .
- مع من يا ولد ؟
- ودون ريث تفكير انطلق محمود قائلاً :
- مع صاحبي عبد الواحد .
- وقال الأب في غضب فقد كان يرغب ابنه في البقاء معه هو أو مع أمه على الأقل :
- مع من يا ولد ؟
- مع صاحبي عبد الواحد .
- عبد الواحد ابن الشيخ سالم ؟
- نعم .
- وكثرت الدموع حتى أصبح الصمت لا يسمعها فإذا محمود ينشق عن بكاء علني من العبيث أن يحاول إخفائه .. وراح الحاج حماده يضرب كفاً بكف وخرج وهو يقول :
- لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله .
- وراحت الأم تهديء نائفة وحيدتها في حذب وإشفاق ولكن البكاء كان يزيد كلما تذكر أنهما لن يسيرا معاً عبر الحقول ، ولن يخوضا الماء معاً ، لا ولن يركبا النورج ، ولن يطلعا الشمس عند بكورها ولن يودعاها عند الغروب ، لن يرى عبد الواحد .. ويزداد البكاء .
- ويذهب الشيخ حماده إلى حيث تعود أن يجلس في كل يوم هناك على مصطبة العمدة وما يكاد يجلس حتى يقبل إليه الشيخ سالم عوضين أبو عبد الواحد فما أن رآه حتى يتسم له قائلاً :
- تعال يا سيدى .
- ويحس الشيخ سالم أن في صدر الشيخ حماده شيئاً يخفيه .
- خير ؟
- ابنك عمل لنا إشكالاً اليوم في البيت .
- لماذا ؟
- تركت الولد ابني يبكي بكاء يفتت القلوب .
- لماذا .. إنها أصحاب لا يفترقان .

- وهذا هو السبب .
 - لا أفهم .
 - الولد محمود لا يريد أن يترك عبد الواحد ويذهب إلى الأزهر .
 - ماذا ؟
 - هذا ما حصل .
 - الله يجازيه .. وماذا فعلت ؟
 - أنا والله حائر .
 - لا حيرة ولا غيره إن شاء الله .
 - أعندك حل ؟
 - أحسن حل .
 - ماذا ؟
 - متى تريد أن تصحب محمود إلى الأزهر ؟
 - باكر إن شاء الله .
 - تصحب محمود وعبد الواحد على بركة الله .
 - هل أنت جاد يا شيخ سالم ؟
 - كل الجدد يا شيخ حماده .. يذهبون معك إلى الأزهر باكر إن شاء الله .
- وهكذا يذهب عبد الواحد إلى الأزهر مع محمود .. ويسكنان معاً في غرفة واحدة ويتلقيان علومهما على شيخ واحد . وتتحد بينهما الحياة في كل دقيقة تمر بهما من دقائق الحياة . ويقضيان في الأزهر الشريف سنوات طويلة ويعجز كلاهما أن يبلغ شيئاً من الشهادات الأزهر العليا فيعودان معاً إلى القرية يصحبان عجزهما هذا ويصحبان أيضاً عامتين لا يتنازلان عنهما ويحملان لقباً لا يفارقهما . هو الشيخ محمود والشيخ عبد الواحد .
- ويختار الله الشيخ سالم إلى جواره فيصبح الشيخ عبد الواحد هو القيم على شئون بيت أبيه وعلى أخته نعمات .
- ومر عام ويسمع الشيخ عبد الواحد وهو في قاعة بيته صوتاً عرفه لتوه .
- يا سائر .
 - وينفض إلى الباب .
 - يا مرحباً بالشيخ محمود .. يا أهلاً وسهلاً .
 - ويدخل محمود إلى القاعة ويتخذ مجلسه .
 - كيف حالك يا شيخ عبد الواحد .
 - الحمد لله يا شيخ محمود .

- رحنا الأزهر وجئنا فما أحضرنا معنا إلا الشيخ محمود والشيخ عبد الواحد .
- ويقول عبد الواحد وهو يغالب الضحك :
- أبى وأبوك حصلا على المشيخة دون أن يهرجا القرية . وحين يبدأ بها الضحك تبدو على وجه محمود علامات جد ويقول :
- جئت إليك فى أهم شىء فى حياتى .
- حياتك هى حياتى يا محمود .
- الصداقة التى بيننا ليست كافية .
- قل ما تشاء .. وإن كنت أراها فوق الكفاية .
- أريد أن تصبح قرابة .
- هى أقوى من القرابة .
- ولكنى أريدها قرابة .
- يتهاى لى أن فهمت .
- أنت ذكى منذ نحن أطفال صغار .
- تريد أن تحطب نيمات .
- هو ذاك .
- هى لك .
- لا .. أبدا .
- ماذا ؟
- كنت أعلم أنك ستوافق ولكن يهمنى رأيها هى .
- أتصنى لى أمراً ؟
- أنا لا أريد منك أن تأمرها .. أريدك أن تسألها .
- وهو كذلك .
- أمر عليك باكراً .
- أبداً والله .. لا تخرج إلا وأنت خطيبها .
- يا رجل اتق الله .. إنى أريدها أن تفكر فى الأمر .
- فهم تفكر؟ إنك من أغنى أبناء النوافة
- الأهم من ذلك أنى صديق عمرك يا عبد الواحد .
- إذن فانتظر حتى أسألك .
- أمسرك .

ولا يخرج الشيخ محمود إلا وقد قرأ الفاتحة مع عبد الواحد على أن يزوجه أخته التى وافقت دون أن تفكر فكأنها كانت تحس بغريزة المرأة أن مصيرها المحتوم هو الشيخ محمود .

ويتم الزواج بعد أسابيع قلائل وتبدأ الأيام رحلة جديدة مع الشيخ محمود وزوجته نعمات .

أيام عقيمة .. يمر الشهر وتليه الشهور ونعمات لا تبشر زوجها بما يبشر به الزوجات أزواجهن .. ويموت الشيخ حامده فينشغل الشيخ محمود بموت أبيه وبالتركة عن الإنجاب . ولكن الزمان واسع وحادثة الوفاة لا تلتهم منه إلا شهراً أو شهرين ثم يتسع الزمان مرة أخرى أمام عيني محمود .. يتسع عن فراغ .. فراغ قاتل .. لا ولد سيموت هو أيضاً بعد حين .. طال هذا الحين أو قصر .. ويومئذ لا ولد .. لن يذكر الشيخ محمود أحد كأنما لم يكن .

لا يجد بدا من أن يذهب إلى القاهرة وهناك يمر بالأطباء جميعاً ويبدل المال عن غدق ولكن المال لا يجدي كما لا يفلح الأطباء والسنوات تغول العمر ويمر الشباب وتتخطر الكهولة إلى الشيخ محمود في رداثها الأبيض الباهت وينظر الرجل إلى ما فاتته من عمره وما بقى منه فتروعه النظرة ، لن يبقى له قدر ما فات .

وينظر إلى زوجته .. طيبة هي حنون لا تعصى له أمراً ولا تناقش له رأياً ولكنها عقيم .. أو لعله هو العقيم .. لا يدري إنما المؤكد أن زواجهما عقيم ويأتى إليه يوماً الشيخ عبد الواحد ..

— محمود .. لقد أطلت البحث عند الأطباء .

— أمر الله يا عبد الواحد .

— تزوج من أخرى .

— على نعمات .. على أختك .. أموت ولا أفعل هذا .

— أنا الذى أطلب هذا .

— والله وإن طلبت نعمات نفسها .

— لقد وافقت .

— أقلت لها ؟

— نعم .

جزاك الله .. لقد روعتها بغير داع .. والله لن يكون هذا أبداً .. لا والله لن يكون هذا .. أنا والله لا أدري إن كنت أنا العقيم أم هي ، وما كنت لأتزوج وأختك في بيتي أبداً .. انك حياتي كلها يا عبد الواحد .. ولو لم أكن أعرف أنني سأكرم أختك حتى يختارنا الله ما تزوجتها .

ويرفض الشيخ محمود رفضاً قاطعاً وتمر السنون . ويدرك الشيخ محمود أن لا أمل إلا أن يكثر من اصطحابها إلى القاهرة وينزل بها في أفخر الفنادق وينفق عن سعة فإذا قصر المال الناتج عن الأرض باع بعض أرضه وأنفق وعاشا سنوات في بحبوحة وهناء .

حتى خطر لها يوما أن يحجا إلى بيت الله . . وكان هو يفكر في شيء آخر . . كان يفكر أن يبيع البقية الباقية من الأرض وينفق منها ما بقى لها من سنوات ثم يترك لها الباقي عند وفاته مالا في يدها حتى لا يشاركها في الميراث أحد من قرابته وحتى لا تضطر إلى الإشراف على الأرض وهي السيدة التي لم تمارس الحياة ولا أعمال الرجال ،

واستطاع الشيخ محمود أن يبيع أرضه بسبعة آلاف جنيه وقدر في نفسه أنه إذا عاش بعد ذلك عشر سنوات فقد يكفيه خمسمائة جنيه في العام ويترك لزوجته ألفي جنيه في رعاية أضيها لها وماتركه لها أبوها من ميراث قليل .

وحين أخبر زوجته بتفكيره هذا قالت له :

— لا أريد إلا أن أحج إلى بيت الله الكريم معك .

وابتهجت نفسه للفكرة .

— نجح هذا العام على بركة الله .

وجهر للحج أمره . . ولم يفكر أين يدع مبلغه في البنك أو في الخزائن وعنده عبد الواحد ،

أودع المبلغ جميعه عند عبد الواحد وقال عبد الواحد :

— أعطيك ورقة .

— هل جئت ؟

وانتهى الأمر عند هذا وسافر هو ونعمات إلى الحجاز وعادا وأقبل عبد الواحد .

— الحمد لله على السلامة يا حاج .

ويقول الحاج محمود :

— سبقتك إلى هذه يا شيخ عبد الواحد . . العقبى لك العام القادم . . ان شاء الله .

— وينصرف المهتتون ويصم عبد الواحد بالقيام ولكن محمود يستبقه حتى إذا خلت بهما

الحجرة قال له :

— عبد الواحد . . هل المبلغ عندك في البيت ؟

وينظر إليه عبد الواحد مليا .

— المبلغ . . أى مبلغ ؟

ويصمت محمود لحظة ثم يتسم .

— أتمزح . . ؟

وأصر عبد الواحد على نظراته الجريئة .

— بل تخيل إلى أنك أنت الذى تمزح .

وصمت محمود . . لقد عاش عمره كريما على نفسه وعلى الناس . ماذا يفعل الآن . . هل

يستجلى ماذا يفعل . . الآن . انه أصبح وهو لا يملك شيئا على الإطلاق . . حتى الصحة . .

وأين الصحة لمن ترك وراء الستين .. لا شيء لا شيء على الإطلاق .. لم يكن له إلا هذا المال وهذا الصديق وقد فقدتهما في لحظة .. أغمض عيني وفتحتهما .. إنه ليس حلما .. ما زال عبد الواحد أمامه بنظراته الخائنة المصرة على الخيانة .. ورأى نفسه يمر ببيوت الناس يقول :

إحسانا لله .

وأغمض عيني ثانية وحين حاول أن يفتحهما لم يفتحا ولكنه مهمم .

— المبلغ يا عبد الواحد .. ألا تعرف المبلغ ؟

— أى مبلغ يا محمود .. هل جنت ؟

ويحاول أن يقول شيئا .. فيخونه لسانه أن يقول ثم لا يشعر بشيء .. وبعد لحظات يمد عبد الواحد إليه يدا مرتشعة ويحس نبضه .. لقد مات .. ولا يدري من أين انبعث هذا الصوت الذى جاءه يقول له فى لهجة تقريرية حاسمة « قتلته » .

ويقول هو دون أن يحس ولكن بلا سلاح وبعد حين يأتى الطبيب الشرعى ويفحص الجثة ويكتب تقريره « وفاة نتيجة أزمة قلبية » ويصرح بالدفن فليس فى الأمر جريمة .. لا ليس فى الأمر جريمة .



رضوان أفندي

وبدأت الأجازة الصيفية حيث تنداح الأيام في غمار الزمن فلا ينفصل يوم عن يوم ولا ساعة عن ساعة وإنما هو فراغ طويل يفغر فاما خفيفا يرسل الملل والضيق والسأم .

لم يعد يهمنى ماذا يكون اليوم أهو السبت فأصحو في باكر الصباح أم هو الاثنين فأتند قليلا عند اليقظة وأتقلب في راحة وسرور فوق السرير فما يبدأ يومى في المدرسة الا بعد الحصّة الثانية . ولم يعد يهمنى إن كان اليوم الأربعاء فأتقلب مرة واحدة أو مرتين على الأكثر فقد كان لا بد في العام الدراسى المنقضى أن أكون في المدرسة بعد الحصّة الأولى .

وما أفكر الآن في يوم الخميس لأهوى سهرق مع أصدقائى حول الراديو لأتبع لنفسى أن أنام في يوم الجمعة حتى يحين موعد الصلاة . تشابهت الآن الأيام ، فكلها جمع ، فما عاد السهر يحلو لى وما عدت أستمتع بنومى في يوم الجمعة . الأيام جميعها جمع .

بل إنها خالية حتى من فرض الصلاة الجامعة . أصبح يوم الجمعة هو أكثر أيامى مشغولية . وأصبحت الأيام الأخرى فضاء . ما عدا التفكير الذى يسيطر على اليوم .

لقد كنت فيما مضى من أعوام أهفو إلى هذه الأجازة وأرنو إلى أيامها المقبلة في ضمير الزمن بعين مترقبة ونفس متشوقة وروح مشوقة . ماذا حدث للأيام . أتراها تغيرت أم ترائى أنا الذى تغيرت . كنت قبل زواجى مقبلا على أيام الفراغ لأقضيهامع زوجتى . . ومرت الأيام فاكتملت شهور واكتملت الشهور سنين . . فهالى لا أجلس مع زوجتى .

عاقرة هى . . ما أبغض المرأة العاقرة إلى قلبى . . شجرة لا تثبت ولا تخضر سائرة إلى الجفاف بلا ربيع لها . . لا تتجدد ولا تتجدد الحياة فيها ، فالحياة حولها طريق إلى النهاية ، طريق لا ينيره أمل من طفل ولا ابتسامة من طفلة ولا وعد من الحياة إن لى في الحياة من بعدى

وجودا من اطفالى ، أنا جلورهم ، وهم الفروع مثلها كنت فرعا لجلور من قبل . . إننى بزوجنى العاقر قد أوفت الحياة ، لن تتجدد وتسير وتزدهر ، كأتى كتبت على هذا الجزء الذى أمثله من الحياة « ينتهى بانتهاء صاحبه » أنا فى الحياة فناء ، أنا نهاية شجرة بدأها آدم ورعاها أجدادى على مر الأجيال فهى قائمة مزهرة منتجة باقية حتى إذا بلغتنى توقفت عن الازدهار والتجديد فهى إلى الفناء تجف كلها مر بها يوم ، لا نماء لها ولا أمل فى النماء . . لا أمل ؟ ألا أمل هناك . . وهب زوجنى عاقرا فهل أنا أيضا عاقر . . فإذا لم أكن فكيف أقبل أن أشارك معها فى انتهاء الحياة . . فى توقفها كيف أقبل أن أمثل النهاية فى عالم يتجدد فى كل لحظة ببدايات جديدة مع أطفال جدد سيكبرون فى غد ويصبحون جذورا جديدة للحياة ، لا لن أكون هذه النهاية . مسكينة زوجتى لقد خلق فيها عقمها نوعا من الغيرة الطاحنة . لا أنسى يوم جاءتنى فوقية والدلة شحاته عبد الموجود ترجونى أن أعطى درسا لابنها اليتيم .

لا أنسى يومذاك حين انتفضت زوجتى فاطمة عن ثورة مشبوبة لاهية :

— امرأة بلا زوج . . ألا تستحى ؟

— زوجها مات .

— ترسل أخاها .

— ولماذا يأتى . . لقد جاءت إلى فى بيتى وكلمتنى أمامك وسألت عنك قبل أن تسأل

عنى .

— طبعا . . تدافع عنها . . امرأة بلا زوج وحلوة . . وليست عقيما . . لماذا لا تدافع

عنها . . طبعا .

— يأتى أبدا .

— طبعا . أنا عارفه حظى . . بخفى مائل طول عمرى .

ويكاه وصراخ وضجيج ووجه استمر متقبضا فى غير انفراج أياما عديدة لم أعد أذكر عددها . ماذا تراها فاعلة . . علمت بما أفكر فيه . . ولم لا . . لماذا لا أتزوج . . أجدد الحياة . . لو كان عندى الآن ولد لما ضقت بالأيام الفارغة . . كنت أجلس إليه ألاعبه وأفرح به مبتسما ضاحكا بل وأفرح به عابسا باكيا وأنشغل . . ويملكنى القلق إذا ما مرض . . إن لأحسد الأب حين يقلق على ابنه المريض . . انه يقلقه بشعر بالحياة . . بالحياة جميعها . . ويأخذ بهير ويملكه الخوف ويتجه إلى الله وإلى الطبيب وإلى الصلاة وإلى الدواء . . ولا ينام الا نوما يتخلطفه الجسم المتعب من الروح الهالعة خطفا لا يطول فهو إغفاءة ثم يصحو مفزعا فى إغفائه ويقظته وتقر الأيام فإذا طفله يتأثل للشفاء . . وتهدأ الروح وينام الجسم نوما مفعيا بالحياة . . هذه هى الحياة . . حتى الخوف والقلق والرعب مشاعر حلوة عند الآباء يذكرونها إذا ما انحسر الخطر فى هدوء قدير وحديث ناعم حنون . لماذا أحرم نفسى من هذا جميعه . . الآن زوجتى عاقر . .

لهالى لا أتزوج غيرها . وأبقياها وماذا على أن أفعل . فى القرية كثيرون يتزوجون الزوجة الثانية دون أن تكون زوجاتهم عاقرات .

ولم يصبر رضوان أفندى حسين طويلا . . ولم يترك الزمن يراود الفكرة فى ذهنه . . وإنما سرعان ما اقتنع بها دون ريث أو تدبير . . وقام إلى بيت عباس فرغل وما أن تبادلا التحية حتى سارع رضوان قائلا :

- جئت أخطب أختك هنية يا عباس .
- وقال عباس مندهشا .
- خادمته يا سى رضوان أفندى ولكن . .
- ولكن ماذا ؟
- أنت سيد العارفين .
- الآننى متزوج ؟
- طول عمرك ذكى وتفهم يا سى رضوان .
- يا سى عباس . . الحال من بعضه . . وهى أيضا ألم تكن متزوجة ؟
- أنا لا أقصد .
- فإذا تقصد ؟
- لا أريد أن أغضب الست فاطمة .
- ليس فى الحلال ما يغضب يا عباس .
- زوجتك ست كريمة وطيبة .
- أريد أطفالا يا عباس .
- يا سى رضوان أنت متعلم وتفهم . . كيف عرفت ان أختى ستهب لك الأطفال وكيف عرفت أنك ستكون سعيدا بهم .
- الذى أعرفه أننى لابد أن أحاول . . والذى أعرفه أيضا أنى لست سعيدا بدون أطفال .
- ربنا يكفيك شرهم .
- زينة الحياة الدنيا .
- ويجعل من يشاء حقيبا يا سى رضوان أفندى .
- أريد أن أحاول .
- فإذا لم تنجب أختى يا سى عباس تطلقها ؟
- تكون مشيئة الله تمت وأمره لا مرد له .
- وإذا أنجبت لك الست فاطمة ؟
- وهل هذا معقول ؟

- معنى إن حصل ؟
 - لا يا شيخ لا تخرف .. على كل حال ستبقى هنية على ذمى .
 - وهو كذلك توكلنا على الله .
- ويتم الزواج ويظل سرا على فاطمة ولكن ما أقل ما يظل السر سرا .. سرعان ما يذيع وتعلم فاطمة فهي فى حريق .. يلهب كيانها جميعا .. ويحاول أن تكتم ما بها كلما رأت زوجها ولكن دموعها تخونها فهي تتساقط فى صمت .. ويصبح بها زوجها :
- اصرغى .. اصرغى كما كنت تصرخين .
 وتقول والدموع تتساقط توشك أن تكون حمراء فى لون النار :
 - لا يفيد الصراخ الآن .. أمر الله .. أمر الله ..
 ويروح يلىء خاطرها .
 - ليس فى القلب غيرك .
 - لا تقل هذا .. فهو أشد على نفسى وقعا .
 - أحبك والله يا فاطمة .. أحبك كما كنت أحبك منذ تزوجتك .
 - ولم تستطع أن تضحى من أجل .. وتفجعى بفسرة لا تدرى إن كانت ستلد لك أم لا وتفجعى من أجل أطفال لا تعرف شكلهم ولا تعرف ماذا سيفعلون .. ان هم كبوا ، لا تقل انك تحبى .. لا تقل .
- وكان إذا ذهب إلى هنية وجدها فى جزع أخذ ألا تلده هى الأخرى فنتهى حياتها مع زوجها رضوان أئندى الذى رفع مكانها فى القرية ، وجعلها ست بيت لا تملأ الجرار ولا تذهب إلى الغيط .
- وهكذا لم يعد رضوان جازعا من الفراغ أو الملل فقد ملأت مشكلات زوجتيه حياته بل أصبح فى حاجة إلى وقت آخر من الزمن ليواجه هذا الشغل الذى فرضه على نفسه فرضا .
 ولا يتبقى وقت طويل حتى تنقطع الدموع عن عيني فاطمة وإن كان الجزع يزداد إحاطة بهنية .. ويعجب رضوان بعض الشيء ولكنه لا يعلق على الأمر كثير أهمية .. وإن كانت آماله فى إنجاب طفل أخذت تنهات وتضعف وتوشك أن تضمحل .. ويمر وقت آخر وتقول له فاطمة :
- رضوان .
 - نعم .
 - أريد أن أذهب إلى الطبيب .
 - أى طبيب تريد ؟

— ذلك الطبيب الذى صحبته إلى ليعالجنى من العقم .
 — ماذا .. أبك مرض ؟
 — لا ولكنى أشك فى شيء وأريد أن أتأكد منه .
 — ويذهل رضوان ويحملك فيها بعينين مأخوذتين .. فاطمة وليست هنية وينظر ويتنظر ثم يقول :

— هل أنت متأكدة ؟
 — لو كنت متأكدة ما طلبت أن أذهب إلى الطبيب .
 — تذهين .. اليوم تذهين .

وحين خرجا من عند الطبيب لم تقل فاطمة شيئا وإنما تركت رضوان للدوامة التى ألقاه فيها .. انها حامل .. لا يدري رضوان ان كان يفرح أم يحجل .. ماذا يقول لها .. كيف يفرح .. ماذا يقول لهنية .. هل تبقى على ذمته .. وما ذنبها .. وما كان ذنب فاطمة .. أى جرم فعلت .. أى جرم فعلت .. ويظل رضوان فى دوامة من الحجل يشوبها الفرح حتى يصل فاطمة إلى البيت وينقتل هو إلى الفضاء ليخلو إلى نفسه الحائرة التى لا تكاد تصدق ما وقع .

وتكتمل شهور الحمل .. وتضع فاطمة طفلها الأول ويسميه أبوه إبراهيم تيمنا بإبراهيم ابن النبی وقر الأيام وتكتمل الشهور سنين ولا ينجب رضوان من زوجته غير وحيدته إبراهيم .

وفى يوم يمرض إبراهيم ويسارع رضوان بولده إلى الطبيب ويعالجه الطبيب فلا يفلح العلاج ويتركه إلى الطبيب آخر والهلع يقتلع قلبه من بين ضلوعه .. لا .. ليس القلق على الولد حياة لا ولا هو موت انه شيء أشد بشاعة من كل شيء .. لا شيء يماثل هذا الهلع .. لا شيء مثل هذا الخوف .. انه شر من كل شعور .. ما أحل العقم بالنسبة إلى هذا الخوف .. بل ما أحل ألا نوجد على الإطلاق ولا نلتقى بهذا الدعر .

ويلجأ رضوان إلى الطبيب وإلى الله وإلى الدواء وإلى الدعاء .. ولكن الله كان قد أعد لإبراهيم مكانا فى الجنة .

وحين عاد رضوان من وداع ابنه الاخير .. وكان اليوم الأول من الأجازة .. كانت الدموع تملأ عينيه فى إصرار فهى تثب اليها كليما جففها .. لم يجلس رضوان إلى الفراغ ولم يفكر فى الأجازة .. وكل ما كان يفكر فيه هو فاطمة .. إذ أنجبت له ولنفسه الشقاء .. ما كان أسعدها قبل أن يمضى إبراهيم .. ويدخل إليها وهى فى حزنها القاتل .

— فاطمة .. أنا آسف .
 — الآن .

- لم أقلها الا اليوم . . لم أقلها حين تزوجت ولم أقلها حين بشرك الطيب يبراهيم أما الآن فلا أجد غيرها . . أتراها تكفى ؟
- أتراها أنت تكفى ؟
- لا أملك غيرها .
- حسنا الله ونعم الوكيل .
- وفي نسيج عال صاحب يقتطع من فلذات القلب اقتطاعا قال رضوان :
- حسنا الله ونعم الوكيل .

لأنه يحبها

وقف حسن عبد الفتاح أمام باب كلية الحقوق ينتظر وزملاؤه نتيجة اليسانس . لم يكن يحس بأحد حوله . انفصل كيانه عن المجموع المتزاحمة فهو فرد في نفسه وفي آماله وفي مخاوفه لا يحس الا هذا الوجيب الأخذ الذي يبرز جسمه هذا . . . أنجاح فانطلاق إلى الحياة بكل ما في الحياة من حلاوة الكفاح ؟ فما كان يرى في النجاح والانطلاق إلى الحياة الا الحلاوة . أم سقوط فهو تلميذ سيظل . وهو حيثل سيعود إلى أمه كسيف البال مخلولا يخاف من غضبها خوفا قد يطغى على حزنه من السقوط . ان تفكيره في أمه يمازج تفكيره في النتيجة فهو حينما يفكر في المواد مادة مادة ويذكر كيف أجاب في كل مادة منها وهو أحيانا كثيرة يفكر في أمه كيف قامت على شأنه بعد موت أبيه وكيف بذلت له من دعائها ومالها وجهدها حتى جعلته يصل إلى نهاية المرحلة العالية من التعليم .

لقد قامت بواجبها نحوه . بل بذلت أكثر من واجبها فكم يمضه أن يقصر هو عن واجبه . كان إرضاء أمه أساسا تقوم عليه حياته جميعا فقد كان يرى نفسه نفحة من جهودها وقبسة من دعائها ، بل كان يرى نفسه أملها الضخم الذي عاشت له وبه سنوات طويلة ثمينة شابة من حياتها .

وفي ظلال هذه المشاعر عاشت حياته جميعها ؟ أحب . أحب بكل ما في الحب من نبض جياش وبكل ما في الشباب من اندفاع وقوة . أحب زميلته في الكلية الهام . ولكن أمه عرفت بحبه وقالت لا . فإذا نبض الحب يصبح نبضا خائفا هالعا أن يقضب أمه . وإذا هو يتعبد عن حبيبته مذعورا ويعود إلى طاعة أمه راضيا بها عن كل ما في الحب الشاب من أحلام وآمال ورؤى .

وها هو ذا اليوم ينتظر نتيجة اللسانس . تلك الشهادة التي جاهدت أمه في سبيلها أكثر ما جاهد هو . . انه يريد الشهادة ليذهب إلى أمه ويعلن اليها أن جهودها قد كللتها النجاح . . وينطلق إلى الحياة . . كان في البعيد البعيد من نفسه يخيل اليه أن هذه النتيجة التي ستعلن الآن ستحصل في طواياها معنى آخر غير معنى النجاح . . إنها ستجعل له قرار الافراج عنه من سيطرة أمه . . شعور يخامر ولا تعلنه نفسه إلى نفسه . كأنما كان يريد أن يقول لها في غير ألفاظ . لقد جاهدت لأحصل على الشهادة فهل تكفيك الشهادة مكافأة على جهادك . وكأنما كان ينتظر أن تقول أمه في غير ألفاظ هي أيضا لقد صرت رجلا فافعل ما بذاك ، آمال تهجس في الخوافي البعيدة من نفسه وهو واقف بباب الكلية عنه لا ترتفع عن الباب الكبير ينتظر أن يخرج منه الموظف المختص ليعلق أساء الناجحين على تلك اللوحة المائلة بجوار الباب ، التي قدر لها أن تحمل أغلى ما يطمح اليه جميع هؤلاء الواقفين في لحظتهم تلك . هذه اللوحة الكالحة ستحدد مصير كل فرد منهم وعينا حسن عبد الفتاح شاخصة إلى الباب الكبير والباب صامت لا يبين عن أحد .

وأخيرا ظهر الموظف ويده الأوراق . وبعد محاولات عسيرة وقعت عينا حسن على اسمه بين الناجحين . ولم يحس بنفسه الا وهو واقف أمام أمه يخبرها وعينا توجان بالدموع . . « لقد نجحت » .

وفرحت الأم . . ولكنه لم يجد عندها ما كان يتوقعه من فرح ، كانت واثقة من نجاحه كأنما كان نجاحه أمرا تصنعه بيديها فهي واثقة من نتيجته ، وقد أكد هذا المعنى في نفسه أنه وجدها قد أعدت له الوظيفة دون أن تسأله عن الاتجاه الذي يريد أن يشقه في الحياة ، وخيل اليه أنه قبل الوظيفة يستطيع أن ينعم بحريته من ربة أمه فهو يقبل الوظيفة في غير مناقشة ويصبح موظفا .

ولا يمضي كثير وقت حتى تفاجئه أمه :

- حسن .
- نعم يائينا .
- لقد خطبت لك .
- ماذا ؟
- سناء بنت عمك على أبو العلا .
- تقصدين بنت صديقتك شريفة هانم ؟
- مارأيك ؟
- أتسألين عن رأيي حقيقة ؟
- طبعا .

— أتسألين عن رأيي بعد أن تخطي؟

— انت حر .

— أنا حر ؟

— طبعا .

— فانا لا أريدها .

— ماذا ؟

— أنا لا أريدها .

— لماذا ؟

— لأنى لا أريدها .

— ولكنى أريدها .

— إنه أنا الذى سيتزوج .

— ولكنى أمك .

— هذا شيء لا يمكن أن أنساه .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أنه لا فائدة . . فسواء عندك وافقت أم رفضت .

— تعنى انك موافق .

— أمرك .

وما هى إلا أيام حتى يتم كتب الكتاب وما هى إلا أيام أخرى حتى يحل يوم الزواج ويترك حسن البيت ويخرج إلى الطريق . فى هذه المرة لم تكف أمه أن تفرض سيطرتها عليه ولكنها فرضتها بقوة وعنف على فتاة لا تمت لها بصلة . ما ذنب هذه الفتاة . . كيف يتزوج من فتاة لا تحبه ولا يحبها . انها أمه . . ماذا يصنع ، وماذا يصنع قبل اليوم إنه هو ، هو لم يتغير ولم تتغير أمه . ويحول فى الطرقات يسلمه شارع إلى شارع ورأسه يهوى بالسخط والضيق بلا أمل على الإطلاق .

ويعود إلى البيت فى الموعد المقدور . وتنطلق الزخاريد وتتعالى الموسيقى وينظر إلى وجه زوجته وتنظر إلى وجهه وكأنهما متفقان على المعانى التى تدور بنفس كل منهما ولكن ماذا يصنعان ، كان يحس أنها واقعة تحت سيطرة أبيها وأما كما يخضع هو لسيطرة أمه . إن أمه تستطيع أن تفعل به ما تشاء . . استطاعت أن ترغمه على اختيار كلية الحقوق واستطاعت أن ترغمه على المذاكرة بل واستطاعت فى قوة عاتية أن تحطم حبه الأول ولكن أتستطيع أن تنشئ حبا ؟ هل تستطيع أمه أن تجعله يحب هذه الفتاة أو تجعل هذه الفتاة تحبه . كيف ؟ لماذا لا يقول « لا . . لا » صارخة واضحة جهرة لا لبس فيها ولا غموض ولا إيهام . لا . . ويترك أمه ويعيش وحده حتى يجد هواه .

نعم .. إن أمه قد بذلت في سبيله الجهد والخوف والعطف ولكن ألا تبذل كل الأمهات .
وهل معنى هذا أن تنتهب حياته جميعا بل وتنتهب حياة فتاة أخرى لا ذنب لها إلا أن أمها صديقة
أمه ..

أليست كلمة لا تنقله وتنقل هذه الفتاة المسكينة الجالسة أمامه .. ما ذنبها .. مسكينة إنها
حلوة .. جميلة غاية الجمال .. لعله كان يختارها إذا ترك وشأنه . إنه يحب هذه العيون الحاملة
الملهورة . ويجب هذا الشعر الأسود المنساب . ويجب هذه الابتسامة التي تجرّها إلى فمها
جرا .. ويجب هذا العود الواهن وكأنه طيف ، الرقيق كأنه فكرة ، الشفاف كأنه حلم . هو
يجب هذا جميعه ولكنه لا يجب سناء . وكيف له أن يجيها ؟ هو لم يفكر فيها زوجة إلا حين أمرت
أمه أن يتزوجها . فإذا هي زوجته .

كلمة واحدة هي : « لا » يستطيع أن يقولها في هدوء وفي حزم فينبئ هذه المأساة التي تحيط
بها الزغاريد وتتعالى لها الموسيقى الفرحة وتنطلق لها الأغاني وتدق الطبول ، « لا » حرقان بمنعان
المأساة من أن تتم فصولا . وليكن بعد ذلك ما يكون .

ورنا إلى زوجته .. ترى أيرضيها هذا .. كم هو قاس ذلك المجتمع .. إن فعل ما يريد
أن يفعل أصاب هذه الفتاة التي يشفق عليها بطعنة لا سبيل لها أن تنجو منها . ستتطاير الأقاويل
وتتدافع لها الشائعات .. ان العروس لا تعجبه .. طعنة تصيب المرأة في أعظم ما تزهي به ..
أيها أحسن لها عندها .. أن يخلصها من حياة لم يكن لها يد في اختيارها .. أم أن تظل زوجته
ولا يقول الناس عنها انها لم تعجب زوجها فرفض أن يتم الزواج . وأين كانت « لا » هذه قبل
اليوم ، لماذا خضع حتى تم هذا جميعه ثم انتفض فجأة يريد أن يحوما كان .. وهل يحوى ؟
كيف ؟ ما ذنب هذه المسكينة حتى ترمى إلى هذا الموقف الضنك وما ذنبه هو ؟

والموسيقى تتعالى والزغاريد تنطلق والأغاني تصدح والشعور بالفرح يفيض على وجوه
الجميع الأوجهين .. وجهه وقد تشنجت عليه ابتسامة ووجه العروس وقد جمدت على فمها
ابتسامة مثل ابتسامته .

وانقضى الليل وتحافت الموسيقى ووهنت الزغاريد وتششت الجميع وخلا الزوج إلى زوجته
وأقفلت من دونها الحجرة . وكان بها كرسيان . وجلسا وهم الصمت حيناً . ثم طال هذا
الحين . هو مطرق خزيان وهي مطرقة مدهورة . في رأسه دوامة من الأفكار وفي رأسها أمواج
من الحيرة .

وفجأة نظر إليها وهم أن يقول شيئا ثم أطرق . وهمت هي أن تقول شيئا دون أن ترفع
رأسها ولكنها مالبت أن عادت إلى الصمت .

وأحسن بطول الصمت وصمم أن يقول شيئا .. أى شيء .. ورفع رأسه وفتح فمه وفكر وفكر .. وأخيرا قال دون أن يهتلى إلى ما يجب قوله :

- آسف .

ونظرت إليه في غير دهشة وقالت دون تريث :

- وماذا تفيد آسف الآن ؟

- وماذا كان يمكن أن أفعل ؟

- ألسنت حرا ؟

- وأنت ؟

- أنا .. أنا على كل حال لست مثلك .

- انفى أمام أمى .

- ولم يستطع أن يكمل جملته .

- لماذا .. لماذا ؟

- ليس لها غيرة .. وليس لى غيرها .

- ولكنها حياتك .

- المصيبة أنها حياتك أنت أيضا .

- هل أمك قاسية إلى هذا الحد ؟

- إنها تظن أنها رحيمة أكثر مما ينبغي .

- ألا تؤمن بحريتك فى الاختيار ؟

- انها تؤمن بحريق الثامة مادمت لا أعصى أوامرها .

- ولكنها حياتك .

- هى لا تفصل كثيرا بين حياتى وحياتها .

- وحياتى ؟

- مستصحب حياتك هى حياتى وهكذا ترين أنها جميعا حياتها هى .

- وماذا ستفعل الآن ؟

- لقد تعودت منى الطاعة .. ولا أظننى الآن أستطيع أن أتخلص من هذه العادة .

- تعودت أن تطيع فى شأن نفسك أما فى شأنى أنا .

ونظر إليها طويلا .. إنها حلوة .. خيل إليه أنه يحبها .. بل كاد يوقن أنه يحبها .. هى

الفتاة التى طالما كان يرسم صورتها لهواه .. وهى مستكينته تشكو إليه الظلم الواقع عليها فى غير

عنف ولا ثورة ولكن فى حنان وفى دفء ووجد نفسه يقول :

- أيفضبك أن تصبحى زوجتى ؟

- لعلى كنت أتوق إلى هذا لو انك سألتنى وأنا لست زوجتك .

- فلماذا لا تجربين وقد أصبحت زوجتى .
- ألا تعرف ؟
- نعم .. أعرف .
- أتحبين غيرى ؟
- أبدا .
- إذن ؟
- أيرضيك أن أحس دائما أنك فرضت على فرضا .. أترضى لنفسك هذا ؟
- لقد تعودت أن أترضى لنفسى ما لا أحب أن أترضى .
- أيرضيك هذا لى ؟
- أعرف أننى أحبيتك .
- أحسست .
- ألا يكفينى هذا الاحساس ؟
- وماذا عفى أنا ؟
- فأنت لا تحبيننى ؟
- وأنت زوجى المفروض على ..
- جميلة هى الحرية .
- أحرقتها ؟
- تمنيتها .
- فلماذا لا تسعى إليها ؟
- لم أستطع فيها مضى .
- فلا أمل لى إذن .
- بل ينجيل إلى أن هناك وميضاً من أمل .
- كيف ؟
- لن تكونى زوجتى .
- وأمك ؟
- أطعتها فى كل ما يتصل بى ولكنى لن أطيعها فيما يتصل بك .
- إذن فأنت تحببى حقاً ؟
- لقد أدركت هذا بإحساسك .. أتعودت أن يكذبك إحساسك ؟
- لا .
- إذن ؟
- أخشى أن يمنعك حبنى عن تنفيذ ما تفكر فيه .

- بل إن حبك هو الذى سيدفعنى أن أنفذ ما أفكر فيه .
- سنرى .
- متى تريد أن يتم هذا ؟
- متى تشاء .
- لا أريد أن يمَسَّك أحد بسوء .
- فمتى إذن ؟
- بعد عام .
- أليس طويلاً ؟
- متى تشائين .
- نصف عام .
- ونام على الأريكة ونامت على السرير وظلت الأريكة مكان نومه ستة أشهر .
- ثم قال حسن لزوجته :
- أتدركين كم أحبك ؟
- نعم .
- وسيزداد يقينك اليوم .
- إذن فأنت تذكر ؟
- نعم .
- إذن ؟
- فأنت طالق .. طالق لأنى أحبك .. نعم إلى أحبك .. ولعلك بعد أن تصبحين حرة .. لعلك ترضين .
- لا تكمل .
- أهو الرفض إذن .
- لا .. ولكن لا أريدك أن تطلقنى بشرط .
- لا .. وبغير شرط .
- وأمك ؟
- سأطلقك .
- ولم تمض ساعات حتى كان المأذون بجرر ورقة الطلاق .. وكانت ابتسامة فرح ترفرف على شفقى سناء وأخرى على شفقى حسن . وكانت الدموع تنهمر من عيني أمه .. لقد أدركت أنها فقدت سيطرتها عليه إلى الأبد .

ثمن السدواء

أذن الفجر وتقلبت زكية في نومها . فقد تعودت أذناها أن تلتقطا أذان الفجر منذ أن ينبعث من حنجرة الشيخ عبد المقصود الخشنة ، وما لبثت أن أفاقت من نومها وألقت إلى زوجها نظرة ثم نظرت إلى الشباك والظلام ينبعث منه مهزوما مدحورا وجلست زكية في السرير ومدت يدها إلى زوجها حمدى فربتت كتفه :

حمدى .. حمدى .

— وأحس حمدى بيد زوجته وهو يغالب اليقظة وينفو إلى النوم . وأدار ظهره يعتصم بالجهة الأخرى من السرير من إيقاظ زوجته له .. وما كانت هذه الحركة جديدة على زوجته وإن كانت قريبة العهد بالزواج منه . فهي تربت الكتف الأخرى التي أصبحت تواجهها .

ثم ياحمدى لتصل الفجر .

— ويصهم حمدى ببعض ألفاظ ثم لا يجد مناصا آخر الأمر من أن يصحو ، ويقول له زوجته في حنان :

— صباح الخير .

— صباح الخير .

وينزل حمدى عن السرير ويتوضأ ويصل الفجر حاضرا ويجلس إلى مائدة الإفطار التي كانت زوجته قد أعدتها له . وتجلس زوجته أمامه . ويقول حمدى :

— الولد أيقظنا كثيرا في الليل .

— مسكين المغص لم يتركه طول الليل . نام قبل الفجر بساعة واحدة .

— الزجاجاة فرغت .. ألم أقل لك ..

- ألم يكن باقيا منها شيء ..
- أبدا .
- يظهر ان دواء هذا الدكتور غير نافع .
- وماذا نعمل .. لقد قال لنا كرروا الدواء .. أتذهب إلى دكتور آخر
- تقصدين ندفع جنيها آخر .
- هذا أوفر .
- أوفر ؟؟
- أوفر من الدواء الذى لا ينفع .
- نجرب الدواء مرة أخرى ونرى .
- نجربه .
- طيب .. هات خمسين قرشا .
- ربنا يبعث .
- ماذا تقصد ؟
- ألا تعرفين ما أقصد ؟
- أليس معك خمسون قرشا ؟
- من أين ؟
- من البقشيش
- ومن أين يأخذ البقشيش ؟
- عجيبة .. من الزبائن
- وأين هم الزبائن ؟
- فى الحمام .
- ألا تلاحظين أن الشتاء أوشك أن ينتهى والزبائن أصبحوا قلة .. لا نرى إلا واحدا أو اثنين على الأكثر فى اليوم ..
- ولماذا تتعبون أنفسكم وتفتحون الحمام ؟
- وماذا يعم اللوكائنة أن يأخذ الزبائن أم لا .. المهم أن يكون الحمام مفتوحا فى اللو الكبرى .
- وموت نحن ؟
- إننا نأخذ مرتباتنا وهذا كل ما يهمهم ..
- ولكن مرتبك لا يكفى .. إننا بدون البقشيش لا نستطيع العيش .
- ربنا يبعث .
- يظهر أنك أنت الذى لا تحسن معاملة الزبائن ..

.. رينا أعلم .. أنا والله أريهم وأكلمهم بكل أدب .. مرة .. بالانجليزى ومرة بالفرنساوى ومرة بالطلليان .. وأضحكهم وأبسطهم .. ولكن أين هم ؟

— المهم .. ماذا نفعل فى الدواء ؟

— بمجرد أن أحصل على الخمسين قرشا سأشتري الدواء من الأجزخانة المجاورة للحمام وأبعثه لك ..

— ربنا يفتح عليك .

— أفوتك بعافية .

— مع السلامة .

وخرج حمدى من المنزل يفكر فى الدواء وفى ثمنه . وينظر إلى الشمس تتوسط السماء ويخيل إليه أنها ترسل اليه نظرات عداوة شديدة . ومن مجنون يأتى إلى حمام بخار وهذه الشمس ترسل أشعتها الحارقة .. السياح سافروا والحمد الله ، وزبائن الحمام من المصريين لا يأتون والجوع على هذه الحرارة .. من مجنون يأتى .. الأمر الله .. ومن أين لى بضمن الدواء .. أستلف من اللوكاندة وهل تقبل اللوكاندة .. هل أقصد إلى صاحب الأجزخانة وأرجوه أن يعطينى الدواء وأدفع له ثمنه عند مسيرة ؟ ومتى تأبى المسيرة وكيف لصاحب الأجزخانة أن يثق بى وهو لا يعرفنى ؟ ويصل حمدى إلى الحمام ويفتحه ويعد الأدوات ويجلس ينتظر الزبون والفرج ولا يطول انتظاره . فما يلبث الباب أن يفرج عن رجل طويل فى الأربعين من عمره أبيض البشرة سمح الملامح .

— السلام عليكم .

— وينظر اليه حمدى .. زبون جديد لم يره قبل اليوم يافرج الله .

— وعليكم السلام ياسعادة البك ورحمة الله وبركاته ..

— هل أستطيع أن آخذ حماما ؟

— ويحمد حمدى فرصة ليقدم نفسه على أنه ممن يتكلمون الانجليزية راجيا أن يكون لذلك أثر فى الارتفاع بالبقيش ..

— اوف كورس ياسعادة البك .. تحت أمرك ..

— وتختلج عين الزبون لحظة .. ويفكر فى المبلغ الذى سيخسره فى هذا الحمام .. ان كان الخادم متعلم الانجليزية فكم تراه سيدفع ثمنا لهذا الحمام .. شورة سوداء .. لقد أوقعه ابن عمه سامح فى المحذور .. وأوشك أن يعود ثانية إلى الباب الذى دخل منه ولكنه تريت لحظة وسأل :

— بكم أجر الحمام ؟

ونظر اليه حمدي ودارت في رأسه الأفكار .. إن الزبون الذي يسأل عن أجرة الحمام لا يبشر بخير .. ولكنه يسارع إلى بقية الأمل قبل أن يضيع ..
 - حاجة بسيطة يساعدك البك .. بسيطة جدا ..
 - يعنى كام ..
 - أتريد سعادتك حماما واحدا أم ..
 ويسارع البك قائلا ..
 - واحدا .. واحدا ..
 - جنيه ..
 - ماذا ؟

وتوشك آمال حمدي أن تنهار .. ان كان يستكثر الجنيه الذي هو أجر الحمام فأى بقشيش سيدفع .. ولكن لا بأس ليدفع أى شيء ومن هنا إلى آخر النهار يحملها الذي لا يغفل ولا ينام ..

- ماذا يساعدك البك .. أهو كثير ؟
 - لا .. لا أبدا ..

وبهذا حمدي بعض الشيء ويقول الزبون لنفسه الأمر له ويأخذ طريقه إلى الداخل ويخلع ملابسه وحمدي بجواره يساعدك كلما سئمت له فرصة أن يساعده .. وحين يطول الصمت بعض الشيء يقول حمدي في محاولة صادقة أن يستكثر من البقشيش ما أمكنه إلى ذلك من سبيل :

- شرفت يساعدك البك .
 - كثر خيرك .
 - أهله أول مرة تشرفنا فيها ؟
 - نعم .
 - ولم تأخذ حمام بخار قبل اليوم ؟
 - أبدا ..

- ستكون مسرورا جدا يساعدك البك .. تريه كونتا .. ويتوقف البك لحظة عن خلع ملابسه .. ويتكلم الفرنسية أيضا .. لا بد أن يكون صاحب الحمام .. ويكمل خلع ملابسه ويستأنف حمدي حديثه ..

ستحس أنك انسان جديد .. نشاط وحيوية .. سترى يساعدك ..

- ايه .. عظيم ..
 ويفكر الزبون .. لماذا يلاطفه هذا الرجل كل هذه الملاطفة .. أليجعله يمود ثانية ليفعل

- ما يشاء ليجعل من نفسه بهلوانا ولكنه لن يعود .. إنها مرة ولن تعود ..
- ويعود حمدى إلى الحديث ..
 - أتحب أن تبدأ بالبخار ؟
 - والله أنا لا أعرف ما يجب أن أفعله فعليك أن ترشدنى .
 - تحت أمرك ياسعادة أفوتر سرفيس .. تفضل .
 - ولا يملك الزبون نفسه فيسأله :
 - هل حضرتك صاحب هذا المحل ..
 - لا ياسعادة البك .. إنه ملك اللوكاندة ..
 - أنا فاهم ولكن هل أنت الذى تستأجره من اللوكاندة ؟
 - نومونشير .. أنا موظف فى اللوكاندة ..
 - ويقف الزبون عاريا لا يستره الا قماط أعطاء له حمدى الذى كان يسير من خلفه ..
 - ويلوى الزبون رأسه إلى حمدى .. موظف .. ولا يكتفى بالتفكير .. بل هو يقول دون وعى ..
 - موظف .
 - بيان سير مونشير .. موظف ياسعادة انبك .
 - وتتكلم الانجليزية والفرنسية ..
 - والاطالية وبعض الجريجية أيضا ياسعادة ...
 - ويدخل الزبون إلى غرفة الحمام وهو يفكر .. لا بد من البقشيش إذن ولا بد من بقشيش مرتفع .. خمسون قرشا على الأقل .. على الأقل .. شورة سودة الله يجازيك ياسامح يا ابن عمى .. منك الله .. وبعد فترة يطل رأس حمدى من الباب ..
 - أتحب سعادتك أن تبقى أكثر من هذا أم تكفى بهذا ؟
 - كما ترى .
 - يكفى هذا لأنها أول مرة .. تفضل ويقوم الزبون ويمشى خلفه وهو يقول :
 - إلى أين ؟
 - إلى التدليك .
 - آه عظيم .. ومن الذى سيدلكنى ؟
 - أنا .
 - أنت ؟
 - اختصاصى ياسعادة البك .. اكسير .. سترى وتحكم بنفسك .

ويفكر الزبون .. اختصاصى واكسير أيضا .. لا يمكن أن تكفيه خمسون قرشا .. وتمتد يد حمدى إلى جسم الزبون تدلك .. توشك يده أن تقولا اعطنى بقشيشا ومحس الزبون بخبرة

حمدى ويديه اللتين تعرفان تفاصيل العضلات في جسمه معرفة لا يتقنها الا طبيب أو على الأقل خريج من معهد التربية الرياضية .. ويقول حمدى في نغمه طيبة حنون توشك أن تفضح حاجته للخمسين قرشا :

— مبسوط ياسعادة البك .. فوزيت كونتا .

— بيان سير .. حاجة عظيمة ياأستاذ ..

أستاذ تقع الكلمة على أذن حمدى موقعا حلوا ويحس فيها أن الرجل سيجزل له العطاء .. لقد جعله أستاذاً وينهمك في عمله ويسلم الرجل نفسه ليدى حمدى الخبيرتين ويفكر فيما يمكن أن يعطيه له .. خمسون قرشا .. مستحيل إنه سيجرحه لو أعطاه هذا المبلغ الهين .. ماذا يمكن أن يعطيه ..

ويتهى التدليك ويقول حمدى :

— والآن تأخذ الدوش ياسعادة البك .

— متشكر ياأستاذ .

ويزداد الأمل في نفس حمدى .. ان الأستاذ لا يأخذ أقل من خمسين قرشا بقشيشا فان تضاعف المبلغ وتضاعف فخمسة وعشرين قرشا ولا أقل .. لا يمكن أن يكون أقل من ذلك .. ومن يدري لعل زبونا آخر لا يعيا بالجو الحار ويأتى مثل هذا المغفل الذى يستحم .. وكان الزبون تحت الدوش يفكر فيما يمكن أن يقدمه بقشيشا .. الله يجازيك ياسامح منك الله أهله عملة .. ماذا أعطى هذا الأستاذ الذى يتقن ثلاث لغات ويتكلم رابعة وهو بعد هذا كله أو قبل هذا كله على هذه الخبرة العظيمة بالتدليك ويتفاصيل جسم الانسان .. خريج معهد عال على الأقل .. إن لم يكن سافرا إلى الخارج وتخصص .. طبعا .. وإلا فكيف له بهذه اللغات جميعا .. وراح يسخط على ابن عمه سامح الذى أوقعه في هذه المشكلة .. ويتهى الزبون من الحمام ويذهب إلى حيث ترك ملابسه ويأخذ في ارتدائها ويأتى إليه حمدى :

— أتحب أن أساعد سعادتك ؟

— العفو ياأستاذ .

فرجت .. هي الخمسون قرشا .. على الأقل ان لم يصل الأمر إلى جنيه كامل .. ويقف حمدى بجانب البك ويروح الزبون يخلتس النظرات إلى حمدى ، وفجأة يستقر رايه على أمر .. ويطمئن .. ويتم ارتداء ملابسه ويخرج إلى الغرفة الخارجية من الحمام ويخرج حمدى من ورائه ويذهب حمدى إلى المنضدة التى يستقبل عليها نقود الزبائن وقد كاد قلبه أن يقفز من بين جنباته في انتظار البقشيش الذى سيقدمه البك إلى الأستاذ .. ويخرج البك المحفظة ويفتحها ويخرج منها جنيهاً .. جنيتها واحداً ويتسم حمدى لا بد أن الخمسين قرشا في جيبه لا في المحفظة ..

كثيرون يفعلون ذلك .. كثيرون لا يضعون في محافظهم فئات أقل من الجنيه حتى لا تنتفخ المحفظة بالأوراق قليلة القيمة .. ويقدم الزبون الجنيه إلى حمدي ويأخذه ويظل ناظرا إلى الزبون ولكن الزبون يقول في حزم :

- ألف شكر يا بك .

ويستدير إلى الباب الخارجى ويدلف منه إلى الخارج .

- وحين يعود حمدي إلى البيت تسأله زوجته في لهفة :

- هل أحضرت الدواء ؟؟

- لا .. ولكن أصبحت بك .

- ماذا ؟

- ويرتفع صراخ الطفل من جديد .

الست عيشة

كان نجاحها في الحياة قوامه أن أثرياء الزمن الماضي كانوا لا يسمحون لزوجاتهم أن يخرجن إلى الأسواق ليشترين ما يحتاجن إليه . فلم يكن هناك بد من أن تنتقل الأسواق إلى السيدات في بيوتهن . . وهكذا أصبحت بقعة عيشة أم أمين هي محلات الموسيقى ونحت الربيع والمفرلين بل ومحلات شيكوريل وعمر أفندي وصيدناوى وغيرها تجتمع جميعها على تناورها وتباغضها في بقعة الست عيشة وتنتقل هي بين البيوت تعرض ما اختاره فوقها أو هي تتلقى الرغبات فتحفظها في دقة ووعى دون أن تكتبها لأنها بطبيعة الحال لا تكتب وتعود بعد ذلك حاملة كل هذه المحلات بين أعطاف بقعتها العتيقة .

وقد كانت عيشة في ذلك الحين البعيد من الزمن مليحة الوجه أكسبها حمل البقعة تنغيا في الخطوات فكأنما هي ترقص حين تسير ، وقد كانت ذات قوام فارغ مياذ بغرى العين والحلجات المعربة في نفوس الرجال .

وقد كانت وظيفتها تلك تثير في نفوس رجال كثيرين مكامن الطمع . فهي أولا تكسب الكثير من تجارها وهي أيضا ذات مدخل إلى بيوت العلية من القوم ، وإن لها عندهم لكلمة وإن لها في الحديث دهاليز . وقد استطاعت بعد أن مرت على حمل البقعة أن تحمل في ثيابها صورا لفتيات وفتيان وأصبحت تبيع مع الأقمشة وحاجيات الستات حديثا عن فلانة بنت فلان أو فلان ابن فلان . . ويتم زواج وتقبض عيشة الثمن . . وهكذا كثرت حول معاصمها الأساور ، كما كثرت العقود التي تلفها حول عنقها .

وقد كان غباشى السائق بمنزل مصطفى باشا جمال الدين ذا عين خبيرة . تسقط في سرعة لاهفة على الأساور اللامعة وتستطيع تلك العين في خبرة ومران أن تعرف أن ما تلفه عيشة حول عنقها ليس عقدا واحدا وإنما هو عقود . وقد كان غباشى شابا فتي الجسم جميل الوجه . وكان ذا

طموح في الحياة وهمة .. فوقع في حب الأساور اللامعة والعقود التي تتواهب حول رقبة عيشة وتقدم إليها . وقبلته وتزوجا .

ومرت أيام ، أصبحت شهورا .. واستطاعت عيشة أن تعرف في سهولة ويسر أن غياشى أحب ما تملكه ، ولم يحبها هي فإنه سرعان ما طلب إليها أن تباع ما تملكه ليشتري هو سيارة يشغلها بالأجرة . وطبعا حاول أن يفهمها أن الريح سيعود إليهما كليهما حاول أن يضخم لها هذا الريح ولكن الكلام مهبها يكن منعقا جميلا ما كان لينطلي على عيشة وهي تاجرة الكلام التي جمعت ثروتها جميعها منه . واشتد الطلب من غياشى واشتد الرفض من عيشة . وانتهى الأمر بطبيعة الحال إلى الطلاق . وقد كان الأمر من شأنه أن ينتهي عند هذا الأمد . لولا أن غياشى ترك في أحشاء زوجته التي أصبحت مطلقة أملا في طفل أو طفلة لا يعلمه الا الله . وما هي الا بضعة شهور حتى أصبح الأمل طفلا وصار اسمه مجدى .. وفرحت عيشة بما أعطاه الله وأقسمت ألا تعود بعدها إلى الزواج أبدا ويكفيها من حياتها أن تعيش لترعى هذا الطفل ولتجعل منه شيئا عظيما منذ ألقيته ثديها في اللحظة الأولى من رضاعته ، أزمعت عيشة في نفسها أن تجعل من هذا الطفل ثروة .. ثروة كبيرة لها ولستقبلها .. لقد أزمعت أن تعرض به نفسها عن كل تعب تلقاه في عملها ، وعن ذلك اليأس الذي أطل عليها من زواجها . وفي تدبر وحكمة وهذوء راحت تعد الحظوة وتنقلها .. وحين مرت الأيام وحين قضت هذه الأيام على تجارة عيشة لم تدهل ولا هي اندمشت فقد كانت تعد للتطور عدته . فما هي إلا سنوات قليلة حتى خرجت السيدات إلى المحلات العامة يشتري ما يروق لهن .. وماهي إلا سنوات أخرى حتى سفرت السيدات جميعا فأصبح العريس يختار عروسه بالخواص الخمس جميعا .. لا بالسمع وحده .. وكانت عيشة قد ادخرت لهذا التطور بعض المال ولكنها لم تلجأ إليه .. وإنما لجأت إلى ما ادخرته من صبرة وعافية .. عرضت على إحدى السيدات اللواتي كانت تزورهن أن تقبلها عندها خادمة .. وقبلت السيدة وأقامت عيشة في بيت السيدة خادمة وكان لها على صاحبة البيت دلال قديم فهي تجالسها من حين إلى آخر ، عيشة على الأرض والسيدة على الكرسي وهي من حين إلى آخر تدلك لها أقدامها . وهي تستطيع دائما أن تلقى على مسامعها ما تشاء من حديث وهي تستطيع أيضا أن تستجدي منها لمجدي حلة أو حذاء أو قميصا أو أى شيء تستغنى عنه السيدة أو تنجح لياقة عيشة في اختطافه .

ومجدي منذ السنوات البكرة من الطفولة تلميذ .. في مدرسة إلزامية أول الأمر .. ثم هو في مدرسة ابتدائية وحين حصل على الابتدائية قالت السيدة لعيشة :

— يكفي ما تلقاه مجدى من العلم .. سأجعل زوجي يوظفه وتصرخ عيشة :

— لا .

ثم تنالك في توبة :
 - ربنا يطيل عمرك ياسقى ويبقيك .. أمل في الدنيا أن يتعلم مجدى .
 - أخذ الابتدائية .
 - ربنا يبقيك لى .. أنا عندك أكل وأشرب .. وما آخذك منك يكفى لتعليمه وزيادة العلم حلو ياسقى ..

وتسكت الست ومضى مجدى في تعليمه وعيشة تبذل غاية جهدها أن تستر أمره فهي تشتري له مما أذخرت أحسن الملابس وتجعله يبدو في أحسن مظهر .. وقد سمح له وجهه الذى اقتبس فيه كثيرا من سمات أبيه وأمه أن يبدو جميلا متسقاً مع الثياب الأنيقة التى تختارها له أمه الحبيبة .

وقمر سنوات البكالوريا وبنالها مجدى وعيشة ما تزال تعمل بمنزل سيدتها وتحاول الست مرة أخرى أن تعرض على عيشة أن توظف مجدى .. ولكن عيشة في ذكاء ولباقة تقول :
 - فات الكثير ما بقى إلا القليل .. أحملة ياست هانم السنوات القليلة الباقية والبركة فيك ..

وتسكت الست ويقصد مجدى إلى الجامعة .. كان مجدى في سنوات عمره جميعا لا يفارق أمه أبدا .. فقد استطاعت أن تخل له حجرة في أسفل البيت الذى تعمل به وكانت تصر على أن يلازمها ما مكنتها هي الفرصة أن يلازمها .. وقد قطعت كل صلة كانت تقوم بينه وبين أى صديق .. حتى لم يبق له من أصدقاء آخر الأمر إلا أمه . وقد صار أمره في الجامعة مثلما كان وهو في المدرسة الابتدائية أو الثانوية فلم يزد عليه إلا أنه صار طالبا بكلية الهندسة بعد أن كان تلميذا بمدرسة المنيرة الابتدائية أو الخديو اسماعيل الثانوية ، أمه هي آفاق حياتها جميعا وليس له من آفاق سواها .. ولم يكن هذا إلا جزءا من الخطة التى أحكمتها عيشة في اللحظة التى ألقت فيها ابنها نديا .. وكان الجزء المهم من الخطة يبدأ يوم دخل مجدى الجامعة .

أصبحت تستمنح سيدتها كثيرا من الأجازات وتذهب لتقضيها مع أقاربها الذين نزحوا عن القرية وأقاموا في القاهرة . وقد عجب هؤلاء الأقارب أول الأمر من هذه الزيارات ولكنهم لم يلبثوا أن تعودوها حتى أصبحوا يسألون عنها إن غابت ولم تزورهم . ولو أن هؤلاء الأقارب بحثوا عن الصفات التى تجمع بينهم والتى تجعل عيشة تزورهم لفطنوا إلى ما تدبر لهم عيشة ولكنهم لم يجتمعوا ولم يبحثوا وظلوا واهمين أن رابطة القرية وحدها هي التى تجعل عيشة تزورهم ولو فكروا قليلا لوجدوا أن لعيشة أقارب أكثر قرابة لها ومن القرية وقيمون بالقاهرة ومع ذلك لا تزورهم عيشة ولكنهم لم يفكروا .. ولو تدبروا الحديث الذى كانت تلقه عيشة ولو تناقلوه بينهم لأدركوا ولكنهم لم يتناقلوه وإن كانوا قد تدبروه .

وقمر السنوات وتزداد الصلات بين عيشة وأقاربها ويقرب مجدى من نيل الشهادة فلا يبقى إلا شهر . وتقصد عيشة إلى بيت قريبها الذى تعودت أن تزوره وتكثر من زيارته أحمد أفندى على اسماعيل موظف القرية الذى يمتلك فى القرية ستة أفدنة وفى القاهرة وظيفة تدر عليه دخلا يقلر بخمسة وعشرين جنيهًا شهريًا . وليس فى الدنيا إلا ابنة واحدة . . تحطبها عيشة لابنها مجدى . . الباشمهندس . . وأين يجد أحمد أفندى على اسماعيل خيرا من هذا .

الباشمهندس سيخطب ابنته ولا يفكر أن ابنته ليست رائحة الحسن ولا هى حتى على شيء من الجمال وإنما يقتنع وتقتنع زوجته معه أن الست عيشة أرادت لابنها زوجة ترعى شأنه وتقوم بأمره وأن مسألة الجمال لم تكن تخطر لها على بال . . وتتم الخطبة ولا يعارض مجدى فقد تعود أن يكون كلمة من أمه وإشارة من يدها .

وغر أيام ومهمس الست عيشة فى أذن أحمد أفندى اسماعيل .
— العين بصيرة واليد قصيرة يا أحمد أفندى .

وفهم أحمد أفندى . . ولا يقيم بالقاهرة إلا ريثما يحصل على أجازة من وظيفته ويقصد إلى القرية يبيع فدانين ويأتى فلا يقصد إلى بيته وإنما يقصد إلى الست عيشة فى السر . . دون أن يحس أحد ويضع فى يدها ثمن الفدانين ليستعين به مجدى على شأنه ويشتري الهدايا أمام الناس ويقدم المهر ويشتري لنفسه ملابس أيضا . ويرد الدين بعد ذلك حين يفرجها الذى لا تفعل له عين .

وما أن استقر المبلغ فى يد الست عيشة حتى انقطعت عن زيارة أحمد أفندى على اسماعيل وأمرت ابنها هو أيضا أن ينقطع فانقطع . . وحين قصد إليها أحمد أفندى على اسماعيل وسألها :
— خير ياست عيشة .

قالت فى خبث :

— الامتحانات ياسى أحمد أفندى .

— وأنت أيضا عندك امتحانات .

— أقعد إلى جانبى وأشوف طلباته . .

— وينصرف أحمد أفندى اسماعيل وتقوم الست عيشة إلى قريبها الثانى توفيق أفندى عبد

المطلب . . وهو موظف أكبر قليلا من أحمد أفندى على اسماعيل فمرته ثلاثون جنيها . . ويملك أيضا أكثر مما يملك أحمد أفندى على اسماعيل فهو يملك ثمانية أفدنة .

— العواف ياسى توفيق .

— العواف ياسى عيشة .

— كيف حالك ياسى أم ابتسام .

— نحمده ياست أم مجدى .

- علبنى ابني مجدى ياست أم ابتسام .
- خير ياأختى .
- لقد جئت خصيصا لأجعل سى توفيق يكلمه .
- أنا تحت أمرك ياست عيشة .
- الولد ياسى توفيق يرفض الزواج من بنت سى أحمد .
- وكيف ؟
- الظاهر انه شايف حاجة ثانية .
- هل تظنين هذا ؟
- الحقيقة هو قال لى إنه حط عينه على ..
- وتبسم عيشة أم أمين ويفهم سى توفيق وتفهم مت أم ابتسام .. وبصمت الرجل وتتكلم الست .
- على من ياست عيشة ..
- لا حول ولا قوة الا بالله .. ماذا أعمل ياسى توفيق .. أنا مرتبطة مع أحمد أفندى على اسما عيل .
- ويتنحج توفيق أفندى عبد المطلب الايبارى ويقول :
- أظن أن مركزى حرج جدا ياست عيشة .
- وتكمل الست أم ابتسام .
- صحيح ماذا يمكن أن يقول ؟
- وتطرق عيشة أم مجدى وتقول :
- لك حق ياسى توفيق .. خلى هذه المسألة على .. فقط .. وأمعنت فى إطراقها .
- وقال توفيق أفندى :
- فقط ماذا ياست عيشة ؟
- الولد مصمم على أن أخطب له ابتسام ..
- وتسارع أم ابتسام قائلة :
- ابتسام تحت أمره ياست عيشة .
- ويقول توفيق :
- أخاف أن يزعل أحمد أفندى على .
- وتقول عيشة :
- لا يريد بته ياسى توفيق .. وأنا ماذا بيدى .. انه رجل ولا أستطيع أن أخبره ويفكر توفيق أفندى فلا يطيل التفكير إذ ما تلبث أم ابتسام أن تقول له :
- نميل بخت بتتنا ياسى توفيق .. شرع الله عند غيرك .

ويقول توفيق أفندي :

- على بركة الله ياست عيشة .. مبروك وتقول عيشة .
- مبروك عليكم إن شاء الله ..
- وبعد أيام قليلة تقصد عيشة إلى توفيق وتقول :
- العين بصيرة واليد قصيرة ياسى توفيق ..

وما هى إلا أيام أخرى قليلة حتى يكون فى يد عيشة ثلاثة أفدنة هذه المرة لا فدانان وتكرر الخطبة ويتكرر الفسخ وعائشة سعيدة بتجارها لاهية بعض الشيء عن رأس مال التجارة مجدى حتى أصبحت لا تراه الا ليفسخ خطبة أو يعلن خطبة .. وهكذا تمتع مجدى بحريته وتعرف على أصدقائه .

بل إنه تعرف على صديقات وتطورت المعرفة والصدقة .

- فهو يدخل إلى أمه يوما ويجلس صامتا بعض الحين وتسأله عيشة :

- مالك يا مجدى ؟
- لا شيء يا أمه .
- أنت على غير عادتك .
- أمه .
- نعم .
- لقد تزوجت .
- ماذا ؟
- بالأمس .
- وتيهت عيشة ثم تقول :
- أمى غنية ؟
- موظفة معى لا تملك إلا المرتب .
- وتنظر إليه مليا .. ثم لا تلبث أن تقول :
- الأمر لله .. منه العوض وعليه العوض .. حسبي الله ونعم الوكيل .

ملالة

ملالة تملأ وقتي ، تملأ يومي وليل ، تملأ أمسي وغدي ، أى جديد في هذه الحياة ، وماذا في الجديد إذا جاء ، كيف أزيل عن نفسي هذه الملالة ، أحس طعمها في فمي كريها شائها ، وأحسه يتمشى في دماي رتيب الخطوة ، رتيب النغمة . أغير ما أغير من حياتي ، وأفعل ما أشاء أن أفعل ، وما تشاء لي أفكاري ، المحدودة التي لازمتني ولا أذكر متى ، وأفعل ما يشاء لي عقلي هذا الذي لا جلة فيه ولا طرافة ، فإذا كل ما أفعله مكرر لا يزيل عني الملالة ولا ينشأني من وهدة الخمول الذي يحيط بي إحاطة لا يخرج لي منها ولا مفر .

زوجتي في البيت تزوجتها منذ عشرين عاما وتيف وظللت أراها في كل يوم ، في كل لحظة هي هي في الصباح والمساء ، هي هي في الشباب والكهولة ما تغير منها إلا الجبال الذي ولى لتحل مكانه مكانه خطوط من السن وتجاعيد من الكبر وترهل من الحمل ، جاءت بالبني والبنات ، لعلني فرحت بالولد الأول ثم ماذا بعد ذلك ، ملالة ، ملالة ، لم تلد زوجتي إلا الملالة والصراخ ثم كبرت الملالة وكبر الصراخ فإذا هو مطالب ، وطنين من الإلحاح ، مطالب معقولة لا عيب فيها إلا أنها مكررة لا جديد فيها ولا ابتكار بل أنها تزيد ملالتي ملالة وتزيد ضيقي ضيقا ، فانا من الملالة في بحران .

تركت بيتي وعشت وحدي لاحقتني من زوجتي القضايا ، ومن أولادي المطالب ، ولم أستطع في غمرة القضايا والمطالب أن أتخلص من الملالة . فحياتي وحدي عملة كحياتي مع زوجتي وأولادي . فعدت إلى بيتي والملالة تلاحق مواكبي ألى سرت .

خضعت ورضيت من ببق أن أكون المصنع الذي يخرج لهم ما تحتاجه حياتهم من مال .

وأنا في وظيفتي ملول ، الديوان هو الديوان والجدران هي الجدران ، وإن تبدل الزملاء بزملاء ، إلا أن الأحاديث هي هي ، لا تتغير ، تعليق على أخبار الجرايد وليس في الجرائد شيء جديد ، من قرأ من التاريخ ما قرأت استطاع أن يعرف عن ثقة مؤكدة أن ليس في الجرائد جديد ، ما كان في التاريخ البعيد هو أخبار الساعة ، قوى يقهر وضعيف يشكر ، ودول تتطاول وتستكبر ودول تتطامن وتستذل . هكذا التاريخ . . ولكن صحبى لا يقرأون التاريخ وأنا قرأته . فهم يعلقون على الأخبار وكأنها جديدة . . ولو عرفوا الذى عرفت من الماضى ما أحسوا من حاضره أيامهم حلالة . بل لأننى أستطيع بما قرأت أن أقول لهم ما تحببه الأيام من أخبار . فالتاريخ أيضا عمل يتكرر ولا يتجدد ، يعيد نفسه في كسل وتراخ وكأنما أدركه الكبر أن يأتى بجديد .

وقد يعلق بعضهم على الكرة ، وتلك عجيبة من العجائب بلا جلة فيها أيضا ، ولست أدري كيف يمكن الحديث عن الكرة إنما هي فريقان يتلاعبان ويغلب فريق فريقا ، كل ما أفهمه في هذا الأمر أن أشبهه لا أشبه لا أخلق . وإنما اخواننا من الزملاء يعلقون ويتجادون في الحديث فيطول ويطول . وأنا أكاد أموت غيظا وملالة فلا جديد في هذا الحديث أيضا . فقدما عرف الناس التفاهة في اختيار موضوع النقاش وما تنازلوا عن تفاهتهم حتى اليرم .

وقد يحدث - ولكن قليلا ما يحدث - أن يتناقش اثنان في الأدب وفيما تكتبه الجرائد من قصص ، هذا الوباء الذى أصبح متفشيا في أيامنا هذه . ولا أجد فيها يقدمونه جديدا . فقدما قال عنتر بن شداد : هل غادر الشعراء من مترد ؟ فإذا كان هذا الشاعر الجاهل قد يشس أن يقع على جديد منذ هو في الجاهلية وقد عدونها اليوم بألف وأربعمائة عام وتزيد . فأى جديد يمكن أن يأتى به الأدب ؟ أجل لقد قرأت الأدب القديم حتى أفنيته ثم قرأت في الأدب الحديث حتى مللته وأصبحت لا أجد فيها أقرأ طرافة ، ومن أين وقد قطع عنتر عليهم الطريق منذ عشرات القرون والأجيال .

قرأت المسرحيات فأما ما كان منها على غلط قديم فهو يزيدنى ملالة وأما ما كان منها على النمط الجديد فقد طوح به إلى مجاهل القدم أكثر مما فعل المسرح القديم ذاته . . متى كانت الخرافة شيئا جديدا ، إنها قديمة قدم الأوثان بل إنها أعظم منها قدما وأشد منها إيغالا في غياهب الأزمان الغابرة .

لا شيء جديد في هذه الدنيا . . لا شيء جديد . . أم ترى أنا وحيدى الذى أحس بهذه الملالة لكثرة ما قرأت . . لست أدري . إنما ما أدريه أننى كنت أحسد كل من يتسم وتقتلنى الغيرة من كل ضاحك ، فإذا رأيت اثنين يتحادثان منهمكين في الحديث رحت أصوب إليهما عينين نهيتين وكأنما يتقاسمان أموالا مكدسة لا تخصنى . إنها يتبادلان الحديث ومعنى هذا أن هناك موضوعا بينهما يشغلهما . فهما يتحادثان فيه . وصيتهان به وينسيان الملالة ولولمة لحظات .

سافرت . سافرت إلى جميع مدن القطر المصري ، ماذا ؟ أى جديد فى هذا ؟ ما رأيته فى الوجه القبل هو ما رأيته فى الوجه البحرى ، ولا تسلفنى عن القرية . ولى من الريف والقرى . ما أكذب هؤلاء الكتاب الذين يتحدثون عن هدوء ومنتعة الريف . أجل ما أكذبهم .

وعدت إلى القاهرة وقد ازدادت ملالتى ملالة . لم أجد شيئا أفعله آخر الأمر إلا أن أنظر إلى وجوه الناس إنها الشيء الوحيد الذى لا يتكرر . لا تصدق أنه يخلق من الشبه أربعين ، لا أربعين ولا حتى اثنين . لكل وجه ملامحه الخاصة وهى تعبر عن أخلاق خاصة ولن يشترك اثنان فى الملامح أبدا . ومهما يكن التشابه فلا بد أن نجد فارقا . وفارقا مميزا واضحا .

حذار أن تظن أن نظرى إلى وجوه الناس أبعد عنى للالة أو قللها ، إنما كان هذا مظهرا من مظاهرها ولم أجد ما أنفق فيه ملالتى إلا الوجوه . ولا أخفى عنكم لقد كنت أحب وجوه الناس . واسخر معى ما شئت من هؤلاء الذين يحبون الجمال الطبيعى بغير أحمر أو أبيض . إن هذا الأحمر والأبيض شيء جميل وكفى صعبت يوم تفتق ذهن أساتذة المودة عن الدهان الذى يضعونه على شفقى المرأة بلون الطبيعة . . أغصاء . . من قال لهم إننا نريد أن نرى اللون الطبيعى فلماذا تضعنه إذن مادام المطلوب هو اللون الطبيعى ، صدقنى . . كلما رأيته واحدة منهم ينجيل إلى أنها أكلت زينة ثم تجمدت الزينة على شفقتها .

المهم لقد وجدت أن خبر ما أنفق فيه ملالتى هو النظر إلى الوجوه وأخص بالنظر وجوه السيدات طبعاً ولم أجد مكاناً خيراً من السينما أذهب إليه لأجد المعرض مليئاً بالمروضات فالسيدات - لمر أجعله - يبدلن أقصى جهدهن فى التزين وهن ذاهبات إلى السينما . وكأنهن يجهلن أن الظلام سيغطفى كل شيء يضعنه على وجوههن . على كل حال كان هذا من حسن حظى أنا . فقد كنت أحب عنائتهن هذه بوجوههن .

وفى يوم دخلت السينما وجلست بجانبى فتاة بل سيدة يبدو أنها فى أول عهدهما بالزواج . فهى كالوردة أشرفت على التفتح ، النضارة تفوح منها كأنها عبق وهبته لها السماء كل شيء فيها جديد حتى لقد ذكرتنى بلالتى وكيف أنى قديم قديم ، وأفكارى قديمة ، وكل ما يتصل بى قديم ، كم نحن متناقضان ، هى فى جدتها وأنا فى قلبنى ، كيف يمكن أن يلتقى القديم والجديد بهذا التقارب ، متجاوران على الكرسي لو لم أكن أرتدى جاكته ذات أكمام للامست ذراعها ذراعى .

وفجأة ومضت فى ذهنى فكرة ، أبعدتها فألحت على . . لماذا لا أقبل هذه الفتاة الجللسة إلى جوارى ، ماذا سيحدث ؟؟ واحدة من اثنين . . إما أن يلغونى فى السجن . . وما ضر لو فعلوا . . كم من مساجين هناك ذهبوا إلى السجن بجرائم لا لذة فيها ولا طرفة ولا تمجيد . أما أنا فسأذهب إلى السجن وقد حطمت عن نفسى سجن الملالة الأكبر الذى أعيش فيه وهل أنا الآن طليق . مرحباً بالسجن ولو أرسلونى إليه . . وإما أن يقودونى إلى سراى المجاذيب ،

ومرحبا بهذا أيضا ، ارى هناك البشرية المستريحة قد طرحت عن نفسها قيود العقل وارتاحت إلى الحياة تقطعها لذة وأحلاما وأوهاما وخيالا . ساكون سعيد الحظ لو أنهم ألقوا بى إلى سرائى المجاذيب .

ودون أن أمعن فى التفكير أكثر عما فعلت ملت على السيدة التى بجانبى وطبعت على خدها قبلة مطمئنة هادئة ثم اعتدلت وجلست .

ومدت السيدة يدها على مكان القبلة فى ذهول هادىء أول الأمر ثم فجأة استعادت يدها وكأنما وجدت على خدها أثر القبلة مجسما وكأنما تأكدت أن هذا الذى حدث حقيقة لا خيال ولا وهم . وإذا هى فى كل ثقة تتجه إلى وتصفعنى قلما لم أكن محتاجا إلى أن أضع يدي بعده لأتحسس أثره ، فقد كانت النيران تلهب وجهى ، وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند ذلك ، قبلتها قبلة فصصعنى قلما من متعة الجن لا لنا ولا علينا . . ولكن ماذا تفعل فى الآخرين . . هل يمكن أن يسكنوا . . أيقظهم هذه الفرصة الذهبية فى كسر ملالتهم وتسلية أنفسهم . . ؟ أفندى قبل سيدة . . وسيدة صدفعت أفندى . . أين يجدون فرصة كهذه ؟ قام الرجل الجالس خلفنا .

- أنت قليل الأدب يا أفندى .
- فوكزه الجالس إلى جانبه وسأله :
- ماذا حصل ؟
- فحكى له الذى حصل فقال السائل :
- قلة حياء والله لا يمكن أن نسكت .
- فتقدم الرجل الجالس بجانب الست فسأل وأجيب . . فثار النهاية سحبونى إلى القسم .
- هل قبلت الست ؟
- نعم .
- ونعم أيضا ؟
- أتريدى أن أكذب . . نعم قبلتها .
- ألا تعرف أن هذه جريمة ؟
- جريمة ؟
- نعم جريمة .
- على الشاشة أمامنا فى السينما كانت القبلات على قفا من يشيل ولم نر أحدا يقول جريمة .
- هل تريد أن تدعى الجنون ؟
- هل فيها أقول غلط ؟
- لا . . لا غلط . . يا شاويش ضعه فى الحجز .

وتم المحضر ورؤى لاستكمال الشكل أن أعرض على طبيب أمراض عصبية وكان الطبيب كان يدري ما تنهق إليه نفسى فما هى إلا أن انتهى من فحصه حتى كنت نزيلا بمستشفى الأمراض العقلية .

لا تسلى كم من الوقت أقمت هناك .. فما عرفت فى حياتى أسعد من هذه الفترة التى عشتها بلا عقل ولا مسئولية ولا ملل ..

أقمت هناك ما أقمت لا تستطيع زوجتى أن تكسر الأسوار لتعيدنى إلى ملالة حياتى ، ولا يستطيع أولادى أن يتفلوا إلى ليحيطون بملالة مطالبهم وطبعاً لم يحاول الزملاء أن يبلغوا مكانى فما كانوا حريصين على ملائى فى شئ .

ثم فجأة قلب لى القدر ظهر المجن ، وانبثقت فى صدر طبيب المستشفى عداوة شديدة فإذا أنا فجأة طريد من المستشفى مرة أخرى إلى الحياة .. إلى الملالة .. ملالة تملأ وقتى .. تملأ يومى وليل .. تملأ أمسى وغدى .



شوار وهيبة

- قالت أم وهيبة وهى تعطى لزوجها عبد الباقي أفندى طربوشه :
- فداك مئة بكرة ياعم عبد الباقي أفندى .. فداك مائة بكرة ..
- ولم يجد هذا القول مع عبد الباقي أفندى .. لم يجد فى شيء ، لقد كان حزينا كئيبا وعاد إلى الحديث الذى قاله ألف مرة :
- يعنى ياستى لو أننا جهزنا وهيبة بقرشين سلفة وجعلناها مثل جميع البنات اللواتى تزوجن فى هذه البلدة .. ماذا يحدث ؟
- وقالت زوجته فى غضب :
- أنرجع إلى هذا الحديث ثانية ..
- ولماذا لا نرجع ؟
- يارجل ، أترضى أن تكون ابنتك مكسورة الحاطر أمام أهل زوجها ؟ يا عبد الباقي أفندى سعادة الزوجة فى حياتها كلها متوقفة على ما تأخذه معها من أثاث فى يوم زواجها .
- سبحان الله .. أهذا كلام يقوله عقلاء ؟!
- منذ يدخل الشوار بيت الزوجية يعرف الزوج ان كانت زوجته عزيزة على أهلها أم هى هيئة رخيصة ..
- ولماذا لا تقولين إنه يعرف إن كان أهلها فقره أم أغنياء ..
- الغنى والفقر لا يهم فى هذا .. حتى الفقير يذل كل جهده ليقدم إلى ابنته جهازا يسترها أمام زوجها وأهل زوجها .

- إذن نستر وهيبة أمام زوجها وأهل زوجها ونفصح نحن أمام الدنيا جميعها .
- لا قدر الله يا عبد الباقي أفندى .. مستورة والنبي مستورة ..
- ومن أين يأتي الستر ياسلمى .. من أين .. البقرة التى لا تملك غيرها نبيها وتقولين مستورة!؟
- وما بقرة .. ما قيمتها .. يا عبد الباقي أفندى أنت لا تعرف حماة ابتك .. نبوية طويلة اللسان وإن رأت الشوار قليلا ستجعل أيام ابتك كلها سوداء غير الفضيحة أمام الناس والهزء والسخرية .
- ياسقى الحماة لا ترضى أبدا .. والله إن أثنت لها قهرا لن ترضى .. نحن نقدم ما فى وسعنا ونترك كلام الناس للناس . استرنا ياسلمى .. استرنا فقد عشنا عمرنا مستورين .
- يارجل وهل البقرة هى التى تسترنا ..
- البقرة شئ مهم فى حياتنا .. اللبن والجبن ، الحرث والرى ، وشعورى أن عندى بقرة يجعلنى أحس بالدفع ويأتى مستور .. اتركها لى ياسلمى ..
- لا والله هذا كلام لا ينفع أبدا ، وماذا أفعل أنا أمام الناس .. أكل هذا من أجل بقرة .. الذى جعلك تشتري بقرة يجعلك تشتري الثانية .
- من أين ؟
- من وظيفتك .. أنت مدرس وعليك العين ..
- أى عين .. المرتب فقط .
- قد يأتىك بعض التلاميذ لدروس خصوصية .
- هل جنتت .. نحن هنا فى أقصى الصعيد .. التلميذ الذى يأتى إلى مدرستى يقطع من أبيه مبلغا هو فى أشد الحاجة إليه .. والتلاميذ لا تأتى إلى المدرسة إلا بشق الأنفس وأنت تريد أن يأخذوا دروسا خصوصية .. هل جنتت!؟
- سمعت عبد السميع أفندى يحكى لك عن الدروس الخصوصية .
- عبد السميع أفندى فى القاهرة .. القاهرة شئ آخر .. هنا لا أمل لنا إلا فى البقرة .. اتركها لى ياسلمى ..
- اسمع .. بقاء البقرة يعنى ذهابى أنا إلى بيت أبى .. مارايك ؟
- ماذا . ماذا تقولين ؟
- ما سمعت ..
- هل جنتت ؟

- جننت عقلت هذا شأني ..
 - بعد هذا العمر كله .. بعد عشرين سنة زواج ..
 - وبعد مائة سنة إذا لزم الأمر .. أنا لا أحتمل لسان نبوية .. فلتسخر منك وحدك إذا
 شئت أما أنا فلا ..

- أمري لله نبيع البقرة ..
 - إذن فاسرع .. يجب أن تذهب إلى السوق ونحن مازلنا في باكر الصباح ..
 - ألا أتناول إفطاري ..
 - حين تعود .. حين تعود يا عبد الباقي أفندي .. توكل على الله ..
 - اليس الحذاء ..
 - أسرع إذن أسرع .. اسم النهي حارسك وضامنك .. من يراك يظنك ناظر
 مدرسة .. طول عمرك وأنت وجه والنهي يا عبد الباقي أفندي ..
 بالبقرة أكون أوجه .

- يارجل توكل على الله .. الأرزاق عنده ..
 - حسبي الله ونعم الوكيل .. حسبي الله ونعم الوكيل ..

وأمسك عبد الباقي أفندي بحبل البقرة وخرج إلى الطريق .. السماء لم تفرج بعد إلا عن
 شعاعات قليلة من الشمس ، وأنفاس الزرع الأخضر تملأ الأجواء ، وانتهب عبد الباقي أفندي
 شهيقا عميقا .. الله .. ما أجمل عبير البهائم .. حسنين أبو سعد يأخذ جاموسته إلى الحقل
 وصالح أبو عرابي يسحب بقرته ، وداود أبو أسماعيل .. لقد اشترت بقرتي يوم اشترى داود
 بقرته .. أيام .. كان القطن في تلك السنة قد رمى تسعة قناطير وكان ثمنه خمسة عشر
 جنيها .. قلت اشترى هذه البقرة أحرث بها الفدانين وأعلقها على الساقية وأشرب لبنها و ..
 و .. ولكن سلمى تريد أن تبيعها لا من أجل وهبة ولكن من أجل نبوية .. لو لم يكن
 لمحمدين أم لما بعث أنا البقرة .. طبعاً الشوار لا بد أن يكون كاملاً حتى نغيظ نبوية .. سلمى
 لا تريد أن تسكت نبوية وإنما تريد أن تغيظها .. تريد أن تريها أنها جهزت بنتها بما لم تستطع
 هي أن تجهز به بنتها خديجة .. نبوية طيبة ولكن سلمى مصرة على أن تقول عنها إنها طويلة
 اللسان .. ومالها لا تفعل ما دامت ترى في قولها هذا حجة تجعلني أبيع بقرتي .. حسبي الله
 ونعم الوكيل .. وهل لا بد لو هبته أن تتزوج وماذا أصنع بها إن لم تتزوج .. الحمد لله أنها
 تزوجت .. أترأها ستكون سعيدة في زواجها .. والله إن زعلها محمدين .. ماذا أفعل .. أنه
 طويل عريض لا قبل لي به .. وهل الحكاية قوة .. أجعله هزوة في القرية جميعها .. أعطيه
 ابنتي وأبيع بقرتي لأجهزها ثم هو بعد ذلك يزعلها .. ولكن محمدين طيب .. لو لم يكن طيباً

لما طلب وهيبة .. عبد الدايم أفندى كان يريد أن يزوجه ابنته زكية .. وعبد الدايم أفندى أغنى منى بكثير وهو أيضا أقدم منى فى المدرسة وقد يصبح ناظر المدرسة هذا العام أو العام القادم ومحمد بن مدرس جديد يحتاج إلى مساعدة الناظر وتقاريره ليحصل على العلاوات ولكنه لم يفكر فى زكية وخطب وهيبة .. البنات وهيبة حلوة ومؤدبة وتعرف القراءة والكتابة ، ولكن زكية أيضا حلوة .. نعم الحق أنها حلوة .. وهى أيضا تعرف القراءة والكتابة .. ولكن ما شأننا نحن ، لقد اختار محمد بن عروسه وهيبة ولم يختار زكية .. القلب وما يهوى .. له فى ذلك حكم .. ترى كم تساوى البقرة .. لن أبيعها بأقل من مائة جنيه .. مائة على الأقل .. ولعل أستطيع أن أحتفظ بعشرين جنيها أو خمسة عشر أو حتى عشرة جنيهات لأشتري لنفسى حلة جديدة وطربوشا وحذاء .. لم أشتري هذه الأشياء منذ أربع سنين .. وهل تكفى عشرة جنيهات .. أحتفظ بخمسة عشر جنيها .. ترى هل أستطيع أن أشتري بقرة أخرى .. من يدري .. الغيب فى علم الله .. جميل أن يكون الغيب فى علم الله .. لو عرفت ما سيحدث لى غدا لأصبحت الدنيا كثيفة لا معنى لها ولا جمال .. جمال الدنيا مفاجآت .. لعبة من الحظ تتكرر فى كل يوم بل فى كل ساعة ، فى كل دقيقة بل فى كل ثانية فى كل خفقة قلب فى كل شهيق وكل زفير بل فى كل هنية تقع بين الثانية والثانية أو بين الشهيق والزفير .. سمعت عن رجل خيل إليه أنه عرف مستقبله وكان مستقبلا سعيدا ولكنه مع ذلك انتحر .. لقد فقدت الحياة سحرها فى ناظره فانتحر .. ماذا يريد منها وقد عرف كل ما يخبئه له القدر وكل غد .. انتحر .. من يدري .. لعلنى أشتري بقرة أخرى .. لعلنى .. من يدري .. كم هى عزيزة على بقرى هذه .. كم أحبها .. ما للطريق مقفر هكذا .. وحدى فيه أسير .. وما الذى أخطر الشمس عن الظهور .. قليلة هذه الأشعة التى ترسلها الشمس .. قليلة هى مع هذا القصب الذى يحيى بالطريق متشابك الجذور والسيقان .. ماذا .. ماذا أسمع ..

- قف .
- من .. من أنت ؟
- قف ولا تكثر الكلام ..
- أمرك ياعم .. هانذا قد وقفت .. هانذا قد وقفت ..
- تعال ..
- إلى أين ؟
- تعال وانت ساكت ..
- جئت ..
- اترك هذا ..
- ماذا ؟
- اترك هذا ..
- أترك حياى ولا أتركه ..

- سترك حياتك إذن وتتركه ..
- هذه ياعم بقرى أريد أن ..
- لا تطل الحديث .. اترك حبل هذه البقرة وتبعني ..
- أنا في عرضك ..
- لا تطل ..

وفي داخل القصب وجد عبد الباقي ثلاثة أشخاص جالسين القرفصاء لا يبين منهم الا عيون قاذحة بالمعظية والكبرياء وتكلم أوسطهم :

- إلى أين أنت ذاهب ؟
- إلى السوق ..
- لتبيع هذه البقرة ..
- أجهز بثمانى ابنتى ..
- دع البقرة وتوكل على الله ..
- حياة ابنتى ومستقبلها ..
- دع البقرة وتوكل على الله ..
- فقير أنا .. فكيف أجهز البنية ..
- ما صناعتك ؟
- أدرس في المدرسة .. لعلنى أعلم أولادكم ..
- انتظر ..

وقال الرجل في الوسط إلى الرجل الذى يجلس على يمينه وهمس ببضع كلمات ، قام بعدها الرجل وانتقل إلى داخل القصب لحظات ثم عاد فمال على الرجل الأوسط وهمس ببضع كلمات قال بعدها الرجل الأوسط .

- اتبع هذا الرجل ..
- وقال عبد الباقي أفندى هالعا :
- والبقرة ..
- فقال الرجل في حزم :
- اتبعه ..

وسار عبد الباقي أفندى وراء الرجل وماهى إلا خطوات حتى وجد نفسه أمام ثلاثة أشخاص آخرين وقال أوسطهم :

اسمع يا عبد الباقي أفندى ..

- أتعرفنى ..

- اسمع ولا تطل الحديث .. نحن نعرف حكايتك وقد رأينا أن نشفق عليك .
- أطال الله عمرك وأبقاك ..
- ستأخذ البقرة إلى السوق .
- نعم ..
- وتبيعها ..
- وتأتى إلينا ..
- نعم ..
- تأخذ نصف الثمن .
- نعم ..
- وتأخذ نصف الثمن ..
- نعم ..
- فقط ..
- أمرك ..
- وإن غالطت في الثمن ؟
- نعم ..
- سنقتلك ..
- نعم .. ؟
- سنقتلك ..
- أمرك ..
- والتفت إلى الرجل الذى قاده اليهم وقال له فى لهجة أمرة حازمة :
- أعطه البقرة ..

وخرج عبد الباقي أفندى ذاهلا عن نفسه حيران لا يفكر فى شيء وسار به الطريق بأقدام لا تعى وحين بلغ السوق جلس يلهث فى جهد كبير وطلب من بعض من الناس قدحا من الماء وأتبعه بقدر آخر ثم قام يسحب بقرته حيث يجتمع تجار البقر .. بستين جنيها بل بسبعين بشمانين .. بشمانين .. بشمانين .. لم تزد .. باع عبد الباقي أفندى البقرة بشمانين جنيها وسار فى الطريق الذى جاء منه .. أعطاهم أربعين جنيها .. وماذا أصنع بالأربعين جنيها الأخرى .. لقد كان أول ثمن للبقرة ستين جنيها .. ماذا يحدث لو قلت لهم إنها لم تأت بأكثر من ستين جنيها .. واشترى أنا الحلة .. وسلمى ماذا ستفعل .. هذا حظى وماذا أستطيع أن أفعل .. ماذا أستطيع .. أن أفعل .. يجب أولا أن أخفى العشرين جنيها .. يجب أن أخفى العشرين جنيها .. نعم فى الطربوش بين الخوص والصوف فى الطربوش .. ودخل عبد الباقي أفندى إلى القصب وأخذ من الشمانين جنيها عشرين أخفاها فى الطربوش ووضع الستين جنيها فى جيبه

كما كانت وعاد إلى الطريق .. وحين بلغ المكان المعهود وجد الرجل الذى استقبله فى الصباح واقفا .. ولم يتكلم الرجل ولا تكلم عبد الباقي أفندى وإنما تبعه فى صمت .. ووجد الثلاثة الذين استقبلوه الاستقبال الأول ..

- هيه يا عبد الباقي أفندى ..

- نعم

- بكم بعت البقرة ؟

- نعم

- بكم بعت البقرة ؟

- بستين جنيها ..

- ماذا ؟

- نعم

- ماذا ؟

- بستين جنيها ..

- يا خسارة يا جدد ..

- نعم ..

- لقد حكمت على نفسك بالإعدام ..

- أنا ؟

- لقد بعتهما بثمانين جنيها .. اعدام .. من أجل عشرين جنيها ..

- أنا ؟

- أنت ..

- أنا فى عرض النبی ..

- لقد كذبت يا عبد الباقي أفندى .. لقد كذبت ..

- أنا فى عرض النبی ..

- أين العشرين جنيها ؟

- أنا فى عرض النبی ..

- أين العشرين جنيها ؟

- ودون وعى قال :

- لا أدري .. أنا فى عرض النبی ..

- وقال الرجل الأوسط فى حزم :

- خله فأقتله ..

- وارتمى عبد الباقي أفندى على قدمي الرجل وقال الرجل فى عظمة هادئة :

— أستغفر الله العظيم يا عبد الباقي .. أستغفر الله العظيم ولكنى أستطيع أن أعمل لك شيئاً .. العدل يجب أن يأخذ مجراه ..
وحينئذ مال الرجل الذي يجلس على الجانب الأيمن على الرجل الأوسط وممس ببضع كلمات ثم قال له :

— نجله اليهم ..
وقال الرجل الذى كان يجلس على الجانب الأيمن :
— اتبعنى يا عبد الباقي أفندى ..
وقام عبد الباقي أفندى زائف النظرات مبهوتا ضالعا وتعثر عطوبين ليلقى بنفسه أمام الثلاثة الآخرين وقال أوسطهم :
— لقد كذبت يا عبد الباقي أفندى ..
— أنا فى عرضك ..
— لقد وجب قتلك ..
— من أجل ابنتى التى سأزوجها ..
— لقد كذبت ..
— آخر مرة ..
والنفت إلى الرجل الواقف وقال له فى تسامح :
— نخذ منه المبلغ كله مع ما أعطاه وتركه يمشى .
وقفز عبد الباقي أفندى هاتفا :
— يحيا العدل .. يحيا العدل ..
وبأصابع مرتعشة أخرج من الطربوش العشرين جنيها وأعطاهما ليد اختطفتهما منه وراح يقفز من القصب وهو يهتف :
— يحيا العدل .. يحيا العدل ..
وراح يجرى وينكفئ ويلهث ويقوم ويجرى وهو يهتف :
— يحيا العدل .. يحيا العدل ..
ودخل القرية وهو يهتف ويهتف حول الفلاحون فراح يهتف منهم وهو يهتف :
— يحيا العدل ..
ودخل بيته وانكفا على الأريكة :
— يحيا العدل ..
وسأله زوجته :
— أين ثمن البقرة ؟

— يحيا العدل ..
— البقرة يا عبد الباقي أأندى .. أين نحن البقرة ؟
— يحيا العدل ..
فهزته زوجته هزة عنيفة وهي تقول :
— البقرة ..
وفى صوت يقطع له نسيج البكاء راح عبد الباقي يقول :
— يحيا العدل .. يحيا العدل ..
« ختام »

● حين يميل الميزان

ولكننى سعيد ..

القطار عنيف الاهتزاز شديد القذارة ، لم أجد غيره ليقلنى من الزقازيق إلى بنها لأخذ قطارا آخر إلى الاسكندرية . وكنت خليقا أن أضيق بالقذارة الشديدة التى تضفيها المصلحة على القطار ، وكنت جديرا أن ازداد ضيقا بالمحطات الكثيرة للتلاحقة التى يقف بها القطار وكنت خليقا أن أضيق بالمشوار جميعه ، فما كان حبيبا إلى نفسى أن أذهب إلى الزقازيق فى نفس اليوم الذى لابد فيه أن أعود إلى الاسكندرية ، فلأن أحب حين أذهب إلى البلد أن ألقى الزمن فلا أنظر فى الساعة إلا عند اليقظة أو عند النوم ، وأنا فى مشوارى هذا لم أطعم نوما ، وبالتالي لم تكن هناك يقظة . ولم تكن الأشياء التى تلقيتها فى البلدة سعيدة ، ومن أين تأتيتها السعادة . . الدودة تلتهم أشجار القطن ، والمحصول لا يبشر بخير ، والناس لا تستطيع أن تدفع ما عليها ، والحالة المالية تزداد ضيقا ، ولكننى سعيد .

وقبل أن أسافر لقيت صديقا ظل معى حتى ركبنا القطار ، وقد ظل يحادثنى ما يقرب من نصف الساعة ، فقص على ما يشقى به من ضيق العيش وكثرة العيال ، فحملنى من الأحزان ما أنا عنه فى غنى .. ولكننى سعيد ..

والعقد الذى كان من المفروض أن أوقعه لأكسب منه مالا ، لم يعد فى الإمكان توقيعه ، وطار ما كنت أتوقع من مبالغ ، وأصبحت الأشهر القادمة شهورا يقيم عليها القلق والذعر والمصير المجهول . ولكننى سعيد . كيف تملأ نفسى هذه السعادة والقلق يهددنى . ما هى حقيقة السعادة . . أليست هى شعورى بها ، ولا يهم من بعد ان كانت تقوم على أسباب منطقية أو لا تقوم . . المهم هو شعورى أنا بالسعادة وعبث بعد ذلك كل شئ . . كل شئ . .

ذلك الرجل لماذا يصر على أن يعرف الغد . . كان غنياً واسع الغنى ، وكان يستطيع أن يصنع بماله الغد الذى يريد ، ولكنه لم يكن يريد شيئا فى الحياة إلا أن يعرف الغد . .

كلما سمع عن رجل يكشف مغاليق الغيب تعقبه حيثما يكون .. ويقول المطلع على الغيب
ويسمع المشوق إلى الغيب ..

وحين يعود إلى الحياة يمضى أيامه في انتظار ما قاله المنجم ، فما أسرع ما تكذبه الأيام ويعود
الشاب إلى البحث وتعود الحياة إلى تكذيب المنجمين .

سمع أن في الهند رجلا لا يخطئ طريقه إلى الغيب ، يراه كأنما هو جزء من ماضيه ...
والرغبة مجنونة ، والمال كثير .. وسافر الشاب إلى الهند .. بلد الروحانيات والأديان وإذلال
الجسد وشموخ الروح .. وما أسرع ما عثر على الرجل .

- شاب أنت غنى ..

- لا يقصد إليك من آخر الأرض إلا شاب وغنى ... لا بد أن تسعفه الصحة ويسعفه
المال حتى يصل إليك ..

- بحثت عن الغيب طوال حياتك ..

- ولا جديد في هذا أيضاً .. إن قدومي إليك وحده يستطيع أن يوحى إليك بهذا ..

- لم تعرف الغيب ؟

- لو كنت عرفته ما جئت ..

- أمصر أنت أن تعرفه ؟

- أتريد دليلاً على إصراري أكبر من وجودي أمامك الآن ؟

- إذن فاسمع ... إنك ستزوج فور عودتك من هنا فتاة تعرفها من سنوات ، وستنجب
أربعة أولاد ليس بينهم انثى .. وستنمو ثروتك بشكل خيالي .. أنت تعمل في أعمال كثيرة
ستنجح فيها جميعاً ... أنا لم أرفى حيان مستقبلاً كمستقبلك ... إن طريقك جميعه مفروش
برغباتك .. إنما عليك أن تأمر فيطيع الدهر .. لست أدري ما حرصك على أن تعرف
مستقبلك .. إنما يبحث عن المستقبل من يسود القلق حياتهم .. أى قلق يعتريك ؟ ..
- لا قلق ..

- فلماذا تبحث عن الغيب ؟

- أريد أن أعرفه ..

- أعرفته الآن ؟ ..

- لقد قلت ما رأيته ..

- وماذا تريد بعد ؟ ..

- أن يتحقق ما تقول ..

- سيتحقق ..

- أرجو ..

— سينتحيق ..

وعاد الشاب إلى بلاده ..

عجيب .. أى جديد يجده فى السكرتيرة .. إنها هى لم تتغير ولكنها مع ذلك تغيرت
تغيراً تاماً ، فقد أصبح ينظر إليها نظرات جديدة ، إنها تتمثل أمام عينيه امرأة ، وكانت تتمثل
أمام عينيه سكرتيرة .. أياكون ذلك الرجل الهندى قد أوحى إلى أن أتزوج .. فأننا أتزوج
ولا أحاول أن أتعب نفسى فى البحث ، فهى معى .. أياكون الأمر كذلك ... ولكن أهو أول
منجم رأى المستقبل له ... واحدة من اثنتين ، إما أن أكون واقعاً تحت تأثير المنجم .. وإما أن
يكون المنجم صادقاً فيما قال ..

— إن فيك شيئاً جديداً ..

— بل لا جديد ..

— فلا بد أن فى شيئاً جديداً ..

— أنا لا أراه ..

— نظرى إليك ..

— هل تغيرت ؟ ..

— إلى أحبك ..

— هذا جديد لا شك ..

وكان الزواج ..

وراحت أعمال الشاب تزدهر بشكل لم يسبق له مثيل .. وسارت الأيام تخدم ما يهفو
إليه .. ونجح فى أعماله .. وبلغ من المناصب ما لم يحلم به ..

وراح يقول فى نفسه كل هذا يمكن أن يتحقق دون أن يكون الرجل صادقاً ، فأننا غنى ،
ويمكن أن تنجح أعمالى ، ويمكن أن أصل من المناصب إلى أرفعها شأنًا وأعلاها منزلة .. كل
هذا ممكن ممكن ..

وبدأت الزوجة تهب له الأطفال .. كان الأول طفلاً والثانى طفلاً .. إذن فالرجل
صديق .. إذن فأننا أعرف مستقبل جميعه .. أى لذة للحياة بعد ... لا أريد هذه الحياة ...
لا ... لا أريدها .. سارزق بطفلين آخرين ، ويستمر نجاحى إلى أن أموت .. كم هى
سخيفة هذه الحياة .. أم ترائى أنا السخيف .. لأنى لم أرض الحياة لغزاً مستخفياً .. فرحت
أستبق المستقبل قبل أن يمضى ، وأشقى الغيب عن أسرارهِ حتى أعرفها .. ثم ماذا بعد .. حياة
قائلة راكدة كهيئة .. ولدان آخران سيأتيان ، ويرث الجميع ثروتى ..

ولكن ...

وماذا ...

وكيف ...
ولماذا ...
حتى أجدد هذه الحياة .. حياتي ..
حتى أحطم هذا الذى قاله المنجم ... أظن أنه عرف الغيب حقيقة .. إنه
لا يستطيع ... لا يستطيع ...
إنه لا يعرف هذا الذى انتويت أن أفعله .. وسأفعله .. لا شيء يردنى عما أريد .. كلما
فكرت ، كما ازدادت عزما ..
لا بد ... لا بد ...
وفى الصباح وجدوا جثة الشاب الغنى الناجح الذى عرف مستقبله — هامة على سرير من
حرير .. ومن ريش النعام .
ما الذى جعلنى أذكر هذا .. دعنى أرجع إلى ما كنت أقوله قبل أن أبدأ هذه القصة ...
كنت أقول إننى سعيد ، وكنت لا أعرف لماذا أنا سعيد .. يبدو أننى أعرف الآن لماذا أنا
سعيد ...

مفتول

الحر الشديد ، الشديد ، يذيب الصخر ويطمس مرآة الحياة ، أبخرة متصاعدة من الأرض وكأنها هي موضوعة على مراجل من نار جهنم . والناس يسرون في الطريق وأعبأهم على وجوههم تقليب وألم وضيق ويأس . . الأرض تذوب تحت أقدامهم ، وينزعونها من الحياة انتزاعاً . ويقتلعونها من الزمن اقتلاعاً بالجهد الشديد والحار الشديد . . شديد .

مسكين هذا السائر . . إنه موظف في الوزارة . . لا أعرفه ولكنه دائماً يسير معي في الطريق ودائماً يحمل هذا الكيس في يده اليمنى وقرطاساً صغيراً من البلح أو الجوافة في اليد اليسرى . مسكين إنه لا يحتمل هذا الذي يحدث له لقد التصق حلأؤه المتهرىء بالأرض فانخلع ووجد جوربه يغوص في الخطوة التالية في آتون الزفت . إننا الآن لسنا في موسم البلح أو الجوافة فما هذا الذي بيده . . عجيب أمر هذا المسكين إنه لم يطق أن يسير في الطريق بدون أن يشغل يده اليسرى . إنها جريدة الصباح بمسك بها كما بمسك بالقرطاس ولا يحاول حتى أن يجعل منها وقاء لرأسه من هذا الحر الشديد ، الشديد ، إنه بمسك بالجريدة بصورة رأسية ويحاول دائماً أن يجعلها مستقيمة كأنها يخشى على الكلام الذي فيها أن ينلق على الأرض . ماذا يفعل إذن في هذه المشكلة التي انشقت عنها الأرض الذائبة ها هو ذا يتلفت حوله يبحث عمن يعينه . ليتلفت ما يشاء لدى ما يكفي . . أين أضاع هذه البطيخة والعيش . . لو أن الأرض مستها وتركت عليها جزءاً من زفتها لجعلت زوجتي حياتي كلها زفتاً ما الذي جعلها مسعورة كما هي الآن . . دائماً أسأل هذا السؤال وكأن لا أعرف الجواب . . ولكني أحب دائماً أن أذكر الأيام الأولى في زواجنا ، بعيدة هذه الأيام . . بعيدة . . مضت عليها سنوات وسنوات وسنوات . . لماذا لم أنسها . . كيف لم تستطع أعماها في هذه السنوات أن تنسى ما كنت عليه في أيامنا الأولى . . هل كنت سعيداً في هذه الأيام حقاً . . إذن فهاي أذكرها . .

الرجل يتهايل على قدم واحدة . . لقد يشس أن يجد من يعينه . . لقد لجأ إلى نفسه وهل يستطيع إلا أن يلجأ إلى نفسه . . استدار على قدم واحدة والجريدة في يده ما تزال وإن كانت تتخلج توشك أن تتدلق يحاول أن يدير حذاءه فيتمكن من إدخال قدمه فيه . . استدار الحذاء ولكنه ابتعد . . الرجل يتلفت مرة أخرى . . لا سبيل لك يا أخى لا سبيل . . كل له شأن يقنيه . . ليس لك إلا أنت . . قفز الرجل كالأطفال الذين يلعبون « الأولى » وأخيراً استطاع أن يضع قدمه في الحذاء ويواجه طريقه ويده اليمنى تحمل كيساً ويده اليسرى تشهر الجريدة يحاذر على الكلام فيها أن يتدلق . كلنا نسير . . وكلنا نخاف الطريق وكلنا يحاذر على ما في يده وإن كانت اليد لا تحمل شيئاً . . وهل أستطيع ألا أحمل شيئاً . . لو أننى دخلت إلى زوجتى بلا شيء في يدي جعلت يومى أسود من هذا الزفت الذى يجاذبني حداثى . والغريب أننى لو دخلت إليها ومعى شيء قالت في لهجتها المعهودة الملتوية « بما جاب الغراب لأمه » ولكنها على كل حال تقول أكثر من هذا . . كيف أصبحت نبوية على هذا القدر من سلاطة اللسان والجبروت والوقاحة . . كل يوم أسأل نفسى هذا السؤال وأجيب عليه ثم أعود إلى السؤال والإجابة . . ومالى لا أفعل . . وماذا يمكن أن أفعل والطريق ما زال أمامى طويلاً والحر شديد ، شديد . . إن الست زنوية منذ جاورتنا وأصبحت صديقة لنبوية انقلبت وحشاً ضارياً . . كانت زنوية تعطيها دروساً منتظمة ، كيف تسيطر على زوجها ، كيف تمحوه من الوجود ، كيف تكون هى صاحبة الكلمة دائماً والحق أن نبوية كانت تلميذة موفقة كل التوفيق . وأنا ساعدتها هى تظن أننى مغلوب على أمرى وأننى مسكين لا أملك لها دفعا ولو علمت الحق لرعت . لقد قبلت منها ما تفعل حتى أرتاح ، وماذا يجرى لو أنها قالت كلمتين تريد أن تظهر بهما أنها صاحبة نفوذ . .

الحق أنها تخرج كرامتى . والحق أننى أشعر بالمهانة لكن يبدو أننى تعودت . . لا أظن أن أحداً يستطيع أن يعود الإهانة أبداً . . الحق أننى أصبحت لا أطيقها لكن أتمنى أن أموت . . ياليتها هوت . . إنها إن لم تموت ساموت أنا . . ماذا يحدث لو أننى مت . . ياليت لكم أتمنى أن أموت لأغيظها . . إنها حينئذ لن تمجد أحداً لتأمرس عليه سلطاتها الواسعة . . لو أن الأرواح تستطيع أن ترى ما فى الحياة حقاً لظلمت مقيماً معها فى البيت لأرى ماذا ستفعل حين تبحث عن أحد تشتمه فلا تمجد - تصبح مسكينة ذليلة لا قيمة لها ولا وجود . فإن قيمتها الوحيدة ووجودها يتمثلان فى وجودى أنا وفى أنها تستطيع أن تمارس على وقاحتها وفى أن تدمى آدميتى وتمتهن إنسانيتى وتهدر وجودى الذى يحقق وجودها ، لا بد أن أموت حتى تمجد نفسها ضائعة لا وجود لها ولا كيان وهى تعلم أننى لو مت لانتهى صرح عظمتها الشامخ وهذا فيها هذا العملاق الذى تحس به كلما أهانتى وأذلتنى وجعلتنى مسكينة ذليلاً بلا حقوق ولا رأى ولا حتى كلمة . هى تعلم ذلك . . هى تعلم أنها محتاجة إلى أكثر من حاجتها إلى الهواء الذى تنفسه . . لقد قالت لى ذلك . . لا لم يكن ذلك فى وقت من أوقات الصفاء . . فلا صفاء بيننا إنما هى حياة نقطعها هى فى المكان الأعلى وأنا فى المكان الأدنى فلا صفاء . . إن الصفاء غاية الصفاء عندنا أن تكون

الشتيمة أقل إقذاعاً من غيرها وهذا كل ما في الأمر . . ثم هي تحب الخطب ولو تمها في البيت منبر لظلت واقفة عليه عمرها كله لتقول لي انني لولاها لكنت مت منذ زمن طويل فإنها تسلمتني من أمي جيفة فجعلتني إنساناً وأنا اسم بلا كيان فجعلت مني إنساناً وكياناً . .

وغيرت اسمي . . نعم اسمي الحقيقي لا تنطقه زوجتي فهو اسم قديم بال لا يعجبها . . وهي لا تقول في خطبها أبداً انها محتاجة إلى أكثر من أي شيء في الوجود ولا تقول ان في ميزة . . أبداً أي ميزة . . وطبعاً أمي تتمتع بأكبر نصيب من الشتيمة فهي وحدها التي جعلت مني هذا الاسم الذي لا كيان له . وطبعاً زوجتي لا تفكر مطلقاً أنها قضت على الاسم والكيان جميعاً إنما هي تفكر أن تقتطع وفي أن تغمرني في المهانة كلما تكلمت . . أقصد خطبت . . وأعود فأقول انها تعلم أنني لو مت لقضى عليها نهائياً . . وقد قالت لي ذلك يوم مات زوج أستاذتها زنوية . . كان يوماً عجبياً . . الست زنوية تزاوول حرفتها وهوايتها وحياتها اليومية العادية من إهانة زوجها في صوت مرتفع يكفي لأن يجعل إهانة عبد النبي أفندى علنية . . والزوج طبعاً طرف موجود بلا وجود فالصوت الذي تسمعه العبارة أو المنطقة واحد هو صوت زنوية والزوج غير موجود . . وكانت زنوية في ذلك اليوم في أوج قمتهما فالكلام منتقى من النوع الذي يجمع إلى الوقاحة البالغة فنية العرض والملاحية الاختيار . . وقد كنت أسمع صوتها وأنخيل وجهها الأبيض . . لا بد أن بعض الحمرة قد صعدت إليه فقد كان واضحاً من نغمت الكلام أن الست تعتمد اعتماداً كبيراً على الخنجر . . وكنت أنخيل وقفته في قوامها الفارع الطول الملى قد نثت ذراعيها ووضعت يديها على جانبي وسطها . . وكنت أنخيل شعرها الأسود يهتز مع توقيع الألفاظ التي تختارها في دربة ومهارة وفن . . كنت أنخيل هذا جميعه لا عن ذكاء فقد رأيت عرضاً مبسطاً له حين كانت تتفاهم - على طريقته - مع بائع اللبن وهكذا كان أنخيل قائماً على المشاهدة القديمة . . كنت أنخيل وأسمع وعيناي على زوجتي . . كانت في حالة نشوة لا مثيل لها . . لقد رأيت السكارى إذا ما انتشوا من الخمر ، ورأيت النشوان الذي يسمع ما يهوى من الغناء ورأيت المنتشين من ذكر الله وهم يذكرون ورأيت نشوة نبوية وهي تسمع إلى زنوية هيئات أن يصل أحد من شارب الخمر أو سامعي الغناء أو ذاكري الله إلى ما وصلت إليه نبوية من وصول وهي صامته في خشوع على شفيتها ابتسامة عريضة ، أسمع وأنا منها على مبعده صوت قلبها يدق في فرح وتهلل . . عضلات وجهها تختلج في فرح طاغ والست زنوية تواصل حديثها في فنية وبراعة . . لا أدري لماذا توهمت في هذه اللحظة أن زوجتي ستموت من الفرحه . . ثموت فعلاً . . يتوقف قلبها عن الوجيب من كثرة ما دق . . توهمت هذا وأنا أسمع الست زنوية وهي ما تزال تقول وتقول في صوتها المرتفع ونغمت حنجرتها المدربة وفجأة ويلا أي مقدمات انشق صوت الست زنوية عن صراخ مروع . . في الوهلة الأولى حسبت أن الست زنوية تمجد في أسلوبها وأنها تضيف هذا اللون الجديد من الإهانة إلى عرضها الفني . . ولكن الصراخ تكرر وتكرر حتى لم تعد الى الحديث واستمرت في الصراخ وفي خبرة فنية هائلة أدركت زوجتي أن

خللاً ما قد وقع فهي تهب واقفة في سمة المقدم على واجب لابد من أدائه وانشقت حنجرتها هي
الأخرى عن صراخ هائل فلم أملك نفسي من السؤال :

— مالك ؟

وفي احتقار شديد قالت :

— اخرس أنت .. صاحبي وأجاملها .

— ألا تعرفين أولاً لماذا تصرخ ؟

— ودون أن أعرف ..

وتركتها تصرخ وذهبت إلى شقة عبد النبي أفندي .. رحمة الله عليه لم يستطع أن يظل
صامتاً فكان احتجاجه هو الموت ..

وحين علقت زوجتي بعد ذلك على الحادث قالت :

— إياك أن تموت .. يا حبيبتي يازنوبة من يوم موت زوجها لم نسمع لها حساً .

وهكذا أنا أعرف أنها تريدني ليسمع الجميع حسها ولتعلن بوجودي وجودها الحر شديد ..

شديد

الحر شديد .. شديد ولكنني وصلت البيت أخيراً .. ماهذا الجمع أمام المنزل ..
خيراً .. لقد ماتت نبوية .. زوجتي .. نبوية .. ماتت نبوية .. ما هذه البطيخة .. لقد
كنت خائفاً أن يمسا شيء من الزفت .. أستطيع الآن أن ألقى بها جميعاً إلى الزفت ولن يسألني
أحد لماذا فعلت هذا .. وهذا العيش أستطيع أن أهبه هؤلاء الواقفين .. على روح
المرحومة .. أمرحومة هي .. إذا رحمها الله فسوف أطلب منه سبحانه وتعالى أن يرسلني إلى
جهنم ..

حلوة هي الحياة الحرة الطليقة .. سعيد أنا .. أعود حين يحلو لي أن أعود وأذهب إلى
المقهى حين أشاء وأنغدي حيث أشاء وأنعشي أينما أشاء .. حلوة هي هذه الحياة الحرة .. قد
يعتريني بعض الملل أو قد أحب أن أنغدي في البيت فلا أستطيع ولكن حلوة الحرية .. لقد
مرت ستة شهور وأنا أتمتع بحريتي كاملة لكم أنا سعيد بحريتي هذه .. اليوم سأخرج في
موعدي في الصباح لأذهب إلى المكتب وحين أعود لن أكون حاملاً شيئاً وسأهز ذراعي ما حلا لي
الهز .. لا أدري لماذا أجد ذراعي مثنياً كلما انتهيت إليه وأنا سائر .. لماذا أحس دائماً أنني أحمل
شيئاً مع أنني لا أحمل شيئاً .. اليوم سأتحري أن أهز ذراعي لأنني لا أحمل شيئاً .

— أهلاً ست زنوبة .. صباح الخير .

— أهلاً وسهلاً .. صباح الخير .. هل جاء ميعاد المكتب ؟

— والله أمامي وقت .

- اتفضل اشرب قهوة ..
- لقد كنت أريد أن أجيء إليك من زمان .
- أهلاً وسهلاً .. أحضر لك القهوة .
- أقعدى فقد تغيرين رأيك وتحضرين شيئاً آخر .
- أمرك .
- أنا الآن كما تدرين عازب .. وأنت أيضاً .. ما رأيك لو تزوجنا ؟
- والله معقول .
- على بركة الله .

لا أدري ..

- لا ..
- لماذا ؟ ..
- لا أدري ..
- أراك ..
- ماذا تريد من رؤيتي ؟
- نتفاهم ..
- علام نتفاهم ؟
- على هذا الموقف ..
- ليس هناك موقف ..
- ولا هذا الامتناع ..
- لا أريد ..
- بدون سبب ؟
- بدون سبب
- ماذا فعلت ؟
- لم تفعل شيئاً ..
- إذن ؟ ..
- لا أريد ..
- أليس هذا موقفاً ؟
- ليكن موقفاً ..
- لتفاهم إذن ..

- بدون تفاهم ..
- هناك غيرى ؟
- من هذه الجهة تستطيع أن تطمئن ..
- إذن نلتقى ..
- لا أرى فائدة من اللقاء ..
- فهل ترين فيه ضرراً ؟ ..
- أبداً ..
- إذن ..
- لا فائدة من هذا اللقاء ..
- ولكن أرى أنه ضرورى ..
- إنك تستطيع أن تقول كل ما تريد فى التليفون ..
- هناك أشياء لا يستطيع التليفون أن يحلها ..
- هذه الأشياء لن تحل ..
- مجرد أن أراك هام عندى ..
- لا داعى لذلك ..
- أنت خائفة ؟ ..
- مم أخاف ؟ ..
- ألا نستطيعين مقاومتي ؟
- أنتظن ذلك ؟
- أنا واثق ..
- حيلة قديمة ..
- أين الحيلة ؟
- لنلتقى ..
- لتكن حيلة ..
- لا تنطل على ..
- مادمت قد فهمت الحيلة فلا مانع من اللقاء ..
- إذا كنت مصمماً ..
- ألا ترغين فى هذا اللقاء ؟
- لا أرى له فائدة ..
- إذن نلتقى ..
- إذا شئت ..

ما هذا التصميم ؟ .. لماذا ؟ ..

إن كل الأسباب التي جددت تدعو إلى اللقاء .. ماذا ألم بها .. ماذا جنيت .. لماذا تغيرت على .. لقد دعيتي أول الأمر .. لم أفكر فيها يوم سكنت العمارة .. حتى ابتسامتها التي كانت تلقىها إلى كل صباح عند خروجي كنت أظنها ابتسامة مبدولة لجار جديد ، وكنت أردتها بابتسامة أعتقد أنها كانت ابتسامة بلهاء .. عرفت أنني حاصل على ليسانس الحقوق ، ولم أعجب أنها عرفت فسكان العمارات حديث مشاع لبعضهم البعض ، ولكنني عجت يوم دق الجرس فوجدتها تدخل إلى بيتي .. استشارة قانونية لقريبة لها مات زوجها وهي حائرة مع أهله .. والذين يتعلمون الموارد يتعلمون كيف ينسونها في اللحظة التي يغادرون فيها كرسى الامتحان .. فأصبحت أمامها أكثر حيرة من قريبتها مع أقارب زوجها ..

— أبحث الموضوع وأرد عليك ..

— متى ؟ ..

— غداً ..

— وهو كذلك .. متى ؟

— أجيء إلى حضرتك الساعة الخامسة ..

— نجيء ؟

— نعم ..

— إلى البيت ؟ ..

— إذا لم تر مانعاً ..

— أنا لا مانع عندي ، ولكن أعتقد أن زوجي يمانع ..

— زوجك ؟

— ماذا .. غريبة

— إذن ..

— أجيء أنا إليك .. في السادسة .. إنه يخرج دائماً قبل السادسة ..

وجاءت ولم تسأل عن الفتوى التي مكثت الساعات أبحث عن جوابها .. لم تسأل عن الفتوى .. ولست غيباً إلى الدرجة التي تتصورها .. حين دخلت بدأت أجيب فتواها ، فإذا هي تغير الموضوع دون أي اهتمام بحيرة قريبتها ..

باحث تقصي على ما تلقاه من إهمال زوجها .. وهذا الموضوع بطبيعته يؤدي إلى ما انتهى به الأمر بيننا ..

واستمر الحال على هذا سنوات ثلاثاً وبضعة أشهر .. لم يكشفنا أحد ، فقد كان من العسير أن يكشفنا أحد ..

في أحد الأيام توقفت من نومي على صراخ هائل يشق الفجر ، وهولت أسأل .. لقد مات الزوج .. كيف .. لا أدري .. مات .

أنا لا أدري كيف مات .. لقد كان مريضاً منذ زمن بعيد ، وكان من الطبيعي أن يموت ، لم يكن يمثل لأوامر الطبيب ، وكان يجب أن يبدو أمام الناس شاباً .. أما أمامي فلم يكن يستطيع أن يبدو شاباً ، ولا أن يبدو رجلاً على الإطلاق .. لم يكن يستطيع .. ولكن ماذا يريد هذا الشاب الذي يقيم بالدور الأعلى .. لم أعد أريد صداقته .. لم أعد أريد .. لا أدري لماذا .. لم أعد أريد .. أصعد إليه .. ولا تعجبني ملاحظته لي بالتليفون .. حاول أن يجيء إلى البيت فنهرته ومنعته ، فالخدمة معي ولا يعقل أن يدخل البيت .. لماذا يلاحقني وقد قلت له لا أريد .. يريد أن يعرف لماذا .. ماذا يهيمه أن يعرف .. المهم أنني لا أريد .. ألا يكفي هذا سبباً . أظن أنني ما دمت أنا التي قدمت إليه نفسي فمن حقه أن يفرض على نفسه .. ان أصر على هذه الملاحظة فسأترك العمارة والحي وأذهب بعيداً إلى حيث لا يعرفني .. يريد أن يلتقي .. وما يهيم ؟ .. سألقاه .. ماذا يستطيع لقاءه أن يفعل .. سألقاه .

— هأنا ألتاك ..

— لماذا ؟ ..

— لماذا تصر على أن تعرف لماذا ؟

— لأعرف ..

— ماذا تستفيد من المعرفة ؟

— مجرد المعرفة ..

— ليس هذا جواباً ..

— هل أخطأت في شيء ؟ ..

— أتظن أنك أخطأت في شيء ؟

— أنا لا أعتقد ذلك ..

— فلماذا تسأل ؟

— لعل أخطأت في شيء وأنا لا أعرف ..

— لم تخطيء ..

— إذن ؟

— لا أحب الخيانة ..

— وما كنا نفعله ..

— آه .. هذا ؟ ..

— نعم ..

— كنت أخون زوجي ..

- ثم ؟
- ومات زوجى ..
- أعرف هذا ..
- وأنا لا أحب الخيانة ..
- ألم تكن خيانة وزوجك حى ؟
- نعم كنت أخون زوجى ..
- أليست هذه خيانة ؟
- ليست هذه هى الخيانة التى لا أحبها .
- فما الخيانة التى لا تحبها ؟ ..
- لم يعد زوجى موجوداً .. لا أحب أن أخون نفسى .

فى الطريق ولن أعود ..

موجود بلا وجود أنت . لا يهمنى فى شىء أن تأكل وتشرب وتعيش وتنام .. فأنت عندى لا وجود لك ولا كيان ولا حياة . أنا لا أعرفك ... لست أنت .. أنا لا أريد أن أعرفك ولا أريد أن أذكرك وكم أتمنى ألا أراك .. بللم الله أن هذه الحياة التى تقوم بيننا حرام ... لا تستند الى شرع ولا تعتمد على قانون فهى ليست قائمة وهى ليست موجودة ، وأنت غير موجود .. غير حى .. أنت عندى وهم .. أنت ماض لم يعد له حاضر .. أنت ذكرى بددها واقع .. أنت حلم قضى عليه ظهور النهار .

نعم إلى غمطة ، ولكن ألم أدفع ثمن الخطأ الذى ارتكبت .. وهبى أجرت ألا يدفع المجرم ثمن جرمته بعض وقت يقضيه فى السجن ، ثم هو برىء .. فكيف تريد الحياة أن تحكم على بالإعدام وأنا لم أقتل أحداً إلا للكرامتى ، وكيف تريد أن ترغمنى على هذه الحياة .. كنا فى مطالع اللقاء الأول بيننا نقول إن الحياة بلا حب هى الموت .. بربك ألم تشعر بعد أن حباً بيننا لم يعد له وجود .. تدعى فى أحيان أنك تحبى .. إنك كاذب .. لا تستطيع أن تشعر بنبضة من حب لإنسانة تكن هذا القدر من الكره الذى أكنه لك وتزعم أنك لا تعمل إلا ما تمليه عليك مشاعرك .. أية مشاعر هذه التى تملى عليك هذا الامتهان للإنسانى ، وهذا التحقير لمواطنى .. أنت غير موجود .. غير موجود ..

إن دخولك البيت وخروجك على مشهد منى .. وحديثك الجاف المتعالى دائماً .. وطعامك المتكبر المتاله .. ومعاشرتك البعيدة كل البعد عن الإنسانية ، كل هذا لا يستطيع أن يجعل من وجودك وجوداً .. أنت غير موجود .

كنت موجوداً دائماً قبل أن تتزوج .. كنت نبضات قلبى ، وكنت فكري ، وكنت دمائى .. ولم تكن يوماً ذاك فى بيت واحد .. وكان البيت الذى أعيش فيه يكرهك جميعاً وكأن

لا يطيق أن يذكر اسمك .. فلم يكن اسمك يذكر .. وكنت موجوداً .
 كنت خناناً .. وكنت همسه حبيبة توشوش أنفاسي وآمالى وغدى .. كنت موجوداً .
 كان أبى يكرهك ، وكانت أمى تكرهك لأنها كانت تحب أبى .. لماذا أحبتك فى هذه
 الأيام ؟ ما أسخف هذا السؤال دائماً .. ولكننى أذكر أننى كنت أحبك بقلبي وعقلي ، بآمالى
 وفكرى .. كنت حين أسير إلى جانبك أحس أننى أسير مع إشراق الحياة ، وأحس خطواتى
 تنتقل فى الشاطئ الأمين من العالم ، كانت ألفاظك أمناً وثقة ، وكان بيتى أمناً وثقة ، فأنا أكره
 الاضطراب ويقتلنى القلق .

ازددت ثقة بك وأنت عند أبى تطلب يدى .

— ابنتى صغيرة ..

— أنتظروها ..

— لا أحب الانتظار ..

— ولكن يا سيدى إنه أنا الذى أنتظر ..

— لا أحب ..

— لا تحبى أم لا تحب الانتظار .. ؟

— لا أحب شيئاً ..

رفض أبى بإصراره الحاد العنيف ، وحين رأى فى عيني ابتذار الدموع ..

— تريدن الزواج ؟؟

— صمت ..

— أم تريدن هذا الشخص بالذات ؟ ..

— وأطرقت ..

— فأنت تريدنه بالذات ..

— وظللت مطرقة ..

— إنه لا يعجبني ..

ورفعت رأسى أريد أن أقول ، ولكنى صمت ثم أطرقت ..

— نعم أعرف أنك أنت التى ستزوجينه وليس أنا ..

ورفعت رأسى ورأى فى عيني أن هذا ما كنت أريده ، وأحسست أنه عرف ما أريد ..

فعدت أصمت من جديد وأطرقت ..

— ولكن أنا الذى أختار لك ..

ورفعت رأسى .. ورأى السؤال فى عيني ..

— من حقا أن تحبى من تشائين ، ومن واجبى أن أوافق أو لا أوافق ..

ولم ينتظر حتى يرى الدهشة فى وجهى ..

— نعم .. وأعلم أنك طالبة فى الجامعة .. وأعرف أيضاً كل ما كتبه الشعراء والكتاب والقصاصون عن الحب ، بل وأعرف الحب نفسه ، ولكن هؤلاء الكتاب والفنانيّن يتناورون لموضوعاتهم النواحي العاطفية ولا يتكلمون عن تجربة الأب وفهمه للأمور وطول ممارسته للحياة ، وممارسة الحياة له .. فحكمه حين يحكم وراه كثير من العقل والحكمة والبعد عن العاطفة ..

ولم أرفع رأسى ..

— إننى لم أقل فى حياتى كلاماً أكثر سخفاً من هذا الذى أقوله الآن ..
وتولفتى دهشة لم يكن محتاجاً لبراها ..

— إننى أنصح وأخطب وأعظ .. ليس أسخف من ذلك .
ونحالفنى خاليج من الأمل ..
— إذن ..

— لن نتزوجيه ..

ولم ينتظر أن أسأله ..

— ويدون إيداء أسباب ..

إننى أعرفه .. إننى أعرفه .. لا يتراجع .. ولكن عليه أن يبدى الأسباب .. لا بد أن يبدى الأسباب ... قالت أمى :

— ألا تكفى إرادة أببك ؟

— إرادة أبى هذه تكفى عندك أنت لأنك عشت فى عصر كانت فيه إرادة الرجل هى القانون ولكننا اليوم فى عصر ، القانون نفسه محل نقاش كبير .

— إذن فاعلمى أن هذا الفتى الذى تحبين خطب قبلك أربع بنات وتركهن .

خبر جديد لم أكن سمعت به .

— من أين عرف أبى ؟

— سأله .

— متى سأله ؟ ..

— بعد أن رفض ..

— أليس عجباً .. ؟ !

— ما العجب ! !

- يرفض ثم يسأل .. لماذا رفض إذن ولم يكن يعلم هذا عنه ؟
- يقول إنه لم يكن مرتاحاً إليه .
- لمجرد شكله ؟
- هذا فارق السن يابنى ..
- هذا سحر .
- بل تمهيرة .
- على كل حال لا يهم .
- لا يهم أن يخطب أربع بنات ويتركهن .
- لم تعجبه واحدة منهن .
- وأعجبته ؟ ..
- ولم لا ..

لا فائدة ترجى من هذا النقاش لقد رفض أبى .. ولم يكتف بهذا بل سعى فنقل إلى الاسكندرية لأبتعد عن القاهرة ومرضت أمى فأصبح الحديث فى الزواج غير معقول .. وطال المرض بأمى وسألت أبى أن تعود إلى القاهرة لتكون بجانب أهلها واستطاع أن يعود .. وعدت أنت إلى .. حناناً ولهفة عدت .. تسألنى عن أمى ولا تتكلم عن الحب وإذا تعذر عليك أن تكلمنى راحت أمك تكلمنى فهى كل يوم تسألنى عن صحة أمى وعن سير المرض كأنما هى طبيب مخلص فى عمله .

وماتت أمى .. وأطبقت أمك على بآنيابها الذكية المتمرسه فإذا أنا أتعلق بها تعلقى بأمى وتعطف على كائنى ابتها .

ومر فترة الحداد القاسية وأخرج من السواد القائم لتلقفنى ذراعاً أمك ولسانك .. بعد موت أمك سيرغمك أبوك على الزواج بمن يريد ولن تجدى أحداً يحميك .

إن السواد الذى يصاحب الموت يشل العقل .. إن التجار والنهازين لا يجهدون فرصة أحسن من الموت ليعقدوا صفقاتهم .. إنها فترة يظن فيها أهل الميت أن الجميع يعطف عليهم ولا يريد لهم إلا الخير .

وكان البيت الذى خلا بى وبأبى جحيماً .. هو يعلم أبى أريد ما لا يريد وأنا لا أدري لماذا لا يريد وكما تعقدت هذه الكلمات كانت حياتنا معقدة فيها جهامة الموت ونفور الرغبة والرفض .

حتى إخوتى حين كانوا يلزمون بنا فى زيارة كانوا فاشلين فى تبديد ما بينى وبين أبى من جليد ونار .

وتزوجتك .. وحين أرسلت وثيقة الزواج إلى أبي قال لأختي في برود وصرامة لا تدخل
بيتي .. ولم أدخل .

وخلوت بي وخلت أمك .

كانت بداية عهدك الجديد وعهد أمك جملة قالتها حاتي في جمعية كبيرة من السيدات :
— يا حسرة علينا تزوج ابني بلا فرح ولا زفة ولا حتى زغرودة .

وانقلبت أنت وحشاً كاسراً .. فقد علمت أنني أصبحت بلا ملجأ إلا أنت فأنا إذن
كالمطاط مهما تقذف بي إلى الحائط فسأعود إليك .. وأعود إليك .. وأعود إليك .

لا أريد أن أذكر .. لا أريد أن أذكر .. ولكن شيئاً واحداً لا يحتاج أن أذكره .. إنني
أصبحت مهانة وحقارة وبشرية مدمرة عصفت بها أنت وحين كنت أقول لنفسي لا يمتحن
الإنسان إلا نفسه .. تصيح بي نفسي أليس أنت من اخترت .. وينتهي الحوار إلى هذه
الصيحة ولكن يوم ضربتني .. صحت في نفسي ألم أدفع الثمن بعد .. إن المجرم يدفع الثمن
بضع سنوات ثم هو بريء .. وأنا لم أدفع الثمن بعد ؟ أنت غير موجود .. لو أنك دمرت
حياتي عن كره ما كرهتك بهذا القدر الذي أكرهك به الآن .. ولو أنك قسوت عن طبيعة
لا تمك أن تغيرها في نفسك ما احتقرتك كما احتقرتك الآن .. ولو أنك مزقتني وأنت تعرف أن
لي مكاناً أستطيع أن ألتجأ إليه إذا ما فعلت ما أفعله الآن .. أنت لا تعرف أين أنا .. أنا في
الطريق العام .. لا أعرف لي وجهة ولا مكاناً ولا مستقراً .. وسأسير وسأظل أسير وليكن
الطريق بيتي وغدى ومستقبل ولكن لن أعود .. وكيف أعود إلى عدم .. إنك اليوم بالنسبة لي
عدم أنا لن أعود .



أخيتى وأنا ..

أنفاسى أين ذهبت ... لماذا لا أتنفس ... كيف استطاعت الدنيا جميعاً أن تحشم على صدرى فلا أتنفس وكيف لا أزال أعيش وأنا لا أتنفس .. نعم إنى أريد أن أعيش ، ولكن هل تكفى هذه الإرادة حتى تجعلنى أعيش دون أن ألتقط من الهواء أنفاسى ؟ ..

كيف وجدت نفسى فى هذه الحجرة ؟ وكيف أغلق على بابها وأغلقت من دونى نوافلها ... هذه النافذة الشرقية ، وهذه النافذة الغربية ، وهذه النافذة فى الوسط بينهما .. لماذا أقفلت النوافل جميعاً فأصبحت لا أرى شيئاً .. لا أرى شيئاً على الإطلاق وإنما .. أسمع ...

هناك ضجيج فى الخارج هادر صخاب ... أنا لا أدرى شيئاً ولا أتنفس .. لا .. لن يستطيعوا أن يستلبوا عقل أو تفكيرى أو ذاكرتى .. فليقفوا الأبواب والنوافل ما شاء جبروتهم أن يوقفوها . ولكن سأظل أفكر وسأظل أذكر .

أرى هذا البخور ينساب إلى الحجرة من خصائص النوافل المغلقة ومن أسفل الباب المغلق .. أراه ولكنى لا أشمه ، فأنا لا أتنفس ، ومادمت لا أتنفس فأنا لا أشم .. ومادمت لا أشم فالبخور لا يصل إلى عقل ولا يؤثر فى ولا يصل بى إلى الحذر الذى يبيتون لى .. لأننى مفق وإن كنت لا أتنفس ، وسأظل مفقاً .. فأمل الوحيد فى الحياة أن أظل مفقاً .. وإنى مفق .

إنها ليست حياتى وحدها التى أعيش لها .. إن حياة أخيتى معلقة بحياتى .. إذا أنا مت ماتت ، وإذا أنا ضعفت لهذا الحذر الذى يطلقون على انفرادوا بأختى ، وويل لأختى إذا هم انفرادوا بها .. الموت أهون ما تلاقيه ..

ليست أختي مجرد أخت وإنما هي ماضى وحاضرى ومستقبل .. ليس لى فى الحياة إلا هى .. وليس لها فى الحياة إلا أنا .. ويكفى أن تكون مجرد أختى لأبدل فى سبيلها حياتى ، ولكنها أكثر من ذلك .. أكثر بكثير .

إن أختى هى الأنفاس التى تتردد فى كيانى ، هي غذائى وفكرى وأملى .. وليس هذا بغريب .. فقد عرفتها وأنا لا أعرف فى الوجود شيئاً ، وظللت أعرفها بجانب كل الأشياء والأشخاص التى عرفتها بعد ذلك ..

أعرفها كجزء من كيانى وما زالت كل كيانى .. لفقتنى يداها وأنا أدلف إلى الحياة وقد مات أبى وأمى تحملى .. وماتت أمى وهى تلدن ، ولم يبق لى فى الحياة إلا أختى ، ولم يكن لأختى حينذاك أحد .. فتاة فى ريق العمر ، ليس لها إلا جماها وذكاؤها المتوقد ، وتحمل عبه طفل رضيع وليس له من يرضعه .

عملت .. عملت فى كل الأعمال ، ورفضت أن تتزوج حتى ترائى وقد استقام أمرى ، ولكن هناك شيئاً واحداً لم تقبل أن تضحى به من أجل ..

... إننى احتفظت بها من أجلك ..

... كنت تكسين أكثر لو تنازلت عن حريتك ..

— كنت أفقد كل شيء ..

— وهم ..

— الوهم أن أفقدها ..

— كان يمكن أن تشقى الحياة فى يسر لو لم تتمدسكى بها هذا التمسك الأعمى ..

— أعتقد أنه الحق ..

— والحياة ..

— لا حياة بدونها ..

— كنت تعملين ؟ ..

— العمل حرية ..

— وقيود ..

— حرية بلا قيود هى الفوضى ..

— لقد حملت العبء ثقيلاً ..

— شعورى بأنى حرة جعلنى أحتمله ..

— وقدمت لى الحرية ..

— ألم تسعد بها ..

— لست أدرى ..

- إنك تحاول التفلسف ..
- بل أقول الحق ..
- إنك تدمرن بهذا الذى تقول ..
- أعتقد أنه الحق ..
- إذن فعبث كل الذى بذلته من أجلك ..
- إننى أعيش ..
- ان كنت لا تعرف معنى ما قدمت فأنت لا تعيش ..
- إننى أعيش
- إنك تعيش لأنك تتنفس ..
- كل إنسان يعيش لأنه يتنفس ..
- لو تنفست ما وهبته لك ما احتجت إلى الشهيق والزفير
- أنا لا أدرى ..
- كل مافى الأمر أنك لم تجد نفسك محتاجاً لتدرى ..
- لا أفهم ..
- لم تتعرض للموقف الذى تمتحن فيه نفسك ..
- أرجو ألا أتعرض ..
- بل أرجو أن تتعرض ..
- وحين استقام منى الأمر وأصبحت قادراً على مواجهة الحياة تقدم إلى أختى من يخطبها ..
- رجل كبير فى السن ، ذو سطوة وسلطان ..
- إنه كبير فى السن ..
- وهل يمكن أن يتزوجنى إلا كبير فى السن ..
- ألا تخافين ؟
- فى كل حياة جديدة عناصر من الخوف ..
- لم تتعودى ..
- لا بد أن أتعود ..
- ولماذا ؟
- من أجلك ..
- من أجلى أنا ؟
- أريد أن تتجدد أنت أيضاً ..
- ولكنك ستظلين أختى ..
- وزوجة ..

- لماذا تقولين هذا ؟ ..
- لقد عشت عمراً طويلاً فرعاً .. مجرد فرع .. أريدك أن تكون أصلاً ..
- لماذا ؟ ..
- لتعيش الحياة .. لا بد للحياة أن تعيش ..
- فليعمل غيرنا على أن تعيش الحياة ..
- ولماذا لا نعمل نحن ؟ ..
- لأن ...
- قل ..
- لأن أحبك ..
- ولأن أحبك أقبل الزواج ..
- وذهبت إلى بيت زوجها وبدأت حياة جديدة .. وبدأت أنا أيضاً حياة جديدة .. ولكنني كنت أذهب إليها في كل يوم .. الأسى والحزن والألم واللوعة هي وجهها .. والسعادة والهناء والبشر والسرور هي ألفاظها ..
- مالك ؟ ..
- سعيدة ..
- حقاً ؟ ..
- ألا ترى ؟ ..
- لا .. ولكني أسمع ..
- ما تسمعه هو الحقيقة ..
- لا بد أن أراه ..
- يكفيك أن تسمع ..
- كنت أذهب إلى بيت أختي في مواعيد منتظمة .. وكنت كلما شهدت التناقض بين ما تراه عيني وما تسمعه أذني أزداد لطفة عليها وخوفاً .. وفي يوم ذهبت في غير مواعيد فوجدتها في حجرة مغلقة مع زوجها .. فمكثت أنتظر خروجها .. وخرجت بعد وقت لم يطل ..
- وماذا تبررين هذه الدموع ؟ ..
- دموع فرح ..
- دموع الفرح ليست غزيرة كهذه الدموع ..
- أتعرف لها عدداً معيناً ؟ ..
- دمة واحدة أو اثنتين ..
- ولكن الفرح الكبير له دموع كثيرة ..
- ليست هذه دموع فرح ..

لم أكن قبل ذلك أسأل زوجها عن شيء ، ولكننى فى ذلك اليوم ..
 - لماذا ؟ ..
 - ماذا ؟ ..
 - لماذا لا تسعدها ؟
 - هل شككت ؟
 - دون أن تتكلم ..
 - ليس هناك ما تشكو منه ..
 - لأنك تمنعها من الشكوى ..
 - بل لأنها لا تجد ما تشكو منه ..
 - لعلها لا تريد أن تزعجنى ..
 - حين تشكو إليك اسأل ..
 - ولكن لماذا لا تسعدها .. لقد وهبت لك أغلى ما ادخرته فى حياتها ..
 - إنما أصنع كل ما أصنعه لإسعادها ..
 لن يفيد هذا المخدر الذى يثبته عبر النوافذ ومن تحت الباب . فلانى مفيق ..
 وإنى أذكر .. أذكر حين ذهبت إليها مرة أخرى على غير موعد فوجدت زوجها يضربها فى
 البهو بعصا غليظة ، وهى صامتة جامدة وهو يضرب ويضرب ..
 ولم أفكر .. ووجدت نفسى أهجم على العصا لأوقفها ، وقبل أن أصل كنت هنا فى هذه
 الغرفة ..
 لا أتنفس ، ولكننى أعيش .. إن الحياة التى فى داخلى تجعلنى أعيش ..
 إنها حياتى وحياة أخفى فى جسمى أنا .. لا يهمنى فى شيء أن تقفل النوافذ جميعاً
 والأبواب ، فأنا لا أحتاج لشيء .. فحياتى فى داخلى ، وإننى مفيق .. وإننى مفيق .. إن حياتى
 جميعها تستمد بقاءها من أننى مفيق .. وإننى مفيق ..

حين يميل الميزان

لا أنا لا أريد أن أقص عليك ، ولا أريد أن أدافع عن نفسي ، فلن أصبحت وأنا في غير حاجة للدفاع أمام أحد . . لا تنظن أنك من علماء النفس وتحاول أن تقول إنني أدافع عن نفسي أمام نفسي . . فحتى هذا أنا لا أحتاج إليه . . إنني أقوى من هذا جميعه . . الضعفاء وحدهم هم الذين يحاولون أن يدافعوا عن أنفسهم أمام الناس أو أمام أنفسهم وأنا لست ضعيفاً ولن أكون ضعيفاً . . أنا قوى . . قوى . . قد تقول أنت في محاولتك المتهافئة للتحليل انني أصبحت ظالماً وأن الظلم غير القوة . . هل هذا الذى تقول . . إن الظلم هو القوة . . العدل الوحيد الذى أعرفه في العالم هو هذا الذى يلقنه الأساتذة لتلاميذهم أما الناس في الحياة فهم إما ظالمون أو مظلومون . . إذا ملكوا ما يجعلهم أقوىاء فهم ظالمون وإذا وقعوا بين أنياب من هو أقوى منهم أصبحوا مظلومين . . ولماذا تطلب العدل بين الناس والعالم كله تحكمه القوة . . القوة وحدها . . ولا يجرؤ أحد أن يقول هذا ظلم . . دولة تغتال أخرى . . وتقول هذا هو العدل . . إنما عدلها هو القوة . . وهو عدل ظالم ويعرف العالم أجمع أنه عدل ظالم ولكن القوة تؤيده فهو عدل عادل . .

أنا لا أحاول أن أدافع عن نفسي . . فأننا قوى . . لا ولا أحاول أن أبرر ما أفعله فلست في حاجة إلى تبرير . . لا ولا أريد أن أقص عليك شيئاً فأننا لست مأجوراً لتسليتك وإنما أنا أريد أن أتكلم ومن مظاهر القوة الرائعة أن يتكلم القوى حين يطيب له أن يتكلم ويسكت حين يحلو له أن يسكت ومن مظاهر القوة أيضاً أن يسمع له الناس إذا تكلم وأن يحترموا صمته إذا صمت . . تلك هي القوة وأنا قوى . . أتكلم حين أريد وأسكت حين أشاء وعلى الناس أن يسمعوا إذا شئت حديثاً وعليهم أيضاً ألا يسألوني حديثاً إذا لم أرد أن أقول .

حين مات أبى ترك لى ثروة لا بأس بها تستطيع أن تهبط لى حياة ميسورة إن لم تكن حياة

رغبة .. لم أكن يومذاك قد بلغت سن الرشد فكان لابد لعمى أن يصبح وصياً على ، فأصبح .. وكان عمى من هؤلاء الأقوياء الذين يطلق عليهم الضعفاء ظالمين . ولكن عمى على قوته لم يكن ذكياً .. نعم سأقص عليك لماذا لم يكن ذكياً .. طبعاً فهمت أنه كان يفتال أموالى .. فإن كنت قد فهمت هذا فلا تظن أنك ذكى فما يحتاج الأمر إلى كثير من الذكاء لقد تسامعت الأجيال أن الغالبية العظمى من الأوصياء يفتالون أموال القصر .. كان عمى من هؤلاء الذين تسامعت عنهم الأجيال .. كان يأكل أموالى .. ولم يكن ذكياً لأنه كان يجعلنى دائماً فى حاجة إلى المال فهو ينفق على تعليمى وينفق على ملابسى الإنفاق الذى لا يجعل الناس يتساءلون أين ذهبت أموالى ثم هو لا يكاد يعطينى شيئاً بعد ذلك . وهنا يبدو غباؤه فقد جعلنى أنا أبحث الأمر فى خفية منه .. وعرفت .. عرفت أنه لص .. ولم أكن أملك الدليل .. كنت أسميه فى ذلك الحين لصاً ولكنى اليوم أسميه قوياً .. كان قوياً .. وكنت أنا ضعيفاً .. حتى كان يوم عثرت فيه على أوراق فى مكتب عمى .. كان بين هذه الأوراق إيصالات مئى تحمل توقيعى وكان توقيعى مزوراً .. ألم أقل لك إنه لم يكن ذكياً ؟ .. أخذت الإيصالات ووضعتها فى جيبى وأكملت يومى فى بيت عمى كان شيئاً لم يحدث .

كنت أرى زملائى فى كلية الحقوق يلبسون أفخر الثياب وكان بعض منهم يملك سيارة وكانت السيارة مع هذه الملابس وسيلة رائعة للتعرف بفتيات الكلية وقد كان التعرف بالفتيات فى هذا الزمان مسألة تحتاج إلى إعداد ومعدات . أعرف زملاء لى دخلوا كلية الحقوق وخرجوا منها لم يكملوا فتاة واحدة . وكم كنت أشفق أن أكون مثل هؤلاء الزملاء .. كانت أمنيتى أن أصادق فتاة من فتيات الكلية ولم تكن الوسيلة تهمنى . لم يكن يهمنى أن تحببى هذه الفتاة لشخصيتى أو لسيارتي أو لملبسى .. إن شيئاً من هذا لا يهم . المهم .. المهم الوحيد أن أتعرف بفتاة .. وأقرب الفتيات إلى فتاة من الكلية .. أنا لا أدافع عن نفسى فانت لست قاضياً حتى أدافع عن نفسى .. ولا أنا أشعر بأننى فى حاجة لأبرىء نفسى أمام نفسى .. وإنما أنا أحكى لأنى أريد أن أتكلم .. كنت فى ذلك الحين أريد أن أكون شخصاً عادلاً لا أظلم أحداً ولا يظلمنى أحد .. كنت أريد أن أكون من هؤلاء الذين يسرون على الطوار ولا يعبرون الشارع إلا من المكان المخصص لذلك .. كنت أريد أن أطيع القانون بشرط واحد هو أن يحمينى القانون ، كذلك تعلمنا فى نظرية العقد الاجتماعى .. أننا نأخذ من جزء من حريقى للدولة حتى نحافظ لى الدولة على الجزء الأكبر الباقي من حريقى . كان أملى أن أصبح طرفاً فى العقد أحافظ على شروطه ويحافظ الطرف الآخر على شروط العقد أيضاً .. والدولة عندهى هى المجتمع وأنا لا أطلب حقاً ليس لى .. فلست فقيراً وأريد أن أكون غنياً ، ولست جاهلاً وأريد أن أكون عالماً .. كل ما أريده أن أنال حتى الذى لا شك فيه والذى تركه أبى أمانة فى عنق عمى .. وعمى من المجتمع والمجتمع هو الدولة . فإذا اغتال عمى حتى كان على الدولة أن ترد هذا الحق لى .. وكنت أعرف أنه لا سبيل إلى ذلك فهو يتخذ الوسائل القانونية التى تجعل الدولة

والمجتمع في حالة توافق معه .

كيف إذن أستطيع أن أكون شخصاً سوياً ، طرفاً في العقد غير الممهور القائم بين الدولة وبينى ، وكيف أستطيع أن أسير على الطوار ولا أعبر الشارع إلا من المكان المخصص لذلك ؟ لا سبيل .. لابد إذن أن أعبر من أى مكان لأنال حقى .. ومادام لا سبيل لنيل حقى إلا عن طريق غير شريف فليكن الأمر إذن كما تشاء قوانين الحياة لا قوانين العقد الاجتماعى .

إذا اختل ميزان العدل مرة في نفس إنسان فلا سبيل لهذا الميزان أن يستقيم مرة أخرى ، إنه عوج يؤدي إلى الإصابة بعاهة مستديمة لا سبيل إلى الشفاء منها .. ولكنى لم أر هذا الميزان قائماً عند أحد أبداً .. الجميع .. الجميع .. الموازين فوقهم مائلة .. هى للقوى مائلة لصالحه وهى للضعيف مائلة عليه .. كم كنت أريد أن يكون الميزان عندى مستوياً لا مائلاً لي ولا مائلاً على .. أنا لا أدافع عن نفسى .. فما دام القانون الموضوع أصبح مستحيل التطبيق فلا مناص من العودة إلى القانون الطبيعى .. والقانون الطبيعى غالب ومغلوب بلغة الغاب وظالم ومظلوم بلغة المظلومين وقوى وضعيف بلغة الصديق .

حين حصلت على هذه الإيصالات تحمل توقيعى المزور أصبح الأمر ميسوراً عندى .. فأنا أريد سيارة وأريد ملابس أنيقة لأننى أريد فتاة تركب إلى جانبى .. أخذت أحسب الإيراد الذى كان من حقى أن أحصل عليه .. ولكن مالى أبحث عن الحق .. لم يصبح الحق مهما .. لقد كان المهم أن أحصل على ما أريد لا على ما أستحق .. فذهبت إلى عمى :

— أريد ألف جنيه ..

— ماذا .. جننت .. ؟

— إن لى عند سعادتك ثلاثة آلاف وخمسمائة وستين جنيهاً وخمسة وأربعين قرشاً .. أريد الآن ألف جنيه والباقى سأطلبه حين أريد ..

— طبعاً أنت تمزح أو تدعى الجنون أو أنت مجنون فعلاً ..

— لا . أبداً .. الواقع أننى عثرت على هذا الإيصال عند سعادتك حين كنت عندك في المرة الفائتة .. لا يهديك فى شيء أن تمزقه فهو ضمن إيصالات كثيرة عندى .. وقد تعلمنا في كلية الحقوق أن التزوير جريمة .. العقاب عليها يكون بالسجن ولا أعتقد أنك تفكر في السجن ..

— أنت تهددنى إذن ..

— نعم ..

— كيف تجرؤ ؟

- ... سعادتك تسرقنى وتزور توقيعى ..
- تهددنى ؟
- قلت نعم ..
- إذن .. ؟
- إذن متى تدفع الألف جنيه .. ؟
- هذا مبلغ لا يوجد فى كل وقت ..
- لعلك على حق .. سأمر عليك بعد ساعة ..
- ساعة .. ؟
- كثير ؟
- لا .. أبداً .. سأعطيك الآن المبلغ ولكن على شرط ..
- عمى .. أنا لا أرى أن سعادتك فى موقف يمكنك من إملاء شروط .. !!
- سأعطيك الألف جنيه ..
- ومع هذا لست فى موقف يمكنك من إملاء شروط ..
- ماذا تريد إذن ؟
- نعم إني أنا الذى أريد .. وأنا الذى سأملئ الشروط .
- ما شروطك ؟ ..
- لو قلتها لك الآن فسأعطيك الفرصة لتستريح وأنا لا أريد أن أعطى سعادتك هذه الفرصة .. إن شروطى سأملئها حين يحلو لى أن أملئها .. كل ما أريده الآن ألف جنيه .
- حاضر ..
- وأعتقد أنه يحسن بك أن تعد غيرها سريعاً لأن هذه الألف ستنفق فى فترة وجيزة ..
- فترة وجيزة ؟ !
- السيارات غالية الثمن فى هذه الأيام ..
- سيارة ؟ !
- هات الألف جنيه .

لم أكتف بأن آخذ من عمى الآلاف الثلاثة والمئات الخمس والعشرات الست والقروش الخمسة والأربعين .. أخذت من عمى كل ما حلا لى أن آخذه .. فلقد مال الميزان ولم يعد من الممكن أن يستقيم مرة أخرى .. ولم يصبح عمى هو الوحيد الذى أتعامل معه . لقد تعاملت مع المجتمع جميعاً .. ولم يعد من الممكن أن يستقيم الميزان .. لقد مال مرة فتهيأت هيهات أن يستقيم مرة أخرى . وهكذا أصبحت كما أنا اليوم .. قوياً .. قوياً .. فأنت تعرف طبعاً أننى رويت لك هذا الحديث لمجرد أننى قوى وأريد أن أتكلم فأننا - كما تعرف - لا أدافع عن نفسى أمامك أو أمام نفسى .. فالقوى - كما تعرف - لا يحتاج إلى دفاع ..

قصة صيف

لم أكن أتصور وأنا أعد للسفر إلى الاسكندرية أنه لابد لي أن أفكر في كل هذه الأشياء التي أفكر فيها الآن . أولاً وقبل كل شيء مشكلة النقود . . لابد من نقود كثيرة والمشاكل المالية هي دائماً أهون المشاكل لأنها أكثر المشاكل صعوبة . فالمشاكل المالية عامة ولا يضيرني اليوم أن أعلن للناس أنني مفلس لأن الذين أعلن إليهم جميعهم مفلسون والتشاكي بين المفلسين قاعدة جرى العرف عليها حتى أصبحت قانوناً . . وقد ذكرت مشكلة النقود في أول الأمر لأن وجود نقود معك معناه ببساطة وجود كل شيء معك والعكس صحيح فعدم وجود نقود معك معناه عدم وجود شيء معك . ولعل أستطيع التغلب على هذه المشكلة ببعض قروض بسيطة وبهذا المبلغ الذي لا يزال يتضاءل من عام إلى عام وهو يقطع طريقه من بلدن في الدقهلية حتى يصل إلى يدى في القاهرة . فالموسم موسم قمح ولا بأس على الأرض أن تعطيني في موسم القمح مبلغاً مهما يكن رمزياً .

إذن فلننتقل إلى مشكلة أخرى . . كيف سأحصل على إجازة . . المدة المحددة لي شهر . وزوجتي والأولاد يريدون أن يقضوا شهرين هناك . . تلك هي الحقيقة التي أرفعها ذريعة في وجه كل من يتساءل لماذا لا تكتفى بالشهر . . ؟

أما الحقيقة التي أعرفها والتي لا أقولها لأحد إلا لك أنت لأنه من المفروض أن تعرف أسرارى جميعاً فهي أن صديقى حسنية ستقيم في الاسكندرية شهرين وأنا أحب أن أكون بجانبها ما استطعت إلى ذلك من سبيل ولعل أستطيع بعد أن أحصل على شهر الاجازة الاعتيادية أن أحصل على شهر آخر مرضى .

ولابد أيضاً من العثور على شقة في الاسكندرية قريبة من البحر واسعة وريحة وإذا كانت في طابق مرتفع فلا بد من مصعد ، وإذا كانت في طابق منخفض فلا بد أن تكون منطلقة الهواء .

وأعتقد أن هذه الصفات لا يمكن لها أن تجتمع أبداً فالشقة الواسعة لا تكون رخيصة والشقة الرخيصة لا تكون في عمارة بها مصعد والشقة المنخفضة لا تكون متطلقة الهواء .

وهناك أيضاً وسيلة المواصلات ، كيف سنذهب إلى الاسكندرية ؟ لا تقل شيئاً عن سيارتي .. هي قديمة نعم ولكنها تسير ولا بد للالة التي تسير أن تصل إلى ما تريد .. ليست المشكلة مشكلة قدم السيارة وإنما المشكلة مشكلة سعة السيارة .. كيف لسيارة موريس موديل ١٩٤٦ تولول إذا حملت أكثر من أربعة أشخاص .. أن تحمل ستة أشخاص أنا وزوجتي وابني وابنتي والخادمة والطباخ ؟

على كل حال هذه المشكلة قد يمكن حلها بوسيلة أو بأخرى ولكن المشكلة الأساسية تلوح في الأفق حين نصل إلى الاسكندرية .. كيف أقابل حسنية هناك .. إنها السنة الأولى التي أعرفها فيها . في القاهرة أستطيع أن أترك مكتبي في الصباح لأذهب إليها وأستطيع أن أدعى أنني ذاهب إلى المكتب أيضاً في بعض أيام من بعد الظهر .. أما في الاسكندرية ، فماذا أقول لزوجتي .. نعم أنت محق ، تلك هي المشكلة الحقيقية .. ماذا أقول لزوجتي .. لعلك أيضاً محق فيما تذهب إليه ، إن مشاكل جميعها نابعة من هذه المشكلة أنها تقف خلف جميع المشاكل التي ذكرتها .. انها هي مشكلة المشاكل .. لا بد أن أجد وسيلة .. ولا يهكم .. إنه سبحانه يدبر لكل عقدة حلا . وهل هناك مانع أن أجد أصدقاء في الاسكندرية .. وما المانع ليس لكل رجل أصدقاء .. وأين كان الأصدقاء في السنوات السابقة .. يا أخى ولا يهكم لكل عقدة عند الكريم حلال .

إنه يظن أنني لا أعرف .. ساذج .. ساذج وعبيط .. لقد عرفت في الأيام الأولى .. فهو ساذج .. لا يعرف كيف يدارى أموره ومن أين له أن يعرف وقد طلع في المقدر على كبر .. عاش معي عشرين سنة لا يفكر في خيائتي وظهرت له حسنية .. ظهرت له في مكتب الوظيفة فأحبها وظن أنها أحبته .. وقد تكون .. لا أعرف .. المهم أنني وجدته فجأة أصبح يهتم بأمور لم يكن يهتم بها .. أناقة أكثر من المعتاد وهو ذاهب إلى المكتب .. وأسأل عنه في العمل فلا أجده .. وأجد صاحي المكتب الذي يخبرني متلعثماً أنه ليس على مكتبه ، هذه الكلمة التي يحاول بها أن يفهمني أنه لم يغادر العمل وإن كان قد غادر المكتب .. ويظن أنني لا أعرف .. ساذج .. أو الواقع أنه ليس ساذجاً وإنما هو معذور .. فقد حبانى الله وجهاً طيباً يستطيع في كثير من الأحيان أن يكون وجهاً غيباً وأنا أستطيع أن أستغل هذا الوجه أحسن استغلال .. فخيّل إليه أنني لا أعرف شيئاً .. لم أسأله يوماً ما هذه الأناقة فهو يعتقد أنني لا أعرف الأناقة عند الرجل .. معذور هو فتعليمي قاصر وهو يعتقد أنني جاهلة .. وحين يجتمع الجهل والوجه الساذج يقع من الناس ضحايا كثيرون لا يقدرّون حقيقة ما يتمتع به الوجه الساذج من إدراك ، وما يتمتع به الجهل من علم . استطعت أن أضع على وجهي هذين الستارين ورحت أراقب .

وحيث تأكدت أنه على صلة بأخرى خرجت وراءه دون أن يشعر وعرفت أين يجتمعان . وفي اليوم التالي كانت عندى كل المعلومات . . التى لا أريد أن أعرفها عن حسنية . هل تمك هذه المعلومات فيم تمك ؟ هى زوجة لرجل يكبرها بسنوات عديدة وهو موظف يعمل مع إسماعيل فى المكتب . . فليس غريباً إذن أن يعرفها إسماعيل . . لعلها جاءت إلى زوجها بالمكتب أو لعله أرسلها بشئ من الأوراق . . المهم أنها تعرفا وتعرفا . . وظل هو يذهب إليها فى الصباح واثقاً من وجود زوجها بالمكتب معه وفى بعض الأحيان يقول لى بسداجة إنه ذاهب إلى العمل بعد الظهر وأنا أعرف هذا العمل الذى يذهب إليه بعد الظهر . لم أقل له شيئاً . . ولن أقول له شيئاً . . بل لى أريده أن يذهب إلى هذا العمل كثيراً . لعله . . لعله يجد هناك متعة . . لقد أصبح مطحوناً فى الشهور التى سبقت تعرفه على حسنية . فى يوم وليلة أصبح شيخاً عجوزاً محنياً على نفسه وعلى أيامه تائهاً فى اللا وجود كالهباء أصبح كالعدم أيامه يأس مرير . . يجب الليل ويكره النهار . . يجب الصمت وقد كان كثير الكلام . . صمت خائف لعين مدبوح لا يجد شيئاً يهتم به أو يفكر فيه بل لا يجد شيئاً جديراً بالاهتمام أو التفكير فالمستقبل عنده عدم لأن الماضى عدم . . لا أعرف كيف التف إسماعيل حول نفسه فإذا هو كومة من الجزع وعدم المبالاة والانصراف عن الحياة ، كل الحياة . . حتى سيارته التى يعنى بها دائماً كما يعنى صاحب السيارة القديمة بسيارته . . حتى السيارة لم تصبح تحظى بشئ من عنايته . . إجلال وعصام ابتتنا وابتنا لم يعودا بالنسبة له شيئاً بعد أن كانت أوقاته جميعاً حديثاً معها أو عنها ، وحين أسأله لماذا لا تكلم الأولاد ولا تعنى بهما يغمغم « لماذا جئنا بأولاد » من أجل لحظة متعة نرمى بكيان بشرى إلى هذه الدنيا . . ما ذنبهما ؟

وأقول :

— ألا ترى أن الحديث فى هذا الشأن متأخر بعض الشيء . . إجلال عندها ثمانية عشر وعصام ستة عشر . .

ويغمغم ثانية :

— لكن لماذا ؟

ثم يعود إلى الصمت فكأنما يذهب بصمته إلى بلد غير البلد أو إلى زمان غير الزمان أو كأنه — على الأقل — يتمنى أن يذهب إلى بلد غير البلد أو إلى زمان غير الزمان .

وأعجب ما فى أمره أنه لم يكن يعرف أنه يعانى شيئاً وحين أسأله :

— مالك ؟

— مالى !

— ألا تعرف ؟

— لا . .

- حقيقة لا تعرف ؟
- أنا طيبى جداً .
- أنت لم تصبح أنت .
- كل إنسان يتغير .
- وهل تغير كل الناس ؟
- كل الناس تتغير .

ويعود إلى الصمت . . ألا تهمل إذن معذورة حين وجدته فجأة يهتم بأناقته . . وتقفز من عينيه هذه النظرة المثوقة تبحث عن المستقبل وتطل على الحياة إطلالة الراغب فيها المقبل عليها . . ولتكن حسنية هي الدواء فإن أجده شفاهه ، أهم من كل الأشياء الأخرى . . تريدنى أن أبلل في سبيله هذه الغيرة . . إننى أحبه ولأنى أحبه أسمح له أن يخوننى . . إنه منذ قررنا السفر إلى الاسكندرية حائر . . يدعى أن النقود هي السبب مع أن النقود لم تصبح مشكلة بالنسبة لنا فنحن في أزمة دائمة ونعيش . انه حائر لأنه لا يدري ماذا سيقول لى حتى يتمكن من لقاء حسنية فقد عرفت من مصادرى أنها مسافرة إلى الاسكندرية . لكم أتمنى أن أقول له اهدأ فلن أسألك عما تفعل واذهب إلى حسنية حين تشاء ولكن أخاف أن أقول له فيعتقد أننى أكرهه وأننى لا أغار عليه . لا أدري لماذا يريدنا الرجال أن نغار عليهم ولماذا يضيقون بغيرتنا حين نغار ؟

- قالت إجلال لعصام :
- ألا ترى أبى حائراً ؟
- لا أرى شيئاً .
- أنت لا ترى شيئاً إلا نفسك .
- أفكر فى السفر إلى الاسكندرية .
- وفيهم تفكر ؟
- أخاف أن تكون النقود قليلة .
- وماذا تريد ؟
- أريد أن أذهب إلى سينما سان ستفانو وأريد أن أرقص فى الكازينو . .
- ألسنت صغيراً على الرقص ؟
- كلهم يرقصون .
- من الفرحة ؟
- لا أعرف وإنما كل زملائى يرقصون .
- ولكنى أراهم فى رقصتهم كمجانين يريدون أن يحطموا أنفسهم .
- لعلهم يريدون ذلك .

- ولماذا يريدون أن يحطموا أنفسهم ؟
- ولماذا لا يحطمون أنفسهم ؟
- لأنها أنفسهم .
- إنها عظيمة فعلاً .
- أنت مجنون .
- الجميع مجانين .
- أنا لست مجنونة .
- إن هدوءك الزائد نوع من الجنون .
- أفكر .
- تعديلين نظام الكون .
- أفكر في أبي .
- ولماذا لا تتركين أبي يفكر في أبي ؟
- إننا أولاده .
- فليفكر هو فينا .
- ونحن ؟
- نفكر في الاسكندرية .
- في السينا ؟
- والرقص .
- ويعد ؟
- ليس هناك بعد .
- لكل شيء بعد .
- ليس هناك بعد .

مزق هذا الخطاب ..

استحلفك بربك .. بكل عزيز عندك .. احكم بيني وبين المدير العام .. أنا أعلم أنك لا تحبني وأعلم أنك طوال الفترة التي عرفتني فيها تعتقد أنني ثقیل الظل لا أحتمل .. وأنا أعلم أنك في مجالسك الخاصة كنت تجعل مني مادة لتندرک .. ونكتة لا تخطيء في إطلاق الضحك من أفواه أصدقائك بل من قلوبهم .. ولا أدري كيف كانت تصلني هذه النكت .. لعلها لم تكن تصلني .. الواقع أنني كنت أراها تطل من عيون أصدقائك الذين أعرفهم .. كنت أرى نفسي في ابتسامة ساخرة على أفواههم ، وكنت أعرف أنهم وهم ينظرون إلى إنمما يذكرون ما تلقيه عليهم .. ومع ذلك لم أكن أعدم من حين لآخر من يهمس في أذن أن أحاول التقرب منك وعلم الله لقد حاولت بكل ما في من طاقة ولكنك كنت تصدن في غير صلف وتردن في غير عنف فأنت عادل وأنت تعلم أن لا ذنب لي في أنني لست خفيف الظل ولست قريباً إلى قلبك .. أولئك كنت تحتقر شأني ولا يعنيك من أمري أن أكون قريباً منك أو غير قريب وإنمما أنا بالنسبة إليك همل لا يضر ولا ينفع . لا أخفي عليك فإنه من العسير أن يخفي عليك شيء .. لقد عشت عمري وأنا حريص أن أكون حقير الشأن لا أضر ولا أنفع . فأننا على الرغم مما نظنه بي من غباء أحسن تقدير الأمور وخاصة ما كان منها متعلقاً بمصلحة الشخصية . فحين أدركت الشباب عرفت أنه لا سبيل لي أن أكون محبوباً بين زملائي : فأننا لا أستطيع أن أكون بينهم خفيف الظل حاضر البديهة سريع النكتة . ولا أستطيع أيضاً أن أجاريهم فيما يتناقلون من شهي الحديث ويمتص الحكايات فحزمت أمري أن أكون مستمعاً .. وقد أتقنت الاستماع حتى أصبحت بينهم مستمعاً . لكل حديث .

والمحدث منهم لا يتوقع أن أجيب حديثه بحديث بل هو يكتفي بأن يقول وأنا أكتفي بأن أستمع . وهكذا أصبحت من بين الأصدقاء عنصرأ نادراً لا يأنفون من الجلوس إلى فإن العنصر

المستمع بين الأصدقاء الأنداد عنصر قل أن تجده . . والمتحدث منهم إلى لا يطلب منى رأياً ولا هو يستشيرنى . إنما هو يقصص على لأنه يريد أن يقصص على . . كل ما يريده الصديق منهم أن يقول وحتى لا يبدو مجنوناً يتحدث إلى نفسه يبحث عنى ليقول لى . . أنا عنده إذن بديل عن الهواء الذى كان سيلقى إليه بحديثه على كل حال . . وإن أذنأ تسمع بلا فم يعلق خير من الهواء وخير أيضاً من هؤلاء الذين يختزنون فى داخلهم قصصاً أخرى مثل قصة المتحدث تبحث عن منطلق لها وأذن . .

وهكذا ياسيدى استطعت أن أتغلب على مشكلة عجزى عن الكلام واتخذت من هذا العجز رأسمال لى بين الأصدقاء . وقد انتفعت بهذا العجز أى انتفاع فأصبح الأصدقاء يتهافتون على الحديث إلى . . ألم أقل لك إن المادة المستمعة بين الأصدقاء مادة نادرة .

ومنذ أدركت الشباب عرفت أيضاً أننى أستطيع أن أكون مثل كثير من أصدقائى خفيف الحركة ألعب بالبيضة والحجر . فأنا بطبيعة تكوينى بطيء التفكير لا أستطيع أن أكون حيث يجب أن أكون . . ولا أستطيع أن أفعل ما يجب أن أفعل فى الوقت الذى يجب أن يتم فيه هذا الفعل . إنها مقدرة خاصة عرفت بذكائى المحدود أننى لا أتمتع بها . وأدركت أيضاً أن فقدانى لهذه الخاصية سيجعلنى دائماً متأخراً عن الرفاق فى مضمار العمل فإن هؤلاء الرفاق موهبة عجيبة طالما حسدتهم عليها . . إنهم يستطيعون دائماً أن يقولوا لرؤسائهم ما يجب أن يقال . . ويستطيعون أن يؤدوا إليهم ما يجب أن يؤدى فى طبيعة مواتية بغير تصنع ولا تكلف ولا افتعال ولكن من مآمنه يؤذى الحذر . . فهم بهذه الموهبة التى يتمتعون بها يقدرون ذكاءهم أكثر مما يستحق من تقدير ، فهم لهذا يسارعون إلى الخطأ فإن كثرة الحركة تؤدى بطبيعتها إلى الخطأ . لهذا كان من الطبيعى أن يقعوا فى أخطاء مع رؤسائهم تجعلهم يتعرضون - بطبيعة الحال - إلى غضب الرؤساء غضباً قد يصل إلى الرفق .

أما أنا فقد أدركت طبيعة تكوينى فحزمت أمرى أن أكون مطيعاً لرئيسى لا أناقشه فيها يفعل ولا فيها يقول فلا أسأله إلا الإيضاح ليكون التنفيذ دقيقاً كل الدقة لا مجال فيه للخطأ .

هل أبوح لك بسر . . لا بأس . . فأنا أعلم أن شيئاً لا يخفى عليك لقد أصبحت فى بيتى مع زوجتى ، ولاتذع هذا عنى - مع أولادى أصبحت أطيع ما يقولون - دون مناقشة أيضاً - هكذا علمت أن الحياة بالنسبة إلى لن تصلح إلا بالطاعة . . إن مناقشة أولادى من اختصاص زوجتى وحدها فأنا لا أصلح للمناقشة . قصارى ما أفعله إذا طلبوا شيئاً أن أسأل زوجتى إن كان يجب على أن أنفذه أم لا .

أظنك الآن أصبحت تدرك تمام الإدراك كيف أعيش حياتى . ولكنك لا تعرف أى منصب أصبحت أشغله فى الشركة . لقد أصبحت الشخص الثانى مباشرة للمدير العام - قد يدهشك

هذا ... فإن لم يكن أدهشك أنت فقد أدهشنى أنا . لقد وجدت نفسى فجأة فى مكان لا يد لى فيه أن أصدر الأوامر . . أنا لست غيباً . وهل غيبى من يعرف حقيقة نفسه . كم بين الناس من يستطيع أن يدرك حقيقة نفسه . . أنا أعرفها تماماً . وأقدر مواهبى ولا أضع نفسى إلا حيث تستطيع مواهبى أن تضعنى . ولذلك أثار قرار تعيينى فى هذا المنصب الهام فى الشركة كثيراً من القلق فى نفسى ومازلت أفكر حتى انتهى بى التفكير أن أجد بين الموظفين الذين يعملون تحت رئاستى فى من هؤلاء الذين يستطيعون أن يلعبوا بالبيضة والحجر واتخذت منه صديقاً وجعلته هو الذى يقترح على ما أفعل ثم أنا أخذ ما فكر فيه وأقدمه إلى المدير العام فإن وافق عليه أصدرت به القرار حريصاً دائماً أن تكون عبارة حسب أوامر السيد المدير العام ، فى أول القرار أوفى آخره وهكذا استطعت أن أكون أداة منفذة إما لاقتراح مرموس أولاً وأمر رئيس .

فليس عجباً إذن أن أظل فى أمان من غضب رئيسى أو مرموسى على السواء . ولا يعنى من بعد ما يرمى به رئيس ومرموس على السواء . إلى أكاد أسمع همس الذى يدور فى نفوسهم والذى يلقون به إلى خاصة أصدقائهم . وأظنك فى غنى أن أنقل إليك هذا همس فلا شك أنك تعرفه . ولكن ما يهم . . ما يهم . . مادمت من اقتراحات مرموس أو من أوامر رئيس فى حصن حصين .

أنا أدري أنك تعرف هذا جميعه . فهذا الحديث الذى أسوقه إليك لا يضيف جديداً إلى علمك . ولكننى ألبأ إليك اليوم لتكون حكماً بينى وبين رئيسى . . أنا أدري أنك لا تستطيع أن تؤثر عليه فهو لا يتأثر برأى أحد ولكنك الوحيد الذى أستطيع أن ألبأ إليه على الرغم مما أعلمه عنك من أنك لا تحبى بل أننى أعلم أكثر من ذلك . . إن قولى أنك لا تحبى فيه تجاوز كبير فأنت لا تفكر فى أمرى حتى تكرهنى فأننا أهون عندك من تكوين شعور معين نحوى . ولكنك الوحيد الذى ألبأ إليه رغم ذلك جميعه . فمكاني عند الجميع همى مكاني عندك فإن أحداً لا يفكر فى أمرى حتى يكون شعوراً معيناً نحوى . . وزوجتى وأولادى يعتبرونى بكل بساطة اليد التى تقبض لهم المرتب فى أول الشهر فهم فى دخيلة أنفسهم يعجبون لماذا أقبض هذا المرتب فهم أعلم بحقيقة مؤهلاتى من غيرهم وهم بالتالى أكثر احتقاراً لشأى من الآخرين وإن كانوا لا يبدون لى هذا الاحتقار . وهذه الأفكار التى أسوقها إليك لا أستطيع أن أسوقها إليهم . فأننا إنما أروينا لك لأنك تعرفها وتستطيع أن تواجهنى بها وقتاً تشاء أما هم فيعرفونها ولا يجراؤن على إبدائها وأنا أعلم أنهم يطالعوننى بأرائهم فأننا أستغل هذا النفاق منهم وأحافظ عليه ولا أريد أن يزول .

أنت إذن الشخص الوحيد الذى أسوق إليه هذا الحديث فى هذا الخطاب الذى أرجو أن تنصرف فيه بعد قراءته بحيث يختفى تماماً من الوجود .

إنها المرة الأولى التي وجدت نفسي فيها في حاجة إلى الحديث فإن لم أتحدث فقد أموت وأنا لا أريد أن أموت خاصة وأنا أشغل هذا المنصب الهام في الشركة والذي أرجو أن أظل محتفظاً به بغير زيادة ولا نقصان إلى أن أنتقل إلى الدار الآخرة . نعم فإن من مميزات التي أعلم بها في نفسي أنني بلا طموح أرضي بما يعطى لي راضياً به شاكراً له . ومن أعجب ما سمعت يوماً من أحد زملائي الذين يشغلون منصباً كبيراً أنه أصبح لا يستطيع أن يطمع في وظيفة أكبر لأنه بلغ القمة في الفرع الذي يعمل به . فهو غاضب لأنه لا يجد لنفسه أملاً جديداً يسعى إليه . وكان جوابي البسيط له أن الأمل الأكبر الذي يجب أن يسعى إليه هو أن يظل في هذا المنصب والآن هذا هو الأمل الذي أسعى إليه ولكن يبدو أن أمل هذا لا يريد أن يتحقق .

تصور . . تصور أن شخصاً له كل هذه المؤهلات التي ذكرتها لك يهدده رئيس مجلس الإدارة بالرفق .

لم يهددني مباشرة فأنا أهون من أن يهددني مباشرة ولكن حديثاً شاع في مكتبه أنه يفكر هذا التفكير لماذا بربك . . أي نفع يعود عليه من هذا التفكير . . إنني لا أمانع أن يضع معي من الوكلاء ما يشاء . . بل إنني لا أمانع إذا رقي مرءوسى جميعاً فجعلهم رؤساء لي ففكرة الرفق في ذاتها عجيبة كل العجب بالنسبة لشخص مثل أقل مميزاته أنه لا يضر . . لا يضر مطلقاً ولا يهيمه إن كان لا ينفع أيضاً فبحسبه أن يكون بوقاً جيداً لرئيسه .

إنني أتمزق يكاد القلق يقتلني لم أجد شيئاً أفعله إلا أن أكتب لك هذا الخطاب وأنا واثق أنه لا جدوى من كتابته إلا أنني أردت أن أكتبه .

ولا تسألني عن السبب الذي يمكن أن يكون دافعاً لفكرة رفقى هذه فهيهات هيهات أن يكون هناك سبب وهذا ما يفزعني فإنه من المستحيل أن أصنع شيئاً يمكن أن يكون سبباً أو شبه سبب لرفقي وهذا ما يمزقني فأنا والوضع هكذا لا أستطيع أن أناقش فكرة رفقى لأنها فكرة نشأت دون أن يكون لها دافع يمكن أن يناقش .

مزق هذا الخطاب أو احرقه فإنني فقط أردت أن أقول لك وقد قلت ولا أعتقد أنني شعرت بالراحة بعد أن قلت فإن ما سمعته ينغص عيشي ويمزقني تمزيقاً . . مزق هذا الخطاب أرجوك . . مزقه والله هو المستعان . .

قصصات ..

قصد إلى مكتبه في هدوء كأنما تجلبه قوة غير منظورة لا يدري كتبها .. وجلس على الكرسي الذي تعود أن يجلس عليه منذ سنوات وسنوات .. ومد يده اليسرى ففتح هذا الدرج الذي ظل سنوات طويلة يريد أن يخلو ما يحويه .. درج عميق عميق .. كان يفتحه بين الحين والحين ليلقى إليه شيئاً وكان دائماً يقول في نفسه : أريد أن أدخل إلى هذا الدرج لاستعيد كل ما يحويه .. وتغر الخاطرة بذهنه سريعة عابرة مع ذلك النوع من التصميم الذي لا يصل إلى التنفيذ .. لقد مرت به أوقات فراغ كبيرة ، ولكنه لا يذكر الدرج إلا حينما يجد شيئاً منشوراً عنه في إحدى الجرائد ، وحين يقص هذا الذي كتب عنه ويلقى به إلى الدرج تعاوده هذه المهمة المصممة .. متى أجلس إلى هذا الدرج لاستعيد ما فيه .. ثم يقفل الدرج ويعود إلى مألوف حياته حتى يجد شيئاً مكتوباً عنه .. كثيراً ما جلس إلى المكتب وكتب .. ولكن فكرة أن يفتح الدرج لم تخطر له على بال ، ولكنه اليوم يجلس على الكرسي ويفتح هذا الدرج الأيسر العميق العميق ..

وقبض قبضة عفوية ، وحمل الذكريات وألقى بها على المكتب وألقى بنظره على ما حملته يده ، وكانت ذكرياته القريبة .. لم يمر عليها من الزمن ما يكفي أن يجعل منها ذكريات .. لم يشم منها رائحة الزمن ولا عبق الماضي .. لم يتول قلبه هذا النوع من الوجيب الذي أراد أن ينعم به ..

ألقي بيده مرة أخرى وقبض قبضة من ذكرياته وألقى بها على سطح المكتب . إنها ذكريات وأكثر قدماً من القبضة الأولى ولكن لا .. ليست هذه ما يريد .. وظل ينقل إلى سطح المكتب وفي كل مرة تغوص ذراعه أكثر من المرة السابقة إلى قاع الدرج .

لم يعد ينظر إلى ما تخرجه يده وإنما كان ينقل الذكريات جميعاً في شوق كبير إلى مجهول يدره . . انتابه شعور طاع بأنه يريد أن يلتقي بهذا الماضي . . إنه لا يعرف عنه شيئاً كأنه ليس ماضيه . . كأنه مقبل على مشاهدة فيلم لا يعرف عنه شيئاً . . لقد مر بذهنه للحظات أنه يعد آلة العرض ويعد الفيلم الذى سيعرض . . فيلم جديد لم يشاهده قبل اليوم قط . . لقد صنع كل هذه الأشياء التى يحفل بها الدرج ، ولكن هناك فرقاً كبيراً بين صنع الشيء وقراءته . . ولقد قرأ كل ما كتب عنه ولكن هناك فرقاً كبيراً بين قراءة شيء منذ عشرات السنين وقراءته الآن في هذه اللحظة . . إن الفيلم جديد . . الفيلم جديد . . لست أنا هذا الفتى الذى كان منذ أربعين سنة . . أربعون سنة مرت ولكم تغير السنون حين تمر . . فكيف بأربعين سنة كنت حينذاك شاباً لم تخلق الحياة التى حوله إلا من أجله هو . . هو سيدها وهو مدارها . . كم كنت أحب أن أكتب . . كنت قد قرأت . . قرأت كثيراً وأحببت أن أكتب وهفت نفسى أن أرى اسمى يحمل فوقه كلاماً فى فى جريدة . . وكتبت . . كتبت كثيراً . . وظللت لفترة طويلة أغلدى سلة المهملات فى مكاتب رؤساء تحرير الجرائد الكبرى والصغرى على السواء ما الذى ذكرنى بهذه الفترة . . هذه الورقة . . هذه القصاصة الضئيلة . . وهذا العنوان الذى كتب بحروف لا تزيد فى حجمها كثيراً على حروف المقال نفسه . . لكم كنت شاباً وإلا فهل أستطيع أن أكتب اليوم هذا العنوان (الفن والحياة) كنت أكتب عنه وأنا فى هذه السن واثقاً من نفسى مطمئناً أننى أستطيع أن أعالج هذا الموضوع الضخم وكأنه مسألة ضئيلة هينة . . ترى هل أجرؤ اليوم ويعد أربعين سنة أن أكتب هذا العنوان (الفن والحياة) إنه عنوان لا يستطيع أن يكتبه إلا الشاب الذى كنت يومذاك أو أستاذ كبير فى الجامعة يجعل منه عنوان كتاب ضخم يعتبره كتاب عمره . . كم فرحت يوم نشر هذا المقال . . كم فرحت . . ما الحياة إذا لم تتخللها من حين إلى حين هذه الومضات المشرقة من الفرح . . لماذا نحرمنها الحياة هذه الفرح . . هذا المقال الذى نشرته فى المجلة بعد ذلك فرحت به هو أيضاً ثم ظللت أكتب مقالاتى ومع كل مقال تتناقص الفرحة حتى انعدمت . . اعتبر طلب مقال عنى اليوم عبثاً ثقيلاً لا أستطيع أن أتخلف عنه لأن صناعى أن أكتب وأتمنى فى الوقت نفسه لو كان لم يطلب منى حتى أستريح ولا أكتب .

كم كنت أتمنى فى هذه الأيام أن أكتب . . لم يكن يطلب إلى أن أكتب ولكنى مع ذلك كنت أكتب . . وأكتب وأكتب . . هذه أول قصة نشرت لى فى مجلة الصباح . . لكم فرحت بها هى أيضاً . . ثم ما لبثت الفرحة أن راحت تلدوب مع القصص لماذا . . لماذا . . فرحت أيضاً بأول كتاب صدر لى . . رواية (حياة وأوهام) . . التفت له النقاد . . نعم هذا أول مقال نشر عنها بقلم الناقد الكبير سامى أحمد . . اعتبرت نفسى قصاصاً يوم نشر هذا المقال . . نعم قلت للناس ذلك ولكن ما هى الحقيقة . . ألم أكن أنا فى دخيلة نفسى مقتنعاً ببنى . . ولكن هل المهم أن أقتنع أنا ببنى أم المهم أن يقتنع به الآخرون . . عجيب عمل الأديب انه مزاج عجيب من الإرسال والاستقبال . . مهما أكن مقتنعاً ببنى فلا قيمة لهذا الاقتناع حتى يعترف به الناس ومن

ناحية أخرى مهما يعترف به الناس فلا قيمة لاعترافيهم إن لم أكن أنا واثقاً من أصالة فني . . مسكين هذا الفنان . . تتعلق حياته بالآخرين والآخرين لا يرحمون . . إن لم يروا فناً فلن يعترفوا به . ليس في هذا المجال رحمة أبداً ومع ذلك يقول الناس . . الناس أنفسهم الذين يقسون على الفنان ان الفن رحمة وإنسانية وشفافية . . إنهم يطلبون من فنانيهم الرحمة والشفقة والشفافية . . وهم أنفسهم لا يتمتعون بشيء من هذا المبدأ أبداً . . وهم أيضاً معذورون فلو اعترفوا بكل من يحاول أن يكون فناناً لأصبح الفنانون أكثر عدداً من مستقبل أعمالهم . . أترأى أصبحت فناناً . . هذا الدرج يقول نعم ولكن أنا نفسي تساورني الشكوك كثيراً . . ما زالت الشكوك تساورني . . لم أبلغ ما أردت لنفسي . . إنني أقرأ من القصص ما يجعلني أشك كثيراً أني صنعت شيئاً . .

هذه صوري في المجلة . . إنها صوري يوم تزوجت . . كنت يومذاك على جانب من الشهرة ونشرت مجلة (الفنون) صوري مع خبر زواجي أيم هذا قراء مجلة الفنون في شيء ١٩ ماذا يهمهم إن كنت قد تزوجت أم لا ١٩ العجيب أن أغلب القراء يهمهم ما يقرأونه عن أكثر مما يهتمون بما أكتبه . . عجيب أمر هؤلاء الناس . . إن شهرة الأديب عندنا تكون مما يكتب عنه لا مما يكتبه ، ماذا يهم الناس من أمر زواجي ١٩ لقد كان الزواج مهماً لي أنا . . نعم كنت أحب إلهام . . كنت أحبها بكل حماسة الشباب وكل نبض الأديب . . والتقي حبي لها بحبها لي ولم يكن الأمر عسيراً فقد كان كل ما يهم أبويها متوافراً في . . أحمل شهادة الآداب وأعمل موظفاً في الجامعة ومستقبلي من الناحية الوظيفية مضمون أما أني أكتب القصص والمقالات فلا بأس ما دام هذا لا يعدو على وظيفتي وإن كان أسعد بك حمادة مفتش الحساب بالمدراس الابتدائية يتمنى أن أشغل نفسي بشيء - أكثر فائدة من القصص والروايات . كانت مجرد أمنية ولم تكن عائقاً في زواجي من إلهام ابنته . . ما أطيب الأيام التي قضيتها مع إلهام حب وخصام وتفاهم ومغاضبة وفرح وضيق . كانت تمر على لحظات ونحن في أول الزواج أحسب فيها أن العالم كله لا يعرف من هو أسعد مني وكانت تمر على لحظات ونحن في أول الزواج أحسب فيها أن ليس في العالم أجمع من هو أتمس مني واليوم وأنا أستشرف هذه السنوات البعيدة أراها في مجموعها في جملتها في هنائها وتعاستها في فرحي بها وشقائي في إقبالها ونفوري هي هكذا جميعاً سنوات حلوة . . لماذا تحكي الحوادث دائماً أنها عاشا في تبات ونبات . . وخلفوا صبيان وبنات . . ما التبات والنبات . . أترأى يريدون أن يقولوا إن الزواج كان ثابتاً ومثمر وإلا فما معنى النبات ولماذا تحكي الحوادث عن الزوجين السعيدين حياتهما ضحك وعيشهما هناء . أي نوع من الزواج هذا . إنه زواج راكد كالبركة إن لم تضطرم فيه العواطف من غضب وهذوء ومن إقبال ونفور فهو ليس حياة . بحياتي أفديها إلهام لقد ملأت حياتي حياة . كانت تحب عملي كأديب وتغار في نفس الوقت من عملي كأديب كانت تحب أن يمدحني النقاد وتغار في نفس الوقت أنني حديث الصحف وهي لا يكتب عنها أحد وكانت تحب أن أكون بين الناس وفي المجتمعات

وتغار في نفس الوقت من أننى أتحدث إلى سيدة وقضيت حياتى وحياتها بين هذا الحب وهذه الغيرة مزاج عذب وفيه حلاوة ومن تفاعلها معاً تصبح حياة لها طعم خاص فيها نكهة ذات معنى وذات لون لا تتسم به حياة زوجين آخرين . ما أبأس الحياة التى تشبه حياة الآخرين . لابد من وجود لون خاص لكل بيت . . لون خاص لا يراه الزائرون ولا الأقارب ولا الأبناء ولكن يحسه الزوج وتحسه الزوجة . . يعرفانه وحدهما . . يعرفان هذا اللون الخاص بهما ويميزانه من بين كل الألوان الأخرى ولا يخطئانه أبداً .

هذه صورة محمد نشرها صديقى الصحفى الكبير على ممدوح فى الاحتفال بالعيد الأول لميلاد محمد . . جاء بعد زواجى بستة وبضعة أشهر هذا هو محمد . . لو رأى أولاده صورته ما عرفوه أما أنا فأعرفه . . هذا هو ابنى يكبر ولكنه عندى أنا سيظل هذه الصورة . . أم تراه يظل ذلك الطفل الشقى الذى تأبى ملابسه الداخلية إلا أن تظل خارجية ويأبى شعره أن يستجيب لمشط ويأبى وجهه أن يكون نظيفاً وتأبى أصابعه أن تخلو من الخبز - أم تراه ذلك الفتى المعجب بنفسه يكثر من التأتق ويكثر من تمشيط شعره ويهتم بحلاقة لحيته التى كانت تعانده فلا تنمو ويهتم بنظافة يديه ويهتم أكثر من هذا جميعاً بالنظر من النافذة معتقداً أننى لا أعلم شيئاً ، جاهلاً أننى تزوجت أمه من نفس الطريق الذى يريده هو أن يتزوج به أم تراه محمد ذلك الشاب النابغة فى كلية الهندسة إن لم يكن أول فصله فهو الثانى وإن لم يكن التقدير ممتازاً فهو جيد جداً . . أم تراه محمد المعيد بكلية الهندسة . . أم تراه محمد الزوج الطيب والأب المتفانى فى حب ابنه وابنته . . أى محمد فى هؤلاء جميعاً هو ابنى محمد . إنه محمد جميعاً . . محمد منذ هو فكرة ومنذ هو يركل أمه حين هو جنين ومنذ هو وليد . . ومنذ هو هذه الصورة التى نشرها صديقى على ممدوح وحتى اليوم . وهو معيد وزوج ووالد . . حلوة هى الأبوة تضم فى حناياها حياة إنسان بأكملها وتظل الحياة حية نابضة يصحبها الأب معه إلى الحياة الأخرى دفئاً يؤنس غربته فى العالم الثانى وقد تبقيته فى الحياة الأولى ذكرى وامتداداً . . هيئة هى الصعاب التى يلقاها الأب أمام شعوره بأن له ابناً وأن ابنه يشعر أن له أباً . إن ما يلتقى به الأب من مخاوف على ولده أهون مما يلقاه الإنسان الذى إذا علت به السن لم يجد حوله من يشعره بأنه أب وبأن هناك من يتمنون له طول الحياة . وهذه صورة هند يوم زواجها نشرتها أنا فى المجلة التى أعمل رئيساً لتحريرها مشاعر عجيبة انتابتنى يوم تزوجت هند . . لقد تعودت أن تكون بجانبى دائماً . .

وكنيت أحب أن أراها هى وإلهام جالستين تنتظران عودى . هذه الفتاة الحلوة التى أحبها زميل أخيها المهندس علاء حمدى لم يرها فى الأيام الأولى من ولادتها وعينها لا يبين لها لون من القاذورات التى تغشاهما فلم يتضح أنها زرقاوان إلا بعد أسابيع ، وأسابيع ولم يرها والحسبة تملاً وجهها وتجعلها هزيلة لا تطيق أن تنطق حرفاً وقد كانت لا تسكت أبداً ولم يرها وهى فى المدرسة تتعثر فى العلوم تعثراً وتقف حائرة أمامى إذا وبختها لإهمالها . لم ير علاء من هذا جميعاً إلا هذه الفتاة الجميلة التى تحميد الحديث إذا تحدثت وتحميد تصفيف شعرها وتحميد نقل خطواتها فى

صنعة كأنها الطبيعة أوفى طبيعة كأنها مصنوعة . وهو أيضاً لا يعرف عنها كم هي صادقة واقعية من نفسها . . لا تغش نفسها ولا تحب أن تغش أحداً تقول رأيا في صراحة وبساطة وهدهو . . يعرف عنها هذا لعله يعرفه ولكن أهذا ما جعله يتزوجها أم العيون الزرق والشعر الأصفر والقوام الأهيف من يدرى .

وهذه صورة ابنتها . . جميل أن يكون لأبنائي أبناء ما أسفت على شيء قدر أسفى أننى لم أرزق أطفالاً إلا بعد أن مات أبى . . كنت أريده أن يعيش لأنى لم أعرف كم كان يحبنى إلا حين أحبيت أنا أبنائى .

عميق هذا الدرج عميق . وكثيرة هذه الأوراق كثيرة إنها كل ما كتب عنى . . أحق هذا أم الحق فى أمرى لم يظهر حتى اليوم . . سنوات طويلة وأنا أتقن أن أجلس هذه الجلسة لأقلب هذه الأوراق ما الذى أجلسنى اليوم .

كنت هنا يومذاك وكنت أكتب السطور الأخيرة من روايتى وكنت سعيداً أننى انتهيت منها . . هذه فرحة لم أفقدها أبداً . فرحتى بأننى أكتب . لم أفقد هذه الفرحة أبداً . . فقدت فرحتى بأن ينشر لى كتاب بعد صدور الكتاب الثانى لى ، ولكن فرحتى بأننى أكتب وبأننى أريد أن أقول واننى أقول ما أريد لم أفقدها أبداً بل هى تزيد . دائماً تزيد . . أربعون عاماً أكتب وهذه الفرحة تزيد . جميل أن أكون فى الستين وأجد شيئاً يفرحنى هذا الفرح الطاغى . كنت فرحاً وأنا أضع علامة النهاية فى روايتى وقبل أن أوقع رفعت يدي عن الورقة ووضعتها على المكتب ورحت أقرأ النهاية مرة أخرى قبل أن أحمل اسمى عبء هذه الرواية الكبيرة . فرحت . لقد كانت النهاية كما أردتها أن تكون . فرحت فرحت وأردت أن أوقع ولكن يدي لم تستجب . لقد ظلت مشلولة على المكتب وأبت أن تضع اسمى على نهاية الرواية . أترانى جلست إلى هذا الدرج لأننى أصبت بالشلل ولكن الأطباء يقولون إننى سأشفى . لا . ليس هذا هو السبب . فلماذا جلست إلى درج الذكريات . لماذا . . لماذا ؟

حلم العمر ..

أنسى كل شيء .. أنسى وجودى وكيانى وأنسى الأمس القريب واللحظة الماضية ووعد اللقاء والصلاة .. أنسى حتى المكان الذى أريد أن أذهب إليه .. أنسى لحظات الخوف ، ولحظات الأمل .. أنسى لحظات السعادة ولحظات اليأس ، أنسى كل ما تعرضت له فى حياتى الطويلة هذه .. طويلة هى طويلة .. قضيت على سطح هذه الأرض ثلاثة وعشرين عاماً .. لم أشعر فيها جميعاً بهذا الذى يسمونه الملل .. ومن أين يأتى الملل ١٩ أما وأنا طفل رضيع فلم أكن أشعر بشيء على الإطلاق ولم أكن أعلن أننى لم أشعر بشيء على الإطلاق .. ووعيت .. ووعيت ومازلت أذكر ما وعته منى الذاكرة وأنا طفل .. كانت جدتى سيدة عجوز وكانت تعطينى نقوداً ولا أذكر ما المصير الذى كانت تنتهى إليه هذه النقود فما كنت أريد شيئاً .. فقد كنت أكل وألعب وأنام .. كنت أعيش فى قرية تقع فى أعماق الريف لا تصل إليها إلا الركائب الحية من حمير وجمال وخيل ولقد قدمت الحمير فى الحديث لأنها كانت تمثل الغالبية العظمى من وسائل المواصلات فى القرية أما الجمال فقد كانت فى أغلب أمرها وسيلة نقل البضائع .. أما الخيل فإن قصتى كلها مع الخيل .. إنه حصان واحد رأيته أول ما رأيته أمام منزلنا .. نسيت أن أخبرك أن بيتنا يقع هو الآخر فى أعماق القرية التى تقع فى أعماق الريف .. وهكذا كان من العجيب أن رأيته هذا الحصان واقفاً أمام باب بيتنا .. حصاناً فارهاً طويلاً عليه رجل عظيم مكتمل .. رأيته رأسه فى السماء .. ما هذه الهالة التى كانت تحيط به ، كيف استطاع هذا الرجل أن يكون جليلاً إلى هذا الحد .. عظيماً إلى هذا المدى .. جرى إليه كل المحيطين بـ !

— تفضل يادكتور .. تفضل يادكتور .

كانت جدته مريضة وقد استدعى لها الدكتور من البندر .. لم يتمالك أحمد نفسه أن يسارع إلى داخل الدار يبحث عن أبيه .. كان أبوه مشغولاً بالطبيب الذى يعود أمه ولم يستطع أحمد أن

يصبر فسارع إلى أمه ..

- أمه .. يا أمه .

- مالك يا ولد ؟

- أريد أن أكون مثل هذا الدكتور .

- ومن أين لنا المال يا أحمد ؟

- ولماذا المال ؟

- لتصبح مثل هذا الدكتور .

- لا بد أن أصبح مثل هذا الدكتور .

- احفظ أنت اللوح وربنا يقدرك .

اللوحة .. أليس بيني وبينه أن أصبح شاهقاً أركب الحصان ويسعى الناس إلى يوسعون الخطى ويخلون الطريق ويقدمون الاحترام والتبجيل ، ليس بيني وبين هذا جميعه إلا أن أحفظ اللوح .. حفظت اللوح .. واللوح الذى يليه وكل الألواح التى أعطيت لى .

- ربنا يحفظك يا أحمد .. خسارة يا ابنى ألا تكمل تعليمك . وقصد الشيخ عبد العظيم إلى شحاتة الحجار .

- جئتك من أجل أحمد ياسى شحاتة ..

- ماله يا عم الشيخ .. هل قصر فى شيء ؟

- أحمد يقصر ؟ ! .. أحمد فى غاية الذكاء يا شحاتة ولا بد أن نجعله يكمل تعليمه .

- العين بصيرة واليد قصيرة يا عم الشيخ عبد العظيم .

- إنه ثروة عمرك يا شحاتة .. مهما ترك فلن تترك له خيراً من الشهادة .

- وكيف أستطيع أن أعلمه ؟

- دبر حالك ..

- كله على الله يا عم الشيخ عبد العظيم .

كنت أستمع إلى هذا الحديث .. ومازلت أذكر كيف سارعت إلى الجامع ورحت أبتهل إلى الله أن يجعل أبى يوافق على تعليمى .. حتى تأكدت أن الله استجاب دعائى فسارعت إلى أمى .

- أمه .. سأصبح دكتوراً .

- كيف عرفت ؟

- أبى قال كله على الله وذهبت إلى الجامع فتأكدت أن الله قبل رجائى .

- لهذه الدرجة تريد أن تكون دكتوراً ؟

- أموت يا أمه وأكون دكتوراً .

- بعد الشر يا ابني .. إنما قل لي .. ما السر في رغبتك الشديدة هذه ؟
- لا أعرف .. كل الذي أعرفه أنني أريد أن أكون دكتوراً .
- هذا كل ما تعرف ؟
- دكتور يا امه دكتور .. أريد أن أكون دكتوراً .
- إن شاء الله يا أحمد ستكون دكتوراً .
- كانت لبيبة تملك سوارين من الذهب وقرطاً وحلية برقع ذهبت إلى البندر فباعتهما جميعاً وعادت لتقول لزوجها :

- اسمع يا شحاته .. أحمد لا بد أن يذهب إلى المدرسة .
- أجننت .. أنت تعرفين البير وغطاه من أين لنا بالفلوس ؟
- لا شأن لك .
- ماذا تقصدين ؟
- لا شأن لك .
- هل بعت الذهب ؟
- ماذا يفيد الذهب ؟
- كنا نجعله أماناً لنا من الخوف .. من يضمن نفسه .. قد نعرض أو نحتاج لشيء ..
- شهادة الولد أهم .
- يا لبيبة الطريق طويل وصعب ..
- الذي خلقنا لن ينسانا .
- توكلنا على الله .
- قالت لي أمي :
- أحمد كيف ستذهب إلى المدرسة ؟
- ماشيا .
- الطريق طويل .
- أمشي .
- لا يا بني حرام سأشتري لك حماراً .
- الله يطول عمرك يا امه ..
- ولكن يا ابني المسافة طويلة بيننا وبين البندر .
- أقطعها في غمضة عين .
- قد تحتاج إلى ساعتين حتى تصل .
- وما له .

- والمدرسة تفتح الساعة الثامنة ..
- وإن كانت تفتح في الساعة الخامسة .
- على بركة الله .

أنسى الأيام الطويلة التي قضيتها على ظهر الحمار .. حين كنت أصحو والليل أسود داكن من يراه يكاد يوقن أن لا صباح بعده .. أسود كان الليل حين كنت أستيقظ لأجد أُمي قد وضعت لي رغيفاً وقطعة من الجبن القريش أضعتها في حقيبي ثم ألبس ملابسى ثم أغسل وجهى ثم أركب الحمار والشيخ عبد العظيم يؤذن لصلاة الفجر .. وما هى إلا دقائق قليلة حتى تشرق الشمس وأستطيع أن أقرأ .. أظل أذاكر حتى أصل إلى المدرسة .. وحين ينتهى اليوم الدراسى أركب الحمار وأظل أذاكر حتى أصل إلى البيت .. ما هى إلا لقيات ألقى بها في جوفى ثم أنام .. أنسى الأيام الكالحة بلا لعب مع الأطفال حين أنا طفل ولا سمر مع الرفاق حين أنا صبي يشارف مطالع الشباب ولا لهو من الشباب حين أنا فتى في زهوة العمر وريق السن .. أنسى الجليد أحس به يسرى في دماي نافلاً من وجهى ويدى .. من كل مكان في جسمى سواء كان هذا المكان كاسياً أو عارياً فما كان الكساء يختلف كثيراً عن العرى .. أنسى اللحظات الموحشة أقطعها وحيداً في الطريق لا صوت ولا حياة .. كأنما أنا نبته وحيدة ظهرت في قفر موحش في أقطار الأرض .. أنسى الإنهاك ينساب إلى عند عودى بعد أن أكون قد ركبت الحمار أكثر من أربع ساعات .. أنسى الشباب الذى بلغته وأحلامه وأمانيه فقد كانت لي أمنية واحدة .. أنسى أيام الأجازة التى كنت أقضيها مذكراً للسنة التى تليها .. أنسى ارتعائى على زملاء المدرسة الذين أعرف أن لهم إخوة في كلية الطب أستجدى منهم الكتب .. وألحرت سنوات الاستجداء مكتبة في الطب وأنا بعد في المرحلة الثانوية .. أنسى الأجازة التى كنت أنتظر فيها نتيجة الثانوية والتي قطعتها لأقرأ كتب الطب وأنا مبهور الأنفاس المثل وأنا لا أكاد أصدق أننى سأقرأ هذا الكلام بصفة رسمية .. أنسى اليوم السابق لظهور النتيجة . ركبت الحمار من العصر وذهبت إلى محطة السكة الحديد في البندر أنتظر وصول النتيجة إلى المدرسة .

قال شحاتة :

- مبروك يا أحمد .
- الله يبارك فيك يابا ..
- ألا يكفيك ما نلته ؟
- أريد أن أكون دكتوراً يابا ..
- يا ابني تعبنا .
- أكون دكتوراً وأموت يابا ..
- يا ابني لا قدر الله .

وقال شحاتة :

- يا عم إسمايل .
 - نعم يا سى شحاتة .
 - القاريط الأربعة التى بجوار أرضك .
 - مالها ؟
 - ألا تريد أن تشتريها ؟
 - أنت تريد الثمن دفعة واحدة .
 - لا يا سيدى ..
 - ماذا تريد إذن ؟
 - تعطى أحمد ابنى ما يحتاج حتى يكمل تعليمه .
 - تعليمه .. أين ؟
 - فى الطب .
 - تريد أن تعلم ابنك الطب بأربعة قراريط ؟
 - حتى تسدد ثمنها يعين الذى لا ينسى عبده ..
 - إنك لا تملك غير فدان ونصف فدان .
 - الله هو المعين .
- أنسى أيام الجوع فى القاهرة .. وأنسى .. نعم وأنسى حين تبتدت على السطوح الذى
أسكن فيه جميلة كالأمل مشرقة كالرجاء .. ابتسمت .

- صباح الخير .
- تلجلج أحمد كثيراً وهو يقول :
- صباح الخير .
- وحدك .
- وتلجلج ثانياً كثيراً وهو يقول :
- وحدى .
- أتريد شيئاً ؟
- لا .. شكراً .
- أى خدمة ؟
- شكراً ..
- أنت خجلان ؟
- لا .. لا أبداً .

- اسمك ؟
- أحمد ..
- أحمد فقط ؟
- أحمد شحاتة ..
- وأنا سميحة .
- سميحة ؟ ..
- سميحة إبراهيم .. جارتك .
- في البيت المجاور ؟
- لا .. في هذا البيت نفسه .
- أهلاً وسهلاً .

وأنسى .. أنسى حين حاولت سميحة أن تقيم بيني وبينها صلة .. تركت الحجرة والسطوح .. إلى حجرة أخرى على سطوح آخر .

وأنسى أن أبي باع الفدان ونصف الفدان جميعه ، وباع الجاموسة وباع العجلة التي اشتراها بعد الجاموسة ، وباع البيت الذي ورثه عن أبيه واستأجر بيتاً آخر .. أنسى كل هذا .. ولا أنسى أنني أعيش فقط لأسمع الخبر الذي ينتظرون الآن .. الذي أنتظره أنا .. الخبر الذي قامت من أجله حياتي جميعاً .. نعم أنا هنا أمام الكلية منذ الرابعة من الصباح ، ولولا خجل من الفراشين والدكاترة لبت ليلتي هذه أمام باب الكلية .. أنا هنا منذ الرابعة لا أجد ما أفعله في ليلتي هذه أمام باب الكلية .. إلا أن ظل رانيا إلى الباب الذي سأعرف منه الخبر .. الساعة الآن تجاوزت الواحدة من الظهر ..

- مبروك يا أحمد .. مبروك يا دكتور أحمد .. مبروك يا أحمد .

ولم يجب أحمد أحداً من زملائه ، وإنما خرج من باب الكلية صامتاً جامداً ، وظل سائراً وكأنه حجر يتحرك ووجد نفسه على كوبرى قصر النيل ، وفي هدوء ألقى بنفسه إلى الماء .. وكان يعلم أنه نسي في حياته التي كرسها لأمله أن يتعلم العوم ..

نوع من الحب ..

لم تكن تتصور أنه سيصيب هذا النجاح الذى أصابه .. وإلا لمنعه أن يتخذ هذه الخطوة .. فهى لا تتصور أن يعيش معها وهو غير محتاج إليها .. ولا تتصور أن يكون غنيا بدونها ولا تدرى ماذا تقول له .. إنه كان يعتب عليها كلما أنبأها عن نجاح له فتستقبل النبأ بفتور وعدم اهتمام ..

كان يضيق بهذا ولكنها لم تكن تستطيع أن تتصور أنه قادر على النجاح بدونها .. إنها لا تطيق أن يمدحه أحد أمامها .. لا تطيق أن ترى له نجاحاً إلا فى إرضائها .. لقد أخطأت الطبيعة تكوين بيتها .. كانت تريد زوجاً غنياً خاملاً أو فقيراً خاملاً يعيش بما تهب له من أموال وليس له حياة إلا حياتها ، وليس له مورد إلا يديها .. وتصنعه هى على يديها .. تشكله كما تشاء .. ولم يكن فى بادئ أمره إلا هكذا .. وماذا ينتظر من فتى فى الثلاثين من عمره لم يحصل على شهادة وإنما وقف بتعليمه عند المراحل الأولى من التعليم ثم خرج يحمل إلى الحياة كمنجاة يعزف عليها ويصحب لها كل حياته وظل يعزف ولا يسمعه أحد .. وحيد هو وكمنجته بلا معجبين ولا حتى مستمعين ولكنه واثق بنفسه تلك الثقة التى يستطيع بها أبناء الفن أن يشقوا طريقهم إلى الحياة أو إلى الموت .

وكان يذهب إلى الفرق يعرض نفسه عليها فيلتقى هناك بالهزء والسخرية .. كان أضحوكة أبناء الفن .. انقطع عن هذه الفرق وذهب إلى رجل قدير من أبناء الصنعة وانقطع له وتعلم عنه كل ما يعلمه وظن أن علمه فى هذه المرة سوف يحميه من سخرية الساخرين ..

ولكن السخرية استقبلته مرة أخرى ولعلها كانت أشد مرارة وأعمق إيلاًماً .

عاد إلى حجرته وحيداً بكمنجته وظل يعزف معتمداً على هذا المبلغ الذى يرسله له ابن

عمه من ريع أرضه .. مستور الحال .. لا يحتاج إلى المال فيعيش .. ولكنه محتاج أن يعيش .. إنه لا يعيش .. لقد كانت الموسيقى هي حياته وقد كانت حياته تلك تصد عنه في صلف وتتعالى عليه في كبرياء .

وهو يعزف .

كان يعزف الألم .

وكان يعزف الأمل .

ولم يكن لعزفه من مستمع .

شيء واحد استطاع أن يحافظ عليه .. لقد استطاع دائماً أن يصد اليأس بهذه الكبرياء التي تقود الفنان إلى الحياة أو إلى الموت ..

كان المصير أمامه واضحاً لا غموض فيه إنه الحياة أو إنه الموت ولا وسط لم يكن محتاجاً للموسيقى ليقتات منها فقد كان ريع أرضه يقرّته . ولكنه كان محتاجاً للموسيقى لتكون حياته أو تكون موته .

فهو يعزف .

في البيت الذي يقيم به أختان تقيان في الدور العلوى ..

— يعجبك عزفه .

— لو انقطع عن العزف تهون عندي الحياة .

— إلى هذا الحد .

— أنت لا تدركين ما يقول في عزفه .

— وماذا يقول ؟

— أحس ما يقول ولا أستطيع أن أقوله .

— ماذا تحسّين ؟

— الحياة !

— الحياة ؟ !

— الحياة كلها وأنا أستمع إليه تطيب لي الحياة ..

أحس أنها جميلة وحلوة وأريد أن أعيشها وأحس أنها جديرة أن تعاش .

— هل تريته ؟

— أعرف شكله .

— هل تلتقين به ؟

- أحب عزفه .
- إذن فلا لقاء .
- لو تكلم فلن يقول أكثر مما أسمعه منه .
- هل تحببته ؟
- أتمنى أن أحبه .
- فلماذا لا تحببته ؟
- يهيا لي أنه ليس من أبناء الأرض الذين يحبون ويحبون .
- إنه من أبناء الأرض .
- اسمعي موسيقاه أولاً ثم احكمي .
- مهيا أسمع موسيقاه .. إنه من أبناء الأرض .
- ومرض يوماً .. مرضاً لم يكن ذا شأن ولكنه مرض .. وانتظرت الفتاة فلم تسمع وطال بها الانتظار .
- من ؟
- أنا ..
- أنت من ؟
- الفتح .
- أهلاً وسهلاً .
- إنها بريمة .
- أهلاً ..
- أنت لا تعرفي ..
- أهلاً .
- هل أفضّل ؟
- تفضلي .
- لماذا لم تعزف اليوم ؟
- أنت ..
- في الدور العلوى .
- و ..
- أستمع لك كل يوم .
- هل ..
- لم أستطع أن أتصور انقطاعك عن العزف .
- إذن فـ ..

- أظن أنت لا تحتاج إلى رأي .
- بل أنا في أشد الحاجة إليه .
- أليس لك معجبون ؟
- أنت الأولى ..
- لن أكون الأخيرة .
- كنت مريضاً قبل أن تأن .
- إذن فقد شفيت .
- لقد ظللت سنوات طويلة أنتظر هذه الجملة .
- سوف تمحل من سباعها .
- لن أمل .. عمري جميعه ذهب في سبيل أن أسمعها .. لن أمل .

وكثر عجبىء بسيمه إلى حجرتى وبدأت بيننا هذه العلاقة من الألفة التى قد تؤدى إلى الحب .. لم أكن أتصور أنها ستحبى .. ولكن أختها - زوجتى - كانت أكثر منى علماً بأختها وبالحياة .. وجدت نفسى مدعواً إلى بيتها . دعائى أبوها .
بسيمه هى الصغرى وأختها زوجتى هى الكبرى طبعاً ..

لماذا نقول كلاماً لا لزوم له ما دمت قلت إن بسيمه هى الصغرى لها الداعى أن أقول إن بثينه أختها زوجتى هى الكبرى .. كلام كثير لا معنى له ونقوله .. ولكن بثينه لا تقول شيئاً إلا وتريد من وراءه شيئاً آخر .. بثينه زوجتى .. إلى أدرك كل شيء .. أعرف كل ما فى نفسها أنت يا بثينه لم تحبى فى يوم من الأيام .. لقد وجدت فى ضالتك المنشودة التى تعرفين أنك تريدنها .. شاب من الأرياف أختك تحبه .. وقد كان هذا هو الدافع الأول الذى جعل بثينه تنظر إلى .. مادامت بسيمه تحبه فلا بد أن تحرم بسيمه منه .. ثم هو موسيقى فاشل وسيظل فاشلاً فهادام قد بلغ هذا العمر ولم ينجح فلا نجاح له من بعد .. أمستطيع أن أشكله كما أشاء .. أجعل منه زوجاً ولا زوج .. رجلاً ولا رجل .. وهو مستور الحال .. لست أدري كيف كانت بسيمه تمحجل فقد كانت تحبى وتحشى أن تكثر من النزول إلى حتى لا أكشف حجبها .. ولم تكن بثينه تمحجل ولا كانت تحبى فهى تكثر من النزول إلى .. اهتمام كبير بشأنى .. بجميع شأنى .. نعم أعرف .. أعرف يا زوجتى العزيزة كنت تسألين عن تقدمى فى فنى .. اليوم أعرف سبب أسئلتك كان الواضح من السؤال أنك كنت تريدان الاطمئنان على نجاحى .. اليوم أعلم أنك كنت تريدان الاطمئنان على فشلى .. ولم تكن أنباء نجاحى موجودة .. وكانت أنباء فشلى هذه الحاضرة فى ذلك الحين .. وكنت فى هذه الأيام تستطيعين أن تصبغى صوتك بهذه الرنة الأسية الحزينة كانت بارعة أولعبنى كنت مغفلاً خطبتك وتزوجنا .. وعرفتكم .. شيء واحد استطعت أن أرغمك عليه .. هو أن أعزف .. وقد

عزفت وظللت أعزف .. وفجأة وجدت نفسى أريد أن أؤلف موسيقى .. وألفت .. ألفت
 قطعى الأولى ولم أسمعها لزوجتى فهى لا تريد أن تسمع شيئاً إلا نفسها .. خرجت فى بهيم
 الليل وهممت أن أذهب إلى بسمية وأطرق الباب عليها ولكن تذكرت أن أباه فى البيت ..
 عدت إلى حجرى القديمة وفتحته نوافذها وعزفت وحين انتهيت سمعت تصفيقاً ولم أقل
 شيئاً .. رحت أعيد ما عزفت وأعيدته حتى بدأ الصبح وانجهت من فورى إلى الإذاعة .

لم أكن أتصور أن هذا « السنكوح » سيصبح فى يوم من الأيام هذا الموسيقىار الذى يملأ
 الدنيا بنجاحه .. لو كنت أعلم ما تزوجته .. إنى أريد زوجى زوجى فقط ولا أريده شيئاً آخر
 لم تعد بسمية تهمنى فقد تزوجته ، وقضى الأمر ، ولكن كيف نجح .. ماذا يجد الناس فى
 موسيقاه .. ماذا يجد الناس .. لماذا لا يتركونه لى .. إنه لم يصبح زوجى لقد أصبح الموسيقىار
 الشهير .. ولكنه أبداً ليس زوجى !

لا .. لا تسعدي ..

أحبك أنت لا تدلين ماذا تعني هذه الكلمة بالنسبة لي ، وأنت أيضاً تجهلين ماذا تعنيه بالنسبة لك ..

أحبك .. كلمة هينة ما يسهل ما يقولها الناس للناس ، وما أسرع ما ينخدع بها الناس من الناس .. قالها أغلب الأمور أبونا آدم لأمناء حواء .. وقالها لا شك كل الذين اشتركوا في تكوين هذه البشرية .. وقالها بصوت عال مرتفع ، ظل يدوي عبر الأجيال روميو لجولييت ، وقيس للهيل وقيس آخر للبي ، وجميل لبشينة ، وكثير لعزة .. ولعل هؤلاء كانوا صادقين .. ولكن آخرين كاذبين قالوها بطريقة فيها شيء من خفة الظل ، أو فيها شيء من الفن ، فانتقلت إلينا أنباؤهم هم أيضاً .. فقد قالها كازانوفا لكثيرات وكثيرات ، وقالها دون جوان لكثيرات وكثيرات ، وقالها أيضاً عمر بن أبي ربيعة لكثيرات وكثيرات ..

قالوا هذه الكلمة البسيطة الثمينة بطرق شتى ، وبأساليب مختلفة ، بأبيات وقصائد وعطابات ، قالوها شفاهاً ، وقالوها خلجة في عين أو هزة من رأس ، أو لسة من يد ، لا شأن لي بهؤلاء جميعاً .. لا شأن لي .. فلن أحبك .. وأنا الآن في الثلاثين من عمري .. يلدوا لك لم تفهمي بعد ما أريد ..

أنا من هواة الأدب والقراءة ، عشت عمري كله بين الصفحات ولم أقل لواحدة في العالم أحبك .. هذه الكلمة التي قلتها لك أنت ، وقلتها بعد تردد شديد وحجل أشد ، لم أقلها لفئة قبلك أبداً ، احتفظت بها عمري كله لأقولها لك أنت .. هي كلمة عذراء عندي لم يتحرك بها لساني إلا لك ، ولم تصافح مني أذن فتاة قبل أذنك .. فهي كلمة لم تسمعها من قبلك أبداً .. هي بكر ناضرة جديدة كقطرة من ماء المطر تكونت ونزلت إلى النهر ثم لم تتكرر .. كلمة لم تخلق في حياتي إلا لك أنت ، خباها القدر في حنايا أياي لم يفض عنها ختمها إلا لتسمعها

أذنك ، ثم هى من بعد لن تقال لفتاة أخرى .. لا لن تقال منى إلا لك أنت .. أرايت إذن كم هى جديدة كلمة أحبك التى أقولها أنا لك .. هى جديدة وفريدة لا شبيه لها فيما مضى من تاريخها ، ولا أحسب أن سيكون لها شبيه فى مستقبلها الطويل الطويل الذى لا شك أنه سيمتد حتى قيام الساعة .. بل إننى أعتقد أن قيام الساعة لن يميت هذه الكلمة التى ستظل تتردد فى أنحاء الجنة من أولئك الذين رضى عنهم ربهم إلى الحور العين هناك على ضفاف الكوثر ، وفى رحاب الخمر والعسل ، وفوق السندس والإستبرق .. كلمة تتأبى على الموت ، هذه الكلمة ، ولكن كلمتى أنا التى قلتها لك لا مثيل لها .. إنها تحمل فى عروقها نبض الصبا الباكر والشباب الريان والأعوام الثلاثين التى خففتها فى الحياة ..

أنت لا شك تذكرين ذلك اليوم الذى قلتها فيه .. تذكرين ... كارثة لو كنت حتى لا تذكرين متى سمعتها وأين وكيف .. كل التفاصيل التى أحاطت بها وهى تنطلق من أعماق شبابى وحياتى .. من ذكرياتى وآمالى لتمر بأذنيك آملة أن يكون مصيرها إلى قلبك ..

لكم تمنيت ألا أكون رئيساً لتحرير المجلة التى تعملين بها .. لكم كنت أتمنى أن تكون كلمتى إليك بريئة من هية الرئيس وإعجاب المروءوس ، ولكن ماذا يبدي أن أفعل .. وأى عجيبة فى أن يحب رئيس تحرير فتاة لها هذا الوجه المستدير الأبيض الجميل ، وهذا القوام الفارع المبهف الذى يسير وكأنه نغمة فرحانة . وأى عجيبة فى أن يحب رئيس التحرير هاتين العينين فيهما دائماً كلمة تريد أن تقال ، ولكنها تتخفى وراء رموش كستار الغيب ، رقيقة كثيفة تنبئ ولا تفصح ، وتومئ ولا تبين ، وهذا الأنف فى وجهك على محياه غير الحياة ، كأنه لم يوضع مكانه إلا ليستنشق من الدنيا عطرها .. وهذا الشعر تلمينه فهو تاج ، أو ترسلينه فهو عريضة ومرح وحياة .. رأيتك أول ما رأيتك حين انضمت إلى أسرة تحرير المجلة كرئيس لتحرير القسم الأدبى بها .. وكنت تحبين أن تكتبى .. لم تكن قصصك رائعة .. ولكنى كنت أنشرها .. لم أكن أنا الذى تبين أنها غير رائعة ، وإنما القراء وخطاباتهم ، أما أنا فلم أكن أرى فيك أو منك إلا كل رائع وجميل وفنان ، لا .. لست من هؤلاء الناس الذين يفصلون فى أحكامهم بين الحب والعمل الفنى .. أو أنا على الأقل أمام حبك أنت لا أستطيع أن أكون عادلاً .. لقد أحببت قصتك قبل أن أقرأها وما كان لى من بعد أن أحكم عليها .. ولقد قرأتها لأنه لا بد أن أقرأها وقد أعجبت بها .. نعم أعجبت بها فنياً ، وكنت واثقاً حينذاك أننى عادل فى حكمى .. ولكن القراء لم يروك .. وأرسلوا خطاباتاً يبدون فيها عدم إعجابهم ، إنهم لم يروك .. لم تعرفى أنت من أمر هذه الخطابات شيئاً .. بل إنك عرفت عنها غير ما تقوله .. لقد قلت لك مرة فى خبث :

.. تصل إلينا خطابات كثيرة عن قصصك ..

وطبعاً فهمت أنها خطابات مديح ، فاعلمى اليوم إذن أنها لم تكن كذلك .. اليوم أريد أن

تعلمى أنها لم تكن كذلك .. على الأقل يجب أن تعلمى أن قصصك لم تعجب القراء .. لم تعجبهم ..

لقد فرحت يوم أخبرتك عن الخطابات .. فرحت كطفلة صغيرة أهديت عروساً كبيرة .. ورأيت مع الكلمة التى فى عينيك دمعتين طفرتا لم تستطعى أن تمنعيهما من الظهور .. ولا أدرى أى شجاعة واثقى حينذاك لا أطلب إليك شيئاً لم أطلبه من أحد قبلك .. تلعثمت وتلجلجت وأنا أقول :

— ما قولك فى أن نتعشى معاً الليلة .. ؟

وغاضت الدمعتان فى عينيك أو لا أدرى لعلهما تحدرتا لتختفيا ونظرت إلى نظرة فيها آثار سعادة واضحة وقلت وإبتسامة فيها شيء من التحدى على شفئك :

— نعم .. لم لا ..

وحاولت فى هذا العشاء أن أقول ما أردت أن أقوله منذ لقائى الأول بك .. ولكن لم أستطع .. وكانت كلمة أحبك هى أعز ما أقتنيه لأقدمه لحبيبى .. خشيت أن أقولها لك فلا تجهد ما تستحق من تكريم عندك .. وانتظرت .. ولكنى مع ذلك عقدت معك اتفاقاً ما زلت — رغم ما حدث — أرى نفسى فيه ذكياً حاد الذكاء .. اتفقنا على أن نتناول عشاءنا معاً كلما نشررت لك قصة وجاءت للمجلة عنها خطابات .. وهكذا كنا نلتقى وحدنا بعيداً عن المجلة مرة كل أسبوعين أو كل ثلاثة أسابيع على الأقل ، فقد كانت الخطابات تأتى للمجلة بانتظام غداة ظهور العدد الذى يحمل قصتك .. وأنت الآن تعرفين طبعاً أى نوع من الخطابات هذا الذى كان يأتى للمجلة .

وفى يوم انتهينا من عشاءنا وقلت فى حزم :

— أريد أن نسير قليلاً بالسيارة ..

ولم تجيبى وسرنا .. ذهبنا إلى الهرم ثم عدنا منه لنسير فى طريق الاسكندرية ، ثم وقفنا قليلاً عند النصب المقام هناك ولم أقل شيئاً ، وقطعت حديثنا المتناثر ..

— الدنيا برد ..

فعدنا إلى السيارة ، ومشيت بنا ، ولم نتكلم ، ولا أدرى لماذا اتجهت إلى شارع الجبلية .. نعم إنى أحب هذا الشارع ، وخاصة فى الليل ، ولكنه لم يكن فى طريقنا .. ولم تسألنى أنت لماذا اتجهت إليه .. وعند شجرة تسدل فروعها إلى النيل نزلت من السيارة صامتاً ، ونزلت ورائى ، وجلست أنت على الحجر هنا ، والتفت بوجهك إلى الأفق ، وظللت أنا واقفاً وعينى إلى النيل وطال بى الصمت أو خيل لى أنه طال ، ودون أن ألتفت إليك ، قلت فى هدوء وطمأنينة وثقة :

.. إلهام .. أحبك ..

ولم تقولى شيئاً ولكنك قبل أن تغادرى السيارة إلى البيت قلت هامة :

.. وأنا أحبك ..

ونزلت ، وظللت أنا ذاهلاً عن نفسى غير مصديق ما سمعت ..

لم تذهب كلمتى التى حفظتها لك طوال السنين سدى .. هى إذن قد صادفت ما كنت أرجو أن تصادف من صدق .. هو الحب الكامل إذن .. سررت بالسيارة ذاهلاً لا أدرى إلى أين ، فكل الطرق التى كانت أمامى أضيق من أن تسع فرحتى .. وسمعت ضجيجاً فى الشارع لم ألتفت له ، وفى إشارة مرور دخل وجهه إلى سيارتى وصباح به :
.. أقفل الباب ..

وتنبهت حينئذ أن باب سيارتى ظل مفتوحاً كما تركته .. وتمنيت لو أستطيع أن أتركه مفتوحاً كما تركته .. تمنيت أن تتجمد اللحظة التى قلت فيها وأنا أحبك .. تمنيت لو وقف الدهر عندها لا يتحرك .. ملت بسيارتي إلى جانب الطريق ووقفت .. أريد أن أقف لعل الزمن يقف ، وأريد أن أسير .. أن أغمر هذا العالم جميعه بهذه الفرحة التى تعربد فى كيانى كله .. أريد أن أصمت وأسمع همستك وأن أحبك مرة أخرى .. وألف ألف مرة أخرى .. وأريد أن أنادى جميع من يمر به لأقول له لقد قالت : وأنا أحبك .. أريد أن أفعل هذا جميعه فى وقت واحد .. كيف يمكن أن أقف وأسير ، وأن أسكت وأتكلم .. كم هو عاجز هذا الإنسان .. عاجز أمام فرحته ، كما هو عاجز أمام قدره ..

ظللت واقفاً ولم أشعر بالكون حولي يبدأ حتى خلا به العالم والنشوة فى صدرى كما هى ، وأقفت على خيوط الفجر الأولى تنساب فى الظلام فى هدوء ودعة .. وأقفلت باب السيارة ووجدت نفسى فى سريرى ولم أنم ..

ومرت بعد ذلك فترة من حياتى .. هى حياتى الحلوة جميعاً .. تجتمعت فى هذه الأيام .. لم تقولى لى بعدها أحبك .. ولم أقلها لك ، ولكننى كنت أحس الحب من نغمة صوتك ، من نظرة فى عينيك ، من همسة لا معنى لها ، أولسة تبدو كأنها غير مقصودة ..

وكنيت كلما أردت أن أقول لك نتزوج تراجعت ، فما كنت أريد حبنا الضخم الكبير يصبح زواجاً فقط .. ولم يكن هناك أكبر من الزواج .. كنت أريد حى من نوع جديد .. وطالت الأيام به ولم أقل نتزوج .. كأنما أردت أن أستمتع بكل قطرة من نداء حبنا .. ولم أدر لماذا توقفت عن الخروج معى .. مرة واحدة رفضت أن تخرجى معى رفضاً باتاً قاطعاً .. ثم تركت مواظبتك على الكتابة .. ثم انقطعت عن الجريدة يوماً .. وسألت : أين .. وطالعت

النبا المائل .. اليوم خطبتها .. ماذا .. أمن أجل هذا انقطعت .. لماذا لم تقولى .. لقد كنت أرى حبنا أكبر من كل شيء .. كان الزواج بالنسبة إليه أمراً ضئيلاً هيناً .. كنت أعتقد أننا نستطيع أن نتم الزواج في أى لحظة .. كنت أريد أن ألتصق به حباً حراً واسعاً كبيراً غير مقيد بحجم معين .. هو الزواج ..

لماذا لم تقولى .. لماذا ؟ ولماذا لم تقبل أن أتصل بك بعد هذا .. لماذا رددتني بهذه القسوة حين اقتربت منك أحادثك .. عند باب منزلك .. لويت عنى وجهك ومضيت في طريقك وكأن الذى كان بيننا كره كبير .. صادق هذا الذى قال : إن أقرب العواطف إلى الحب هو الكره .. لقد كرهتك يومذاك ، كرهاً قدر الحب الذى أحبيتك به .. لقد حطمت ذلك الحب الكبير الذى ادخرته لك طوال حياتى جميعاً .. أحسست كرهى يشتعل فى نفسى كسعار من جحيم .. وتبعتك بعينى ، ورأيتك وأنت تنظرين خلقتك إلى سيارتى لترى إن كنت قد مشيت أم ما أزال واقفاً .. ورأيتك وأنت تنعطفين إلى الشارع الأيمن ، وأحسست كرهى يملأ نفسى .. وسمعت بوق سيارة من الشارع الذى انعطفت إليه ، تمنيت لو أنها قتلتك .. ولماذا لا .. لقد تمنى هذه الأمانة شاعر قديم .. تمنى لو أنها ماتت حتى يستريح من حبها .. أما أنا فقد تمنيت لو أنك مت لأستريح من كرهى .. ولماذا أتمنى .. لماذا لا أقتلك أنا .. لقد كانت كلمة أحبك التى قلتها لك هى كل ما أدخره من حياتى ، وقد بددتها .. بددت حياتى جميعاً .. لماذا لا أقتلك .

سرت بالسيارة وأوقفتها بعيداً عنك وتركتها ونزلت .. أريد أن أقتلك .. أدفعك أمام ترام فأقتلك .. أو أختنقك إذا لزم الأمر .. سرت خلفك وأنت لا تترينى .. وسرت .. وسرت وفكرة قتلك تزداد وضوحاً فى نفسى .. وفى شارع قليل المرور ، عبرت الشارع دون أن تنظرى ، وكنت وراءك ، ونبتت من الطريق سيارة تغول الطريق ووجدت نفسى دون أن أحس ألقى بنفسى عليك لأنزعك من برائتها ولتصدمنى أنا السيارة بدلاً منك ..

لا .. لا تعودى فى غد لزيارى فى المستشفى .. لقد كان ما بيننا حباً لا مثيل له فى الحياة ، ولا أريد أن يصبح شكراً أو عطفاً .. لقد أضعت أكبر شيء أحبيته فى حياتى ، وهو حبنى ، ولم يبق لى شيء لتتقلبه .. فحتى لو أحبيتنى اليوم فليس هذا هو الحب الذى أردت .. لقد كنت أريده حباً خالصاً طلقاً واسعاً سعة الأرض والسماء .. سعة الأمل والحياة .. ولست أنت التى تستطيعين أن تقدمى هذا الحب .. فلا تعودى .. لا .. لا تعودى .

نمن المشروب

مهيب هو الشيخ حمدان : طويل فارع الطول ، في وجهه صلاح ، وفي سمته تقوى ، وفي مشيته جلال ، وفي لحيته خشية ، وفي جبهته علامة الصلاة . أنت لا تعرف مدى التوقير الذى يحظى به الشيخ حمدان في قريته ميت ربحان من أعمال مركز الدلجمون التابع لمحافظة الدقهلية . والأطفال في القرية يعظمون الشيخ حمدان ، فإذا مر بهم وكانوا يلعبون الحكشة توقفوا عن اللعب مخافة أن تضرب الكرة في رأس الشيخ حمدان أو عمامته . . وإذا مر بهم وكانوا يتصايحون تخافتت أصواتهم . وإذا مر بهم وكانوا جلوساً وقفوا ، فهكذا يرون كبارهم يفعلون . والنساء في القرية يحطن الشيخ حمدان بآيات لا حصر لها من الإجلال . فهو عندهم رجل القرية الأول ، إليه يلجأون في الملهمات الكبرى من حياتهم — فإذا أغضب زوج زوجته لا تجد قدما الزوجة طريقاً تسير فيه إلا الطريق الذى يقود إلى بيت الشيخ حمدان ، وإذا قست حماة على زوجة ابنها لجأت الزوجة المجنى عليها إلى الشيخ الجليل . وإذا استطلت زوجة على حماها فالحماة لا تشكو الزوجة إلى ابنها وإنما هى تشكوها إلى الشيخ حمدان . .

ورجال القرية جميعاً لا يعرفون ملاذاً لهم إلا الشيخ حمدان ، فإن نضب الماء فالشيخ حمدان ، وإن عدا جار على جار فالشيخ حمدان ، وإن عتا موظف فظلم فالشيخ حمدان ، بل العمدة نفسه يلجأ إلى الشيخ حمدان كلما استعظم عليه أمر أو تعقدت أمامه مشكلة . . الشيخ حمدان على صلة وثيقة بأهل الحل والربط ، فهو يعرف مأمور المركز ، وبلغ به الشأن أنه عرف في يوم ما الحكمدار وهو يعرف أطباء المستشفى ووكلاء النيابة . . ومفتش الصحة ومعاوني الزراعة . .

نعم أعرفهم جميعاً ولكن ماذا يعود على من معرفتهم . بل ماذا يعود على من هذا الاحترام وهذا التوقير . . سجن فقطيع من الاحترام هذا الذى يحيطوننى به لا أريده . . لا . .

لا أريده .. ولكن هل أستطيع أن أرفضه .. كيف أقول للناس لا تحترموني .. لا أستطيع ..
 إننى أمثل عندهم أملاً دائماً . إنهم إذا ألم بهم ضيق ذكرونى فينفرج الضيق .. ماذا أقول لهم ؟
 أنا لا أحب هذا التوقير الذى يجرموننى به ولا أطيق منه فكاكاً فى الوقت ذاته .. أنا فى القرية
 أسير احترامهم ، سجين تكريمهم ، حبيس آمالهم .. ولكنى أيضاً إنسان لى آمالى وأحلامى ولى
 صبرائى ومزاجى .. لم يكن لى بد إذن من هذا الذى أفعله . لا يبنى شىء ما دمت بعيداً عن
 عيونهم وعن علمهم .. نعم فى المدينة .. فى المنصورة التقي هناك بصديقى عمران السيد
 عيسى لى الليلة الحمراء . الكأس الحلوة تحيطه كل ما تهفو إليه نفسى من جلسة ممتعة وحديث .
 ثم هو عيسى أن لعب الورق ، أنت تعرف طبعاً أننى لعب الورق منذ كنت أتلقى علومى
 بالقاهرة ، ظريف صديقى عمران ، وهو كتوم للسر لا يذيعه .. فما يعرف من أمرى أحد فى
 القرية ، رغم أن عمران كثيراً ما يأتى ليزارى فى القرية ، وهو أمام البلدة من ذوى النفوذ الذين
 ألبأ إليهم إذا حزب أمر أو استعصت مشكلة . وهو فى اختياره لزملاء الورق حريص كل
 الحرص . فهم قلة لا تزيد على اثنين هوئالتهم ، أو ثلاثة هو رابعهم . ونشرب ونلعب حتى
 يشق الفجر أسداف الظلام فأعود إلى القرية فما يشك أهلها لحظة فى أننى ركبت السيارة عقب
 صلاة الفجر مباشرة .

لا أستطيع أن أظل سجين آمال أهل القرية .. ثم إننى بما أتيت به لنفسى من متعة أستطيع
 أن أحل لهم مشاكلهم ، فلولا هذه المتعة ما صفا ذهنى ولا أصبحت نفسى سمحة كريمة تسمع
 لهم فتطيل الاستماع ، وتصفى فتحسن الإصغاء فى غير ضيق ولا ضجر .. إن الكؤوس التى
 أشربها من أجلهم هم .. وما أنا ؟ .. ألسنت أملمهم .. حلمهم ، وفرجهم عند الضيق ،
 ويشراهم عند الشدة .. ولكن ما هذا الحديث الذى تسوقه .. ماذا تريد أن تقص ؟ ..

الشيخ لا يعرف ما أريد أن أقص عليك ، ولكن سيعرف عما قريب فلا تعجل عليه ،
 لنترك الشيخ قليلاً ونلقى نظرة على عمران ، فهو شريك الشيخ فى قصتنا .. عمران
 السيد موظف بمصلحة الطب الشرعى بالدقهلية ، وهو من أسرة أغلب أفرادها على ثراء ، وإن
 كان هو بريئاً من هذا الثراء .. كان يملك فدانين وثمانية قراريط باعها جميعاً واكتفى من الحياة
 بمرتبه وما يكسبه من القمار .. وعمران رجل وجيه يجب أن يصادق الأثرياء ذوى الوجاهة
 ويجب أن يقترن اسمه بالأعيان وأصحاب الشأن . والغريب أنه استطاع أن يصل إلى هدفه هذا
 مع الفقر المدقع الذى يعيش فيه .

فعمران حريص دائماً على أن يرتدى حلة نظيفة وقميصاً ورباط عتق أنيقاً ما وسعته
 الأناقة . ولم يكن وسعه فى الأناقة كبيراً . وعمران متزوج وذو أولاد . ولكن الأسرة لم تكن
 تكلفه من أمره شيئاً فمرتبه جميعاً لمزاجه والأولاد ترعاهم أهم بالمرتب الذى تتقاضاه من
 وظيفتها ولكن إذا مرض طفل لها لم يكن عمران فى هذه الحالة يستطيع أن يمنع قلبه من هذا

النبيض العنيف ، ولا كان يستطيع أن يرد عن نفسه هذه الغصة التي تعتصر المشاعر جميعها . حيثئذ كان يذل ما يستطيع من مال ، ريك هو الذي يستر . آخر جنيه معى دفعته ثمناً للدواء وقعدت في القهوة لا أملك ملياً وكنت أعرف أن زوجتي قد أنفقت ما معها جميعاً على مرض ابنتا محمود . فاليبت - والحمد لله - ليس فيه ملهم وجيبي أكثر فقرأ من يتي وأنا في المقهى على الحميد المجيد لا أملك شيئاً . . نعم أستطيع أن أطلب فنجان القهوة ، فهو على الحساب . بل أستطيع - إن شئت - أن أطلب كأس كونيك فهو على الحساب أيضاً . ولكني لا أستطيع أن أشتري سيجارة ، فالسجائر ليست على الحساب ، وفجأة أقبل الشيخ حمدان فذعرت . . فانا لا أقبل أبداً أن يطلب لي أحد شيئاً ولا أرده له . وأنا أعرف أن الشيخ حمدان يجب أن يشرب في هذا المقهى كاسين أو ثلاثة من الكونيك في هذه الحجرة البعيدة عن الأنظار . ومعنى هذا أنني سأضطر أن أشتري له من الكونيك قدر ما يشتري لي . . هكذا خلقت . مهما يكن الفقر الذي أعانيه لا أقبل أبداً بحال من الأحوال أن يأتي لي أحد بمشروب - مهما يكن ثمنه غالياً - ولا أرده له .

جاء الشيخ حمدان وحياً . .

- لماذا تجلس هنا ؟

- وأين تريدني أن أجلس ؟

- ألا تعرف ؟

- آه . . تقصد الحجرة ؟

- فهمتني .

- الدنيا حر . . اقعد هنا قليلاً في الهواء .

- أي هواء يا شيخ . قم إلى الغرفة الداخلية . . الهواء فيها أحسن .

- الهواء أم الكونيك ؟

- اسكت . . لا تفضحنى .

- يا عم الشيخ حمدان اقعد وصل على النبي .

- اللهم صلّ عليك يا نبي . وهل تظن أنني جئت من ميت ريحان لأجلس في الهواء . . إن

كان عن الهواء فهو ميت ريحان أحسن من هنا ألف مرة .

- ولماذا لا تشرب هذا المدعوق في ميت ريحان ونخلصنا ؟

- هل جنتت . . ألا تعرف ماذا أنا هناك ؟

- أعرف . . أعرف .

- قم يا أخي إذن ولا تطل . .

وقمت ودخلنا إلى الغرفة وأنا أدعو الله ألا يطلب الشيخ ربحاً أكثر من كأس أو كأسين ولكن المصيبة أن نهمه للخمر في هذا اليوم كان لا نهاية له ولذلك توقفت أنا عن الكأس الثالثة وتركته هو يكمل وحده وشرب .. وشرب وراح يتكلم وأنا أفكر في جيبى الخاوى .. يا أخى فعلاً ربك هو الذى يستر ..

- هل جئت خصيصاً من أجل الشرب ؟
- لا .. كان عندى شغلة .. إنما قل لى .. هل سنلعب الليلة ؟
- نلعب ؟
- نعم نلعب ..
- هي فرصة فعلاً .. أستطيع أن أستلف من الشيخ حمدان جنيهاً أو اثنين ألعب بهما وأدارى الفقر الذى أعانيه .
- نعم نلعب ولماذا لا ؟
- هيا بنا .
- إلى أين ؟
- نلعب .
- الآن ؟
- وما عيب الآن ؟
- لم يحن الوقت .
- نتظر إذن ؟
- طبعاً نتظر . هل معك نقود ؟
- كثيرة .
- كثيرة ؟
- لا أعرف عددها .
- لا تعرف عددها ؟
- وشرفك لا أعرف عددها .
- كيف ؟

بعت ذرة وبعت أرزاً وكان معى مبلغ كبير لا أذكر كم . ووضعت الفلوس على بعضها البعض ولم أعد .. الله يسترك يا عمران عد الفلوس لأننى أصبحت لا أستطيع العد .
لم اقل لك ربك هو الذى يستر .. أخرج من جيوبه ما فيها من جنيهاً ورحلت أعد ..
الرجل سكران وهو لا يعرف ماذا فى جيبه وهو سيلعب الورق . أين أجدر فرصة مثل هذه فى العمر كله .. كان المبلغ أربعمائة وأربعة وسبعين جنيهاً .. صححت المبلغ .. جعلته أربعمائة

وأرجعته له .. وناديت خادماً المقهى ودفعت له ثمن الكونيك الذى طلبته فأنت تعرف طبعاً
أننى لا أقبل مطلقاً أن يشتري لى أحد مشروباً ولا أرده له .

أهذه هى الحكاية التى تريد أن تحكيها ؟ لقد عرفت جزءاً منها ولم تعرف البقية .. أها بقية
يا عم الشيخ ؟ لا بد أن تعرف البقية ..

ذهبنا فى هذه الليلة ولعبنا حتى أوشك الصبح أن يطلع فقمنا إلى السيارة وأخذتها إلى ميت
ريمان وتمت ليلتى وفى الصباح عن لى أن أعد فلومى فأنا أعرف أن المبلغ الذى كان فى جيبي
حوالى خمسين جنيهاً تنقص جنيهاً أو اثنين ، وقبضت عربون الذرة مائتين وخمسة وعشرين جنيهاً
وقبضت عربون الأرز مائتى جنيه وخسرت فى اللعب ثلاثين جنيهاً فكان يجب أن يكون معى
أربعمائة وخمسة وأربعين جنيهاً قد تنقص جنيهاً أو اثنين ، ولكنى وجدت المبلغ ثلاثمائة وسبعين
جنيهاً . طبعاً عرفت أن عمران طمع فى الفرق وأخذه .. اتصدق بالله لم أسأله . إنه رجل
حساس إذا سألته سيفضب وإذا غضب لن أجد من يشاربنى الكأس ولا من يهوى لى
اللعب .. كتمت الأمر لم أقله إلا لك الآن .. ولكن قل لى من أخبرك أنت ؟ لعله عمران ..
نعم فهو دائماً يجب أن يفخر بأنه لا يمكن أن يسمح لأحد أن يقدم له مشروباً ولا يرده .. إنه
فعلاً لا بد أن يرد المشروب .. رجل طيب عمران وكريم وحساس ، الله يجازيه .

● السباحة في الرمال

لحظة سعادة

كان سعيداً منشرح الصدر وهو يفكر . . . كانت لحظة من هذه اللحظات القليلة التي يشعر فيها الإنسان أن الحياة تعطيه بقدر ما يريد منها أن تعطيه ودون أن يدري السبب راح يفكر في السبب الذي بث في نفسه هذه السعادة التي يشعر بها وما لبثت هذه الفترة أن بعدت عن مسار تفكيره . . . وما لبث أن قال لنفسه انى سعيد لأنى سعيد . . . وأخشى ما أخشاه أن أبحث عن أسباب سعادتي وانقلب بفعل يدى تعيساً وأسباب التعاسة دائماً أكثر وفرة من أسباب السعادة . . . وهل هذا كلام رجل سعيد . . . إنه كلام أى إنسان ولكنك لست أى إنسان . إنك رجل سعيد . . . حسناً فلأظل سعيداً إذن دون محاولات سخيفة لتعمق أسباب السعادة . . . هل هى قليلة لحظات السعادة هذه إلى هذا الحد . . . هل هى قليلة للدرجة أننى أقتنصها من الحياة اقتناصاً ولا أحاول حتى أن أبحث أسبابها وما دعت إليه . . .

إنى سعيد بزواجى . . . ولكن سعادتي بها لا تكون لى لحظات سعادة . . . أنا أحبها وأعلم أنها تحبني . . . وهى شريفة بحكم تكوينها وهى تعمل دائماً على إسعاد بيتها وليس بيني وبينها إلا هذه المشاجرات التى تدل على أننا أحياء ولو أنها مشاجرات كثيرة وعنيفة فى بعض الأحيان مما ينبىء على أننا أحياء جداً . . . ولكنها جميعاً مشاجرات طبيعية لا بد أن تنشأ بين اثنين نشأ كل منهما فى بيت ثم جمعها بيت واحد يعلمان أنها سيقضيان فيه ما بقى لهما من حياة . . . قد تشعر هى بالضيق أحياناً أو قد يشعر هو بالضيق أحياناً وقد تكون هذه الأحيان كثيرة وقد تتلاقى هذه الأحيان من الضيق فتكون مشاجرة لو بحث كلاهما أو أحدهما عن سببها لا تضج على الفور مقدار سخافتها .

لماذا أفكر فى كل هذا . . . من أجل لحظة سعادة . . . ألم تكن لى لحظات سعادة كثيرة وأنا طفل . . . لماذا يقول الناس طفولة سعيدة . . . أظن السعادة هنا يقف وراءها الجهل . .

إنهم سعداء لأنهم لا يعرفون كيف يكونون تعساء . . . ولكنى مع ذلك أذكر فى طفولتى لحظات سعيدة . والآن فقط أدرك أننى كان يجب أن أعتبر طفولتى سعيدة . . . يبدو أن الأطفال يعتبرون سعادتهم قضية مسلماً بها لا تقبل النقاش . . . فحياتهم مهما تكن سعيدة يعتبرونها هم عادية . ولا يذكرون منها إلا لحظات السعادة الخارقة للعادة ولحظات التعاسة العادية . . . كانت لحظات سعادتى هى تلك الأوقات التى أقضيها فى قراءة القصص . . . قصص الأطفال . كنت أحسن أننى أعيش فى عالم آخر غير هذا الذى أعيش فيه .

لماذا يعتبر البعد عن العالم الذى أعيش فيه سعادة . . . لماذا يقول الناس هذا دائماً كلما أحبوا أن يعبروا عن سعادتهم . . . هل العالم الذى نعيش فيه سيئ إلى هذا الحد وإن كان شيئاً أهو هكذا بالنسبة للأطفال . . . لماذا يحبون أن يعبروا إلى عوالم أخرى من قصص علاء الدين والسندباد وعلى بابا والأربعين حرامى وقصص الجان وغيرها وغيرها .

والكبار . . . ألا يتشبثون بعالم آخر . . . ما الحياة عندنا إذا كانت هى هذه الحياة فقط . . . سبحانه خالق الناس . . . عرف نفوسهم وعرف حياتهم فوعدهم بحياة أخرى يلقون فيها السعادة التى لم يعرفوها من الدنيا . . . ولكنى الآن سعيد . . . لحظة . . . أو لحظات ثم تعود الحياة حياة . أقصى ما أطمع فيه منها ألا ترزأى بلحظات تعاسة وتصبح أيام الملل والوتيرة الواحدة سعيدة . . . سعيدة لأنها ليست تعيسة . . .

إننا نبحث فى حياتنا هذه عن السعادة من أى سبيل . . . نرى السعادة فى نظرة إلى أبنائنا . . . فى أبنائنا . . . فى ابتسامة على شفة لهم . . . فى ضحكة . . . فى مجرد جلوسهم أمامنا مشغولين عنا بالنظر إلى التلفزيون .

ما السعادة التى يهبها لنا أطفالنا . . . ما هى ما قبل الرعب الذى يلقون به فى نفوسنا . . . الهول المين الذعر الأخاذ الرعب . . . إذا مرض أحدهم أو إذا وهما أن مرضاً يهدد واحداً . . . وحين يزول المرض وحين يزول الوهم تعود نفوسنا إلى الصفاء وتعود إلينا السعادة . . . ما أعظم الثمن الذى ندفعه لقاء السعادة من أطفالنا .

ويل لى لحظة سعادة واحدة تفعل بى هذه الأفاعيل . . . ماذا أحاول أن أعرف . . . هل فرض على فرضاً أن أبحث عن سبب هذه السعادة . . . ألا يكفينى أنى سعيد . . .

لنبحث أولاً . . . ما هى أعراض السعادة التى أعانيها . . . ويل ألا أعرف أعراض السعادة أهذه أيضاً تحتاج إلى شرح . . . ألا أعرف هذه الإشارة التى تشيع فى النفس فإذا النفس بهجة وإذا هى متطلعة إلى المستقبل الوردى الصافى وإلى الحاضر وكان سعادة العالم تجتمع فيه . . . هذه هى حالى الآن . . . لماذا . . . وما يملك لماذا ما دمت سعيداً . . . ألا تخشى أن تفقد سعادتك وأنت تبحث فى هدوء دون هذا البحث السخيف . . . ونتفلسف أيضاً

وتريد أن تظل سعيداً ... يقولون إن الفلاسفة هم السعداء بل يقولون إن السعداء هم الجهلاء .. كلا القولين غير صحيح ... فأنت سعيد ولست جاهلاً إلى درجة أن يقال عنك جاهل ولست فيلسوفاً إلى درجة أن يقال عنك فيلسوف ... ولكننى لست سعيداً ... ماذا هل فقدت السعادة ... أقصد أننى لست سعيداً سعادة الفلاسفة ولا الجهلاء ... كل ما فى الأمر أننى أشعر بلحظة سعادة ... لعل لقاءك بالأمس مع سهام أمدك هذه السعادة . لقد أحسست بالسعادة فعلاً فى لقائى معها ولكن اللقاء كان يشغلنى عن الشعور بالسعادة ... وانتهى اللقاء وعدت إلى حياتى اليومية ومرت بى لحظات رضى ولحظات ضيق فلا شأن لسعادتي الراهنة بلقائى مع سهام ... هى حبيبى وهى الوحيدة فى هذا العالم التى تستطيع أن تسمح عن نفسى حمولها وآلامها وأنا أسعد بلقائها وأهب لها كل ما تريد ولكن الحياة تلاقينى بعد ذلك وأرى فيها الخير وأرى فيها الشر وأحيا كما يحيا الناس حتى التقي مرة أخرى بسهام ... فهذه السعادة التى أحسها إذن سعادة جديدة من نوع آخر يتتابى بلا مقدمات ولهذا أبحث عن أسبابه ... ألا بد أن تبحث ... رجعتنا ثانية إلى هذا الحديث : وهل السعادة مع سهام خالصة أتعجبى لنفسى أم لما أقدمه لها من مال ... إننى أقدم المال وأسعد ... لا شئ يهم بعد ذلك . أم تراه يهم ... ؟

لعلك سعيد لهذه المرافعة الرائعة التى قدمتها فى قضية الأمس ... أهى المرافعة الوحيدة التى رضيت عن نفسى فيها ... إننى أعمل فى المحاماة منذ سنوات طويلة ويقولون إننى محام ناجح وأعرف أننى ناجح ومعرفتى هذه تجعلنى ألتقى بكل قضية وأنا أحتشد لها وكأننى محام ناشئ ثم أحتشد لها وورائى تاريخى الطويل فى ساحة القضاء ... أرى أنك بدأت تترافع ... طبيعة ... ماذا أفعل فيها ... المهم أن لحظة السعادة التى أمرح فيها الآن لا صلة لها بمرافعتى .

اسمع ... ألا يجوز ... مجرد فكرة لا تسخر منها ... ألا يجوز أن يكون حديثك التليفونى مع صديقك إسمايل قد أرسل إليك بهذه اللحظة السعيدة ... أرى أنك بدأت تخوف ... إننى كثيراً ما أحادث الأصدقاء ولا شك أنهم يرسلون الدفء إلى قلبى ولكن لو أننى شعرت بهذه لمجرد حديث مع صديق لأصبحت حياتى كلها سعادة بلهاء ... سعادة لا قيمة لها لأنها ستصبح سعادة غبية سخيفة .

اسمع ... طالما سمعت ... اسمع ولا تعقب ... إنك سعيد لأنك سعيد ... أهذا آخر ما وصلت إليه ... ما أشد سخفك بل أنت السخيف ... أرايت أنك تريد أن تفسد على سعادتي ...

اسمع إننى لن أبحث عن السبب ... إلى الآن سعيد ولا يهم لماذا ... إلى سعيد وكفى ...

السباحة فى الرمال

كان البحر هادئاً ولكن الشاب الذى يسبح فيه خائر القوى فهو يرفع رأسه يلقف نفسه ثم تغوص رأسه مرة أخرى فيمد يديه يرفع يديه لا تمجدان إلا الفراغ وتهويان مرة أخرى خائرتين إلى المياه ويعود رأسه يشرب فى يأس ويهوى فى عجز إلى الماء .

أنا لا أجيد السباحة . لو حاولت أن أنقله مت أنا وهو لا محالة نظرت حولى فوجدت شاباً فتياً يجلس فى زورق على الرمال ويحرك مجدافين فيمسان الرمال فى رفق ثم يرتفعان إلى الهواء والفتى ماض فى عمله هذا وكأنما يجدف فى الماء وكأنما يفضى إلى مكان يعرفه . فإن نظرت إليه خيل إليك أن الهدف أمامه واضح لا شك فيه .

وارتفع صوت الفتى الذى يغرق فى اليم . . . ارتفع فى يأس يطلب النجدة ومزقت صرخته كل نفس ولكن الفتى فى الزورق لم يلتفت إليه وظل يجدف وكأنه فى عالم آخر .

— ألا ترى هذا الذى يغرق ؟

— أراه وأعرفه .

— أتعرفه ؟

— إنه أبى .

— أبوك ؟ !

— وأخى .

— وأخوك ؟ !

— وأمى .

— وأمك ؟ !

— وزوجتى .

- وزوجتك ؟ !
- وابنى .
- وابنتك ؟ !
- وابنى .
- وابنتك ؟ !
- وكل ماضى وكل مستقبل .
- فلماذا لا تذهب إليه بالزورق ؟
- هذا الزورق لا يسير فى الماء .
- إن الزورق لم يخلق إلا للماء .
- ولكن هذا الزورق لا يسير فى الماء .
- وأنت ألا تستطيع أن تنقذه ... ألا تستطيع أن تعوم ؟
- أنا أحسن سباح فى العالم .
- فلماذا لا تنقذه ؟
- أنا لا أسبح إلا فى الرمال .
- إن الرمال لم تخلق للسباحة .
- وهل تخلق الماء للسباحة ؟
- إن السباحة هى التى خلقت للماء .
- فأنقذه .
- لا أستطيع .
- لماذا ؟
- إن أحداً لم يدعى .
- هأنذا أدعوك .
- ومن أنت ؟
- بشر .
- ولكن ماشأناك ؟
- إنسان يفرق .
- وهل أنت مسؤول عن كل إنسان يفرق .
- إننى مسؤول عن كل إنسان .
- من الذى ألقى عليك هذه المسؤولية ؟
- إنسانيتى .
- مغرور .

- إنه وقت النقاش .
- أبوك وأمك وزوجتك وابنتك وابنك وأخوك وماضيك ومستقبلك جميعهم يغرقون وأنت تناقش .
- أنا لا أعرف إلا النقاش .
- فأعطني هذا الزورق .
- قلت لك إنه زورق للرمال فقط .
- أعطنيه ولا شأن لك .
- لا تستطيع الاقتراب منه .
- سأحاول .
- لا تحاول .
- بل لا بد أن أحاول .
- واقتربت من الزورق ولكن شيئاً جعلني أقف ولا أستطيع الاقتراب من الزورق ورحبت أدفع جسمي بكل قوتي ولكن بدون جدوى والفتى في الزورق يجدف وكأن شيئاً لا يحدث والفتى في البحر يغرق ويصرخ من حين إلى آخر ولكن بلا جدوى هو الآخر .
- أنا لا أستطيع فعلاً أن أقترب منه ولكنك أنت فيه فلماذا لا تنزل به إلى البحر .
- لقد أجبتك .
- حاول .
- لا أستطيع .
- ويغرق هؤلاء جميعاً ؟
- أنا أفعل كل ما أستطيع .
- أنت تجدف في الرمال .
- هذا هو كل ما أستطيع أن أصنعه .
- سأصرخ .
- اصرخ .
- لعل أحداً يسمعي .
- سيسمعك الكثيرون ولكن أحداً لن يهيب صراخك .
- لماذا . . . ماذا يجري للناس ؟
- إن إنقاذه في يدي أنا وحدي .
- فلماذا لا تنقله ؟
- أنا أفعل كل ما أستطيع .
- أنت لا تفعل شيئاً .

- هذا هو كل ما أستطيع .
 - إنه في البحر وأنت على الشاطئ .
 - هذا قدره وقدرى .
 - لا تتكلم عن القدر .
 - إنه قدره وقدرى .
 - الجبناء وحدهم الذين يرمون أخطاءهم على القدر .
 - المنطق العادى يحكم أفكارك .
 - وأنت لك منطق ؟
 - إننى أستخدم منطقى هنا .
 - وهل منطقك يجعلك تملك الزورق ولا تنقذ به أحداً ؟
 - لأن هذا الزورق خلق للرمال فقط .
 - أمذا منطق ؟
 - منطق لا تعرفه .
 - منطق جديد ؟
 - جديد أو قديم ... لا أدرى وإنما هذا هو المنطق الذى أعرفه .
 - ويغرق فى البحر .
 - لعله ينقذ .
 - كيف ؟
 - إذا قدر له أن ينقذ فسوف ينقذ .
 - كم كنت أرجو أن أكون قادراً على إنقاذه .
 - وما الذى يمنعك ؟
 - لا أعرف السباحة ... أو أنا على الأقل لا أجيدها .
 - فحاول .
 - وإذا غرقت معه ؟
 - تكون قد أرضيت ضميرك .
 - وضميرك أنت ؟
 - لا شأن لك بضميرى ... أرح أنت ضميرك .
- وهمت أن أنزل إلى الماء ولكن ثقتى أننى لا أجيد السباحة ردتنى ونظرت إلى الفتى يغرق ونظرت إلى الفتى يهدف فى الرمال وأوليت الجميع ظهري وانصرفت ...

حكاية رجل بخيل

نشأ كما ينشأ أمثاله جميعاً من الأثرياء في الريف . فلم يكن ذا شأن في هذا الحين من الزمان فكان بحسب الطفل من هؤلاء أن يختم القرآن في الكتاب وأن يتعلم أصول الحساب وقواعده فإن كان ذا ميل شديد للدراسة أرسله أبوه ليكمل تعليمه في القاهرة فإن لم يكن فهو مقيم بجانب أبيه في القرية يعين أباه في شئون الحقل ويصبح من أعيان قريته فإن كان صاحب عقلية راجحة وكلام منمق ، وإذا كان كريماً يحسن استقبال الناس ولقاءهم أصبح من أعيان المركز . فإن كان واسع الثراء صاحب شخصية يمكن أن تكون مرموقة أصبح من أعيان المديرية أو من أعيان البلاد جميعاً إذا رشح نفسه في مجلس شورى القوانين الذي أصبح بعد ذلك مجلس النواب أو مجلس الشيوخ .

وهكذا اكتفى عبد القادر فهمي بأن يختم القرآن في قريته الهدارة من أعمال مديرية بني سويف بالصعيد كما تعلم قواعد المحاسبات على يد ميخائيل أفندي شفيق كاتب دائرة والده . وكان عبد القادر يجد في مكتبة أبيه بعض الكتب القديمة فقرأها أبناء القرية المتعلم منهم وغير المتعلم فأصبح يحسن الإنصات .

وقد اعتمد عليه أبوه في أعمال الحقل والمحاسبة فكان يقوم بعمله خير قيام . فعلى الرغم من سعة الأرض وكثرة المحاسبات كان عبد القادر على علم بكل خافية من شئون الفدادين التي تبلغ ألفى فدان . وما لبث أن أصبح هو وحده القائم بأمر الأرض وكان أبوه يكتفى بأن يأخذ الربيع آخر العام . وكان أبوه يعطيه راتباً شهرياً خمسين جنيهاً . ولم تمر إلا سنوات أربع حتى فوجيء الأب بابنه يشتري مائة فدان .

— من أين دفعت الثمن ؟

- من مرتبى .
- ألا تصرف منه شيئاً ؟
- ولماذا أصرف .
- ألا تحتاج إلى شيء ؟
- الأكل في البيت .
- والملبس ؟
- تشتريه أنت في كل عام .
- ولكن مرتبك لا يكفي لشراء الأرض ؟
- لقد اتفقت مع البائع على أن أسدد له خمسين جنيهاً كل شهر .
- وأنت .
- إن سألتك شيئاً لا تعطه .

ولم يعرف الأب إن كان يفرح بابنه هذا المدبر أم يحزن ولكنه تركه وشأنه وإن كان قد أزمع في نفسه أن يعجل بزواجه فقد حزر أنه لو تركه دون زواج ما تزوج أبداً وخشى فهمى بك عبد المتعال أن تنقطع ذريته لتدبير ابنه ولا يجب أن يقول لنفسه نتيجة لبخل ابنه .

- أريد أن أزوجه .
- كم سيكلفك الزواج ؟
- ليكلف ما يكلف .
- أعطني تكاليف الزواج ولا تشغل أنت نفسك .
- هذا ما أخصاه . . . إنك ابني الوحيد فلو تركتك وشأنك ما تزوجت أبداً .
- أنت مصمم إذن ؟
- كل التصميم .
- أمرك .

واختار الأب العروس فتاة من أسرة عريقة بالصعيد لابنه وخطبها دون أن يراها هو أو ابنه فقد كانوا في ذلك الحين يتزوجون من الأسرة العريقة ولا يهم أن تكون الزوجة جميلة أو غير جميلة . أما عبد القادر فقد ارتاح للزواج حين علم أن أبا زوجته يملك ألفى فدان وليس للعروس إلا أخ واحد ولم يكن محتاجاً لعلمه الواسع بالمواريث ليعرف أنها سترث عن أبيها إن أجلاً أو عاجلاً ما يقرب من السبعائة فدان فقد كانت أمها متوفية . إلى جانب بيت فخم بالقاهرة . وعد الأب أن يكون من نصيب الابنة لأنه أعد لأخيها قصراً آخر بالقاهرة أيضاً . وتزوج عبد القادر وعاش هو وزوجته نفيسة في بيت أبيه وكانا يذهبان أحياناً إلى بيت أبيها بالقاهرة . وكان الأب يعرف تدبير ابنه فكان هو الذي يعد لسفرهما إذا سافرا وكان الأب يعطى

لنفسه مبلغاً من المال لتشتري به ما تشاء من القاهرة خوفاً من تدبير ابنه الذى لا يحب أن يسميه بخلًا - إذا هو أعطاه المال دون زوجته .

وحق ذلك الحين لم تكن مواهب عبد القادر قد تكشفت فأبوه هو الذى ينفق عليه وعلى زوجته ولكن نفيسة لاحظت على زوجها عدم عنايته بملبسه فكانت هى التى تعتنى بها كما لاحظت أنه لا يعتنى بنظافة جسمه فكانت تصر أن تفرض عليه النظافة فرضاً ويخضع هو صاغراً . فقد كان ذهنه جميعاً منصرفاً إلى القيام بشأن الأرض وتدبير مبالغ لشراء أرض أخرى .

ولم يطل الأمر بالزوجة فقد توفى أبو الزوجة وأثبت عبد القادر وجوده الرائع فى المحافظة على حقوق زوجته فاستخلصها كامله غير منقوصة واراد أن يبيع بيت القاهرة ليشتري بثمنه أرضاً ولكن زوجته التى بدأت ترى بوادر حقيقته الفذة أصرت أن يبقى لها بيت القاهرة .

- لا تنس إننا ننتظر ابننا وسيحتاج إلى تعليم ولن نبقى فى القرية طول عمرنا .
واقنع . أو هو لم يكن يملك إلا أن يقتنع فقد أصرت الزوجة على موقفها .

- وشيء آخر .

- ماذا أيضاً .

- أريد مائة جنيه شهرياً من ريع أرضى .

- ماذا ؟

- هذا خير من أن أكتب توكيلاً لأخى سلامة ليدير هو الأرض .

- وكأنما هددته بالموت بل لعل الموت بالنسبة إليه أهون من هذا التهديد .

- ولك هذا أتريد شيئاً بعد ذلك ؟

- افعل بعد ذلك ما تريد .

فقد ضمنت هى أن تعيش ولا شأن لها بزوجها بعد ذلك . . . فقد كان كثير الحديث عن رغبته فى التملك وكانت تخشى أن تجوع هى وأولادها فى سبيل أن يزيد عبد القادر من أملاكه . وأنجبت ابنها الأول ورآه فهمى بك واطمأن على أن ذريته باقية ثم مات .

مات وانفرد عبد القادر بالأرض وبدأت مواهبه تظهر على حقيقتها .

- مصاريف البيت ياعبد القادر .

- والمائة جنيه التى تأخذينها ؟

- هذا من مالى .

- وهل لك مال ولى مال ؟

- اسمع إما أن تدفع خمسين جنيهاً في الشهر مصاريف البيت أو ...
- لا تكمل ...
- إذن ...
- سأخبرهم في الدائرة أن يصرفوا لك خمسين جنيهاً كل شهر .
- ولماذا لا تعطيني أنت ؟ .
- وأنت ما شأنك .
- خبايا البيوت لا يجوز أن تعرفها الدائرة .
- أنت تأخذين هذا المبلغ رغم أنفى ويدي لا تطاوعنى أن أدفعه .
- أنت حر .

وأصبحت الدائرة تعطي نفيسة خمسين جنيهاً فوق المائة وانطلق عبد القادر يبحث عن الأرض رحلة طويلة يقطعها كل يوم يمر بالأرض ويستخلص كل مليم يمكن أن يستخلصه كل ما يهيمه ألا يدفع وأن يجمع .

حين مات ميخائيل كان لا بد له أن يعين كاتباً جديداً .

- كم تأخذ يا ابني في الشهر ؟
- كم تدفع
- ثلاثة جنيهاً .
- وهل هذا معقول ؟
- ستسرق أنت عشرة فليكن مرتبك ثلاثة .

المهم ألا يدفع . وقد كان يدرك أن الكاتب سيسرق على كل حال مهما يقدق عليه في المرتب فليستفد هو من المرتب وليسرق الكاتب بعد ذلك .

كانت الأموال السائلة التي تركها أبوه تكفى لشراء ألف فدان فاشترها وأصبحت أملاكه في بني سويف ثلاثة آلاف فدان وأخذ نفسه ألا ينفق هو على نفسه شيئاً وقد كان رداؤه رداء المشايخ فهو يلبس العمة والجبة والقفطان جرياً على عادة أعيان الصعيد . وقد كان أبوه هو الذي يشتري له الملابس فلما مات أبوه أصبح لا يشتري شيئاً وقد جاهدت نفيسة جهداً شاقاً أن تجعله يشتري لنفسه بعض الملابس فكان جوابه الوحيد والدائم :

- لك المائة والخمسون جنيهاً وليس لك بعد ذلك شيء . وأصبح الأولاد ثلاثة وهو لاشأن له بهم . وضاعت نفيسة بالقرية وبزوجها .
- أريد أن أذهب إلى القاهرة .
- وأنا .

- أنت حر .
- لن تأخذى مليماً واحداً أكثر مما تأخذين .
- لا أريد شيئاً فقط أريد أن أذهب إلى القاهرة .
- ومنذ ذلك الحين أصبحت تسلية عبد القادر إذا خلا به الليل أن يفتش عن القمل في ملابسه ويقتله وأن يرتق هذه الملابس حتى لا تبين عما تحتها من قذارة أو حتى يسلى نفسه فيما كان يسمه أن يبين منه القدر .
- وفي يوم اشترى أرضاً وكان لا بد أن يسجلها بالقاهرة فذهب إلى بيت زوجته وصعد إليها في الطابق الأعلى وراة هيئته الجديدة فصرخت :
- ماذا بك ؟
- ماذا .
- ما هذا الذى تلبسه ؟
- ملابس .
- ألا يغسلها لك أحد .
- لقد تركتني .
- عشرة قروش لأى فلاحه تغسل ملابسك .
- أنت لا شأن لك بي .
- إلى هنا وإلى شأن ... يا محمد ... يا حسين .
- وجاء الخادمان ...
- هذا الشيخ لا يصعد إلى الطابق الأعلى إلا بعد أن يستحم بالطابق الأسفل وتغير له ملابسه .
- لن أشتري أى ملابس .
- سأشتريها أنا .
- ومنذ ذلك اليوم أصبح عبد القادر لا يستحم ولا يغير ملابسه إلا إذا زار بيته في القاهرة وقليلًا قليلًا ما كان يزور بيته في القاهرة .

===== (يشتري أرضاً بالمنصورة) =====

كان لا بد أن يكون لعبد القادر أصدقاء ... وقد كان له أصدقاء فعلاً ... وقد أحسن اختيارهم انهم السامسة وقد كان مع السامسة أميناً في المعاملة لا حباً في الأمانة ولكن حباً في عقد الصفقات الرباحة . وقد كان عبد القادر يعطى السامسار حقه كاملاً غير منقوص وغير زائد

أيضاً بطبيعة الحال . وقد دله سمسار على صفقة مع رجل ألماني يملك أرضاً بعزبة قريبة من المنصورة كان الألماني مهتماً بها غاية الاهتمام فقد بنى بها بيتاً أرضيته من الخشب الباركيه وبنى بها بيتاً آخر لناظر العزبة وأجرى الماء فيها داخل قنوات من الأسمنت المسلح وبها ترولى يمر على كل شبر من الأرض وقد كانت العزبة تستطيع أن تجد مسترياً خيراً من عبد القادر فعبد القادر لا يعنى بالبيت المنشأ . ولا يهيمه في شيء كيف يجري الماء ولا يهيمه أيضاً أن يلف العزبة راكباً الترولى فإن قدميه عن الترولى .

ولكن استفاد من وجود هذه الأشياء أن صاحب العزبة كان مهتماً بها والواقع أن في إطلاقنا على الأرض كلمة عزبة ظلماً كبيراً لها فهي تفتيش واسع مساحته ألف فدان . والفرصة التي أتاحت لعبد القادر أن صاحب التفتيش يريد أن يبيعه في أسرع وقت وأن يحصل على الثمن كاملاً .

فحين قصد السمسار إلى عبد القادر قصد إليه وهو يعلم أنه يكاد يكون الشخص الوحيد الذي يجد معه المبلغ كاملاً .

كان الفدان يساوى في ذلك الحين مائتي جنيه ولكن عبد القادر الذي أدرك الموقف استطاع أن يشتري الفدان بمائة جنيه والبائع لم يجد حيلة للمناقشة فأين يجد رجلاً يملك مائتي ألف جنيه جاهزة ويريد أن يشتري أرضاً لعله كان يجد له لو كان ملك فسحة من الوقت ولكن لا وقت . وهكذا انقضض عبد القادر على الصفقة انقضاض النسر . وسافر في سيارة المالك الألماني وطاف بالأرض طوافاً سريعاً ولم يلق أى اهتمام بالبيتين ولا بالترولى ولا بقنوات الماء . واستطاع أن يخفى فرحته باتساع الأرض فقد كان عبد القادر يملك وجهاً فريداً في نوعه فإن رأيت خيل إليك ..

أنه يليس على وجهه قناعاً من المطاط الرقيق لا تبين فيه خلفة فرحة ولا نامة سرور ولا علامة حزن وإنما هو وجه بلا أى تعبير ولولا إفرازات عينيه التي لا تنقطع عن جوانبها لتأكد لديك أنه يضع هذا القناع اللهم إلا إذا أمسكت بوجهه لتتأكد أنه بشرة آدمية لا صناعة فيها . . . وما أظنك ستفعل فإنه بملابسه التي توحى إليك بمقدار قذارته يمنعك إن كنت ممن يحبون النظافة أن تفعل ولهذا لم يكن غريباً على أحد عظماء الصعيد ما كان يفعله مع عبد القادر كلما ذهب لزيارته فقد كان يجلس في آخر الحجرة وما يكاد يلوح عبد القادر عند الباب حتى يعاجله عظيم الصعيد بقوله :

— عندك وقل ما تريد .

ولم يكن عبد القادر يغضب لكرامته فمسألة الكرامة عنده ليست ذات بال . كان يقف ويقول ما يريد ويقضيه له العظيم أولاً يقضيه حسب الموضوع المطروح .

وكان عبد القادر يسخر من العظيم في نفسه فهو يملك آلاف الأفدنة بينما العظيم مدين مع غناه لأنه كان ينفق أكثر من إirاده على وجاهته .

وهكذا طاف عبد القادر بالتفتيش وعاد إلى القاهرة . وإياك أن تظن أن معنى عودته إلى القاهرة أن يعود إلى بيته . إنه كان يبيت في لوكاندة بسيدنا الحسين تزجر فيها الغرفة بعشرة قروش وكان يستأجرها الغرفة كاملة لميئته وكان يجد هذا أوفر من ذهابه إلى البيت فقد تطالبه زوجته بمال . . إنه لن يعطيها ولكن المطالبة نفسها لا يطيقها ثم هو سيواجه على كل حال بهذا الحما والملايس وقد كان لا يجب أن يلبس هذه الملايس النظيفة لأنها قد توحى للناس بغناه وهذا في ذاته سبب كاف أن يبقى على نفسه هذه الملايس المهلهلة . . ثم بماذا سيتسلى إن لبس النظيف من الثياب وتركه القمل الذي يجمعه آخر الليل إذا خلا به الليل .

عاد إذن إلى القاهرة وأصبح الصباح فكان هو يستقبل إشراق الشمس مع أن مواعده مع البائع كان في الرابعة من بعد الظهر . . . نزل من اللوكاندة فأفطر وكان إفطاره رغيفا من العيش وبنصف قرش طعمية ثم ذلف إلى مسجد الحسين نتوضأ وصلّى الصبح . . وظل جالسا بالمسجد لا يصنع شيئا حتى إذا اقترب موعد صلاة الظهر قام قاصدا مسجدا السيدة زينب ليصل الظهر . وهناك وجد متصدقا يوزع العيش والفضول النائب على فقراء المسجد . . الحمد لله لقد أتانا غداؤنا . . . ولم يكن الموزع ليجد أصلح من عبد القادر في مظهره ليتصدق عليه مما يتصدق به على الفقراء . . وهكذا تناول عبد القادر غداءه بل وأخذ أيضاً خمسة تعريفة كانت ضمن النذر الذي يوزعه المتصدق . وفلسفته بسيطة لا تحتاج إلى نقاش . . . خير جاء لى من عند ربنا ، هل أردّه .

(أول زيارة لتسلم الأرض)

عبد القادر لا يعرف من درجات القطار إلا الدرجة الثالثة وأظن أننا نكون سخفاء لو حاولنا أن نسأله عن الدرجتين الآخرين . . ولكنه يجيب على كل حال . . . ألا تصل الدرجات الثلاث في وقت واحد . في هذه الليلة لم يشأ أن يبيت في اللوكاندة فقد حزم أمره أن يأخذ القطار الأول إلى المنصورة فما معنى أن ينفق عشرة قروش في اللوكاندة فلماذا إذن خلقت هذه الأرائك المشورة في محطة مصر فإن لدعه البرد فالبركة في الجبة يتغطى بها وينام ليلته في المحطة ويوفر ثمن اللوكاندة وأجرة تذكرة الترام من الحسين إلى المحطة . . . فوائد كثيرة يحنها من بيته على هذه الأريكة وقد فعل . ومن المنصورة استقل قطاراً آخر أنزله في أقرب محطة من التفتيش . وأقرب محطة من التفتيش تبعد عنه ثلاثة كيلو مترات يستطيع أن يمسيها . فقد أخذ

درساً من صاحب حمار كان يحاول يوماً أن يستأجره ، كان ذاهباً إلى إحدى تفتيشه ونزل بأقرب محطة من التفتيش وكانت المسافة بعيدة بعض الشيء خمسة كيلو ووجد فلاحاً ومعه حمار فركب الحمار وحين استقر عليه نظر إلى الفلاح .

— كم تأخذ لتوصلني إلى التفتيش ؟
وكان الفلاح يعرفه ويعرف سمعته العريضة .

— خمسة قروش .

— صاغ .

— كثيرة .

— اسمع سأدفع لك ثلاثة تعريفة .

ويبدو أن الفلاح لم يكن معجباً به ولا بما يسمعه عنه فإذا هو يدفعه دفعة قوية تلقيه عن ظهر الحمار ليصبح طريحاً على الأرض ويقول له :

— والله لا أوصلك حتى لو دلفت خمسين قرشاً .

ومنذ ذلك تعلم ألا يستأجر حماراً إلا عند الضرورة القصوى . وقد كان يستطيع في يومه هذا الذى يزور فيه تفتيش الألمان لأول مرة أن يكلمهم بالتليفون فقد كان بالتفتيش تليفون وكان يستطيع أيضاً أن يرسل لهم تلغرافاً لينتظروه بالحنطور الذى كان ضمن ما اشتراه فى التفتيش ولكن المكالمات التليفونية أو التلغراف كان لا يمكن أن تكون مجاناً أما المشى فإلى جانب أنه رياضة فهو أيضاً لا يكلف شيئاً .

كان القائم بشأن التفتيش عمدة الناحية وكان رجلاً وجيهاً يحب أن يعيش فى رغد عيشة كريمة لا يخل فيها فهو محترم فى منطقته يحظى بتقدير الفلاحين وأعيان الناحية .

ولم يكن المفتش حاضراً فى المرة الأولى التى جاء فيها عبد القادر ليطوف بالأرض ولكنه طبعاً عرف أنباء الزيارة جميعاً ولم ينس من قصصا عليه هذه الأنباء أن يصفوا له المشتري الجديد . ولم يكن محتاجاً لهذا الوصف فقد كان رجل مجتمع وكانت أنباء عبد القادر أو معظمها قد وصلته .

كان المفتش جالساً مع الكاتب والحولى وبعض الفلاحين حين أقبل عليهم عبد القادر فى ملابسه الرثة .

— السلام عليكم .

ودون ريث تفكير قال المفتش .

— يعطيك ربنا يا عم الشيخ .

ولم تهتز كرامة عبد القادر فهي قد عودت هذه النظرة ولم يعد صاحبها يهتم بمثل هذه التفاهات للناس أن يقولوا وأن يفعلوا ما يشاءون وله هو أن يتمتع بمتعته الخاصة كما يشاء .

— أنا عبد القادر فهمي .

وانتفض الجميع وسارع المفتش الذي كان يغمزه أحد الفلاحين في يده بعد فوات الوقت .

— لا مؤاخذه يا سعادة البك الى ما يعرفك يجهلك .

— لا مؤاخذه ولا يجزنون هيه كيف الحال .

وجلس وطلب دفاتر الحسابات واستأذن المفتش لحظة ونادى أحد الفلاحين وانتحى به ناحية .

— اذهب إلى البيت واطلب إليهم أن يذبحوا أوزة ويجهزوا الغذاء .

— إنه لا يستحق .

— يا جدد اخرس إنه صاحب التفتيش .

— خسارة فيه .

— اجر ولا تتلكع .

ويذهب الرسول إلى البيت ويعود المفتش إلى مجلسه مع عبد القادر ويبدأ عبد القادر في مراجعة الحسابات وينتهي النقاش بأن يطلب منه المفتش مائة وخمسين جنيهاً قيمة إصلاحات لأدوات زراعية واستهول المبلغ .

— ولكن الزراعة محتاجة لهذه الأدوات .

فظل يناقشهم ويعنف بهم في النقاش حتى نزل بالمبلغ إلى ثلاثين جنيهاً .

وحينئذ كان الغذاء قد أعد ووجد عبد القادر نفسه أمام وليمة هائلة وقد كان أכולاً مع أن فلسفته لا تتفق مع هذه الصفة فيه فقد قال يوماً لأحد الكبراء :

— يا باشا يقولون عني بخيل .

فقال الباشا :

— والله يا شيخ عبد القادر نعم يقولون هذا .

— هذا غير صحيح .

— أتظن ذلك ؟

— البخيل هو الذي تشتهي نفسه الشيء ولا يشتريه أما أنا فنفسى لا تشتهي شيئاً وقد كانت هذه الفلسفة جديرة أن تجعله غير أכול ولكنه — والشهادة لله — في الولايم ذو فن عريض فهو

عليهم بالمأكولات يحسن تذوقها ويتناول منها مقادير لا يمكن أن تتناسب مع جسمه الضئيل الهزيل .

فحين وجد نفسه أمام هذه الوليمة التي أعدها له المفتش هش وسجحت نفسه وهم أن يمد يده ولكنه فجأة تذكر أشياء على جانب كبير من الأهمية . إنه في تفتيشه ولعل هذه الوليمة تظهر له في المرة القادمة بدفاتر الحسابات . وثنى يده المملودة ونظر إلى المفتش .

— العزومة دى على حسابى أم على حسابكم .
والواقع أن المفتش كان قد أعد الوليمة على حسابه الخاص ولم يفكر مطلقاً أن يحاسب الشيخ عبد القادر عليها ولكنه أمام هذا السؤال تملكه غيظ شديد فنظر إليه في ضيق وضجر وقال :

- على حسابك .
- ومن قال لكم ان معدنى تحتمل هذا الأكل ؟
- والله لا نعرف طبعك .
- لا ، أنا لا أكل إلا اللبن الرائب .
- أمرك .

وأحضروا له اللبن الرائب وراحوا هم يأكلون الوليمة في نهم مغيظ . وحين انتهى الغذاء هم الشيخ عبد القادر بالقيام .

- ألحق القطار .
- أمرك ولكنك لم تدفع الثلاثين جنيهاً .
- آه نسيت خذ .

وأخرج من جيبه عشرة تناولها المفتش صامتاً معتقداً أنه سيرسل له باقى المبلغ وأمر بتجهيز العربة واستقلها الشيخ عبد القادر وركب معه المفتش وفي منتصف الطريق فاجأه الشيخ عبد القادر بأن أخرج من جيبه عشرة جنيهاً أخرى وأعطاهها له فقال في نفسه لعله كان ناسياً أن معه عشرة أخرى وحين وصلوا إلى المحطة فاجأه بأن أعطاه العشرة الثالثة وهو يقول :
— صعب أن أخرج ثلاثين جنيهاً دفعة واحدة .

(هو وزوجته)

ضاقَت به زوجته فهو يأبى أن يزيد ما يعطيه لها عن المائة وخمسين جنيهاً وقد أصبح الأولاد خمسة ثلاثة أولاد وبنتين والأولاد يتعلمون في الجامعة وهم يريدون أن يلبسوا أحسن الثياب

ما دام أبوهما قادراً والبتتان اقتربتا من سن الزواج ولن يقدم أحد على الزواج بأحدهما وسمعة أبيهما تملأ الآفاق .

وقد انقطع عبد القادر عن البيت تماماً منذ عرضت عليه زوجته هذا الحديث . فهو طبعاً لن يزيد مرتبها وهو يعلم أنها قد تهدده بنزع الأرض من تحت يده فوجد أن خير ما يفعله أن ينقطع تماماً عن البيت . ولكن السيدة زوجته لم تسكت فقد أرسلت في طلب أخيها سلام وسرعان ما جاء كان هو أيضاً يكاد يموت من الحجل مما يسمعه عن زوج أخته وقد كان يتوق أن يذهب إلى أخته ليحدثها في أمره ولكنه كان يمنع نفسه خشية أن تظن أنه طامع في إدارة أموالها كما كان يريد أن يربأ بنفسه أن يتدخل من تلقاء نفسه بين الزوجين . فحين أرسلت إليه أخته وافقت الدعوة هوى نفسه .

- ماذا نصنع يا أخى ؟
- يا أخى إن لم يكن أصيلاً فيجب أن نكون نحن أصداً .
- أنت لا تحتاج إلى أن أحدثك عن شيء .
- أخباره تملأ الدنيا ويتندر بها الناس في كل مكان .
- يا للفضيحة .
- في الصعيد في القاهرة في المنصورة .
- المصيبة ماذا أصنع مع الأولاد ؟
- أنا تحت أمرك .
- تحت أمرى أكون أبوهما بهذا الثراء ونأخذ منك مالا .
- ترى ماذا تريدني أن أفعل ؟
- المصيبة الكبرى البتتان .. لقد أشرفنا على سن الزواج .
- اسمعى أنا أستطيع أن أصنع الكثير .
- اصنع .
- قبل أى شيء نرسل إليه أتعرفين طريقه ؟
- أعرف الذى يعرف طريقه ؟
- من ؟
- الحاج أحمد هلال من المنصورة .
- من هذا ؟
- سمسار يلزمه أغلب الوقت وقد طلبته مرة فجاء ورجوته أن يكلمه ..
- وبماذا أجاب ؟
- عاد الرجل الطيب خجلان لا يعرف ماذا يقول فقد رفض أى حديث في الموضوع .

- ولماذا يلزمه ؟
- والله لا أدري ولكن يبدو أنه ينتفع منه فهو سمسار وهو الذى يتولى له بيع المحصولات
- كما يعرض عليه شراء بعض الأراضى كلها . وجد فرصة المهم أنه يلزمه أغلب وقته .
- هل تستطيعين أن تستدعى الحاج أحمد هلال ؟
- إن له محل إقامة على الأقل .
- ألا تقولين إنه يلزمه ؟
- نعم ولكنه يبيت كل ليلة فى بيته ما لم يكن معه فى القاهرة .
- أنعرفين أين يبيت زوجك إن كان فى القاهرة ؟
- فى سيدنا الحسين .
- فى أى لوكاندة ؟
- وكيف أعرف ؟
- يبدو أنه لا سبيل إلى الحاج أحمد هلال فليس من المعقول أن نظوف بلوكاندات الحسين
- نسألهم عن عبد القادر .
- هل معك ثمرة الحاج أحمد هلال ؟
- أتيت بها من دفتر المنصورة وقد طلبته منها فى المرة الأولى .
- وجاء الحاج أحمد هلال وقال سلامة :
- أيرضيك ما يصنعه عبد القادر ؟
- إنه لا يرضى أحداً .
- أنت صديقه ؟
- أولاً يجب أن تعرف سعادتك أنه لا يجب أن يكون له صديق .
- وأنت ؟
- أنا أعمل معه .
- مجرد عمل .
- أنا سمسار وهو غنى يبيع محصولاً ويشترى أطياناً .
- فلست صديقاً .
- صديق ... اسمع .
- ماذا ؟
- سأروى لك حكايتين .
- حكايات ؟
- لتعرف إن كان يمكن مثله أن يكون له صديق .
- إنك تلازمه .

- وتلك هى المصيبة ... فى يوم اجتمعنا حوله ثلاثة سماسرة فى قهوة حقيرة بالمنصورة
- نتنظر إقفال البورصة لتزايد على الإقفال ويقدم كل منا العلاوة المناسبة لنشتري قطنه ...
- أتعرف كم قنطاراً كان يبيعها فى ذلك اليوم .
- كثير طبعاً .
- ألفى قنطار .
- عظيم .
- تأخر الإقفال .
- هيه .
- جعنا ... الساعة قاربت الثالثة .
- لم يفكر طبعاً أن يدعوكم للغداء .
- انتظر .
- إني منتظر .
- نحن فى قهوة حقيرة الغداء لن يكلفه أكثر من خمسة قروش أربعة أرغفة بقرشين صاغ
- ويثلاثة صاغ طعمية . كانت كافية ونحن نعرف أنه بخيل ولم تكن نتنظر أكثر من ذلك .
- معقول .
- وكلنا كان خجلاً أن يدعو الآخرين على الغداء لهذا لا يجوز فى وجود رجل فى غناه
- سيبيع فى جلستنا ألفى قنطار .
- معقول أيضاً .
- استأذن منا عبد القادر بك وغاب ...
- إلى أين ذهب ؟
- انتظر ... قلت لزملائى إني أفكر فى شيء وأنا واثق منه فالوا ماذا ؟ قلت انتظروا
- ذهبت إلى المرحاض ... أتصور مرحاضاً فى قهوة حقيرة ... رائحته تملأ المنطقة كلها
- لا القهوة وحدها ... للمرحاض فتحة مستديرة فى أعلى الباب لا أعرف لوجودها سبباً وجدت
- عبد القادر بك يخرج من جيب الصديرى لفة بها طعميتان ومن الجيب الآخر شقة عيش وأنت
- تعرف أن نظره ضعيف فلم يرى وراح يتناول غذاءه هذا فى المرحاض حتى لا يضطر لدفع القروش
- الخمسة التى تكفى غذاءنا وتقول صديق ...
- أعوذ بالله . ولماذا تسير معه ؟
- ألم أقل لك لماذا ؟
- ألم أعوذ بالله .
- اسمع .

— حكاية أخرى .

— ألعن وأضل سبيلاً .

— ماذا ؟

— ذهبت لأبيت معه في لوكاندة بسيدنا الحسين رجوته أن يغيرها فأبى وكنت مضطراً أن ألزمه لأن صفقة هامة كانت تنتظرنا في الصباح الباكر من اليوم التالى . وكانت عينه اليمنى مصابة برمد حاد . فحين دخلنا اللوكاندة نادى الخادم وقال له اذهب إلى الصيدلية القريبة واشتر قطرة وقطرة وبنكلة قطعاً سأله الخادم بنكلة قال نعم بنكلة . ذهب الخادم وعاد بالأشياء ورأيت يعطى الخادم شيئاً فعمجت فليس هذا من عادته . قبض الخادم على ما أعطاه وخرج دون أن ينظر فيه ولم تمر لحظة إلا وفتح الخادم الباب وقال له « ماذا أعطيتنى يا عم الشيخ » فقال عبد القادر بك « نكلة » فقال الخادم « إذن فأى لم أخطئ لقد اعتقدت أننى أخطأت . خذ يا عم الشيخ النكلة خسارة تنفعك » وخرج الخادم ولم أجرو أن أسأله عما فعل ولكنه هو قال « بنى آدم لا يملأ عينه إلا التراب . . . ماذا يريد . . . أريد فداناً لأنه اشترى لى بضعة أشياء من الصيدلية » قلت « الفرق كبير حبتين بين النكلة والفدان » يا عبد القادر بك . قال : « كلكم مجانين تبعثرون من أموالكم فى الكلام الفارغ والله لو أعطيته جنيهاً ما قنع » بنى آدم لا يملأ عينه إلا التراب » قلت تعال لنرى عينك أولاً « وقطرت له فى عينه المريضة جفت القطرة بقطعة من القطن وألقيتها إلى الأرض قال « ماذا فعلت » قلت « رميت القطنة » قال « أنت جنتت » قلت « لماذا » قال « ألن تقطر فى العين الثانية » قلت « نعم » قال « فلماذا رميت القطنة » قلت « حتى لا تصاب العين السليمة من العين المريضة » فإذا به يقول غاضباً « يارجل حرام عليك خسارة القطن . كلكم مجانين » . أتستطيع بربك أن تقدر لى ثمن قطنة مقطوعة من قطنة ثمنها نكلة . وتقول أصدقاء فى هذا اليوم قال لى حكمة عجيبة . قال إن أحد المليونيرات فى الغرب قال راقب الملايم أما الجنيهاات فسوف تراقب نفسها وتقول لى صديق . . . يا سعادة البك زوج أختك لا يعرف معنى كلمة صديق هذه أبداً .

— يا سيدى أنا آسف المهم .

— أنا تحت أمرك فى كل شىء إلا فى مسألة أختك .

— لماذا ؟

— حين كلمته فى المرة الفائتة كاد يضربنى والحقيقة أنا أستفيد منه فصفقاته كثيرة وأنا آخذ

حقى فى السمسة وأنا لا أضمن أن أجد زبوناً مثله .

— إذن أخبرنا أين نجده ؟

— هو ليس فى المنصورة .

— فأين تظنه يكون ؟

— لعله فى القاهرة .

- إذن دلنا على مكانه فى القاهرة .
- هذه سهلة .
- وذهب سلام إليه فى اللوكاندة فوجده يمارس هوايته من تنقية القمل من ملابسه .
- يارجل اتق الله .
- اسمع أنا لا أريد نصائح أحد .
- اتق الله فى نفسك إن لم تتق الله فى أولادك .
- لا شأن لأحد بى .
- ماذا تريد أن تصنع بهذا المال ؟
- أنتم مجانين . والمال لم يوجد إلا ليجمع .
- يسويون إنه موجود ليتمتع به الإنسان .
- أنا أتمتع بجمعه ما رأيك ؟
- أهذه متعتك ؟
- ولا متعة لى غيرها .
- إذن اسمع .
- سمعنا .
- أخشى تريد أن تكلمك .
- قل أنت ما تريد .
- هناك أشياء لا يقوها إلا الزوج .
- أمرى إلى الله أذهب معك .

نفسه نفيسة :

- اسمع يا عبد القادر هذه الحال لا تنفع .
- هذا آخر ما عندى .
- إذن على أنا أن أفعل ما يجب على .
- اعمل كل ما فى يدك .
- منذ الغد سأسقط التوكيل عنك وأركله أخى فى إدارة الأرض .
- وبعد غد تصلك ورقة الطلاق .
- هذا يوم المنى . . . على الأقل يعرف الناس أننى انفصلت عنك لعل بناتك تتزوج .
- ولن تبقى بناتك معك .
- هذا أمر تقرره المحكمة .
- وأنا أحب المحاكم .

وخرج وفعلاً أسقطت الست نفيسة عنه التوكيل ووكلت أخاها في إدارة الأرض وفعلاً طلق هو زوجته ولم يطالب بضم الأولاد قائلاً في نفسه ما دامت قد استولت على الأرض فلا أقل من أن تنفق هي على الأولاد . ولكن الست نفيسة كانت مليئة منه بالغيظ فرفعت دعوى نفقة وحكمت المحكمة لها بمائة وخمسين جنيهاً شهرياً مع المتجمد من يوم الطلاق .

جن جنون عبد القادر وذهب إلى المحامي .

— إن جاءت البنات إلى حضانتى لن يكلفون أكثر من عشرة جنيهاً أو عشرين .
ورفع دعوى الضم بالنسبة للبنتين . أما الأولاد فكانوا قد بلغوا سن الرشد وحكمت المحكمة بالضم وفي يوم تنفيذ الحكم ذهب ومعه الحاج أحمد هلال ليتسلم البنتين وعند باب البيت :

— حاج أحمد ... هات لنا عربة .

وذهب الحاج أحمد فأحضر سيارة أجرة نظر إليها عبد القادر .
— ما هذا ؟

— سيارة أجرة .

— وهل قلت لك سيارة ... أتريد أن تخرب يلقى ؟
— لماذا ؟

— السيارة ستأخذ أكثر من عشرين قرشاً .
— فماذا تريد ؟

— عربة ... عربة حنطور بخمسة قروش .

وصرف الحاج أحمد السيارة بعد أن دفع أجرتها من جيبه وأحضر عربة ونزلت البنتان وركبتا معه صاغرتين وسارت العربة !

وفجأة لاحت في الطريق سيارة فاخرة نظرت البنتان فيها فوجدتا أمهما ومعها خالهما فإذا البنتان تقفزان من العربة وتجريان إلى السيارة ويصيح عبد القادر :

— امسك يا حاج أحمد .

— ماذا أمسك ؟

— البنات .

— يا عبد القادر بك بناتك كبيرات أتريد يذى أن نأق على صدورهن ؟

— امسك ولا شأن لك .

— نحن في الشارع يا عبد القادر بك ... لا يمكن ... لا أستطيع .

— وأثناء هذا الحوار كانت البنات قد ركين السيارة مع أمهما وعاد هو خائباً إلى البيت وظل يدفع النفقة .

(عبد القادر وبائعة الفجل)

كان جالساً أمام باب بيته في بنى سويف وكان الوقت رمضان . وكان صائماً بطبيعة الحال حين سرت به بائعة فجل .

— بكم الحزمة يا خالة ؟
— بتعرفة .
— هات عينة أريها لهم بالداخل .
— أحسن فجل وشر فك ... تفضل .
وأخذ حزمة الفجل ودخل إلى منزله وما هي إلا لحظات قلائل وعاد ...
— خذى يا خالة .

— ماذا ؟
— الفجل لم يعجبهم .
— الأمر لله هات .
— ونظرت المرأة في حزمة الفجل .
— ما هذه ؟
— الحزمة التى أعطيتها لى .
— يا رجل يا ضلالى .
— عيب يا خالة اختشى .
— أعطيك حزمة ريانة ناضرة فتستبدلها بحزمة ذابلة بقيت عندك منذ أيام .
— أنا يا امرأة ؟
— تعرفه يا ضلالى تريد أن تأكلنى فيه .
— اذهى يا امرأة أنا صائم ولا أريد وجع دماغ .
— صائم يا ضلالى والله لاخرب بيتك .
وانجتمت المرأة إلى نقطة البوليس وقدمت شكواها وانتقل الضابط مع قوة إلى عبد القادر .
— ماذا فعلت لهذه المرأة ؟
— إنها امرأة مجنونة .

- اسمع إنها تقول انها أعطتك عينة .
 - حصل .
 - وبالطبع البائع حين يعطى عينة يقدم أحسن ما عنده .
 - لقد رددتها لها :
 - سنجرى تفتيشاً في بيتك .
 - كيف ؟
 - هكذا .
 - وإن وجدت فجلاً يبقى ؟ .
 - سنقارنه بفجل المرأة فإن كان مثله فأنت قد استبدلت حزمة الفجل .
 - يا حضرة الضابط تكذبني وتصدق هذه المرأة .
 - أولاً أنت تعملها . . . وثانياً لماذا تتبلى عليك هذه المرأة ؟
- وقام الضابط والقوة بالتفتيش ووجدوا حزمة الفجل وقاموا بالمقارنة وأصدروا الحكم في الحال .
- تدفع لهذه المرأة خمسة جنيهات .
 - ماذا ؟
 - أو نقدك إلى النيابة .
 - وفي هذه المرة دفع خمسة جنيهات .

(عبد القادر وموظف البنك)

كان معه خمسون ألف جنيه ويات ليلته في لوكاندة الحسين وهي في هذا اليوم بالذات أحسن مكان يبيت فيه فهي المكان الوحيد الذي لا يشك أحد أن شخصاً يحمل خمسين ألف جنيه يبيت فيه .

صلى الفجر في الحسين وقصد ماشياً إلى البنك الأهل فوجد البنك ما زال مغلقاً فتكوم بجانب الباب في انتظار فتح البنك .

وأقبل الموظف الذي يحمل مفاتيح البنك فوجد هذه الكومة فرق قلبه على هذا المسكين الذي يجلس في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح وفي هذا البرد القارس من يناير بباب البنك . . . ولم يكن الموظف غنياً ولكنه كان طيباً فمد يده بقرش تعريفة أعطاه لعبد القادر فأخذه ووضع في جيبه وهو صامت .

وبعد قليل جاء موظفو البنك وجاء المدير فدخل إليه عبد القادر وقدم له الخمسين ألف جنيه ليودعها في حسابه .

ودق المدير الجرس ودخل أحد الموظفين فقال له المدير :

— هذه خمسون ألف جنيه أودعها باسم عبد القادر بك فهمى .

— ونظر الموظف إلى عبد القادر فهمى وأنعم النظر ثم قال :

— حضرتك جئت قبل فتح البنك ؟

— نعم .

— سعادتك كنت جالساً بجانب الباب ؟

— نعم .

— إذن هات التعريفة .

وأخرج عبد القادر التعريفة في صمت وأعطاه للموظف وسأل المدير الموظف فقص عليه ما حدث وضحك المدير وسأل عبد القادر :

— لماذا ؟

— أنا لا أرد خيراً أبداً . . . هذا كفر يا سعادة المدير . . . كفر .

(المصير)

طال به العمر وطال لم يغير الزمن منه شيئاً حتى كان قانون الإصلاح الزراعى فإذا عبد القادر يجد ما جمعه كله بدا . . . سبعة آلاف فدان لم يبق منه إلا ثلاثمائة . . . ترى هل كان يجمع عبد القادر ماله ليرثه أولاده من بعده . . . هراء وإلا لأعطى لأبنائه الفرصة أن يعيشوا . . . لقد كانت متعته في الحياة أن يجمع المال ويمتعه عن الآخرين حتى عمن يستحقونه وأول هؤلاء وعلى رأسهم أولاده الذين لولا أهمهم لعاشوا عيشة الشحاذين وأبناء العيل ، إن نكبت في قانون الإصلاح لم تكن في أن الأرض لم يرثها أبنائه وإنما النكبة الكبرى في أن الأرض لن تصبح ملكاً له . . . وليست في أن إرادته قل فيما كان محتاجاً لإيراد فهو قد أودع باسم ابنه الأكبر ما يقرب من المليون جنيه لأنه كان معجباً بابنه الأكبر الذى حصل على بكالوريوس التجارة العليا وكان شحيحاً . . . طبعاً لم يكن في القمة التى وصل إليها أبوه من الشح ولكنه كان شحيحاً . وهكذا أودع أبوه باسمه هذه الأموال حتى لا تنال الضرائب منها شيئاً إذا وافاه الأجل المحتوم .

الإصلاح الزراعى كان نكبة بالنسبة إليه في أنه انتزع الأرض والأموال باسم ابنه الأكبر كان فقط يريد أن يحرم ضريبة التركات من حقها هذا كل ما فى الأمر ولكنه أبداً لم يكن يفكر فى شأن

أبنائه ... إنها - كما نـت - الرغبة في الجمع لنفسه والرغبة في منع الآخرين .

ولكن عبد القادر رغم ضآلة جسمه كان قوياً على الشدائد فاحتمل الصدمة وظل يواصل حياته كأن شيئاً لم يحدث ... طبعاً مسألة الإيراد لم تؤثر فيه على الإطلاق فقد كان إيراد فدان واحد يكفيه العام كله ويفيض ولكن النزاع بجميع العمر ... أمل السنين ... لعله قال في نفسه قد تمتعت في الجمع نفسه ولكن ما أظنه قال هذا أيضاً ... المهم أنه صبر ولا أدري كيف صبر ... على أية حال لم يطل به الصبر ...

مر على قانون الإصلاح الزراعى ما يقرب من الثلاثة شهور . وكان عبد القادر جالساً في بيته بالصعيد وحيداً يمارس لعبته المفضلة مع القمل حين سمع أصواتاً في الحجرة التى بها الخزانة ... كان بالخزانة ثلاثمائة جنيه ... قام يجرى إلى الحجرة ... الضوء منبعث من مصباح غازى فهو طبعاً لا يفكر في الكهرباء ... ونظر عبد القادر ضعيف ولكن هذا لم يمنعه أن يرى أشباحاً حول الخزانة ... ثلاثة نفر يتعاملون مع الخزانة معاملة لا ترضى عبد القادر .

- ماذا تعمل يا ابنى أنت وهو؟

وكانت كلمته الأخيرة التفت للصمص حول وقلوه ...

لقد مات الميتة التى تليق به . لقد عاش عمره يجمع المال ومات في سبيل المحافظة على المال .

اعتبرت الضرائب الورثة يملكون السبعة آلاف فدان فحجزت على الثلاثمائة الباقية وفاء للضريبة المستحقة على وارث سبعة آلاف فدان ... وحاول الإخوة أن ينالوا من أخيه شيئاً من المال السائل فأبى مدعياً أن جميعه ماله فأبلغوا الضرائب أن الأموال التى بالبنك باسم أخيه إنما هى ملك لأبيهم فوضعت تحت الحراسة وفاء للضريبة المستحقة . ولم يبق من عبد القادر إلا هذه الصفحات التى أنقلها إليك لو كنت ألفتها لك لكان من حقه أن ترى فيها رأيك حسناً كان أو غير حسن ولكن الحياة هى التى ألفت هذه الصفحات وهى - للأسف - حين تؤلف لا يهمها كثيراً رأى أحد - . ومع ذلك فقد رأيت فيما ألفت الحياة شيئاً يستحق أن أرويه لك وفى هذا رأى تستطيع أنت أن تقول ما تشاء رضى أو سخطاً ...

النسابة

لم يكن يتصور حين أدخل نادية المدرسة الابتدائية أنه سيطيق دفع المصروفات لها حتى تواصل تعليمها . ومن أين وهو يعمل ساعياً بوزارة الحربية مرتبه عشرة جنيهات . وقد أدخل محمداً ابنه الأكبر إلى المدرسة كما أدخل ابنه الآخر عبد الكريم . وحين جاءت نادية عزم في نفسه أن تبقى في البيت لتساعد أمها عيشة على شؤون البيت . ولكنها حين بلغت السابعة كانت عبثاً على الأم بدلاً من أن تكون عوناً لها .

- أدخلها المدرسة .
- ويعد المدرسة .
- تقعد في البيت .
- وإن عجبها الحال .
- يحلها ألف حلال .
- ولو تعبت من أعمال البيت .
- هي الآن أكثر شيء يتعبني في البيت .
- تدخل المدرسة .
- آه ... تدخل المدرسة .

ودخلت نادية المدرسة . وكأثما كانت شيطنتها وهي في البيت تنتظر الشرارة لتنفجر فانفجرت . انفجرت مذاكرة فهي الأولى دائماً . وبدلاً من أن تعاند أخوها وتغيظها أنها يتقويان في دروسهما بينما تنتهب هي الدروس انتهاياً كانت ترضى كلا منهما وتتخاضع لهما في الحديث ليشرحاً لها ما يعجز المدرس أن يشرحه . فالمدرس لم يكن يشرح شيئاً وهي لم تكن تفهم من المدرس شيئاً والمدرس وناديه كلاهما معذور . فقد كانت المدرسة لا تملك الفصول

الكافية للتلاميذ . والوقت المخصص للدراسة من السابعة إلى الثانية عشرة لأن هناك تلاميذ آخرين تخصص لهم المدرسة من الثانية عشرة إلى الرابعة . فالمدرس تائه بتلاميذه يبحث لهم عن مكان وهو ملهوف ملوع يريد أن يرمى بدرسه قبل أن يدهمه موعد الجرس وبين الالهفة والقلق لا يفهم التلاميذ شيئاً . ولم تكن نادية إلا واحدة من أولئك التلاميذ الضائعين مع مدرستهم فلم يكن لها موئل إلا أخويها محمد وعبد الكريم يشرحان لها ما في الكتاب . ذلك الكتاب المستكين بين يديها لا يبحث عن مكان يلقي فيه بدرسه ولا يخشى أن يدهمه الموقف وإنما هو ثابت صابر ينتظر من يقرأه ومن يفهمه في هدوء ودعة وأمان .

وكانت نادية تنظر إلى زميلاتها اللواتي قعدن مع أمهاتهن في البيت فيزلزها الرعب أن تصبح مثلهن . ثياباً متهرقة وشعراً أشعث أغبر وأقداماً مفلطحة من طول ما عاشرت الطريق عارية . وهي تنظر إلى المرأة فترى في وجهها مخايل وسامة وحين تنعم النظر لا تدرى من أين جاءت لها الوسامة فعينها لا سعة بهما ولا غمق ووجهها أكثر ميلاً إلى السمرة وفمها أكثر ميلاً إلى السعة وشعرها فيه انسياب ولكنه انسياب ساذج لا التواء به ولا ذكاء ولا حنايا ولا ثنايا . ولكنها مع ذلك كانت ترى في نفسها وسامة وكانت تشفق على هذه الوسامة التي لا تدرى مأتاها أن يغوها البيت والطريق الأغبر والأقدام العارية والملابس المتهرقة فهي الأولى دائماً . ونالت الشهادة الابتدائية ونجل أبوها أن يتكلم في إبقائها بالبيت فهي الأولى وهي أكثر نجابة من ولديه فهي إذن في الإعدادية . ويصرخ الأب :

- تعبت .
- وأنا تعبت .
- مرتبى لم يزد إلا جنيهاً .
- وأنا كبرت وأريد من يساعدنى .
- أستطيع نادية أن تساعدك ؟
- ولماذا لا تستطيع ؟
- أصبحت بنت مدارس .
- ولكنها تستطيع أن تساعدنى .
- كيف نقول لها ؟
- إنك أبوها أأست كذلك ؟
- وأنت أمها أأست كذلك ؟
- أنت رب البيت .
- وأنت ربة البيت .
- لا تخالف لك أمراً .
- ولا تخالف لك أمراً .

- يظهر أننا نخاف أن نكلمها .
- نعم .
- وبعد .
- الخيرة فيما اختاره الله .
- والبيت وتعبى .
- أصبر أنا على الضنك وقلة المال وتصبرين أنت على عمل البيت ولكن ما يكون .
- تخاف من ابتك .
- لا تعيرنى ولا أعيرك .

واستمرت نادبة فى المدرسة وواصلت نجاحها فى المرحلة الثانوية . وفى المرحلة الثانوية راحت أنوثتها تتبلور معها فهى تتفجر فى كل يوم عن جديد والفئة تستقبل أنوثتها فى سوق عارم مفتوحة الذراعين تواقه إلى كل نامة جديدة من أنوثتها الوافدة . كانت تريد أن ترغم ثيابها على إظهار أنوثتها ولكن ثيابها لم تكن تطيعها فهى ثياب رخيصة وتفصيلها مجانا والأنوثة تحب أن تختار القماش وتختار التفصيل وبين ضيق ذات اليد من الأب ورغبة نادبة العارمة فى إظهار أنوثتها تنكمش الثياب خجلة حائرة لا تدرى ماذا تستطيع أن تفعل لترضى صاحبة الأنوثة الجديدة .

كانت نادبة تحاول مع ثيابها ما وسعها الجهد فهى تضيق الحزام حتى لتكاد أنفاسها تختنق ولكن لا يهم فإن الحزام حين يشد يسمح للجزء الهام من الصدر أن ينفجر إلى أمام وللجزء الهام من الظهر أن ينفجر إلى وراء ويظهر من الجسم الفتى ما تحاول الثياب أن تطمره فى رخصها .

هناك عينان تتبعان نادبة فى كل يوم حين تذهب إلى المدرسة وحين تعود . بل أن هاتين العينين تراصدانها كلما تبدت فى الطريق . كانت العينان نافذتين ولم تكن نادبة تستطيع أن تغفل حدة النظرة التى توجه إليها منها . كانت ترى فيهما نوعاً من الجراءة وكأنما كانت العينان تجسان كل مكان فى جسمها وكان فيهما انتظار ولم تكن نادبة تفهم سبباً لأى من هذه المعانى التى تتوالت من العينين . فلو كان صاحبهما شاباً فى ريق العمر أو حتى شاباً فى أواخر الشباب لكان لهذه النظرات معنى . ولكن أن تصدر هذه النظرات من حسين بائع السجائر الذى يكبر أباهما فى السن فهذا أمر لم تستطع أن تفهمه أبداً .

وفى يوم .

- تعالى يا نادبة .
- نعم يا عم حسين .
- يعنى يا بنتى تفوتين ولا سلام ولا كلام .
- أراك مشغولاً يا عم حسين .
- ومهما أنشغل يا بنتى هل يمكن أن أنشغل عنك .

- كتر خيرك يا عم حسين .
- لقد شلتك على كتفى يا نادية .
- عارفة يا عم حسين .
- كنت قبيحة ولا يجب أن ينظر إليك أحد .
- أهكذا يا عم حسين .
- سبحان مغير الأحوال من كان يظن ... من كان يظن .
- ماذا يا عم حسين .
- يا بنت ألا تعرفين ما أريد أن أقول ؟
- لعل أعرف وأريدك أن تقول .
- آه من البنات اليوم يا عالم .
- ماذا فعلن يا عم حسين ؟
- مصيرى معهن إلى الجنون والله .
- ومالك ولهن يا عم حسين ؟
- وهل لى شغلة غيرهن ؟
- أنت يا عم حسين .
- آه أنا ... وماذا فى هذا ؟
- لاشئ يا عم حسين ولكن ألا ترى نفسك كبيراً بعض الشئ على بنات اليوم .
- يا بنت اصحى .
- صاحبة وحياتك يا عم حسين .
- لا وشرفك ... نائمة فى العسل نوماً وأين العسل ... نائمة فى البشر نوماً .
- لماذا يا عم حسين ؟
- أهذا يليق .
- ما هو الذى لا يليق ؟
- هذا الجسم الرمى ... هذا الجمال العجيب يلبس هذه الهلاهيل .
- ويعد يا عم حسين .. أنت تعرف البير وغطاه .
- ملعون أبو البير على غطاه .
- وماذا أفعل ؟
- اسمعى كلامى .
- وهل قلت شيئاً .
- لى أصدقاء .
- لك أنت ؟

- يجعلونك تلبسين الحرير . . . لا تلبسين إلا الحرير .
- أبرد يا عم حسين .
- والصوف الإنجليزى فى الشتاء .
- هكذا مجاناً .
- مجاناً وشرفك .
- ما دخل شرفى فى الموضوع يا عم حسين .
- شرفك مصان . . . اسمعى كلامى .
- حرام يا عم حسين .
- إذا غيرت رأيك أنا تحت أمرك .

ونالت نادية شهادة الثانوية العامة . وفى الصيف كانت كلما مرت بعم حسين ألقت إليه ابتسامة ونحية من بعيد . إن هاجساً فى نفسها كان يمس لها ألا تقطع المفاوضات بينها وبين عم حسين .

وأنت أشهر الصيف ودخلت إلى الجامعة . . . إن لها زميلات من المدرسة الثانوية ذهبن معها إلى الجامعة . . . تعرفهن وتعرف ملابسهن وهن فى المدرسة الثانوية . . . ما هذا الذى يرتدين . .

- كيف .
- أنت هبله .
- هبله ؟
- ألا تعرفين كيف ؟
- آه فهمت . فهمت .
- أخيراً .
- وعند الزواج .
- بثمان فستان فجرى عملية .

وحين عادت فى ذلك اليوم وقفت مع عم حسين دقات . . . لقد كان الهاجس فى نفسها صادقاً معها . . . لقد أحسنت صنعاً أنها لم تقطع المفاوضات .

المسيرات

ليس غريباً أن يكون بينهما هذا الخلاف الذى وصل إلى أقصى مدام . وليس غريباً أن يكون بينهما هذه الكراهية الشديدة وهذا المقت المريع . لقد ورثا الخلاف والكراهية والمقت فيما ورثا عن أبويهما . . . وهما الآن وجهان لكل منهما أنصار وأعوان وقد نسي كل منهما كما نسي أنصار كل منهما قصة الأبوين .

أما أبو الأول الذى أصبح اليوم أسعد بك فقد كان المعلم أنور . بدأ حياته فى حى السيدة زينب وقد زحف إليها من الريف حين ضاقت به بلدته « شبة » فأصبح لا يجد بها قوت يومه فهى قرية مزدهمة يتخاطف أهلها الرزق وهو لا يرى فى الزحام طريقاً وحالفه الجوع حتى أصبح لا يأبه كثيراً بالشرف فكان يتخطف العيش اختطافاً فيه قسوة أحياناً كثيرة وفيه الحيلة فى أحيان قليلة ولكن لم يكن هذا الاختطاف ليستطيع أن يستمر طويلاً فضاقت به القرية ولم يجد مناصاً آخر الأمر إلا أن يزحف إلى القاهرة . الزحام أشد ولكن هذا الزحام كان بالنسبة إليه كالصحراء البكر . فهناك لن يعرفه أحد وهناك يستطيع أن يمارس اختطافه بالحيلة دون أن يعجزه ضيق المكان أن يجد الفريسة ولم يكن يستبعد أن يستعمل القسوة إذا كان لا بد أن يستعمل القسوة . وزحف إلى القاهرة .

غريب فى حى السيدة والقاهرة يومذاك بها كثير من الأراضى الخالية فإذا عليه أن يتخذ من خرابة مسكناً وماذا عليه لو أقام بيته من بعض خشب . ومن أين له الخشب . أدرك أنه لو ظهر على حقيقته فى أيام إقامته الأولى فلن يلبث شارع الملك الناصر أن ينبذه كما نبذته بلدته شبة قصد إلى تاجر أخشاب .
— أعمل عندك .

- وماذا تحسن أن تعمل ؟
 - أحمل الخشب .
 - لا بأس فإن لك جسماً قوياً .
 - فقط أريد بعض خشب مقدماً أقيم به الحجرة التى سأسكن بها .
 - أنت ...
 - غريب قادم من الريف .
 - ومن يضمن لى أنك ستبقى حتى تنفى بثمرن الخشب .
 - الخشب نفسه .
 - معقول .
- وهكذا بنى حجرتة بقطعة أرض وجدها خالية ولم يفكر أن هذه الأرض لا بد أن يكون لها صاحب أو هو فكر ولكن لم يشأ أن يتخذ إجراء معيناً إزاء هذا التفكير .
- المهم أنه أقام الحجرة وأقام .
- كان صاحب الأرض رجلاً عنيفاً ذا بطش وسلطان . حتى لما إلى سماعه أن إنساناً نجراً وبنى حجرة بملكه ، ترفع أن يذهب إليه وإنما أرسل بعض أتباعه .
- كيف أقمت هنا ؟
 - بنيت هذه الحجرة وأقمت .
 - ألا تعرف أن لهذه الأرض صاحباً .
 - هل أنت صاحبها ؟
 - أنا تابعه .
 - أريد أن ألقاه .
 - لا يلقى أمثالك .
 - وماذا يضيره أن ألقاه ؟
 - لا يلقى أمثالك .
 - ألا يملك هذه الأرض .
 - بل يملك البيوت المحيطة بها جميعاً .
 - ألا يسكن فى هذه البيوت جميعها فقير مثل ؟
 - ولكنهم لا يلقونه .
 - اصنع لى هذا المعروف .
 - ولماذا أصنعه .
 - لعل أنفعلك فى بعض الأيام .
 - أنت .

- ألا تعرف الفأر الذى خلص الأسد من المصيدة ؟
- حكاية .
- لا بد سمعتها .
- فأنت تعرف أنى أسد .
- وأنى فأر .
- سأجعلك تلقاه .

- ماذا يضير سيادتك أن أقيم بهذه الأرض الخالية ؟
- يأتى يوم وتدعى ملكيتها .
- بل سأجعلها نظيفة ويوم تريد طردى فما هى إلا بضعة أخشاب أحملها فى يدى وأمضى إلى حال سبيل .
- تدفع أجرة ؟
- أمرك .
- عشرة قروش فى الشهر .
- ولكن الأرض خالية .
- ولو .
- وسأحرسها لك .
- مثل لا تحتاج أملاكه إلى حراسة .
- ألا تجعلها خمسة .
- عشرة قروش فى الشهر .

- ومضت الأيام وأحس أنور أنه يستطيع أن يكون كما يريد أن يكون فقد طال مكثه فى الحى وثبتت أقدامه وبدأ يعود إلى نفسه التى صاحبها معه من القرية .
- فوجيء المالك الكبير بأنابيب المياه فى بيوته تتفجر كل يوم وأدرك أن أنور هو فاعلها .
- لا أريدك فى أرضى .
 - أنا تحت أمرك .
 - أنت لا ترعى الجميل .
 - وأين الجميل ؟

- ألم أتركك تسكن في أرضي .
- كنت أدفع أجراً .
- ولكني تركتك تسكن .
- بعرقى .
- إذا اغفيتك من الأجرة توقف أعمالك .
- أنا لم أعمل شيئاً .
- أستطيع أن أصربك كل يوم علفه حتى ترك الحى جميعه .
- ولكني لم أعمل شيئاً .
- لا تعد إلى ما صنعت ولا تدفع الأجرة .
- شكراً ولكني لم أصنع شيئاً .

- لماذا ضعفت معه ؟
- لو أخذته بالشدة لم آمن أن يظل في تخريبه .
- نستطيع أن نخرجه من الحى كما قلت .
- ويستطيع أن يحمى إليه خلصة فيرتكب جرائمه ويرجع من حيث أتى . هو الآن تحت أعيننا على الأقل .

إذن فالحكاية أثمرت . بهذا إذن يستطيع أن يصنع ما يشاء .
ذهب أنور إلى مولد السيدة واصطنع خناقة مع فتوة الحى فأصبح هو الفتوة وأصبح من
الميسور عليه أن :

- قطعة الأرض .
- مالها يا معلم أنور ؟
- أقبلها هدية من سعادتك .
- قطعة الأرض جميعها .
- حتى أحافظ على المباني الأخرى .
- ليس كثيراً يا معلم أنور ؟
- لا بد أن أبني لى بيتاً .
- فخذ نصفها .

- إذن أحافظ على نصف الأملاك .

- أمرك ... خلدها كلها .

وفعلًا بدأ أنور يبني بيته وحتى يعلو البيت لا بد أن يحفر الأرض وإذا بالأرض تنكشف له عن كنز عظيم وأصبح أنور في ضربة أرض أغنى أغنياء حى السيدة ولكن المال لم يخلص إليه هكذا سهلاً هيئاً وإنما نبت له رجل لا يدري عنه إلا أنه بنى اللون .

- هذا المال ملكى .

- أى مال ؟

- هذا الكنز الذى وجدت .

- أنت الذى خبأته هنا ؟

- لا وإنما أجدادى .

- من ؟

- أجدادى .

- ولماذا لم يدلك أجدادك على مكان الكنز ؟

- كان آبائى كلهم يعرفونه ومات أبى دون أن يخبرنى به .

- فمن أدراك إذن أنه كنزك ؟

- إنه فى هذه المنطقة .

- وتتوقع منى أن أعطيك إياه .

- إذا شئت العدل .

- فإن لم أشأ .

- فالقوة .

وقتل أنور المطالب بالكنز وثار أهله وقامت المعارك كثيرة بين أنور وأعوانه وبين أهل القتل ولكن هذا لم يمنع المال أن يظل ملكاً لأنور ولم يمنعه أن يقيم بيتاً رائعاً ويصبح سيداً عظيم الشأن ويتزوج ويأتى ابنه أسعد ليجد نفسه بك .

وحين يشب أسعد عن الطوق يجد هناك عداوة بين أنور أبيه وبين رجب ولم يكن يدري أسباب هذه العداوة ولكنه ما لبث أن عرفها على مرور السنين واتساع الإدراك وعرف أيضاً أنه لا بد أن يكون عدواً لراغب بن رجب لأن طبيعة الأمور تقضى بأن يكون عدواً له .

قدر أنور حين أصبح غنياً أنه لا يليق به أن يكون فتوة فراح ينمى ثروته فأنشأ مصنع خشب أو هو فى الحق اشترى المصنع الذى عمل به حين جاء إلى القاهرة أول ما جاء وأغراه الربح أن ينشئ مصانع أخرى فزاد ثراؤه زيادة فاحشة وأصبح مطمئناً أنه أغنى أغنياء المنطقة جميعها إن لم يكن أغنى أغنياء مصر .

ولكن شيئاً جديداً بدا في الأفق اسمه رجب . . . كان رجلاً ينتسب إلى العلماء فلم يعرفه أنور التفاتاً أول الأمر ولكنه فوجيء برجب يجمع حوله المريدين وعلى رأسهم سعيد وفوجيء أنور برجب يقول لا يجوز أن يكون هناك أغنياء وفقراء وإنما المال مال الناس أجمعين قالها هو ونفذها سعيد وأعوانه . وأصبح حتى البغالة جميعاً ملكاً لرجب وسعيد وأصبحا بنافسان أنور في غناه وحلت بينهما الكراهية منذ ذلك الحين وقد توثقت الصلة بين رجب وسعيد حتى إن راغب لا يدرى إن كان ابن رجب أم ابن سعيد بل إن أمه نفسها لا تعرف . . . فهو من الناحية النظرية ابن رجب أما من الناحية الفعلية فهو لا يدرى .

دافع الناس عن أموالهم في حى البغالة فكان الموت مصيرهم . . فشا فيهم سعيد . . . أموالهم أو أرواحهم . . . ومات كثيرون ولكن الأمر استتب له ولرجب وراح سعيد يتولى توظيف الأموال فأنشأ المصانع هو أيضاً بل أنشأ المواخير حتى ينسى الناس ما فقدوه من مال وتاجر في كل شيء وبالإرهاب يشتري من لا يريد أن يشتري .

وكان رجب وسعيد من الذكاء بحيث لم يفكرا أن يقتربا من حى السيدة وكان أنور من الذكاء بحيث لم يفكر أن يقترب من حى البغالة .

ومضت السنون وأصبح الناس فريقين . فريقاً يتنمى بعواطفه وعقيدته إلى أنور وابنه أسعد والآخر ينتمى إلى رجب وسعيد وابنتها راغب . وكانت الخلافات تحتدم بين الفريقين احتداماً يصل إلى التشابك بالأيدى ثم تطورت فأصبحت معارك تستعمل فيها كل أدوات المعارك وأصحاب الخلاف الأصليون يكتفون بتقديم أدوات المعارك دون أن يشاركوا هم فيها .

ونمضى السنون ويموت رجب ويتبعه سعيد . ويموت أنور . ويظل راغب وأسعد على الخلاف الذى ورثاه عن آبائهما ويتوارث الأتباع أيضاً المعارك فيما يتوارثون عن آبائهم .

وفجأة يجد أسعد ويجد راغب أن هذه الخلافات تشغلها عن تنمية ثروتيهما وكأنما تكشف هذه الحقيقة بغتة أمام كليهما في لحظة واحدة فيبدأ كل منهما بكلمة لينة عن الآخر وما تلبث هذه الكلمة أن تصبح زيارة من أسعد إلى راغب في بيته تتبعها زيارة من راغب إلى أسعد في بيته ويتم الصلح بين الخصمين القديمين .

ولكن العجيب العجيب أن أنصار كل منها مازال حتى يومنا هذا في عراك قالت مستميت يموتون من أجل اثنين تم بينهما الصلح . . .

المقابل

لقد كانت المعركة بيننا وبين قبيلة غطفان غاية في العنف . وقد أصبنا منهم مقتلة عظيمة وما كان هذا إلا لغياب بطلهم الصنديد رافع بن عدى . ولا شك أنهم ينتظرون يوماً قريباً ينالون فيه ثأرهم . والقبيلة منذ ذلك الحين مشغولة فيما يمكن أن تصنعه حتى تنهيا لهذا اليوم المنتظر القريب . وقد اجتمع شيوخ القبيلة يفكرون واجتمع معهم الشباب وراح كل منا يدلى برأى ولكن ما أسرع ما كانت هذه الآراء تواجه بالنقاش .

— نهاجر .

ويقول شيخ القبيلة في عظمة واعتزاز .

— حتى نصبح ألدوة بين العرب . . . نترك ديارنا خوف عدو دحرناه وأنزلنا به الهزيمة الماحقة . . . إذا نحن هاجرنا يكون العدو هو المنتصر . . . ويصبح النصر الذي أحرزناه أعجب نصر في التاريخ . سيكون نصراً ترتبت عليه آثار الهزيمة .

— ولكننا إن واجهنا العدو ونيران الثأر تغل في دمائه ومعه البطل الذي كان غائباً عنه فإنه سيصيب منا قتل كثيرين ونخسر النصر والدماء في آن معاً .

— إن دمائنا لا شيء . . . إنها ما خلقت إلا لتحمي كرامتنا وشرفنا . يا شيخ القبيلة .

— الدماء دماء أب أو أخ أو زوج أو ابن . . . إنها دماء عزيزة .

— في سبيل النصر يصبح العزيز رخيصاً .

— فإن بذلنا الدماء ولم نحقق النصر .

— لهذا اجتمعنا .

ويقول رأى آخر ؟

— ما لنا لا نناشد قبيلة عاصم فإن بينها وبيننا أخوة قديمة يقول الشيخ :

— وما يجعلها تحارب قبيلة غطفان وليس بينهما عداوة وقبيلة غطفان كثيرة العدد موفورة لفظ من القوة والبأس .

— أليست الأخوة كافية لتقف قبيلة عاصم إلى جانبنا ؟

— كنا جديرين أن نأخذ بهذا الرأي لو كان هناك عداة بين قبيلة عاصم وقبيلة غطفان . . . أما أن تثير قبيلة عاصم العداة عليها بلا داع إليه فهذا ما لا يفعله أحد .

ويقول شيخ من القبيلة في تودة ووقار :

— إن ما يلزمنا يا شيخ القبيلة هو فتي في مثل قوة رافع ابن عدى يجعل انتصارنا على العدو زكداً .

ويصمت الجميع ويتكلم شيخ القبيلة بعد تريث وتفكير .

— بالصواب نطقت ولكن من أين لنا به .

ويصيح شاب من القبيلة .

— إن العراف . . .

وتقاطعه أصوات كثيرة .

— هل ضعفت ؟

— ما للعراف وهذا .

— إنك تخرف .

ويقول شيخ القبيلة .

— دعوا الفتي يكمل حديثه .

ويسود الصمت هنيهة ويعود الشاب إلى حديثه .

— إن العراف يمر بالقبائل جميعها وهو يعرف من أخبارها ما لا نعرف فلماذا لا نقصد إليه سألنا أن يدلنا على بطل من أبطال العرب يكون كفواً لرافع بن عدى .

ويصمت الشاب ويعود الصمت إلى التحليق ويقول شيخ القبيلة :

— الرأي ما قلت . . . إذا كان الغد نذهب إلى العراف .

وينفض الاجتماع ولكن شاباً من شباب القبيلة يمكث حيث هو لا يريد أن ينصرف

إنما يظن رانياً إلى شيخ القبيلة في استعطاف ولهفة وأنا أنظر إليها لا يريد أن أنصرف أو أسمع

الحديث بين الشيخ والفتى . فانا أعرف ما يريد سليمان أن يقول وأريد أن أعرف كيف سيخبره شيخ القبيلة . يظل الفتى رانياً وشيخ القبيلة يتظاهر بأنه لا يراه وإنما هو يحول عنه بصره في ضيق حتى إذا فشل سليمان في أن يجعل الشيخ يسأله ما يريد جمع كل ما فيه من شجاعة وتقديم إلى الشيخ .

- وبعد 'يا عمه' ؟
- وبعد فيم يا سليمان .
- ألا تعرف ؟
- كافي أعرف .
- فما انصرفك عنى كلما أردت أن أكلمك .
- أهذا وقته يا سليمان ؟
- قبل الحرب كنت تقول بعد الحرب وها قد انتهت الحرب .
- أترى الحرب قد انتهت .
- لقد انتصرنا ... ألم تنتصر .
- ففيم إذن كان اجتماعنا هذا .
- لنؤمن النصر ونؤكد منه .
- فإذا أمنا النصر وتأكدنا منه يحق لك أن تقول وأن أسمع .
- يا عمه سنوات ثلاث مرون .
- أو عشر ماذا أفعل
- اعقد لى عليها
- فماذا تقول القبيلة ؟
- تقول زوج ابنته من ابن أخيه .
- والعدو يترى بنا .
- وهل لزواجى صلة بالعدو ؟
- إني شيخ القبيلة لا يجوز لى أن أفرخ والقبيلة خائفة .
- إذن .
- انتظر .
- إلى متى .
- إلى قريب ... إلى قريب إن شاء الله .

ويطرق سليمان ثم يلقى بنظره حوله فلا يجد غيرى فيقوم إلى يصحبني إلى عريض الصحراء .

- ما رأيك ؟
- لقد اخترت موعداً لا يصلح لهذا الحديث .
- فأى موعد يصلح ؟
- حين ترى الأمن بين القبيلة تقدم بطلبك .
- ومتى يشيع ؟
- لا أحد يعرف متى يشيع الأمن بين النفوس .
- لا أحد يعرف ؟



وقال العراف :

- أعرف فنى لا حديث له إلا الحرب وأفعاله فيها وما خاضه من أهوال .
- هل شهدته وهو يحارب ؟
- يا أخا العرب إننى عراف لا أشهد حرب . . . هل رأيتنى أجيء إلى قبيلتكم منذ نشبت الحرب بينها وبين غطفان ؟
- لا .
- إن عملى فى الحياة هو الحياة والحرب عملها الموت يا أخا العرب إن الموت والحياة لا يجتمعان .
- إذن فمن هذا الفنى الذى يروى عن الحرب ؟
- غضبان بن صخر .
- أتعرف مكانه ؟
- أدلكم عليه .



وجاء صخر . . . شاق هو إلى السماء عريض الكتفين ضخيم رائع التكوين عظيم
البيان . . .

- كم شهدت من حروب . . . وإن عملى فيها بسيط . . . فإننى أتولى القيادة دائماً وما هى
إلا أن أجيل السيف جولة أو جولتين حتى يدرك الأعداء بلا أمل لهم وما هى إلا إغماضة عين
أو انتباهتها حتى تكون الحرب قد انتهت . . . فى يوم من الأيام نشبت الحرب بين قبيلة بهنس

وفزارة ... وكان البهائسة أصدقائي فأرسلوا إلى رسولاً ...

وقص غضبان وقص وكنت أحس مع كل قصة من غضبان نوعاً من الأمن والطمأنينة يشيع في نفوس القبيلة فتشرق به وجوههم وسأل شيخ القبيلة :

- ما أجرك ؟
- ما نوع الحرب ؟
- يريدون أن ينتقموا من يوم هزمتهم فيه .
- فهي شر أنواع الحرب .
- فلتكن ما تكون ما أجرك ؟
- اجتمعوا لى خمسين ناقة سليمة لا عيب فيها ولا أود .
- ويعد ؟
- أرسل النياق إلى أهل بيتي ثم أقيم معكم حتى يوم الكريمة .
- أتناخذ النياق قبل الحرب .
- هكذا تعودت .
- ليكن لك ما أردت .
- وإني أحب أن أشرب الصبوح والغبوق .
- وخمر أيضاً .
- لا أعيش بغيرها .
- ولك ذلك .
- أما إيطاري فغضب من اللبن وإناء من السمن وعشرة أرغفة وغدائي شاة وعشائي ...
- وعشاء أيضاً ؟ !
- إن لم أكل فكيف أحارب ؟
- وعشاؤك ؟
- لا أحب أن أثقل في العشاء حتى يحسن نومي . نصف شاة تكفي .
- لك ما أردت .
- والنصر مؤكد لكم .
- وأقام غضبان بيتنا يروي عن أعماله ... وانصرفت القبيلة جميعها إلى أعمالها فقد آمنوا أن الحرب لن تنال منهم شيئاً ما دام معهم غضبان ولم يعد حديث الحرب يدور بينهم إلا إذا جلسوا حول غضبان يسمرون ويستمعون إلى أحاديثه عن حروبه التي لا تنتهي وكنت جالساً إلى جانب سليمان حين التفت إلى فجأة .
- لقد شاع الأمن في النفوس .

نظرت إليه ثم قلبت نظري في وجوه القبيلة ... نعم لقد شاع الأمن .
 - نعم لقد شاع الأمن .
 - لقد صدق قولك ... لا أحد يعرف متى يشيع الأمن .
 - نعم ... لا أحد يعرف .
 - لقد شاع الأمن مع أن الحرب لم تنته .
 - تستطيع اليوم أن تتقدم إلى عمك .

كان الفرح عظيماً واجتمع الحبيبان بعد طول انتظار وفرحت القبيلة باجتماعهما فقد طال
 بهم فترة القلق والخوف وكانت النفوس منهم تهفو إلى فرح ... أى فرح أكان فرح بنت شيخ
 القبيلة ... ومرت شهور طويلة على العروسين وبشرت العروس بمقدم طفل يحبو في إنباج
 الغيب . ورفرفت السعادة على القبيلة لا يذكرهم بالحرب إلا وجود غضبان بينهم يروى عن
 بطولاته ويتناول مأكله الدسم وإن كان هذا المأكّل لم يصبح له وحده وإنما كان يشاركه فيه
 كثيرون من أبناء القبيلة فقد اتضح منذ اليوم الأول أنه ليس أكلها كما أحب أن يصور نفسه
 لأبناء القبيلة . وإن كان في شرب الصبوح والغبوق يكثر ولكن إكثاره ما يلبث أن يتحول إلى
 أحاديث تمتع بها مستمعيه من أبناء القبيلة . ولعلهم من أجل هذا كانوا يلحون عليه أن يستمر
 في الشراب كلها أحب أن يكتفى .

لقد نشأ بين غضبان وأبناء القبيلة جميعاً نوع من الألفة والحب والإكبار من جانبهم
 والإيناس من جانبه .

حتى كان يوم فوجئنا فيه بنعيم أحد تجار القبيلة يدخل إلى أفناء الخيام يركض فرسه
 كالسهم النافذ ... وقبل أن يوقف فرسه صاح :
 - لقد جاء اليوم .

وماهى إلا لمحة من بصر حتى كانت القبيلة جميعها حوله .
 - كنت في السوق فرأيت جماعة كبيرة من الناس وسمعتهم يذكرون اسم قبيلتنا فلم أشت
 شيئاً وجئت أسابق الريح .

— متى تظنهم يصلون ؟
— قبل أن تغرب الشمس .

وصاح شيخ القبيلة :

— يومك يا غضبان .

ونظر الجميع إلى غضبان ... لم يكن غضبان هذا الذى نرى ... لقد امتقع وجهه فهو أبيض ناصع البياض ... وزاغت عيناه فهي هاربة في حفاثرها كأنما تريد أن تغور داخل رأسه ... بل جسمه الشاهق الضخم أصابته الضالة فهو بعض من جسم .

غضبان جميعه بعض من إنسان ... وقال لسانه وهو يتعثر في فمه :

— بل هو يومكم أنتم .

— يومنا نحن بقيادتك .

— أنا لم أحارب في حياتي .

— ماذا ؟

انطلقت صرخة ذاهلة من الجميع ... واستغلق الأمر لحظات على شيخ القبيلة ولكنه سرعان ما تماسك ونظر إلى غضبان ثم قال في تودة ووقار :

— احبسوا هذا الرجل حتى تنتهى الحرب ثم نرى فيه رأينا .

وخف إلى غضبان بضعة فتان كنت منهم وكان معى صديقى سليمان ولم يلتفت غضبان إلى أحد منا وإنما نظر إلى سليمان وقال في تودة :

— أما أنت يا سليمان فلا ... أنت لا أجيز لك أن تقيدنى .

وبهت سليمان لحظات ولم يدر ما يقصده غضبان إلا أنه ترك الحبل من يده وتولينا نحن قيد غضبان وألقينا به في خيمته وقد لاحظت عليه شيئاً غريباً ... لم يعد ذلك الشخص الذى كانه منذ لحظات ... لقد بارحه الخوف وعادت إليه الطمأنينة التى عهدناها فيه ولو لم تكن مشغولين بالجيش الوافد ولو وجد منا آذاناً صاغية لراح وهو في قيده يقص علينا بطولاته في الحروب التى خاضها .



راح شيخ القبيلة يستعد للحرب فالقبيلة جميعها تهيء السيوف وتعد الخيل وشيخ القبيلة يحدد لكل منهم موقعه وما عليه أن يفعله ...

وجاءت الجيوش آخر الأمر ... وبادرنا نلتقى بها قبل أن تصل إلى الخيام وكانت مفاجأة لم

تخطر لنا على بال ... لم تكن جيشاً لقد كانوا جماعة من قبيلة عاصم لم يتبين نعمان حقيقتهم فقد هيا له الخوف أنهم جيش غطفان وما لبث شيخ قبيلتنا أن رحب بشيخ قبيلة عاصم ودعاه هو ومن معه إلى الخيام لينال الراحة والضيافة .

لقد جاء شيخ عاصم ليعقد صلحاً بيننا وبين قبيلة غطفان وذكر ما طلبوه من دية وكانت مائتي بعير ولم ينتظر شيخ عاصم حتى نبحت الأمر بل سارع يقول :

- وإن أقدم من عندي خمسين بعيراً هدية مني إليكم حتى يعود السلام إلى الربوع .
وقبلنا الصلح فما أعظم أن نتنصر وندفع ثمن نصرنا هذا العدد من الجمال .

- فأنت إذن يا غضبان كنت تسرقنا .

- أنا يا شيخ القبيلة ؟

- ألسنت أنت من أخذ الخمسين ناقة وأقمت ...

وقاطعه غضبان :

- لا تذكر المأكول والمشرب يا شيخ القبيلة فإنك أكرم من أن تذكر مثل هذا .

وصاح سليمان :

- ليكن ... فماذا أنت قائل عن الخمسين ناقة .

وقال غضبان :

- اسكت أنت يا سليمان .

- عجيب أمرك معي ... رفضت أن أقيدك وأنت الآن ترفض أن أحاسبك ...

ما شأنك معي ؟

- إنك أكثر أبناء القبيلة انتفاعاً بما قدمت .

- لم تقدم إلا الأحاديث المزوقة وأخبار الحروب الوهمية التي خضتها والبطولة الزائفة التي

ادعيت إنك صاحبها .

ونظر غضبان لحظات إلى سليمان ثم راح يحيل عينيه في أبناء القبيلة فوجد عيونهم جميعاً

تنتظر جوابه ونكس رأسه هنيهة ثم رفع رأسه في هدوء وثقة .

- لقد قدمت إليكم بهذه الأحاديث أعظم ما كنتم تفتقدونه ولا تهجدونه .

- أنت ؟

— قدمت إليكم الأمن ... قدمت إليكم الاطمئنان .

وكأنما كانت هذه الكلمة في واد سحيق بعيد عن أذهان الجميع ... نظر أبناء القبيلة بعضهم إلى بعض ثم التفت عيونهم جميعاً عند شيخ القبيلة فوجدوه صامتاً صامتاً صامت المقحم الذي لا يجد ما يقول واستمر غضبان في حديثه موجهاً كلامه إلى سليمان ما يزال :

— بهذا الأمن وهذه الطمأنينة تزوجت يا سليمان وجد الفرح سبيله إلى قبيلة كانت قبل أن أجىء مفزعة في صباحها ومساءها طعامها قلق وشرابها شغل وتفكير ... أكثر ما أخذته منكم مقابل ما أعطيتكم ... لقد نلتم المقابل ... نلتموه كاملاً ... أليس كذلك يا سليمان .

تحية سابرة

كان عدلى يفرح أشد ما يفرح حين يمر بالأطفال فيلقى عليهم التحية فيستقبلونها بالفخر والإعجاب والإكبار ، إن عدلى جمعه يلقى عليهم التحية ويعتبرهم رجالاً يستحقون منه هذا الإكرام وكان هذا الشعور بالفرح في نفوس الأطفال يسكب سعادة مزعزعة في قلب عدلى ويشعره أنه ما زال فى الليل ذا الصيت الضخم الذى عهز لذكره أفئدة الناس في قريته وجميع القرى المجاورة وكان هذا الشعور يسليه عن أنظاره الذى يعلم أنه أصبح ضعيفاً وهو يعلم أنه يجب أن يذهب إلى طبيب يعالج له ما يفقده من بصره ولكنه يخشى أن يسمع الناس بهذا فتسقط هيئته ويزول مجده الذى أصبح في مهب الرياح منذ توقف عن الأعمال المجيدة التى تعود أن يقوم بها - فهو لم يقتل أحداً منذ ثلاث سنوات ومجده يوشك أن يصبح نسيأً ، فإنه لولا فرحة الأطفال بتحيته لأصبح بلا مجد أمجاد على الإطلاق .

وهو يخشى أيضاً أن تعرف جنيته هنية أن نظره قد ضعف فينكمش حبها له وتفضل عليه زوجها عبد الباقي فهو إذن يبقى على سره دفيناً في العميق من صدره لا يطلع عليه أحد .

خرج عدلى من داره في أول الليل وراح يتحسس طريقه إلى دار عبد الباقي في ليلة موعده كان عبد الباقي في الحقل يروى الأرض وسيظل هناك إلى ساعة متأخرة من الليل فالفرصة مواتية لعدلى أن يذهب إلى هنية .

استقبلته هنية في بشاشة ودخلا إلى حجرة النوم .

لم يطل بهما المقام في الحجرة فقد سمعا صوتاً .

- عبد الباقي .

- هل ترك الغيط ؟

- اخفض صوتك .
- أيهمك أمره .
- زوجي .
- وأنا عدلى .
- إنه زوجي .
- وذهل عبد الباقي عما يرى .
- عدلى .

وأخرج عدلى مسدسه من جيبه ولم يتكلم وأطرق عبد الباقي والثورة توشك أن تمزقه تمزيقاً ولم يجد شيئاً يفعلهُ إلا أن يخرج من البيت هائماً على وجهه وتاه به الطريق وطال به المسير لا يعرف مكانه من القرية وهي قريته ولا يعرف قدميه على الطريق وهو طريقه وكل آفاق تذكر زوجته الحاتنة ومسدس عدلى فيعود إلى الضياع وينسلخ الليل وتطلع الشمس ولكن الظلام ما يزال يحيط به ويتلف حوالبه آخر الأمر فيتيين له أن قدميه قد سحبتاه إلى قريب من المدينة .

في المدينة يعرف طريقه . . . يعرفه في إصرار وحزم . . . إنه الآن يعرف ما يريد . . . ويعرف الطريق .

- بلغنى أنك تسلف .
- بفائدة عشرة في المائة .
- في السنة .
- في الشهر .
- أعطنى عشرة جنيهات .
- لكم شهر ؟
- حتى أجمع القطن .
- لمدة ثلاثة شهور .
- نعم .
- وقع على هذه الكمبيالة .
- هات الفلوس .
- توقيعك غير واضح .
- أوقع ثانية .
- خذ الفلوس .
- هذه سبعة جنيهات ؟
- خصمت الفائدة .

- ليس في العالم شيء يستحق أن تفقد من أجله حياتك أو حريتك .
- شرفي .
- طلقها .
- شرفي .
- إن طلقته سيصبح شرفها هي وليس شرفك أنت .
- ويصمت عبد الباقي حيناً ويجلس ويحتذب من أعماقه نفساً بعيد الأغوار .
- عجيبة .
- ماذا ؟
- أحس الآن بالراحة .
- حقاً ؟
- لقد قتلت .
- هل قتلت ؟
- أنا قتلت ولكن هو لم يميت .
- إذا فأنت فعلت ما تريد .
- لقد قتلت .

ظل عدلى مسمرأً وتقاطر الناس إلى صوت الرصاص فوجدوه واقفاً جامداً على موضعه لم يتنقل وراحوا يسألون وهو شارد ... ذاهل هزوه .

- قتلتى .
- ليس بك جرح .
- ولكنه قتلتى .
- من ؟

وتطأيرت القصة في أرجاء القرى جميعاً وأصبح القوم ولا حديث لهم إلا هذا الحادث فإنهم هناك يترقبون مثل هذه الحوادث بشغف ، يتسقطون أنباءها ويمضغون حديثها فإنهم هناك لا يجدون الكثير من وسائل التسلية ولا عزاء لهم عن هذا إلا الحديث ... لن يتركه عدلى سيجعل من جثته غربالاً .. سستمع الكثير في الأيام القليلة القادمة ... وستروى الكثير في الأيام القليلة القادمة ... ونقول ... ونروى ونحدث ونسلى .

وتمر الأيام ويزداد التوقع والتشوق وعدلى يعلم أنه لن يستطيع أن يصنع شيئاً إن يده لا تعرف طريقها إلى الطبق الذي يأكل منه إلا بالتحسس ... لن يستطيع ... لن يستطيع .

و يمر بالناس فترنو إليه العيون في ترقب وتوقع وفي إكبار أيضاً فهو الرجل الذى تعلقت به
 آمالهم أن يمدهم بموضوع للحديث يعينهم على الملالة شهراً أو ربما شهرين . . . إنهم يتوقعون
 وهو يعلم أنهم يتوقعون ولكن كيف . . . لعله يستطيع أن يستأجر قاتلاً . . . إنها إذن
 النهاية . . . على الذى عاش عمره جميعاً يستأجره الناس للقتل يستأجر هو الآخر . إذن قد مات
 عدلى .

وغر الأيام وتصبح أسابيع ما تلبث أن تصبح شهوراً ويحس الناس بخيبة الأمل فقد فتر
 حديثهم عن حادثة عبد الباقي وهم يريدون أن يبدأوا حديثهم عن عدلى لقد خاب أملهم . . .
 خاب أملهم . ولكن عدلى ما يزال يمر بالناس ويلقى التحية وقد أصبح الرجال يستقبلون هذه
 التحية بنغمة فاترة فيتظاهر عدلى بأنه لم يلحظ هذا الفتور ويمر الأطفال فيسعد بالنغمة المرحبة
 المليئة بالإعجاب والإكبار ويسعد ويشعر أنه مازال ذا مجد وشموخ .

حتى كان يوم . . . ياله من يوم .
 مر الأطفال وكان من بينهم محمد بن عبده أبو السيد . . . وكانت هذه الشلة من الأطفال قد
 عودته أن ترد تحيته في إعجاب شديد يزيد على إعجاب الجماعات الأخرى من الأطفال .

— السلام عليكم يا رجال .

وتخافتت الأصوات وهى تقول :

— سلام .

سلام فقط . . . أين إذن السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا سيد الرجال إذن الأطفال
 أيضاً قد أصابتهم عدوى الفتور ، ولكن انتظر ما هذا .
 إنه لم يكن يخطو خطوتين حتى سمع صوتاً . . . إنه يعرفه . . يعرف الصوت قال
 الصوت :

— جاءتك خيبة يا عدلى .

ويضحك الأطفال ولا يملك عدلى نفسه فينقلب إليهم .

— ولد يا محمد كيف تقول هذا ؟

— أصلك هايف ولا مواخذه يا عم عدلى .

— قتلت ثلاثين رجلاً ولا يمكن أن أنتهى إلى قتل الأطفال .

— تستطيع أن تقتل رجلاً إذا شئت يا عم عدلى .

— والله لن أقتل إلا أباك .

— أنا شتيمتك . . إنما غبرى قتلك ولم تمد إليه يدا جاءتك خيبة يا عم عدلى وثار عدلى

وهاج وعلا صوته وصرخ لقد أعماه الغيظ عن إدراك الموقف فتجمع الناس ووجد القوم آخر الأمر حديثاً يسليهم عن الملالة .

ولكن عدلى لم يطق . . . حياته أهون من ضياع مجده .

انتظر عبد الباقي فى الطريق ونحى أن يكون ملاحقاً للمكان الذى يمر به عبد الباقي . . . ومر عبد الباقي وأطلق عدلى رصاصة وثنى بأخرى قبل أن يقفز إليه عبد الباقي فيصرعه . . . ويصرخ عبد الباقي ويأتى الناس ويبلغ الحادث إلى الشرطة والنيابة وحين يأتون إلى مكان الحادث يقرر وكيل النيابة حفظ القضية والسبب أن المكان الذى أطلق منه عدلى الرصاص على عبد الباقي لا يسمح بالخطأ فقد كانت المسافة متراً واحداً فالشكوى كيدية يحاولون بها سجن عدلى فالأعمى وهو أعمى لا يمكن أن يخطئ من هذه المسافة القريبة .

ووجد القوم آخر الأمر شيئاً يتحدثون فيه . . وأصبح عدلى آخر الأمر أسطورة خذى وخلدان . . . وبعد شهور كان عبده أبو السيد يسير بحماره فاذا بعدلى يمسك برقبة الحمار .

— حاول أن يقتلنى عتاوله المجرمين يا عبده يا أبو السيد فلم يستطيعوا ولكن ابنك يا عبده أبو السيد قتلنى . . . فوضت أمرى إلى الله . . فوضت أمرى إلى الله .

وحدة

- ١ -

- أريد أن أقول :
- قل هل منعك أحد ؟
- أنت دائماً تمنعني .
- أنا ؟
- أنت .
- ما منعك عمري .
- أنت لا تسمعين ما أقول .
- أليس المهم أن تقول .
- بل المهم أن تسمعي .
- في هذه المرة أريد أن أقول وأن تسمعي .
- ليس من عادتي أن أسمع .
- لقد سئمت القول بلا سماع .
- لن تقول شيئاً جديداً .
- تزوجنا من زمن بعيد وما عندك طبعاً قلته في الأيام الأولى .
- حدث بيننا شيء .
- لا يهم ما حدث .
- ولكني أريد أن أقول .
- فقل .

- وتسمعين .
- لا شأن لك .
- فلا معنى للقول .
- أنت حر .
- لو كنت حراً لتكلمت .
- إن لك الحرية أن تقول .
- وأنا لى الحرية ألا أسمع .
- ما إصرارك هذا ؟
- لا أرى فائدة فى قولك ولا فى سماعى .
- كيف تحكمين على ما سأقول وأنت لم تسمعيه بعد .
- لقد خرجت من حياى فكل حديث لا معنى له .
- ومع ذلك ليس هناك ما يمنع أن أقول وتسمعى .
- لقد رأيتكيا .
- أنا لم أنكر هذا .
- فماذا تريد أن تقول ؟
- فتاة هى ...
- لا تقل ... لا تقل .
- إذن فسأقول أنا ولك أنت أن تسمعى أولاً تسمعى وهبته حى ووفائى ويغنون .
- طفلة كنت حين تزوجنا وهرى منه حديث منمق وقوام رشيق ووجه وسيم .
- وحين عرفت الحياة وجدته بلا ضمير ووجدت حديثه المنمق طلاء وبلا معنى ولا نبض
- وكانت طفلى قد جاءت فكان لا يمكن أن أتركه وقبلت أن أعيش معه وهو نافع وسخيف أما أن
- يصل الأمر إلى الخيانة ... ولكن ما لى أغضب لخيانته كل هذا الغضب ما دمت لا أحبه فما
- حرصى على وفائه . لعلنى حريصة على كرامتى وما شأن كرامتى ما دام يخفى عنى خيانته فكرامتى
- إذن سألته لم يمسه أحد فحين كشفت ما كان خافياً حيثل ...

- إلى محام .
- كنت .
- ومازلت .
- بل كنت .
- وللمحامين زبائن .
- هل أنت مصمم أن تقول ؟
- كل التصميم .

— وماذا يضيرك ما دمت لا تتعب .

— أرادت هذه الموكلة أن تلتقى بى خارج المكتب فكان لابد أن ألتقى بها . . . ان المحامى طبيب نفسى عليه أن يشعر زبائنه دائماً أنهم فى أمن واطمئنان ماداموا فى مكتبه وفى حمايته القانونية .

كل ما بلغك غير هذا كذب . . . لماذا لا تحيين . . . أى إنسان لا يجوز أن يخبر الزوجة بما يصنعه زوجها حتى لو كانت هذه الأخبار صحيحة . . . إن للبيوت قدسية لا يجوز لأحد أن يحطمها . . . إن هؤلاء الذين كلموك عنى إنما يريدون أن يحطموا البيت الذى بنيته من أحلام طفولتنا ومن ظلال صبانا ومن أوهام شبابنا ومن حقيقة وجودنا . . . ألا تذكرين . . . وإنما كنت تحيين أن تسمى الذكريات وكنت تكملينها مالك لا تكملين . . .

أتذكرين يوم كانت دادة حميدة تلقى بنا معاً فى البانيو عرايا ولم نكن نجد حرجاً فى ذلك يومذاك كنا نضحك وأرشك بالماء وتضحكين ثم نستحم ونخرج وكأننا طفلان أو طفلتان لا يفرق بيننا جنس مختلف . . . أنت لا تسمعين لو كنت تسمعين لاهمرت وجناتك فقد كانت وجناتك تحمر دائماً كلما ذكرتكم ببانيو دادة حميدة . . . إذا كانت الأيام الطويلة لم تستطع أن تفرق بيننا أتستطيع ألسنة الناس ألا تعرفين معنى مرور الأيام . . . إنها هذه الأيام التى تلقى الشيب إلى الرؤوس وتلقى الغضون على الوجوه والترهل على الأجسام والضعف على الأبدان . . . هذه الأيام نفسها تمر على العلاقات الصادقة الأصيلة فتزيدها أصالة وتغرسها عميقة فى صدر الزمن فإذا الروحان مثلنا يصبحان حياة واحدة تنطلق أنفاسها من مصدر واحد قد التحدت أمالها فى الحياة والتحدت بينها مصادر الرزق ومصادر الضيق ومصادر الفرح . . . لآلن أحدثك عن ابنتنا . . . إن كانت العلاقة بيننا لا تحتمى إلا بسهير فأنا لا أريد هذه العلاقة . . . لن أقول لك إن طلاقنا سيكون صدمة لسهير فى بيت زوجها . . . أتصدقين هذه الحرفاوات وبتتنا الآن متزوجة . . . أترينى مازلت شاباً أصالح لهذا . . . كنت دائماً تحيين سن الخامسة والأربعين لست صغيراً على كل حال . . .

لو علمت لماذا خنتك . . . لن تتصورى الأسباب . . . إنك قاسية إنك تطلين الكمال من كل من حولك ولا يستطيع من حولك أن يهبوا لك الكمال . . . أعلم أنك قسوت على نفسك وكنت مثالية فى كل ما تصنعين ولهذا أردت من الجميع أن يصبحوا فى مثل مثاليته . . . عذبت نفسك بالمثالية فلماذا لا تعذبين الآخرين . . . ولكننا نحن الذين حولك بشر نريد أن نخطئ كما يخطئ الناس وأن نعيش كما يعيش الناس ونتمتع بالحياة بكل الحياة . بما فى الحياة من خطأ

وما فيها من صلاح ... كرهت عنفك ومحاسبتك على كل صغيرة كرهت هذا فيك وأعجبت به
فيك أيضاً ... أنت مثل أعلى أعبدته ولا أريد أن أكون مثله ... أتمنى أن أراه ولا أتمنى أن
أكونه ليتك تسمعين هذا الكلام ولكن كيف أقوله ... إن فيه اعترافاً بما فعلت وقد تحصلين
منى مع كل شيء ولكنك لن تحصلي على هذا الاعتراف ...

وأنت أيضاً لست صغيرة ... الغيرة لا تتفق مع سنك أصغر مني أعلم ذلك ولكنك لست
صغيرة لا إجابة ... لا إجابة على الإطلاق ... إن كنت مصممة على الصمت ... فابتسامة
أو تكشيرة أو هزة رأس ، أى شيء يشعرون أنني هنا إننى أقول شيئاً ...
... أو كنت حياً لأمتننى هذا الحديث ... مازال لحديثك طلاوته ... مازال حديثك
يستطيع أن يعيدنى إليك .
... لو كنت حياً ... ألسنت حياً ...
... ألا تعلم أنك مت ؟
... مت ... لهذا الحد تكرهينى ... هل استطاعت الأقاويل أن تجعلنى ميتاً فى نظرك .
... لأنك مت .
... أنا الآن لست حياً .
... أتتصور نفسك حياً ؟
... أليس هذا حقاً ؟
... ألا تعرف أنك مت .
... لا تقولى هذا .
... إنها الحقيقة .
... ألسنت جالساً الآن أمامك ... ألا تسمعين حديثى ونجيينى .
... صوت من العالم الآخر .
... فأنا ميت إذن .
... هل تشك فى ذلك .
... بل لى واثق أنى أعيش .
... لى حى ولكن لى أحيا معك مادمت قد هنت عندك إلى هذه الدرجة .
... علم الله لم تمن ولكنها الحقيقة .
... إنها أمنياتك أنت ...
... إنها الحقيقة ...

— سأجعل منها حقيقة بالنسبة إليك لن أعيش معك لن ترى وجهي بعد اليوم . لن ترى وجهي بعد اليوم .

— ٢ —

لعلها كانت تختاره من تلقاء نفسها إذا لم تتعرض لما تعرضت له . . . كيف قبل أبوها هذا . . . أبوها رجل القانون الذى ظل طول حياته يعلمها أن الحرية هى أئمن ما فى الوجود وأن حرية المرء هى حياته فإذا هى فى سنّها الباكّة تنسم الحرية مع الهواء الذى تنشقّه واثقة أنّها تستطيع أن تمارس حريتها فى كل صغيرة وكبيرة من حياتها . . . وقد عاشت منطلقة سعيدة بحريتها سعيدة بثقة أبيها فيها حريصة أن تؤكد له دائماً أنه يضع ثقته بين يدين جديرتين بها . . . فهى نقية دائماً . . . تختار لنفسها أكرم مكان بعيدة كل البعد عن مواطن الشبهات لا تكثر كثيراً بتضييق أمها عليها فإنها يجب أن تسيطر عليها دائماً وتحب أن تحد من حريتها المنطلقة هذه فى طبيعة لا تكلف فيها وقد عرفت هى هذا فى أمها فهى تغفر لها قسوتها وتعيش حياتها كما تحب أن تعيش فى حرية نقية صافية .

وهى فى جمالها الرائع الأخاذ كفيفة أن تثير لدى الشباب ألوانا من المطاردة وهى سعيدة بهذه المطاردة وهى أكثر سعادة حين ترى نفسها تردهم جميعاً فى كبرياء وتدفعهم فى عزة لا يعنىها ماذا هى مثيرة . حولها بكبرياتها .

وحين أصبحت فى الجامعة أحاط بها الزملاء برغباتهم الجائعة وأحاط بها الزميلات بغيرتهم المجنونة فلم تعباً بالرغبة من الفتيان ولا بالغيرة من الفتيات وظلت كما تحب لنفسها أن تغفل . مترفعة كريمة على وئام تام مع ضميرها وحريتها .

واستطاعت الرغبة من الشباب والغيرة من الفتيات والكبرياء منها أن تطلق حولها الأقاويل ضاربة مجنونة فمنهم من يقول لها حبيب ولكنها خبيثة عميقة تستطيع أن تخفى أمرها ومنهم من يقول مجنونة متكبرة ومنهم من يقول إنها مبدولة لمن يشاء ولكنها تتظاهر بالعفة . ومنهم من يدعى أنها فى أمسها القريب كانت معه وأنه رأى من فجورها ما لم يشهده من المحترفات .

وتجد هذه الأقاويل طريقها إلى أذنيها فالبنات يحببن أن يتظاهرن بالشفقة عليها ويحببن أيضاً أن يتظاهرن بصداقتها فإن الفتاة التى تستطيع أن تثير كل هذه الأقاويل تصبح صداقتها فى أغلب الأمر شيئاً حبيباً إلى نفوس الفتيات .

وكانت هذه الأقاويل تصيب من نفسها مكاناً قاسياً ولكنها كانت تستطيع دائماً أن تتكبر عليها فكأنما الحديث عن فتاة غيرها لا تعرفها .

وإن كان قول الشاب الذى قال إنه كان معها قد أثار فيها غضباً شديداً . . . إنها تعرف هذا الفتى ولكنها لم تكلمه فى حياتها أبداً . ولقد حاول أن يتقرب منها بالطريقة الساذجة التى يحاول بها غيره فلم تكلف نفسها عناء صده بالحديث وإنما أشاحت عنه وانصرف دون حديث فهو من ذلك النوع الذى يحب أن يزهو دائماً أن النساء أسيرات إشارته .

عرض الفتاة بضاعة لا حارس عليها . . . يكفى أن يطلق هذا الأفاق قوله الرخيص حتى أصبح أحدوة بين الطالبات والطلبة . وعن وهم دائماً أكثر ميلاً إلى الهجوم منهم إلى الحق . لا يعنيه ما يعرفونه عن كبريائى وما يعرفونه عن هذا الفتى من كذب وادعاء . وإنما يعنيه أنهم أصبحوا أمام قالة جديدة حكاية مثيرة يرونها فتى على أنه بطلها . . . وستصدق الحكاية بلا تمحيص ولا تفكير فإن النفوس تريد أن تصدقها وليذهب كبريائى إلى أى جحيم يشاء . ويتجمع الفتيان والفتيات حول الشاب ويصف وفي كل يوم يزيد فى الوصف ويستطيع فى خبث أن يغمز بعينه :

- لولا وجود الإنسان لسمعت ما شتمت من التفاصيل .
- أنت كذاب .

صوت انبعث من شباب بينهم وألقتت إليه العيون منكراً عاجبة فقد تعودوا أن يسمعوا هذه الأحاديث من ملقها هذا دون أن يفكر أحد فى وضعها موضوع الاختبار ليحكم عليها آخر الأمر بالصدق أو بالكذب فى هذه النعمة الجديدة ومنذ متى يفكر واحد منهم فى مقدار الحق فيما يسمع .

- أنا كذاب ؟
- وما شأنك . . .
- أنت كذاب لأن ما تقوله لم يحدث وجفير لأنه لو كان حصل لكان الأولى بك أن تستر .
- خطبة عظيمة فى مكارم الأخلاق .
- الفتاة التى تروى عنها نعرفها جميعاً وهى لم تسمح لأحد أن يأخذ عليها إشارة غير كريمة .

فهى حريصة أن تكون سمعتها فى الكلية أحسن سمعة وهى جميلة . . . بل هى أجمل فتاة نعرفها . . . ولو شاءت لوجدت الأصدقاء من كل مكان ومن الطبيعي أنها إذا أرادت أن تلهو فإنها ستبحث عن شاب فى أى مكان غير الكلية التى حرصت دائماً أن تكون فيها شريفة . . . أنت كذاب .

وكأنما أفاق الجمع المتن حول القصة والحوار إلى هذه الحقيقة البسيطة الساذجة . . . إنها حقيقة لو أراد أى شخص منهم أن يفكر فيما يسمع لوصل إليها دون جهد يذكر ونظروا إلى الفتى

الذى كان يروى فوجدوا البهتة على وجهه . . . إنه في موقف جديد عليه فقد ظل طول عمره يروى فيجد المتعة في وجوه السامعين ولم يجد معارضة في يوم من الأيام ونظر حوله فوجد الوجوه جميعها تنتظر جوابه وهي أقرب ما تكون تصديقاً لهذا الهجوم الذى شنه عليه زميله . . . كان ذهنه مشغولاً بخلق القصة ولم ينشغل أبداً في خلق الحجج التى تدل على صدقها فحين واجهه هذا الإنكار وجد نفسه في صحراء من الدهشة ولم يجد شيئاً يقوله . . . فغر فمه وحلقت عيناه وانطلقاً عن وجهه وهج الحماسة وجف ريقه وراح يدور بعينه حوله فإذا العيون التى كانت منذ لحظات ساجية مستمتعة بما تسمع تصبح عيوناً متسائلة متهمّة قاسية محتقرة . . . كانت تريده أن يكون صادقاً . . . كانت تريده يحمل الدليل على ما يقول حتى تصبح متعته حقيقة لا أثر فيها للخداع . . . خداعه لم يخدعهم ولم يخدعهم لأنفسهم . . . ولكنه خدعهم بهذا الصمت وهذه الخيرة وهذه الحماسة المنطفئة وهذا الصمت الداهل الحيران وهذا الوجوم الكسيف الخزيان . طال صمته فألقى بعينه إلى الأرض آخر الأمر واستدار للجميع في يأس قائلاً في صوت يحاول أن يحمل التهديد فلا يحمل إلا الهزيمة :

— طيب . . .

وينصرف لتعلو في سمعه عند الباب فههات عالية ساخرة ويلتئم الجمع حول المنتصر فيجدون الفتى غير معترٍ بانتصاره .

— أنتم جميعاً شركاؤه والفتيات منكم خاصة . . . كيف تأمن أى واحدة منكن أن يقول عنها مثل هذا القول . . .

وينصرف الفتى المنتصر في غضب ويتنقل الحديث جميعه إليها فتجد في نفسها راحة واطمئناناً . . . إن الدنيا ليست بالسوء الذى كانت تتصوره . إن هذا الفتى الذى دافع عنها حاول أن يقيم معها صداقة فردته هو أيضاً ولكنه شريف . . .

وعمر الأيام ولا يحاول أن يتقرب منها . . . إنها تعرف أنه يحس بنظراتها الشاكرة تلبقها إليه من بعيد ويروغ هو من هذه النظرات فقد قال ما يعتقد أنه الحق وهو لا يريد منها شكراً . . . وتأبى هى أن تقدم شكرها في حديث فهي لا تريد أن يرى زملاؤها أن بينها وبينه أى علاقة ولو كانت هذه العلاقة مجرد حديث . . .

ودون أن تحس هى ودون أن يحس نشأت العلاقة . . . فيها إكبار من الناحيتين وفيها شكر من جانبها . . . بل فيها من جانبها معنى أكبر من مجرد الشكر . . . لقد أحست أن هذا الشاب قد أعاد إليها ثقته في الناس . إن فيهم سوءاً ولكنهم ليسوا جميعاً أشرار . . . أحبته من ومضات خاطفة في عينيه أحست أنه يحبها . . . فهي لم تدهش حين تقدم إلى أبيها يريد أن يخطبها ولكنها دهشت أن أباهم لم يسألها عن رأيها وإنما عرفت أنه صرفه دون قبول . . . تقول

أمها انه فقير لا يملك إلا مرتبه حين يعين . تلك الحجة التي يراها الآباء دائماً مقنعة والتي يراها الأبناء دائماً سخيفة ...

كان رفض أبيها مؤلماً بالنسبة لها ... كيف ينهار هذا التمثال الذي أقامته له في نفسها ... لقد ظل طول حياتها يعلمها أن الحرية هي أئمن ما يملكه الإنسان ثم هو في لحظة واحدة يسلبها كل حريتها وهي أهم ما يعرض لفتاة في حياتها .. إنهار تمثال أبيها ... إنها تعلم أنه يلين أمام أمها في أمور كثيرة ولكنه من المبادئ الأساسية التي يؤمن بها لا يلين فكيف قبل أن يعتسف حق ابنته في اختيار شريك حياتها وكيف قبل أن يرده دون أن يسألها ...

إن هذا الذي رده أبوها هو الشخص الوحيد الذي تريد بحريتها الكاملة أن تتزوج منه وشباب الدنيا جميعها بعد ذلك سواء ... ما دامت لن تتزوج هذا الشاب فليكن الزوج من يكون .

وحين أقبل زوجها هذا :

— ما رأيك ؟

— لا رأى لى .

— فأنت إذن موافقة .

— إذا كان عدم إعطاء الرأى موافقة فأنا موافقة .

واعتبرت أمها هذا الحديث القصير موافقة وتمت مراسيم الزواج وأبوها بعيد عن الموضوع جميعاً وكان لا يعنيه ...

وحين أصبحت فى بيت زوجها تبينت هول ما حدث لها ... لقد قضى عليها ...

— قالت لى أمك انك وافقت .

— هل سألتنى أنت .

— وهل تكذب أمك فى مثل هذا .

— إنك علمتنى الحرية وسلبتها منى لبتك لم تعلمها لى حتى لا أفجع فيها وفيك وأنت

تسلبها منى .

— هل سلبت حريتك ؟

— منذ رفضت زميل الذى جاء يخطبنى .

— إنها أمك .

— وأنت أبى .

— حسبت أنه لا يهكم أن أرفضه .

— ولماذا لم تسأل ؟

- ... كنت في شقاق مع أمك وخشيت أن تظن أنني أقف إلى جوارك للخلاف الذي بيننا .
- وأنا الضحية .
- ... لم أتصور أن في الأمر تضحية .
- ولماذا لم تسأل ؟
- أخطأت .
- وحياتي هي الثمن .
- ألا تقبلين اعتذارى .
- وماذا يفيد الآن ؟
- قد نستطيع أن نصلح ما فسد .
- كيف وقد متُ .
- أنا متُ .
- ألم تمتُ ...
- من هذا الذي يحدثك .
- وهم أوشح .

- ... حتى أنت ... حتى أنت ... لقد أعطيتك كل حبي .
- وأعطيتك كل حبي .
- لم تطلبي شيئاً إلا قدمته .
- كنت سعيداً وأنت تقدم لي ما أريد .
- وكنت سعيدة وأنا أقدم لك ما تريد .
- كنت أحب أن أجده حبي صديقاً عندك .
- ولكنك كنت كثيراً ما تشك في .
- كنت أخشى أن يكون حبك لي مبعثه البحث عما أقدم لك .
- هناك من هو أغنى منك ولم أقدم له حبي .
- إن الغيرة هي الثمن الذي يدفعه المحب في مقابل هوائه بحبه .
- ولكن على حساب ثقته بمن يحب .
- أكنت تريدني محباً لا يغار .
- كنت أريد حبيباً يهب الثقة ثم يخاف .
- أهذا ما أغضبك .

- لا ... لقد تعودت منك هذه الوسوس .
- إن الصلة بيننا لم يكن يحميها إلا الحب .
- وهل هناك أقوى من الحب ؟
- القلوب تتغير .
- فهل تمنع الغيرة تغييرها .
- والمرأة تتغير .
- وهل تمنع الغيرة تغييرها .
- أنا لا أملك الوسوس تنور في نفسي .
- الواصل بنفسه يملك وسوسه .
- هل يريد أحد أن يخاف ؟
- القوي يتحكم في طبائعه :
- لكل إنسان ضعفه .
- تستطيع دائماً أن تثق بنفسك .
- ويعيرى ؟
- إذا وثقت بنفسك، وثقت بغيرك .
- بكل الناس .
- بمن تحب .
- فإن أحببت من لا يحبني .
- فأنت غبي .
- هل أنا غبي ؟
- إذا أحببت من لا تحب فأنت غبي .
- أعظم أذكاء العالم أحبوا من لا يحبونهم .
- لم يكونوا يعرفون أنهم غير محبوبين .
- خادعوا أنفسهم .
- كنت أخاف أن أخادع نفسي .
- أن تخادع نفسك خير من أن تثيرها .
- أحبيتك بجنون .
- وأنت تعلم أنني أحبيتك بجنون .
- لقد جئت لي كموكلة .
- كانت سمعتك كمحام كبير .
- وكسبت قضيتك .

- لقد كنت على حق .
- فأنا لست بارعاً إذن .
- كنت بارعاً في اختيارك لى .
- أحسست أنك في فراغ .
- حين يتوفى الزوج تصبح الزوجة في فراغ .
- ولكنى أنا أيضاً كنت في فراغ .
- كان فراغاً عاطفياً .
- كنت محتاجاً إليك .
- وكنت محتاجة إليك .
- قضيت معك أروع لحظات حياتى .
- وإنها أروع لحظات حياتى .
- لقد وهبت لى الكثير .
- وأنت وهبت لى الكثير ثم ...
- ثم ماذا .
- مللتنى .
- أنا .
- تركتني بين الموت والحياة .
- كان لابد أن أسافر في عمل .
- وحياتى .
- إن عملى يتوقف عليه مصائر الآخرين ... إنها مسألة ضمير .
- ألم يعاتبك ضميرك فى أمرى ؟
- تركتك بين يدى الأطباء .
- ولكنى وحيدة .
- وماذا كنت أصنع ؟
- وأنا وحيدة بسببك .
- طبيعة حياتنا تحتم عليك الوحدة .
- ألم تفكر فى أمرى ؟
- ماذا كنت أصنع .
- سؤال العاجزين .
- فأجيبى أنت .
- كنت تستطيع على الأقل أن تأتى لى بممرضة .

- لماذا لم تقولى ؟
- مثل هذا لا أقوله أنا .
- إنك دائماً كنت تطلين ما تريدن .
- إلا هذا .
- لماذا ؟
- إنها صحتى وحياتى يجب أن ترعاها أنت دون أن أقول .
- كنت مشغولاً بعمل ولم يخطر لى هذا ببال .
- لو كان أمرى يعينك لخطر هذا ببالك .
- لا يجوز أن تحاكمينى على فكرة خطرت لك ولم تخطر لى .
- ثم عدت من السفر .
- لست أدرى أى شيطان أخبر زوجتى بعلاقتنا .
- فهو حرصك على زوجتك إذن .
- ببقى وكيانى وسمعى .
- وحبك .
- كنت أطمئن عليك .
- وهل اطمئنت ؟
- لقد كنت دائماً حريصة على ببقى .
- كنت أحسب حياتى عندك غالية .
- أنت تعرفين أنها غالية .
- كنت أحسب .
- ومع هذا فقد سمحت زوجتى للمجلات أن تتكلم فى الموضوع .
- وهل يهمك هذا ؟
- سمعة المحامى فى غاية الأهمية .
- كل شىء مهم عندك إلا صحتى .
- ألا يمكن أن تكون أشياء كثيرة مهمة فى وقت واحد .
- على أن تكون صحتى أهم شىء عندك .
- أنت تعرفين أنها أهم شىء عندى .
- تركتني وأنا بين الموت والحياة .
- ظروف قاسية .
- عذر الضعاف .
- ألا ترحمين ؟
- وماذا تفيد رحمتى الآن ؟

ألا تعرفين ماذا تفيد ؟
لقد فات الآوان .
لم يفت .
لعل كنت أقبل عذرك .
لو لم تكن ...
لو لم أكن ماذا ؟
لقد مت .
أنا مت ؟
لقد مت .
أهى مؤامرة مدبرة .
الموت لا يحتاج إلى تدبير المؤامرات .
إذن فأنا ميت .
ميت ؟
أنت ترين هذا .
إنها الحقيقة .
الحقيقة ؟ ...
ميتاً أو حياً لن أراك ولن ترفنى بعد اليوم .

— ٤ —

هو الملجأ الأخير ليس لى غيره لا يستطيع هو الآخر أن يدعى موقى ... أنا الذى صنعت
السهر الطويل والجهد الشاق والضمير اليقظ والعلم والدراسة والفن .. صنعت وجعلت
على كل لسان ... مكتبى ... إذا ذكر اسمه للمتهم فهو آمن ولصاحب الحق فهو عدل
بل فيه قضية إلا كنت راضى الضمير عنها ... فارغ هو الآن ... موعد المكتب لم يأت
... الوكيل لم يأت والزبائن لا تنهى إلا بعد موعد المكتب بساعة أو أكثر ... ما أعظم ما
به ... هذه القضايا القديمة كلها تحمل الأعمال الرائعة التى قدمتها فى ساحة العدالة وفى
لمحامة وفى خدمة الحق . بل إلى أن القضايا التى لم أقبلها كانت أعظم وأضخم . لا أنسى
القضية التى اجتمع فيها خمسة شباب ليقتلوا رجلاً عجوزاً وجاءنى أخو أحدهم يدعوى
إفاعة عن أخيه وقرأت القضية ووجدت الظروف جميعاً تشير إلى موكل بالاثم ... كان
الرافعة فى القضية مهماً بالنسبة لى فقد كنت فى ذلك الحين محامياً ناشئاً يبحث عن القضايا
ة ليصنع بها اسمه فى سجل كبار المحامين وقد جاءنى هذا الموكل لصلة كانت تربط بينى

وبين أسرته وكان طامعاً ألا أغلو في الأتعاب وقد كنت خليقاً ألا أتقاضى شيئاً على الإطلاق .
فمثل هذه القضايا يدفع فيها المحامون أتعاباً ولم تكن أصابع الاتهام التي تشير إلى موكل تهمني
في شيء كل ما كان يهمني هو الحقيقة . . . لقد أحسست أن موكل اشترك في الجريمة . . .
أحسست بهذا إحساساً اقترب من اليقين فحين جاء الأخ بسألني إن كنت سأقبل القضية سألته
ذلك السؤال الذي لا يجوز لمحام أن يسأله لمتهم أو قريب لمتهم . . . ذلك السؤال المباشر
الصريح القاطع :

– هل ارتكب أخوك الجريمة ؟
وأطرق الأخ لحظة كأنما كان السؤال لكمة عنيفة موجهة إليه ثم رفع رأسه في حزن وأسى .
– نعم .
وهدمت نعم كل آمالي أو معظمها فقد أردت أن أخاطب الأمانة في نفس هذا الأخ .
– لقد أقسمنا اليمين ألا نكذب فدفاعي عن أخيك سيكون قائماً على طلب التخفيف بناء
على الشهادات التي قدمت للمحكمة لإثبات الجنون واعتقد أن هذا هو خير سبيل للدفاع . . .
أنا لن أدعى أن أخاك بريء . . . إن رأيت أن أسير في الدعوى على هذا النحو فإنا نحت أمرك
وإن رأيت أن نبحث عن محام آخر يحاول نفي التهمة جميعاً فهذا إليك .

وصمت الأخ قليلاً في تلعم وهو يقول :

– سر في الدعوى على النحو الذي يرضيك وفرحت يومذاك ولكن ما لبث فرحي أن تبدد
فقد علمت أن الأخ قد وكل محامياً آخر . . . تبدد فرحي ولكن ما أسرع ما ملكني شعور
بالسعادة الطاغية . . . ذلك الشعور الذي يمتلك من قدم تضحية في سبيل مبدأ . . . شعور
رائع كثيراً ما أحسست به وأنا أقيم صرح هذا المكتب .
شعرت به كلما رفضت قضية كهذه وشعرت به كلما حاول أحدهم أن يجعل من المحاماة
مهنة وساطة رخيصة .

لعل هذا النوع من الشعور أعظم في إسعاده من كسب قضية . . . فكسب القضية يقتزن
فيها الجهد بالفرح . . . وتوقع الكسب مع الجهد يجعل الكسب نتيجة قريبة الاحتمال بالفرح بها
لا يكون كبيراً أما مغالبة النفس وهي أعظم عدو للإنسان ورفض المال الذي نحتاج إليه . رغم
حاجتك إليه .

أما هذا فإنه يشيع في النفس نوعاً من الرضا والسعادة والاطمئنان إلى نفسك والثقة
بها . . . وأهم ما يحتاج إليه المرء في حياته أن يطمئن إلى نفسه ويثق بها . . . يثق بأنها تستطيع

دائماً أن تكون أبية مترفة فيها كبرياء القناعة واعتزاز أصحاب المبادئ ...
 ماذا حدث لي حتى بدأت أترافع عن نفسي ... لا أدري ماذا حدث ... لا أريد أن
 أذكره وهل أملك إلا أن أذكره ... وماذا يهمه . فما دام مكتبي هذا باقياً لي فكل ما عدا ذلك
 عبث ... أستطيع أن أعيد إلى حياتي كل هؤلاء الذين رفضوا حياتي فهم أيضاً قد صنعتهم
 بمكتبي وأستطيع أن أعيد صنعهم إذا شئت .. زوجتي - السنين الطويلة والطريق الذي قطعناه
 مع الآمال الهشة الواهنة حتى أصبحت الآمال حقائق وهي في شموخها الصاعد وفي ترفعها الأبي
 وفي مثاليها الرائعة القاسية . وإلى أحبها وأكبرها وأجلها في كل لحظة في حياتي إلى اعتز بها أمثل
 هذه أستطيع أن أعيد صنعها ؟ أن أعيد صنع الحياة التي قطعناها معها ... ابنتي نبض قلبي
 وحيي وضعفي وقوتي ... في ثقتها بنفسها وبحبها لي تقطع الحياة حرية ونقاء . كيف
 استطعت أن أجعلها ترفض حياتي ... كيف ... كيف ... وكيف تعود إلى مثل هذه
 البنية .

حبيتي ... لحظات السعادة المزجزة الطاغية ، لحظات المتعة الوضيئة في حياتي القلب
 والقلب ينبض واحد والمخاطرة والخاطرة تتآلفان لهما خاطرة واحدة ... تخافني عندها أمن
 والآمل عندها إلى زوال ... ومع ذلك بقي لي مكتبي ...

ماذا حدث ... ؟ لقد أوغل الليل ولم يأت الوكيل . ولم يأت الزبائن ... لعل الوكيل في
 مكتبه ولعله لا يعرف أنني بحجرتي . أبداً إنه لم يأت . لم يأت والحجرات فارغة ... لا أحد
 في الأوراق على مكتب الوكيل . إنها ليست أوراقاً إنها مجلات ... مجلات . فضيحة شائنة
 زوجة محام كبير تطلب الطلاق لأن زوجها يخونها . زوجة محام كبير ترفض البقاء مع زوجها
 الخائن ... زوجة محام كبير في قضايا الجنايات ...

إنه من أسهل الأمور على أن أعرف على الفور إن كنت حياً أو كنت ميتاً ولكن ... إذا
 كان هؤلاء يرون أنني ميت فالأمر بعد ذلك سواء ... لا حاجة بي إلى البحث ... الأمر
 سواء ...

رحلة العودة

أصدر حاكم الكوفة أمره إلى عماله أن يلزموا أصحاب المحال التجارية بدفع خمسة دنانير في الشهر مقابل من يحمي لهم متاجرهم من اللصوص والغاصبين . كما أمر أن يدفع الزراع عشر محصولهم مقابل أن يحمي لهم التسعة أعشار الباقية . وأصاب الناس اضطراب شديد . وراح الأفراد يتجمعون ويتهايمسون ولكن سرعان ما يتفرقون ويصبح الهمس هواء مع الهواء . وقد يفيد الهواء ولكن هيهات لهمسهم أن يفيد .

وكان أحد شوارع الكوفة مزدحماً بالتجار فكان الهمس في هذا الشارع يعلو بعض الشيء عن الشوارع الأخرى ولكن مهما يكن الهمس عالياً فإنه ينداح آخر الأمر مع الهواء فلا يفيد . وكان أحد الواقفين جالساً إلى كتبه ينظر إلى رجل عنده مهيب يقرأ في كتاب من كتب المكتبة بنهم واستغراق .

- قل لي أيها الشيخ .
- هل أنت مصمم على أن أقول لك ؟
- مجرد سؤال .
- يا ليت .
- مجرد سؤال
- لا يمكن .
- فانتظر حتى ترى .
- إن كل حديث يبدأ بكلمة قل لي هذه السخيفة . وقد يتبعها مجرد سؤال ثم تتوالى الأسئلة فلا تنتهي وأنا أريد أن أقرأ .

- حسناً لماذا تقرأ ؟
- لأتعلم .
- ولماذا تتعلم .
- لأعرف كيف يصاغ الكلام .
- ثم بعد .
- أرايت لم يكن مجرد سؤال إذن إنها مؤامرة كاملة .
- لو كنت أجبتي إجابة شافية لما احتجت أنا إلى كل هذه الأسئلة .
- بماذا أتريدني أن أجيبك .
- لماذا تقرأ ؟
- لقد قلت لك .
- لم تقل شيئاً
- إنني أقرأ لأنني أريد أن أقول .
- فالقول إذن صناعتك .
- إنه صناعتى .
- صناعتك أن تقول .
- نعم .
- فلماذا لا تقول ؟
- وماذا تريدني أن أقول ؟
- أن تقول للظالم أنت ظالم .
- أين هو الظالم ؟
- أ تستطيع أن تقول للظالم أنت ظالم .
- إنها صناعتى .
- ألم تسمع بالأحكام الأخيرة التى أصدرها الحاكم ؟
- هذا عمله .
- أن يفرض علينا الأتاوات .
- إذا لم تدفعوا هذه الأتاوات كما تسميها فمن أين تتفق الدولة .
- لو أنها أخذت من أجل الدولة ما تكلمنا .
- ومن أين تعرف السبب الذى من أجله أخذت .
- اسمع أيها الشيخ . إننى وإخوانى لا نعارض فى دفع ما تزيده الدولة فقط لنا مطلب .
- لكم أن تقولوا مطالبكم .

حين يمتنع الحاكم عن إقامة الولائم كل يوم مرتين مرة في الغداء ومرة في العشاء . وحين يمتنع الحاكم عن اقتناء الجوارى بأذلا في سبيل ذلك الألوف المؤلفة من الدنانير . وحين يمتنع الحاكم عن أن ينفق في سعة ليرتدى الملابس موشاة بالذهب والماس وحين يمتنع الحاكم عن أن يعطى من خزانة بيت المال لأهله وذويه والمقربين إليه بغير حساب . وحين يمتنع الحاكم عن أن يقذف بالمال تحت أقدام الشعراء الذين يمدحون في خسة والمغنين الذين ينافقون في صغار . حين يمتنع الحاكم عن هذا جميعه ويحتاج بعد ذلك إلى أموال لبيت المال فاننا نرحب أن نقدم كل ما يطلبه منا .

— إذن فأنت تريد في بساطة أن يبدأ الحاكم بنفسه .

بوركت لقد ظللت أتكلم وأتكلم فقلت أنت ما أريد في كلمة واحدة .

— الكلام صناعى .

— أترى لصناعتك هذه فائدة إن لم تقل بها كلمة حق .

— إنك على حق ولقد اقتنعت بقضيتك .

— أذهب إذن إلى الحاكم فتجعله يقتنع بما اقتنعت أنت به .

— أما أنا فلا مانع لدى ولكن ؟

— أخاف ؟

— ليس لدى ما أخاف عليه .

— حياتك .

— أخاف عليها ولكن ما أظن أن الحاكم سيستولى عليها بمجرد أننى نقلت إليه رأيا .

— فما لكن هذه .

— ولكن ذهابى وحدى لن يفيد شيئا .

— إن الكلام صناعتك .

— لسيت وحدى من اتخذ الكلام صناعة في الكوفة .

— إذن فأنت تريد جماعة من الناس حتى تكون مطمئنا بوجودهم .

— أولا لا عيب في ذلك فمن خصال الانسان أن يخاف وثانيا ذهاب الجماعة خير من ذهاب الفرد فان الحاكم حين يرى جمعا منا يعرف أننا نعبر عن رأى قوم كثيرين . أما أن رأى فردا فقد يستخف به ويرميه بالتدخل في غير شأنه .

- أليس شأنك أن تقول .
- في هذه الحالة لن يعترف الحاكم أن من شأنى أن أقول .
- لا بأس فمن تريد معك .
- إنك وراق وتعرف كل من يتخذون الكلام صناعة .
- فمضى نحب أن تذهب ؟
- متى تستطيع أنت أن تجمع الذاهبين ؟
- فى أقرب وقت .
- وأنا مستعد .
- وتجمع صنّاع الكلام وقصدوا إلى قصر الحاكم . فاستقبلهم الحاجب .
- من أنتم ؟
- فقال كبيرهم .
- نحن أهل الكلمة .
- ومن أهل الكلمة .
- أولئك الذين وهبهم الله موهبة الكلام .
- وماذا تريدون ؟
- نريد أن نلقى الحاكم .
- ولماذا ؟
- عندنا كلمة نريد أن نقولها له .
- ألا يمكن أن يقال لى .
- إنها لا يقال إلا للحاكم .
- أهى بشرى طيبة ؟
- إنها ليست بشرى .
- فهى إذن نبوءة سيئة .

- يا أخا العرب نحن لسنا من علماء الفلك .
- فماذا تريدون إذن .
- أن نلقى الحاكم .
- لن تقللوا الحاكم إلا إذا عرفت أنا ما تريدون .
- لقد جئنا نكلمه في شأن التجار والزراع .
- آه .
- أعرفت ؟
- أهذه هي الكلمة ؟
- تلك يا أخى البداية .
- أهنك شيء آخر .
- إنك لم تعرف إلا رأس الموضوع فقط أما الكلام الذى نريد أن نقوله للحاكم فأنت لا تعرفه ونحن نحب أن نقوله له .
- ولماذا لا تقولونه لى ؟
- أنت حاجب الخليفة ألسنت كذلك ؟
- إنى هو .
- فابلغه أمرنا وأنظر بماذا يبيحك .
- ودخل الحاجب فما هى إلا أن عاد .
- تعالوا معى .
- إلى الحاكم .
- ستلقون الحاكم .
- الآن أليس كذلك ؟
- الآن نعم . . . اتبعون .
- يا أخا العرب . . . إنك دخلت إلى الحاكم من هذا الباب فمالك تقصد بنا إلى باب آخر ؟

- إنه سيلقاكم في حجرة أخرى . . . اتبعوني .
وتبعوه .
- ولكننا يا أخى لم نقل شيئا بعد حتى تقودنا إلى السجن .
- وهل رأيتموني أدخلكم السجن وأقفل دونكم الأبواب .
- فما مجيئنا إلى السجن .
- إنه الطريق إلى الغرفة التى ينتظركم فيها الحاكم .
- آه . . . وما هذا ؟
- لا شيء .
- رجل معلق من قدميه فى الهواء ورأسه موضعه فى الماء ثم لا شيء .
- عملية تنشيط للذاكرة .
- أى ذاكرة ؟
- الذاكرة التى تنسى أحيانا أن الحاكم لابد أن يطاع .
- فان كسلت الذاكرة يموت .
- إنه لن يموت .
- الموت أهون . . . وهذا .
- مثله .
- ولكنه لا يعامل مثله .
- وسيلة أخرى لتنشيط الذاكرة .
- ولكن النار فى قدميه .
- إن الدماء إذا سخنت فى الأقدام وصلت إلى الرأس حارة فتشيط الذاكرة .
- وهذا ؟
- مثله .
- وهذا ؟

— مثله .

مثله ؟

— مثله .

أيطول بنا الطواف هنا ؟

— إننا في الطريق إلى الحاكم . . . اتبعوني .

وتبعوه .

— ما هذا أيها الحاجب لماذا تقيد أيدينا وراء ظهورها ؟

— لا تخافوا حين نخرج من هذه الغرفة سنفك أيديكم .

— ولكن لماذا ؟

— ستعرفون . . . حالا ستعرفون .

ودخلوا إلى حجرة كلها رفوف من الأرض إلى السقف وكل الرفوف مليئة بالماس والياقوت والزبرجد والزمرد أما الذهب فكان أكواما وصاح كبير القوم :

— ألهذا قيدتم أيدينا ؟

— إنها أوامر صادرة إلى حراس الغرفة .

— إننا نحتج . . . أنحن لصوص ؟ سنبلغ الحاكم هذه الإهانة التي ألحقتكموها بنا .

— إنها أوامر الحراس .

— ولكنها إهانة فما نحن لصوص .

— على كل حال لا تغضب فانكم ستعودون من هذه الغرفة فان كان الحاكم راضيا عنكم فانكم ستتمرون بهذه الحجرة وأيديكم مطلقة .

— أهكذا .

— على شرط .

— ما الشرط ؟

— ألا تسرفوا في أخذ الجواهر حتى تتبعع جيوبكم وبراكم الحراس .

— شرط معقول .

خرجوا من الغرفة إلى بهو فأطلقت أيديهم وقال لهم الحاجب :

— انتظروني هنا أستاذن لكم على الحاجب .

وحين تركهم نظر أحدهم إلى كبيرهم .

— ماذا أنت قائل ؟

— ما تريدون أن أقول ؟

— أتعرف ما نريد أن نقول ؟

— كل المعرفة .

وحين دخلوا إلى الحاكم بدأ كبيرهم ؟

— يا مولاي الحاكم لقد أرسلنا التجار والزراع لشكر لك هذا القرار الحكيم العادل الذي تفضلت فأصدرته فقد جعلتهم يشعرون أنهم يشاركون حقا في بناء بلدهم ولو لم تصدر هذا القرار لأرسلونا إليكم لنرجوكم أن تصدروا هذا القرار . ولكن نفاذ بصيرتكم ونبل معدنكم وأصيل فطنتكم ورفيع فكركم ورائع تدبيركم كل هذا كان أسبق منا وأنتم دائما بالفضل أسبق وبالخير أوثق وبالمجد أخلق .

وفي العودة مر أصحاب الكلمة في غرفة الجواهر والذهب وكانت أيديهم مطلقة . والمفاجأة التي كانت تنتظرهم أن هناك طريقا يفضى إلى خارج القصر دون أن يمر بالسجن . . . وقد دهشوا لذلك أي دهشة .

● وبقي شيء

وبقي شيء

أخذ طريقه في الحياة وهو يعلم ألا سبيل له غير اجتهداده . كيف استقر هذا المعنى في نفسه . إنه لا يدري . كان الشباب يتفجر في داخله وكان اخوانه يمزقون الحياة بشبابهم ولم تكن نفسه عازقة عما يصنعون وإنما كان يتوق إلى ملاعبهم وتهفو إليها خواطره ورغباته ، وكان يريد أن يكون خنجرًا في صدر الليالي يعتصر رحيقها أحمر في لون الخمرة الحمراء أو في لون دماء العذراء وكانت نفسه تحن إلى الليالي التي لا تعرف بداية أو نهاية ولكنه كان يجمع كل ما تمور به رغباته وينصرف إلى الدرس والمذاكرة . شيء واحد ضعف أمامه ولم يستطع أن يرد نفسه عنه هو المسرح .

وقد جعل دهبه إلى المسرح في كل يوم خميس هو جائزته عما بذله من جهد في أيام الأسبوع الستة الأخرى . وقد كان منتظما مع المسرح كما كان منتظما مع المذاكرة .

أخلف موعده مع المسرح في مرات قلائل ذهب فيها مع رفاهه وتمتع بما يتمتعون به وبهرته حياتهم ولكنه مع ذلك استطاع أن يمنع انبهاره أن يميل إلى طريق الرفاق .

لما الحياة التي كان يشاركونهم فيها يوم الخميس كانوا هم يعيشون فيها كل أيام الحياة وربما استثنى بعض منهم شهرا أو شهرين قبيل الامتحان ، ولكن الحياة الطبيعية كانت هذه المتعة التي يعيشون بها ولها والتي يخاف بهجت أن يشاركونهم فيها بأيام الخميس فتصبح كل أيامه خميسا .

ليس يدري من أين واثته هذه الحكمة التي لا تتفق مع طبيعة الشباب والتي تختلف بالذات مع طبيعته هو . فقد تنسجم مع فتى غير راغب في العريضة أما هو فيعبد هذه العريضة ومع ذلك استطاع أن يكون هذا الفتى المثابر في المذاكرة والحريص على النجاح .

ولا يدري أيضا من أين جاءه حبه للتمثيل هذا الحب الذي جعله يواظب على حضور

المسرح كل يوم خميس في أيام المذاكرة وكل يوم في أيام الاجازة .

وقد حاول أن يحلل هذا الشغف بالمسرح فعجز وأسلم نفسه إليه في نشوة وبغير تحفظ .

ربما كان حرصه على المذاكرة وليد ما كانت أمه تنبهه إليه . فقد مات أبوه وهو بعد في المراحل الأولى من الدراسة وقد كان أبوه غنيا واسع الغنى ولكنه كان يريد هذا الغنى أن يتسع ويزداد ولا تقف به نهاية فكان يدخل في مشروعات مالية لا آخر لها ، ونجحت بعض هذه المشروعات فكان جنون المال عنده يزداد . وهكذا أصبح المال عند أبيه غاية لا وسيلة فكان عنده ما يستطيع أن يجني به في خفض من العيش وفي بحبوحة وورغد . وكان عنده ما لو تركه لولده لأصبح من الأغنياء الذين تذكر أسماءهم اذا ذكر الغنى . ولكن لم يكن هدف شاكراً أن يصيب المال ليأمن الفقر ولا أن يصيب المال ليهيئ لابنه أماناً من الحياة . لقد أصبح جمع المال في ذاته هو الغاية والهدف . وحين يصبح الأمر كذلك يصبح من الطبيعي أن يندفع شاكراً متتبعاً أيام عمره في تحقيق هذا الهدف وهو لا يدري ما يدريه كل الناس أن هذا هدف لا يمكن أن يتحقق فإنه لا نهاية للأرقام .

ومثلما تستطيع هذه الأرقام أن ترسل الأمن والنشوة الطاغية المتفجرة إلى النفوس تستطيع أن ترسل الألم المرير واليأس القاتل وتستطيع أن تصبح ركاباً من الثلوج بلا دفة ولا رحمة . فالأرقام التي لا تعرف النهاية لا تعرف الرحمة أيضاً .

وحيث مات الأب كانت ثروته كلها قد استنزفت في محاولة انشاء ثروة أضخم وبقي لزوجته بعض مال يشكّل فقراً أكثر مما يشكّل سترًا وبقي لها أيضاً بهجت في أول حياته فمستقبله جميعاً عبء على أكتافها وعلى أكتاف هذه الصبابة الضئيلة التي بقيت لها من أموال زوجها .

وكانت تفيدة تعلم أنه لا أمل لها في أن تنال شيئاً من عون خيري عم بهجت وأخي زوجها . فقد كان الأخوان متنافرين وربما كان سعار شاكراً في جمع المال يرجع إلى غنى أخيه الفاحش . فقد كان تاجراً يحسن العمل في تجارته ولم يكن يتجاوز مجال نجاحه هذا إلى أي مجال آخر .

فقد كان يتاجر في الفاكهة والموز بوجه خاص وقد اشترى من تجارته أرضاً زراعية واسعة ولم يزرع فيها إلا الموز فهو في زراعته وتجارته خبير قل أن يلحق به لاحق . وقد حاول شاكراً أن يشاركه ولكنه أبى عليه هذا مدعياً أنه تعود أن يكون منفرداً بتجارته ويرأيه فيها ويخشى إذا شارك أحداً حتى ولو كان أخاه أن يتعثر به الرأي . ولم يكن هذا الطلب من شاكراً وهذا الرفض من خيري هو أول الخلاف ولا كان آخره وإنما هو خلاف نشب بينهما منذ الطفولة ونما معها واشتد مع الزمان وكأنه كائن حتى تزيده الأيام قوة وصلابة وكانت تفيدة على ثقة من أن شاكراً لو كان قدر له أن يعيش حتى يبلغ الشيخوخة لما استطاع وهن الشيخوخة أن ينال من عنف الخلاف بين الأخوين فهو خلاف من ذلك النوع الذي تغذيه الأيام وتزيده مرارة وشراً وقامة .

أدركت تفيدة منذ بدأت تفكر بعد موت زوجها وهو مفلس أن ليس لها إلا هذا المال القليل الذى خلفه لها ولا بنها . وحين زارها خيرى لينبئها أنه تحت أمرها لم يحاول أن تطلب منه شيئا فهمى تعرف أن الأخ الذى يريد أن يقدم عوناً لا يعرض قولاً وإنما عملاً وما دام لم يفعل فالأمر إذن كما توقعته .

واجهت الأيام ونشأ بهجت فى هذه الضائقة وكان يعرف ماتعانيه أمه وما كان له إلا يعرفه . وكيف وهو لا يسمع من أمه إلا عن هذا العناء . ولعله فى نفسه البعيدة كان يرد نفسه عما تشتهي حتى لا يزيد عبء أمه أعباء .

وحيث إنها سمحت له بالذهاب إلى المسرح إلا أنه لم يكن يقول لأمه إنه فى أغلب الأيام التى يذهب فيها إلى المسرح كان يشاهد روايات سبق له أن شاهدها مرات ومرات وكان فى أول هوايته يعجب من نفسه ومن جنونه هذا الذى يجعله يذهب ليرى شيئا شاهده وعرف كل أسرارها بل إنه فى بعض الروايات كان يسبق الممثلين بجمل الحوار وراح يمعن النظر فى شأن نفسه فتخادعه نفسه عن نفسه ولا يدري سر هوايته . ولكن سرعان ما تكشفت له الحقيقة . إنه يجب التمثيل أكثر مما يجب المسرح . انه يتمنى أن يكون ممثلاً . ولا شك فى هذا كانت نفسه تطوى عنه هذه الحقيقة ولم تكن تعترف بها حتى حين يعود من المسرح ويقف أمام المرأة ليمثل الأدوار حتى أدوار النساء والخدم .

أمل لا سبيل إلى تحقيقه . فهذه مهنة قد يعترف بها مثقف ولكن هيهات أن تقبلها أمه له لقاء ما عانت من حرمان وشظف عيش .

انها ستقول أهدأ جزائى . وفكر أن يحاول . وخاف واستجمع بعض شجاعته ثم لم يستطع . كان امتحان الثانوية العامة قد اقترب وكان قد اختار القسم الأدبى لأنه كان يعرف أنه أقوى فى المواد النظرية . وكانت أمه دائماً تقول إنها تحب أن تراه وكيل نيابة وقاضياً فلم تكن تسأله عن الكلية التى يريد الالتحاق بها مفترضة أنها الحقوق فما تعود أن يخلد لها رغبة فكيف به إذا كانت أمنية .

للأمومة عند تفيدة لحظات تفيض فيها وتنسى أن ابنها أصبح شاباً وتحب أن تحتوى هذا الابن وتجلسه على ركبتيها وتمزقه بها وكأنه مازال ذلك الطفل الوليد وكانت تفيدة فى كثير من الأحيان تحب أن تزيل عن ولدها ما كانت ترسبه فى نفسه من مشاعر فقر وحاجة . تربت ظهوره وتقبله وتنظر إليه ويسمع من عينها أن هذه النظرة حبها من الدنيا وأنها تمجد فيها أعظم مكافأة على ما بذلت من سنوات عمر شداد .

فى مرة من هذه المرات ظن بهجت أن الأمومة تستطيع أن تقبل منه أى شيء حتى رغبته فى أن يكون ممثلاً .

— هل أعجبك الفيلم الذى شاهدناه ؟

— متى ؟

— الشهر الفائت .

— ولماذا تذكرته ؟

— فقط أسأل .

— لقد قلت لك إنه أعجبني ساعتها .

— ألم يعجبك الممثل ؟

— وكيف لا يعجبني إنه أحسن ممثل فى مصر وربما فى الشرق الأوسط .

— أريد أن أكون مثله .

— لقد كان يمثل دور طبيب وأنت أدي .

— أريد أن أكون ممثلاً .

لو كان قد أخرج مسدساً ووضع فوهته أمام عينيهما ما أصابها هذا الذى طفع على وجهها .
أخذت . صمت . انفتحت عيناهما حتى أوشكتا أن تنفجرا إنيهما بركانان صغيران بل كبيران
هاتان العينان . . وجهها صفرة ، جبهتها غصون ، الابتسامة صارت ياساً ، الحنان أصبح
هلعاً ، نور الصباح انقلب فى سميتها ظلاماً قائماً . . لحظات ، وطفرت دموع أمسكت بها لن
تسيل فيترد البكاء إلى صوتها لتقول ، فينحبس القول وتبتلعه فيستعصى ويهجت يتمنى لو لم يكن
قال ما قال ويهم بأن يدعى شيئاً يزيل هذا الهول الذى ألم بها فتردعه نفسه . لقد قال فليتنظر إلى
أى مدى تصل به تجربته . واستجمعت الأم نفسها آخر الأمر وصرخت فى صوت مكبوت
لاترتفع نبراته وإن كان الصباح منه يطرق أبواب السماء .

— لو عرفت الأيام التى عشتها أو التى منها من أجلك . الذعر من الغد واليأس بمسك به
بعض الأمل فأننا بينهما خرقه ممزقة منهترقة لاترتاح إلى اليأس فتسقط وتنتهى ولا تتعلق من الأمل
بأسباب تنبئ لها أسباب البقاء حياى خوف راجف بعض منه يزلزل الجبال والحياة حولي متاهة
كبيرة لا أجد أحداً أسأله الطريق بل لا أجد أحداً أشكوه التيه . أخاف عليك الشتاء يأتى فلا
أكسوك وأخاف عليك أن يجرحك زميل بامتهان . طفولتك شيخوختى وأنا فى ربيع الشباب
وشبابك أعبائى وأنا فى خريف من الكهولة .

أكل الذى بذلت . لتكون ممثلاً ! . آمالى ونفسى وطمانيتى من أجل .

— كفى . . كفى . . وهل أصبحت ممثلاً فعلاً ؟

— يكفى أن تريد .

— كلمة جرها حديث .

— بل أنت الذى خلقت الحديث .

— ربما أردت أن أمتزح .

— ليس في القتل مزاح .

طوى أمله في ذلك المكان من نفسه الذي تعود فيه أن يكبح رغباته . ولو أن هذا الأمل كان جامعاً لا يتيح له أن يبدأ أو يراح إلى يأس .

دخل كلية الحقوق وسار حياته كما تعود أن يسيرها واطمأنت أمه فلم تصبح تخشى عليه أن يذهب إلى المسرح في كل أسبوع كما تعود . وانتهت السنوات حتى صار إلى السنة النهائية ثم حدث حادث .

كان عمه يزور مزرعته ومعه زوجته وابنه الوحيد عاصم وكان لا يد للعلم أن يعود إلى القاهرة في المساء وكانت السماء تمطر ذلك المطر المصرى الهين الذى يجعل الطريق صعباً زلقاً والذى يجعل السيارات معرضة لخطورة بالغة . ولولا أن خيرى كان واثقاً من مهارة سائقه لالتحق في السفر وسيلة أخرى غير السيارة ولكن كيف إذن تنقلب حياة بهجت . . انقلبت سيارة خيرى في النيل ومات الأربعة جميعاً وفجأة أصبح بهجت الوارث الوحيد لعمه .

لو لم يكن في نهاية الطريق في كلية الحقوق لكان فكر أن يكتفى ولكن لم ير بأساً من أن يكمل دراسته . وانتهاز الفرصة من هذه الأشهر التي كانت تفصل بين الثروة المفاجئة التي هبطت عليه وبين الامتحان ليعد الحطة التي يريد أن يختطها . في أناة وروية أعد خطته وبغير أى تسرع ونجح بهجت في الامتحان .

— هل تصرين أن أكون وكيل نيابة ؟

— هذا شيء أحبه لك ولكن أنت في ذلك حر ، فما دمت قد نلت الليسانس فانت .

— اذن فاسمعى ما أقوله لك جيداً ولا تغضبى .

— قل .

— المال الذى تركه لى عمى .

— ماله ؟

— أولاً أنا سأصطفى التجارة .

— ولماذا ؟

— أتريدين أن أصبح مثل أبى ؟

— وكيف ؟

— لو تاجرت فسأصبح مثله كما تعرفين لا أدرى من شأن الموز شيئاً إلا أنه فاكهة يأكلها الناس بعد أن يقشروها وتقول الأمهات لأولادهن لا ترموا القشر في الطريق حتى لا يتسبب في وقوع الناس .

- وإلى هنا وتنتهى معلوماتى عن الموز .
- هذا عن التجارة . فماذا عن الزراعة ؟
- ان عرفت عن الموز جملة ، فأنا لا أعرف فى الزراعة حرفا .
- فستبيع الأرض اذن ؟
- لا وصلت إلى طريق .
- ما هو ؟؟
- سأؤجر الأرض إلى خبراء وقد سألت فعرفت القيمة المناسبة ولن أكون مظلوما فى الإيجار
- تفكير لا بأس به .
- وعلى هذا فرأس المال سيبقى ولن يمس أحد حتى ولو انتحرت . فلا شك أننى سأتزوج
- ولا أحب لزوجتى أن تعاني ما عانيت أنت معى
- عين العقل .
- وأيضا سأعتبر ما أحصل عليه من تصفية التجارة من ضمن رأس المال وسأشتري به
- أسهما باسمك حتى لا أسهها .
- أنا لا أريد شيئا .
- أنا الذى يريد أن يكبل نفسه .
- وهو كذلك .
- المال السائل بعد ذلك أنا حر فيه .
- وماذا ستفعل ؟
- هذا شأنى .
- ألا تقول لى ؟
- ستعرفين .
- وعرفت . كانت آمال المتعة مازالت تداعب نفسه ولكن الأمل فى أن يكون ممثلا كان أكبر ، ليس من السهل أن ينشئ مسرحا ، فهو يعلم أن أحد لم يسمع به . وأن أحدا لن يرى مسرحه . وستكون التجربة غير مقنعة بالنسبة إليه .
- فهو يريد أن يعرف رأى الناس ولن يأتى هؤلاء الناس للمسرح أبدا مادام هو منشئ ، كان قد أعد الخطة .
- سيعتمد فى أول الأمر على مشاهير الممثلين . وسيمثل الى جانبهم الروايات العالمية إنه يريد أن يمثل عطيل ويسأل ديدمونة عن المنديل .
- وفيدرا ..
- وأوديب الملك . ويخرج عينيه ويصبح أعمى .

وصلاح الدين ويحارب ..
وأنطونيو وكليوباترا ويحب ويخون بلاده ثم يموت في سبيلها.
أهل الكهف لتوفيق الحكيم.
وكل الأدوار .

يريد أن يكون ممثلا كوميديا أيضا فيجمع إلى بطولة للأساة بطولة الإضحاك وهو يعلم أن
موهبة بقدر ما يريد .

أنشأ المسرح

ويبدأ التمثيل وكان لابد من البروفات وكان المخرج أمينا . ولكنه وجد نفسه وجها لوجه
أمام رجل صاحب مال ولكنه يقف لأول مرة على المسرح فانتحي به جانبا .

- أستطيع أن أقول لك انك أعظم ممثل في العالم

- غير معقول

- أنت صاحب المال والمفروض أن صاحب المال هو أعظم كل شيء في العالم .

- ولكنك أمين

- ليس فقط لأنني أمين ولكن أيضا أعلم أن كلني سينكشف منذ اللحظة الأولى التي

سيرفع فيها الستار عنك .

- وماذا ترى ؟

- ماذا ترى أنت ؟

- أمرك

- أمرى أن تزجل افتتاح المسرح عاما كاملا ؟

- عاما كاملا ؟

- أعلمك فيه التمثيل .

- وهل عندي موهبة ؟

- أكذب أيضا لو قلت إنني أعرف .. فكثيرا ما انتظرنا أن يصبح تلميذ من تلاميذنا

أحسن ممثل في العالم ثم لا يقبله الجمهور والعكس صحيح نجح من كنا نتوقع لهم الفشل
الذريع .

- ولكني أعبد المسرح .

- المسرح لا يتم كثيرا بمن يعبدونه أو لا يعبدونه .

- وكيف أعرف ؟

- أستطيع بعد فترة من تمرينك أن أخبرك ولكن الحكم ليس لي .

- للجمهور .

— انه لايهمه أن تكون صاحب مال أو لا تكون ولا يهمه أن تكون صاحب موهبة أو لا تكون هو يقبلك وهو لا يقبلك دون سبب وهو لا يحتاج أن يبدى أسبابا .

— والنقاد ؟

— لا شأن للجمهور بالنقاد فقد يصفقون ويشقون حناجرهم بالهتاف للرواية أو للمسرحية أو للمؤلف أو للممثل ولا يقبل الجمهور وقد يكيلون الصفعات ويقبل الجمهور .

— اذن

— الأمر لك

— ليكن ماتريد

وبدا العام واستطاع صحفي ذكى أن يتعرف على بهجت واستطاع أن يجعل من لمجربته هذه مادة صحفية فيها طرافة وفيها جد وفيها أيضا شهرة سبقت بهجت إلى المسرح وأقبل عليه مصورو الصحف يلتقطون صورته وهو يتعلم التمثيل ويجرون معه الأحاديث فيخبرهم عن الكتب التي يقرأها في هذا الفن واستطاع المخرج فعلا أن يجمع له برنامج المعهد العالي كله في عام واحد ، أما الامتحان فهو لم يكن في حاجة إليه . وكانت المجلات والصحف تضع عناوين مثيرة للتجربة . المحامي يترك ساحة القضاء إلى خشبة المسرح . بهجت شاكر لا يستعجل الشهرة وإنما يعد نفسه للفن الصحيح . والمجال واسع والصحفيون في إنشاء العناوين لأمثل لهم .

وانقضى العام وكان بهجت ذكيا فلا يقبل أن يكون هو بطل الرواية وإنما قدم أحد عمالقة المسرح ونخبة متألقة من نجومه ليقف في ظله وظلها .

ونزلت الإعلانات في بذخ الأسماء الكبيرة أحمد فؤاد وسهام سامى وبالحظ الكبير الضخم وتحتها في تواضع ، بهجت شاكر .

أحمد فؤاد ، ممثل أصبحت شهرته تملأ العالم العربى أجمع ، واستطاع من خشبة المسرح أن يكون نجما سينمائيا شهيرا .

وسهام سامى فتاة في ريعان العمر ، متألقة الجمال قفزت هى الأخرى إلى السينما وأصبح تمثيلها على المسرح حدثا فنيا من شأنه أن يحقق النجاح .

وكانت الليلة الأولى .

ويرى الجمهور لأول مرة في حياته ويراها الجمهور .

كانت الليلة ناجحة نجاحا باهرا . فالمدعوون يملأون المسرح وليس الجمهور ، والمدعو فرح دائما لأنه تفلت إلى المسرح مجانا فهو كثير التصفيق . ولم يدر المصفقون ماذا صنعوه

بتصفيةهم هذا لبهجت . لقد جن به الجنون وراح يجوب الطرقات ماشيا تاركا سيارته أمام المسرح لقد حقق الأمل الأكبر في حياته ولقد أصبح ممثلا .

وفي الليلة التالية عرف المخرج وعرف الممثلان الكبيران أن المسرحية فشلت ولم يدرك بهجت هذه الحقيقة إلا في اليوم الخامس حين تقلص المدعوون وأصبحت الصالة لا تحوى الا المشترين ، لم يفكر في خسارته المادية ولكنه أحس أن أمله بعيد وأنه مازال بينه وبين هذا الأمل مدى بعيد . كان هذا أمله الوحيد بعد سوسن وقد ضاع أيضا .

أدرك هذه الحقيقة على رغم مقالات النقاد التي أمطرته بوابل من المديح والتمجيد .

كان قبل تجربته يظن أن أقلام النقاد هي رأى الجماهير ثم روعته الصالة الخاوية التي تمثلت له هوة من الفراغ واليأس وأدرك أن النقاد جمهور مستقل بذاته لاصلة بينه وبين الجمهور الذي يصنع النجوم ، ان هذا الجمهور يحكم بلا حيثيات ويصدر حكمه في قسوة واضحة بلا رحمة وبلا محاولة للتلطف في التعبير أو ابداء الرأى ، انه ببساطة لا يشتري التذكرة وبهذا التوقف عن الشراء يصدر الحكم .

حاول الصحفي ذكرى لطيف :

- ليست التجربة الأولى هي كل شيء
- بل هي كل شيء اذا لم أعرف الميعب حتى أصبحته
- الرواية أرفع من مستوى الجمهور
- ان عدم اقبال الجمهور لا يعطينا الحق أن نشتمه . لقد أقبل على روايات أعلى مستوى مما قدمت .

- مسألة حظ

- حجة عاجز . لماذا يخدم الحظ غيرى ولا يخدمنى ، وقد هيات له كل الفرص ليمشى في ركابي ؟

- الحظ لا يسأله أحد

- ألا تجرب مرة ثانية ؟

- أو أدرى فيم أخطأت في الأولى . ؟ ولم يجد ذكرى شيئا بقوله ورن جرس التليفون في

بيت بهجت

- آلو . . من ؟

- أنا سهام

- سهام سامى ؟

- هل تعرف غيرها ؟

- أهلا

- ماذا تفعل الليلة ؟
- أمثل
- اقصد بعد التمثيل
- أنام
- بل لانتهم
- نعيم ؟
- أريدك أن تتعشى عندي
- أمرك
- وسألته أمه عما تريده منه سهام فأخبرها
- ما المناسبة ؟
- لا أدري .. يبدو أنها تريدني في شيء هام
- وماذا بينك وبينها ؟
- زملاء
- هل أصبحت مثلها ؟
- على كل حال هي تعمل عندي الآن
- ليست هذه لغة فنون ولكنها لغة صاحب مال
- يبدو أن هذه هي الحقيقة
- فلماذا لا تقتنع بها ؟
- حين أتأكد سأقتنع
- أتريد أن تتأكد ؟
- لقد علمني الفقر كثيرا
- مثل ماذا ؟
- مثل أن أواجه الحقيقة مهما تكن مرة
- فواجهها
- حين أراها بمعنى سأواجهها
- ألم ترها ؟
- ليس بعد
- سأتركك حتى تراها

- لو كنت رحبت بفكرة أن أكون ممثلا يوم عرضتها عليك أيام الفقر لآخذت رأيك اليوم
بلا أي تفكير ولكنك لو رأيت نفسك يومذاك وإلى أي حد ذهرت لعلمت أنني على حق حين
أرفض رأيك أو على الأقل أتحفظ في الأخذ به .

— أرجو أن أكون غخطة وتكون محقا . . وفي العشاء وجد بهجت نفسه مع سهام سامى وأحمد فؤاد ووجد معهم ثالثا يعرفه بالشهرة ولم يكن قد التقى به قبل ذلك . إنه سالم خليل المخرج السينمائى .

قال أحمد :

- عدم نجاح تجربة المسرح يجعلنا نبحث عن الطريق السليم وما هو ؟
- مارأيك فى الانتاج السينمائى ؟
- لا خبرة لى فيه
- ولم تكن لك خبرة بالمسرح
- لقد أخذت أحسن العناصر التى تعمل فى المسرح
- وستختار أحسن العناصر التى تعمل فى السينما
- لم أنجح فى التجربة الأولى
- وقد تنجح فى التجربة الجديدة
- هل عندك قصة ؟
- سالم خليل هو الذى اختارها
- هى قصة لكاتب معروف لم يسقط له عمل قبل اليوم
- هل أنت واثق منها ؟
- أستاذ بهجت إن لى اسما لا بد أن أحافظ عليه
- هل معك القصة ؟
- معى
- أقرأها
- اذا شئت فأنت رجل مثقف وتستطيع أن تحكم
- لم أستطع أن أصل فى المرة السابقة
- كم من فشل أعقبه نجاح
- أستاذ سالم أتعرف لماذا قدمت هذه المسرحية ؟
- حبا للفن
- أنا أريد أن أمثل . لا أريد مالا فعندى ما يكفينى ولكننى أريد أن أمثل
- وهذا وحده سبب معقول
- وأحب المسرح
- لعلمك اذا نجحت فى السينما تستطيع أن تنتقل الى المسرح
- آخذ الطريق من آخره

- المهم أن تصل
- أجرب .. ولكن هل رأيت المسرحية ؟
- نعم .. نعم
- لماذا فشلت ؟
- لا أدري .. كثيرا ما تكون الأعمال جيدة ولا تنجح
- لاشك فيها
- وأنت يا استاذ أحمد ؟
- فعلا
- وأنت يا سهام ؟
- ألم تلاحظ أننى لم أتكلم من أول الليلة ؟
- لاحظت
- فاسمح لى اذن أن أكمل الليلة بالأحلام
- الا تخبرينى على الأقل برأيك فى موهبتى ؟
- لو قلت رأى لقلت كل شيء .. إن لى معك كلاما آخر
- أمرك
- متى ستقرأ الرواية ؟
- سأصل بك فى مدى يومين
- أحمد يعرف كيف يحىء بى .. فهو يمثل معى الآن .. حين تنتهى من القراءة قل له وأنا
- تحت أمرك
- وهو كذلك

ليس يدري لماذا فكر وهو فى السيارة فى قصة حبه الكبيرة . انها تلح عليه . منذ اللحظة الأولى التى عرف فيها سوسن . منذ هما يتقدمان معا للجامعة وهى بجملها الهادىء القوى تقف عاجزة لا تدري ماذا تفعل وكأنما توسمت أن تجد عنده عونا . وقام عنها بالإجراءات . لقد كانت فى طريقها إلى كلية الحقوق مثله وتعارفا وأحبها حبا عنيفا جارفا حتى لقد قرر فجأة :

- لا بد أن أتركك
- المفروض ألا أسألك لماذا . فتركك لى امتهان وسؤالى إمعان فى هذا الامتحان ولهذا فأنا أسألك لماذا ؟
- لأننى أكبرك وأحبك وأحبك
- تخاف من المستقبل
- فقر وضياح وذل وهوان . وأنظر إليك فأجد أنك ليس لهذا خلقت

— أنت في السنة الثانية من كلية الحقوق . ومن يدري ماذا سيحدث حتى نتخرج بعد
سنتين

— أما ما سيحدث لي فلاشك فيه . وأما ما يحدث لك فإن أمره اذن سيكون بلا شك خيرا
من حياتك اذا ما ارتبطت بي

— ومن يدريك ؟

— طبائع الأشياء

— ألا يكفي أن تحبني وأن .. أحبك ؟

— يكفي لو كنا سنؤلف قصة لايتنا

— وماذا تريد مني ؟

— اذا جاءك خاطب فلا ترفض

— هذا أمر ؟

— هذا انتحار

— ومن أنباك أني أقبل لك هذا ؟

— لا بد أن تقبله . أرجوك

— وتلح أيضا

— سعادتك عندي تستحق هذا الالحاح

— كلام عجيب لم أسمع مثله من قبل

— لأنك عرفت الحب من كتاب سخفاء يكتبون القصص ولا يكتبون الحياة

— لهذا السخف تحب أن تعيش ؟

— ولكن الحياة لا تحب أن تعيش به

— لو لم أكن أدرى مقدار حبي لك الذي يجعلني أثق بمقدار حبك لي لظننت أنك تريد أن

تخلص مني

— سوسن الحياة التي تنتظرون شاقة والعبء فيها ثقل إذا تزوجتك

— سأعمل ولن أكون عبئا عليك

— أنك تستحقين خيرا من هذا

— لماذا تفضحين أنت ولا أنضحى انا ؟

— ولو كنت أستطيع الزواج بعد تخرجي لضحيئا معا ولكن لا أستطيع

— وفيهم العجلة ؟

— ستكون حياتي جحيمًا وأنا أعرف أنك تنتظرين موعدًا لا أدرى متى إنجازه

— لقد جاءني الخاطب

— ورفضته

- أنا رفضته
- ولكن أباك لم يبلغه الرفض
- لم يبلغه فهو معجب به
- أغنى هو؟
- وهل ينظر أبى إلى غير هذا؟
- أقبليه
- هل أنت واثق؟

ولم يجب وإنما سارع يتعد غفيا دمعاته . كانت قد تعودت أن تعنف به ويقبل عنفها امتنع عن الصخب مع الرفاق وامتنع عن ملذات الشباب وامتنع عن متع كثيرة يعلم أن فقره لا يتيحها له . ولكن ما فرضه على نفسه مع سوسن كان أبعد الجراح غورا وحين جاءت ثروة عمه كانت سوسن قد أنجبت طفلها الأول .

وحين التقى بها في الكلية بعد أن سمعت بغناه المفاجيء نظرت اليه نظرة طويلة ، ولم يجد شيئا يقوله أو يعمله الا أن يغمغم

- لم اكن أدري
- وابتسمت في مرارة
- لقد أصدرت حكمك على المستقبل دون أن تقرأ صحيفة الدعوى
- لاتزيدى آلامى
- انها بعض آلامى
- أسمعده أنت؟
- تريد أن تطمئن على تضحيتك
- أريد أن أطمئن عليك
- لاتطمئن
- اتركه
- وماذا أقول لابنى حين يصبح في مثل عمرنا؟
- ألا سبيل؟
- الأحكام التى تصدرها الحياة لايجوز إعادة النظر فيها لسابقة الفصل في الدعوى
- بلا استئناف؟
- فات مواعده
- لاتطعن

— انت لم تخطيء في تطبيق القانون ولكنك أعطت لي وجهة النظر لانقض مادام القانون قد طبق .

— تسدين على المسالك
— أنا فقط أبقي عليها مسدودة كما أردتها
— أهذا ما كنت أريد ؟
— أحببت أن ترى نفسك بطلا .. الفرح لقد أصبحت
— أحببت أن تعيش في سعادة
— هيهات أعرف أنت أين سعادتك أو أين سعادتي
— خيل إلى .. ظننت
— الأحكام في الحياة لا تبني على ظنون
— ألا ترجين ؟
— إلى راحة لأن أعرف دوافعك
— لعلها تغفر لي عندك
— لقد غفرت لك عندي منذ دمعائك التي أغطينها ، وانصرف عنها إلى الأبد وهو ينجس دموعه عنها مرة أخرى .

ما الذي جعله يذكر هذا ؟ لا يدري إلى نفسه حب جديد .. ربما « حين ذهب إلى البيت أمسك بالرواية ونظر إليها بضع دقائق .. قلب صفحاتها . كانت المرة الأولى التي يقرأ فيها سيناريو كان الوقت متأخرا فالتقى بها إلى جانبه وانصرف يمس نفسه إلى النوم » .

في الصباح كان أول شيء سمعه دعوى تليفونية من سهام سامي

— هل قرأت الرواية ؟
— لم أبدا بعد
— هل يمكن أن أقول لك بأنها ؟
— واضح أنك دعوتني من أجل هذا
— أنت رجل مستقيم
— أرجو أن أكون كذلك
— ولكن الحب الرأي المستقيم ؟
— كنت أرجو أن تكون عرفتني أكثر من هذا
— إذن اسمع
— أنا اسمع
— حرام أن تضيع مالك ووقتك

— هوية . أنا أهد التمثيل
— اعبد كما تشاء ولكنك بلا موهبة
— هكذا مرة واحدة

— اسمع أنا لست أستاذة في المعهد ولا تسمح لي متى أن أكون خبيرة ولكن لي حاسة وقد
تدربت هذه الحاسة فأصبح لها حكم في هذا الوحش الذي يسمى التمثيل ولي أيضا أصدقاء
قالوا لي ما لا يستطيع أحد أن يقوله لك أو ما يجب الكثيرون أن يخفوه عنك لمصالحهم الخاصة
ابتعد عن هذا الوحش إنه فتاك يمتص فريسته ويخدعها ويسلط عليها غزورها حتى تصبح نفاية
بشرية .

— الحكم غاية في القسوة
— بعد سنوات قلائل ستدرك أنه غاية في الرحمة
— ولماذا تقولين لي هذا ؟
— لو كان غيرك ما قلت له شيئا . فهذا الفن يجعل بعض العاملين فيه يتحاسدون ولو كنت
أعلم أنك من هذا الصنف لمنعت نفسي أن أمارحك خشية أن تظن أنني أخشى على مستقبل
منك .

— ما هذا الكلام الفارغ . . أنت في جلدك هذا تخشين ناشئا ؟
— قل أن يدرك ناشيء أنه ناشيء وهو يبحث دائما عن سبب مثل هذه النصيحة غير أن
تكون خالصة فليطمئن نفسه أن المثلة التي بلغت من شهرة تخاف على نفسها منه ولهذا تنصحه
أن يتخلى عن التمثيل .
— وإذا تخلصت منه أليس من الطبيعي أن يأتي آخر يكون صاحب موهبة حقا ؟
— الفاشلون يعمون عن كل الحقائق فلا يدركون مثلا أن لكل نجم في التمثيل فترة . وأن
النجم لا بد له من نجوم حتى يؤكدوا وجوده . . وكل هذا يغيب عن تفكيرهم ليؤكدوا لأنفسهم
أنهم أصحاب مواهب .

— وما رأيك في الإنتاج السينمائي ؟
— مريع جدا لمن يفهمه وخراب للهواة أمثالك
— ولكنك مع ذلك لم تجيبي على سؤالى
— لقد نسيت

— لماذا تقولين هذا لي ؟
— أخشى على نفسي منك
— هذه فهمناها وماذا أيضا
— أخشى عليك من نفسك

— هل تقدمين نصيحتك لآى أنسان تخشين عليه من نفسه

— لا شأن لك بهذا

انهم يحتفلون اليوم بعيد ميلاده الستين . تحتفل به ابنته اخلاص وابنه فتوح ويحتفل أيضا به زوج ابنته سعيد مجدى المحامى . ويحتفل أيضا أبناء ابنته الهام ويهجت . والجميع يلتقون حول الممثلة السابقة والجلدة الحالية سهام سامى .

سنوات مرت وسنوات وقطع من العمر طريقا طويلا ومن النجاح طريقا أطول فلم يكن أمامه أن يعود إلى المحاماة وكان قد تعود الجلد الذى أرغم عليه فى أول حياته فنجح نجاحا ساحقا .

وأصبحت شهرته تشمل العالم العربى أجمع بل إنه تولى قضايا دولية خارج العالم العربى .

ولكن العجيب أنه مع كل هذا النجاح بقى له شىء هام من هوايته القديمة فهو يمثل فى كل تصرف عمله . يمثل فى المحكمة . . يمثل مع أبنائه . . يمثل مع أحفاده والغريب ، الغريب أنه يمثل مع الممثلة الشهيرة زوجته وكانوا جميعا يضحكون فيما بينهم على طريقة تمثيله ويزدادون له حبا من أجلها . لم تمر به هوايته عبثا .

لقد بقى منها شىء . . بقى منها شىء كثير .

وإن كنت تعبت

- لا أرى أى فائدة فى التجديف
- ومع ذلك لابد أن تجدف .
- الأمواج تتصرف بالقارب غير عابئة بهذا التجديف
- ومع ذلك لابد أن أجدف
- لماذا ؟
- هذا عمل
- وإن كان بلا فائدة ؟
- ليس هناك عمل بلا فائدة
- أتراك توجه القارب بتجديفك هذا ؟
- أنا لا أدري ولكن لابد أن أجدف
- فإذا كنا نحت رحمة الأمواج ؟
- ولكن لا يستوى من يجدف ومن لا يجدف
- كيف عرفت ؟
- انظري حولك الجميع يجدفون
- أتري الجميع ؟
- أرى من حولى
- ربما كان هناك آخرون لا يجدفون
- أولئك لا شك قد توقفوا فى الطريق
- أنت تستتيع ؟
- بل أنا أعرف

- كيف عرفت ؟
- وعرفت معي
- تقصد هذا الذى يقوله لنا الآخرون ؟
- نعم
- أتصدقه ؟
- ولماذا أكذبه ؟
- أنا لا أصدق شيئا لا أراه
- ومع ذلك فأنت تعرفين أن ابنك يهدف هو الآخر مع زوجته . وأنت وابنتك فى قارب زوجها الذى يهدف هو بها ويطفئه .
- ما شأن هذا بما قلت ؟
- أنت لا تريهم دائما ومع ذلك تعرفين أنهم موجودون
- موجودن طبعاً
- أن تصدقى ما تريد أن تصدقيه وترفضى ما لا تحبين
- ربما كان تمجديهم عبثاً هم أيضاً
- وليكن ولكن لا بد أن نجدف
- ربما إذا توقفت عن التجديف بعض الشيء يتوائب السمك إلى قاربنا
- بل السمك لا يشب إنما ينبغي أن نقتنصه بالشباك
- وأنت تعلمين ذلك
- ومع ذلك فهو يشب أحيانا
- الاستثناء ليس القاعدة
- ألا تذكر السمكتين اللتين وثبنا معاً إلى قاربنا دون جهد ؟
- مرة
- ولكن السمك يشب إلى قوارب أخرى أفواجا
- ومع ذلك فأصحاب هذه القوارب يصيدون بالشبك هم أيضاً
- هواة متاعب
- يفعلون ما يجب أن يفعلوا
- لو كنت مكانها لاكتفيت بالسمك الذى يشب إلى القارب
- من يدري ربما إذا توقفوا عن الصيد توقف السمك عن الوثوب إليهم
- فليجربوا
- ليس لدينا وقت للتجارب
- من تقصد ؟

- نحن جميعا .. جميع الذين يجدفون يجربون أن يتوقفوا
- ما الذى يخيفهم ؟
- الذى يخيفنا
- وما الذى يخيفنا ؟
- الذى يخيفهم
- وما آخره هذا التجديف ؟
- أظن أننا سيأتى علينا وقت ونستريح
- من أين عرفت ؟
- لا شيء يظل كما هو
- طبعاً
- كانتا ضعيفتين أول الأمر ثم أخذتا تشتدان شيئا فشيئا ثم أخذتا تضعفان شيئا فشيئا .
- فكف عن التجديف اذن .
- سيأتى وقت أكف فيه على رغم أنفى لا تستعجل .
- لقد جئت الى قاربك وذراعاك قويتان .
- أعرف ذلك
- لم تشكى الى ضعفها الا الآن
- ومع ذلك فقد عرفت أنها ضعفتا
- نعم
- ولم تقولين ؟
- كنت أيضا أحس بالضعف
- أعرف ذلك
- ولم تقل ؟
- الأشياء البديهية لا داعى للذكرها
- ولكننا مع ذلك نقولها
- إن تمهينا البديهيات فى كلامنا فإزاد كلامنا عن جملة كل سنة .
- أخاف على ابنتى
- لماذا ؟
- إنها تمهد مع زوجها
- وأى غريبة فى ذلك ؟
- لم نعوذها على ذلك
- كنا خطئين

- أعشى أن تعب
- ولماذا لا تخافين على زوجة ابنك ؟
- إن من واجبها أن تحذف مع زوجها
- اليس هو نفس الواجب بالنسبة لابنتك ؟
- صحتها ضعيفة
- أرى صحتها أحسن من صحة زوجة ابنك
- أياها لم تكن تحذف
- الأيام تتغير .. أين نحن وأين هم ؟
- نعم .. بيننا مسافة بعيدة
- والمسافة بيننا وبين آبائنا أبعد
- بل يجيل الى أننا نقرب منهم
- ليس الى الحد الذي تصوره
- الى أين نحن ذاهبان ؟
- الى أبى وأبيك وأمى وأمك
- منذ زمن بعيد لم نرهما
- كلما اقترنا إليهما زاد شوقنا لرؤيتهما
- تعبت
- فتوقف
- لا أستطيع
- ألا ترى الموج يسير بنا حتى وإن لم تحذف .
- لابد أن أساعده
- يجيل إليك أنك تساعده
- بل يعرف أنى أساعده .. على الأقل حين أجذف أحسن أنى أقدم .
- وهم
- بل الوهم أن أتوقف وأترك للموج كل شيء .
- إن كل شيء فى يده
- ولكنه مع ذلك يريد أن أجذف
- أقال لك هذا ؟
- كثيرا
- أبيتك وبينه حديث ؟
- لا تسمعه

- حسبت أنني وحدي التي أكلمه
- وإنما نظن أننا ننفرد بأشياء .. غرور
- لا بد منه
- لماذا ؟
- لتتحمل الرحلة الطويلة
- ألا تحتمل الا بالغرور ؟
- وبأشياء أخرى
- مثل ماذا ؟
- مثل التجديف
- وماذا ؟
- وهذا الكلام الفارغ
- ولا أدري .. ربما أيضا بشعورنا أننا لابد أن نحتمل
- وإن لم ؟
- لا يهم .. سواء عند الموج أن نحتمل أو لا نحتمل فالرحلة ستم
- أعلم .. أتذكر متى بدأنا الرحلة ؟
- لم أعد أذكر شيئاً
- ولا أنا
- هذا حسن
- لماذا ؟
- ربما معناه أننا اقترنا
- أتريدنا أن نفترق ؟
- لا
- ولا أنا
- مع أنك تعبت ؟
- مع أني تعبت

لم يتسع الوقت

حين تقرر أن يسافر الى السعودية لأعمال الشركة البولندية التي يعمل بها لم يفكر في شيء آخر الا أن يزور الأراضي المقدسة ويطوف حول الكعبة المكرمة ويقف أمام شباك النبي . ولم يكن توفقه إلى العمرة عن أى شعور بالإيمان بل كان كل ما يفكر فيه هو تحدى هذه الرواسب التي تسيطر على أفكار المسلمين والتي يرى أن انصياهم لها ما هو الا تعلق ببقايا الأبوّة وعهود الصبا والطفولة . وكان واثقا أن الانسان المتحضر لا يمكن أن يؤمن بفكرة الدين أو التعلق بأوهامه .

هو واثق من نفسه ومن أفكاره وقد ازداد بها وثوقا حين اختار المذاهب الشيوعية مذهبا وانسلك في قلبه وواجه كل ما واجهه أصحاب المذهب من عقاب كما نال كل ما ناله هؤلاء من ثواب .

والوظيفة التي يرتع فيها الآن ماهى الا نهر من فيض البحر الذي انسكب على أبناء مذاهبه فما كانت الشركة البولندية لتعينه لو لم يكن شيوعيا غارقا في الشيوعية يهب لها نفسه وإخاده ويقدم إليها أيضا فقره لترده عليه غنى ووفرة ورفاهية ورخاء .

وقد استطاعت الشيوعية أن توفر له ما لم تستطع الرأسمالية أن توفره لأحد من أمثاله . فسيارته كاديلاك من آخر طراز . . نعم السيارة رأسمالية ولكن مادام الشيوعى قد استخدمها فان سيارته هذه الكاديلاك بالذات تصبح شيوعية بالتخصيص .

ومنزله من أفخم منازل الزمالك وأثاث بيته غالى الثمن غلاء فاحشا لا يهم من بعد إن كان يتسم بالذوق السليم أو لا يتسم فكل ما يهمه أن يكون غالى الثمن .

أما ملابسه فهي في الحق مضحكة لأنه فيما يبدو مصاب بعمى الألوان فتراها تختلط على جسمه كقصة غير معقولة أو كموسيقى صاخبة يعزفها قوم لاقائد لهم ولا نوتة تجمع بينهم . ولكن كل وحلة من وحدات ملابسه ثمينة في ذاتها . واضح أنه بذل فيها المال الكثير . فقد كان يعنيه دائما أن يبدل المال الكثير فيما يركب أو يسكن أو يلبس .

وكان يتبع دائما بين الناس بأنه لا يمد يده لأى دولة شيوعية وأنه شيوعى بالمبدأ لا بالجيب وهو بطبيعة الحال يرى أن وظيفته هذه التى يشغلها والتى تسكب عليه هذا المال حق طبيعى له لاصلة لها بالشيوعية . هو يرى ذلك أمام الناس وحين يخاطبهم ولكنه فى دخيلة نفسه يعرف تماما أنه لو لم يكن شيوعيا لما زاد دخله عن دخل زملائه الذين تخرجوا معه والذين يعملون فى الوظائف العادية والذين يعجز مرتبهم أن يطاول عشر مرتبه .

هو واثق كل الوثوق أن ذلك الخير الذى يمرح فيه سببه الوحيد الذى لا سبب غيره أنه شيوعى ويعلم أن الكلية التى تخرج فيها قد منحت الحياة الآلاف من أمثاله أغلبهم أكثر منه علما ودربة على العمل وإتقانا له .

ولكن الشيوعيين وحدهم من هؤلاء الآلاف الذين يستطيعون أن ينالوا ماتبيه لهم الحياة من خفوة . وأصحاب الجراءة فيهم هم الذين يستطيعون أن يواجهوا الناس إنهم لا يمدون يدهم لأى بلد أجنبى . وهو من أصحاب الجراءة هؤلاء .

حين نزل الى جدة قصد الى فندق الرياض حيث كانت شركته قد حجزت له حجرة فاخرة ذات غرفة ملحقة وتليفزيون . ويعد أن أودع الحجرة حقييته ونظر الى المرأة واطمان على القصة غير المعقولة التى يضعها على نفسه نزل الى بهو الفندق يتنظر أصحاب العمل الذى جاء من أجله .

ولكنه فوجيء بصديقه رفعت جالسا فى البهو ..

— أنت ... أنت فى السعودية ؟

— عمل

— فقط ؟

— طبعاً سأعمل هذه العمرة التى تحكون عنها فى دينكم .

— وأنت ؟ ألك دين آخر ؟

— أنت تعرف

— فعلاً .. أنت مسكين .. أنت بلا دين على الإطلاق

— أحمد الله على ذلك

— بل أحمد الشيطان إن شئت

- المهم أنت ماذا تفعل هنا ؟
- أنا جئت من أجل هذه العمرة التي نؤمن بها نحن المسلمين
- وهل قمت بالعمرة ؟
- ليس بعد . أنا على موعد مع الأصدقاء أن نقوم بها
- أذهب معكم
- ألا تخاف ؟
- أخاف مم ؟

- ألا تخاف أن تؤمن . ؟ إن للكعبة روعة وإن لقبر الرسول ضياء لا تراه العين وإنما ينفلذ إلى القلب وإلى حنايا المشاعر فيرجع الإنسان رجا عميقا وترى روحك محلقة الى عليين تطوف مع النبي في رحلة آخر دين أرسل إلى الناس وتراه معذباً في سبيل عقيدته ثم تراه في خطبة الوداع أتم دينه وبشرنا أن الله رضى لنا الإسلام ديننا يخطب في أصحاب عام حجه أن دماءكم وأموالكم حرام بينكم حرمة يومكم هذا في شهركم هذا في عامكم هذا . ويهتف بهم وهو يختم رسالته إلى البشرية اللهم هل بلغت ويصيحون نعم . ويهتف مرة أخرى اللهم فاشهد .

- أتحتمل هذا جميعه ؟
- قد لا يحتمله السليح من أمثالك أما أنا فاحتمله وإني واثق .
- لكم أخشى أن أجدك أكثر سذاجة مني ومن أصحابي المؤمنين
- لقد جربت نفسي مع الإيمان
- حقا ؟
- ووجدت نفسي غير قابل للإيمان على الإطلاق
- هل أنت واثق ؟
- كل الثقة
- وكيف عرفت ؟
- تعرضت لمحنة فلم أذكر الله
- ما نوع المحنة ؟
- هل يهلك هذا ؟
- كل الأهمية

- كنت راكبا سيارتي وغفت عيني لأجد نفسي غائصا بسيارتي في الماء حاولت أن أفتح باب السيارة فاستعصى علي ورحت أحاول وأنفاسي تحتق ب تشدني إلى الموت في جذب أسر عنيف ولم أجد أمامي إلا أن أحاول الخروج من شبك السيارة فرحت أدفع جسمي خلالها دفعا ثم لم أع بعد ذلك من أمر نفسي شيئا .

— أنقذت وأنت مغنى عليك ؟

— نعم

— ومضى كنت تريد أن تذكر الله .. ؟

إننا نحن المؤمنين نذكر الله حين نصبح عاجزين فان الله يأمرنا أن ندبر نحن أمر أنفسنا ونتوكل عليه ولا نتواكل .

وقد كنت أنت مشغولا بإنقاذ نفسك وحين جاءت اللحظة التي يجب أن تقول فيها أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله كان مغنى عليك . يا صديقى إن هذه تجربة لاتصلح دليلا تطمئن إليه .. إنك محصن ضد الإيمان .

— أترى ذلك ؟

— لاشك في ذلك .. هيه .. أأتاك معنا ؟

— لا سأذهب وحدى

وأثار الحديث الكثير من الوسواس في ضميره . ما مصيرى اذا اهتزت مشاعرى من الإيمان واستيقظت من سباتها تلك البلدة القديمة التي ألقى بها في نفسى أبواى وسقتها البيئة والتقاليد وتاريخ أجدادى الطويل في ظل العقيدة .

وما البأس أن أؤمن وأظل في عمل .. هراء إن عمل متوقف على إلحادى .. ولماذا ألقى بنفسى إلى صراع أنا في غنى عنه ومالى لا أبعد مشاعرى عن هذا الامتحان ؟ قد أجوزه وأظل على إلحادى أوقد أرسب وأدعو إلى الإيمان . ويومئذ وداعا للكاديلاك والملابس الأنيقة والعيش السعيد .

وبعد أيام التقى الصديقان في بهو الفندق :

— أراك تنهى اقامتك بالفندق

— عائد إلى بيتى

— هل أدبت العمرة ؟

— لم يتسع الوقت

سيزيف والصخرة

جاء في الأساطير أن الآلهة قضت على سيزيف بالصعود الى أعلى الجبل وهو يدفع أمامه صخرة . وقضت الآلهة ألا تستقر هذه الصخرة في أعلى الجبل أبدا . فكلما صعد بها سيزيف تعود فتتزل الى السفح ، ويعود سيزيف فيدفعها أمامه الى أعلى الجبل .

وفي يوم صعد سيزيف الى أعلى الجبل دافعا أمامه الصخرة وتركها وعاد لينام وكان قد تعود أن يستيقظ مع فجر كل يوم ليجد الصخرة التي وضعها على القمة في أمس قد عادت الى السفح مع الفجر . ومع انبثاق النور يعود سيزيف فيدفع الصخرة الى أعلى الجبل ويستغرق منه هذا الجهد اليوم جميعه حتى المزيغ الأول من الليل .

وفي هذا اليوم صعد كشأنه وترك الصخرة . ونزل لينام وليتظر الصخرة لتعود فيدفعها في باكر الصباح .

وأشرق الفجر . ولا يدرى سيزيف لماذا راح ينظر حواليه فوجد أنه يعيش في أجمل مكان في العالم فيحوله الجداول الرقراقة والأشجار البانعة والحدائق الغناء والطيور تستقبل النهار بموسيقى ساوية وتودعه بمواكب حافلة من الأنعام . وتعجب سيزيف أنه لم يلتفت الى هذه الجنان حواليه إلا في يومه هذا وأسف لهذا القضاء الذي فرضه عليه قدره وثمى أن تتاح له الفرصة أن يستمتع بهذا الهناء الذي يرف حواليه ولا يصيب هو منه شيئا حتى ولا متعة النظر . كان قد مر عليه عشر سنوات وهو راضخ لقدره طائع له مستسلم غير متبرم به ولا هو ضجر . ولكنه في يومه هذا كان يتمنى لو كان قدره أكثر رفقا به .

قام الى الصخرة ومد يديه دون أن يكلف نفسه عناء النظر ولكن يديه بالهواء استقبلتا ونظر فاذا الصخرة ليست في السفح وتشوف القمة فاذا الصخرة راسخة هناك لم تتزل . جن جنونه

من الفرح وصعد الجبل وثبا وفي مثل اللمحة الخاطفة كان واقفا هناك . الصخرة ثابتة حيث تركها في الأمس . اذن فقد أفرجت عنه الآلهة .

جرى إلى الجدول الرقاق وراح ينقع نفسه فيه ويصب ماء صبا . وغسل ثوبه فاذا هو يعود جديدا كأنما لم تعمل فيه السنون بيديها . ويبحث عن حجر وراح يسنه حتى أصبح قاطعا وراح يخلق ذقنه فهي ناعمة . ثم استقبل الجنة التي حواليه وراح يأكل مما بها من فواكه رائعة .

وما أن غلذ في السير حتى وجد أطفالا يلعبون عليهم ثياب نظيفة وفي وجوههم مرح ونعيم وسألمهم :

- ماذا تعلمون هنا ؟
- نلعب
- ألكم بيت ؟
- طبعا
- أين ؟
- في هذه القرية هناك
- اذن فبجانبه قرية أيضا قصد إليها فاذا من بها يلتفون حوله
- من أنت ؟
- سيزيف
- صاحب الصخرة ؟
- نعم
- لست به
- بل لأننى هو
- سيزيف أشعث أغبر قدر الثياب طويل اللحية مكثرا لا يعرف الضحك طريقا إلى
- الجنة .

- لقد عفت عنى الأقدار
- والصخرة ؟
- فى أعلى الجبل
- ولم تنزل ؟
- بل هى باقية حيث أرسيتها بالأمس
- اذن لتقيمن لك عيدا
- ولكنكم لا تعرفوننى
- بل نعرفك .. كنا نرقبك طوال السنوات الماضية
- لم أر أحدا منكم

- كنت مشغولا عن الدنيا جميعا
- إذن فهل أطيع أن أكون واحدا منكم ؟

- كين

- وأقيم العيد وضح المكان بالموسيقى والرقص . . وفي أثناء الرقص وقعت عينا سيفيف
هل فتاة كانت تبدو أمامه كنجمة مبهطة من السماء فيها إشعاع حلوريان ينساب جسمها
كحلل وسنان وهي ترقص كملك وتبتسم كامل وتغنى وكأنها أمنية يتحقق .

- ما اسمك ؟

- سيفيليا

- زوجة أنت لا شك ؟

- بل لست زوجة

- كيف . . أهذا الجمال جميعه لم يجد الزوج .

- يبدو أن السماء تريد لغير من طلبى

- ترى أترضى بى السماء زوجا لك ؟

- إن أترضى

- إذن فالسما ترضى

وكان الزواج وعاش سيفيف أجمل فترات حياته وأنجب من سيفيليا ابنا وابنة وكان دائما
يسأل أهل قريته :

- صيلا

- ولكن لا عمل لك

- أبدا ؟

- لقد وزعنا الأعمال من قبل مجيئك وهكذا ضاق سيفيف بالفراغ ووجد نفسه يذهب إلى
لصخرة يدفعها عن الجبل ولكنها كانت ثابتة لا تريد حراكا فأتى بفأس وراح يهزئ حوالها
حتى وهنت جلودها ودفعها فسقطت إلى السفح ومنذ ذلك اليوم أصبح عمله كل يوم أن يدفع
لصخرة إلى القمة طوال اليوم وفي اليوم الثانى يدفعها إلى أسفل ثم يعود فيصعد بها إلى أعلى .

وعجب ابنه وابنته . فتشجع ابنه وسأله :

- أبى ماذا تفعل ؟

- أعمل

- ولكن بلا فائدة

- وكيف تقول هذا ؟

- لا أرى نتيجة لعملك
- النتيجة الوحيدة أنني أعمل
- أليس لكل عمل فائدة ؟
- أريد أن يوجد العمل أولاً
- يوجد العمل أولاً
- حتى ولو كان بلا هدف ؟
- لو فكرت يابني قليلاً .. لو فكرت لوجدت الهدف .. أتركه وجدته .. لا يهم ..
- سوف تجده .

الحصان الذى نفق

لم يكن يسرى فقيرا فى القرية ولكنه كان تائها فى زحامها ، محتقرا بين أهلها لا يشعر به أحد رغم جهده الجهد أن يشعر الناس به . فقد كان لا يترك وسيلة يذكر بها الناس أنه حى ، وأنه يسعى بينهم وأنه ليس نكرة من النكرات إلا سعى إليها حيثما ، وقد كان يحصل دائما على هزاء الناس والسخرية به إلا أنه لم يستطيع قط أن يحصل منهم على ما يريد من شعور بوجوده وأنه حى .

ولم يكن غناه فادحا ، ولكنه - مع ذلك - كان يدعو إلى الولائم فى كثير من الأحيان . وكان الناس يلبون دعوته ، ولكنهم ما أن يأكلوا ويتركوا بيته ، حتى ينسوا أمره ، وكأنه لم يكن . ولم يكن يسرى مؤمنا بالله ، وما كان يصل ، ولكنه مع ذلك حريص على أن يشهد صلاة الجمعة مرتديا أجمل ما عنده من الملابس ، لا ينسى أن يلبس رباط عنقه الأحمر ، مقتنعا أن اللون الأحمر أكثر الألوان استرخاء للأنظار لكن الأنظار مع ذلك - كانت تأخذه فهو موجود بغير وجود ، حاضرا خير منه الغائب .

وكان يسرى يحرص أيضا على أن يخاطب الناس بعد كل صلاة جمعة . ولم يكن طبعيا يستطيع أن يحدثهم عن عدم إيمانه . فهو مع كل حرصه على أن يذكر الناس بوجوده ، أكثر حرصا على أن يظل على قيد حياة . . أية حياة ولو أنه أطلع الناس على ما يعتمل فى نفسه من عدم إيمان ، لأصبح موته بأيديهم أمرا محققا .

واما كان يسرى يخاطب الناس فى وجوب إعطاء الفقراء والمساكين والإحسان إليهم ، ولكن لم يقدر له أبدا أن يكمل خطبة إلى النهاية التى يريد أن ينتهى إليها ، فما هى إلا جملة وأخرى ، حتى يصبح المسجد فارغا من الناس أجمعين .

فما كان أحد من أهل القرية ليلقى إليه سمعا ، وهم يعلمون أن الاحسان عنده كلام ، والشفقة بالساكنين عنده شفقة ، وكفاهم دليلا على ذلك ما يعانیه منه عبد السمیع ومحمدین وشفیق الذين يستأجرون أرضه . فان أحدا في القرية لا يعاني من الفقر والذلة والهوان والقهر ما يعانیه هؤلاء الثلاثة الذين قدر لهم أن يكونوا أجراء عنده . ويا طالما عرضوا أنفسهم على الملاك الآخرين ، ولكن أحدا لم يستطع أن يغيثهم . فبالستأجرون في القرية يرثون الأرض عن آبائهم ولا يستطيع مالك ، بل ولا يجب أن يخرج أحدا من أرضه ليعطيها إلى آخر .

وقد ضاق محمدین بمالك أرضه يسرى ، وضاق بالقرية جميعا فتركها الى أرض الله ، ولم تعد القرية تعلم عنه شيئا .

وظل عبد السمیع وشفیق يستأجران أرض يسرى وحدهما ، بعد أن حاول أن يجد مستأجرا آخر بدلا من محمدین فذهبت محاولاته سدى .

فالكلام منه اذن عن وجود الإحسان خلق أن يجعل أهل القرية ينصرفون عنه ، حتى إن لم يتوافر هذا السبب فقد كان أهل القرية سينصرفون عنه أيضا ، لأنهم لا يشعرون أن له وجودا أو مكانا .

كان هذا الشعور بالضياح والإهمال يملا نفس يسرى ، ويجعل نفسه تفيض مرارة وحقدًا ، فهو حاقد على كل غنى له بين القرية توقير واحترام ، وهو حاقد على كل متعلم يقول فيسمع الناس في اقتناع واحترام . وهو أشد حقدًا على المحترمين في القرية دون أن يكون لاحترامهم سبب ظاهر الا أنهم محترمون . فقراء هم ولعل بعضهم لم يصب من العلم إلا قليلا ، ولكن أهل القرية يحترمونهم ، ويقصدون إليهم إن طلبوا الرأي ، وينزلون عندما يشيرون به . نار من الحقد تفتك به . . نار من داخله . لاسيلا أن يصل إليها شيء إلا ما يزيدا أوارا واشتعالا .

يخرج يسرى في كل يوم إلى ظاهر القرية ، وينظر إليها في كره شديد ، وألم عميق ، ومرارة قاتلة . ويظل قابعا متزويا كوحش كسير يحاول أن يتربص بأعدائه المصائب ، فتخلله الذلة . ويقعد به الهوان .

وبينما هو كذلك ، سمع جوادا يركض ، ويهز الأرض بأقدامه . واقترب الصوت واقترب ، حتى تكشف عن الحصان وراكبه . . أما الحصان فمعجنون أروع ، وأما صاحبه فخائف هالع .

— أين أنا ؟

— لا أدري

— ألا تعرف اسم القرية التي أنت منها ؟
 — المنشية .. من أين أنت قادم ؟
 — لا شأن لك .. أشتري هذا الحصان ؟
 — ماذا ؟
 — ألم تسمع .. لا وقت عندي للدلع
 حصان .. أيشترى هو حصانا ؟

وما البأس .. وأى شيء سيجعل أهل القرية يحسنون به خيرا من هذا الحصان ..
 الحصان جاء .. الحصان ذهب .. ليس في القرية من يملك حصانا .. ولكنهم لن يقولوا
 يسرى جاء أو ذهب .. الحصان فقط لا بأس أيضا .. يكفي أن يذكرهم الحصان به .

— ولكن هذا الحصان خفيف .. أراه لا يكف عن الحركة العنيفة
 — هذا دليل الحيوية .
 — الكثير منها يقتل
 — أنت صاحبه .. اخذمه يخدمك
 — ولكن لماذا تريد أن تبيعه ؟
 — أهو تحقيق ؟
 — لملك سرقته .
 — والفرض .
 — قد يراه صاحبه فأخسره .
 — اسمع . الأمر المؤكد أن صاحبه لن يحاول أن يسترده .
 — هأنذا .. أركبه أمامك ، وأعرضه عليك ، ولا وقت عندي للكلام الكثير ، أشتري أم
 أمشي

— كم تريد فيه ؟
 واشترى يسرى الحصان . وحاول أن يركبه فنفضه الحصان نفضة عنيفة إلى الأرض أحس
 معها أن عظامه تنسحق ، فسحب الحصان ومشى يتكفا حتى بلغ منزله في عتمة من الليل .
 وأدخل الحصان إلى حجرة نومه الخاصة . وذهب إلى حيث السكر ، فأحضر جميع ما في البيت
 منه .

وبعد أسبوع استطاع يسرى أن يركب الحصان ، بعد أن أنس إليه .
 وفعلًا بدأت القرية تتكلم عن الحصان ، ولكنها — كما توقع يسرى — لم تتكلم عن
 يسرى .

كان يسرى يربط الحصان فى الغيط مع جاموسته ، ويذهب إلى ما يبتغى من أعمال . وبينما هو جالس فى بيته . . اذا بشخص يعدو إليه .

— يسرى .

— نعم .

— حصانك قتل عبد السميع .

— ماذا ؟

حاول عبد السميع أن يركبه فجرى حتى ألقاه فى التربة وأغرقة ، وأصبحت الحكاية أحدىثة فى القرية لفترة طويلة . ويسرى سعيد كل السعادة بموت عبد السميع الذى جعل الناس يتحدثون عن حصانه كل هذا الحديث .

كان الحادث فى القرية شيئا عظيما . فهو ريح شديدة العصف تمر على الماء الراكد من أثر الملاة . فالتاس لا يحدون فى القرية ما يتحدثون عنه . فإذا مر بحياتهم حدث كهذا أصبح تاريخا يعتبر الذين عاصروه خالدين فى حياة القرية وتاريخها .

ولكن حصان يسرى لم يترك لهم فرصة طويلة يلوكون فيها حادث القتل الذى ارتكبه . بل

هو يعاجلهم .

— يسرى .

— نعم .

— حصانك .

— ماله ؟

— فقأ عين عبد الشافعى بن سعيد أبو عرابى .

— ماذا ؟

وفى هذه المرة يذهب سعيد إلى يسرى . ويمسك بخنقه . مقسما بأخلف الأيمان أنه قاتل الحصان ، أو قاتل يسرى . . ويتجمع الناس ويحولون بين سعيد ويسرى ، وتبدأ المفاوضات . ويسرى سعيد فقد أحس الناس به هو أخيرا . وها هم أولا يجتمعون حوله ، ويفاوضونه ويفاوضهم .

وتتوالى أحداث الحصان . فهو يقطع حبله ، ويعتدى على برسيم الآخرين وهو ينطلق فى القرية فى جنون أحمق يكسر أرجل الناس وأبوابهم ، أو يوقع ما يعرشون به على بهائمهم . أو يعتدى على هذه البهائم فيجعل أصحابها يعودون بها إلى السكن . ولعل أشد ما ألم الناس من الحصان وصاحبه ما فعله الحصان بالمصل الذى أقامها أجداد أجدادهم هناك عند مجرى النيل . فقد دخلها الحصان . فهدم قواعدها . ومزق الحصار فيها . ولعل هذا الحادث بالذات هو

أسعد ما سعد به يسرى . حتى لقد أغدق في مساء هذا الحادث على حصانه من السكر قدرا لم يشهده الحصان من قبل .

أصبح يسرى هو شغل القرية الشاغل ، وأصبح الناس يتعدون عن مكان الحصان قدر جهدهم . وألقى الحصان على القرية ظلا من الرعب ثقيل . وليس أفتك بالإنسان من الخوف ، ولا يزرى بالإنسان شيء قدر شعوره أن الذعر والهلع يحيطان به من كل جانب . وما أشد الهول حين يكون العدو حيوانا أعجم ، لا يعقل ولا يفهم وإنما يخرب لوجه الخراب بلا هدف ولا فكرة ولا غاية ينتهى إليها ، ويسرى سعيد . فليمت الناس من الخوف أو من الغضب . فلقد أصبح هو شيئا يذكر . ومقصدا يسعى إليه .

وفى يوم صبحا يسرى من نومه . وذهب مسرعا الى حصانه . . مجده وعزه وأمله الذى تحقق وذكره الذى ذاع واسمه الذى انتشر ماذا . . ؟ ما الذى جعل الحصان فى هذا الشكل الذى هو عليه لا يمكن . . غير معقول . . لقد مات الحصان . . مات كيف . . لا ييم أسموما مات . . لا ييم . . هل مات من كثرة السكر . . لا ييم . . لقد مات . . أحس يسرى أن اسمه هو هذا الممدد جسدا من غير روح . . وعما قريب يصبح عدما بلا جسد ولا روح . . لا يمكن . . غير معقول . . إن حصانى لا يموت . . إنه لا يموت . . لا يموت .

وفجأة انتفضت فى جسم يسرى المرارة التى اختزنها قبل أن يعرف الحصان وانتشر فى جسده الحقد الذى دفنه فيه طوال عهد الحصان ، ووجد نفسه يحمل الحصان الميت ، ويخرج به من البيت ، محطما باب البيت ، صارخا فى الناس ، وهو يمدو فى كل متجه . . إنه لم يمت إن حصانى لم يمت إن حصانى لا يموت . . لا يموت . . لا يموت .

وماهى الا صرخات قليلة . . وخطوات أقل من العدو الأحمق العرييد المجنون حتى انهار يسرى ومن فوقه الحصان يكتم أنفاسه القليلة الباقية .

واختلط الجسدان حتى لا يستطيع أحد أن يستبين أحدهما من الآخر . وقبل أن يدركه أحد تلحق روحه روح الحصان الذى نفق ، ويتجمع حوله أهل القرية . ولا تلتقى نظرات ولا كلمات ، وإنما يشيع أمن إنسانى غارق الإنسان فيهم حينئذ ثم عاد .



لحظة سعادة

كان سعيدا منشرح الصدر وهو يفكر . . كانت لحظة من هذه اللحظات القليلة التي يشعر فيها الانسان أن الحياة تعطيه بقدر ما يريد منها. أن تعطيه ودون أن يدري السبب راح يفكر في السبب الذي بث في نفسه هذه السعادة التي يشعر بها وما لبثت هذه الفترة أن بعدت عن مسار تفكيره . . وما لبث أن قال لنفسه إني سعيد لأنى سعيد . . وأخشى ما أخشاه أن أبحث عن أسباب سعادتي وأنقلب بفعل يدى تعيسا وأسباب التعاسة دائما أكثر وفرة من أسباب السعادة . . . وهل هذا كلام رجل سعيد . . . إنه كلام أى انسان ولكنك لست أى انسان . . انك رجل سعيد . . . حسنا فلا ظل سعيداً إذن دون محاولات سخيفة لتعميق أسباب السعادة . . . هل هى قليلة لحظات السعادة هذه الى هذا الحد . . هل هى قليلة لدرجة أننى أقتنصها من الحياة اقتناصا ولا أحاول حتى أن أبحث أسبابها وما دعت إليه . . . إني سعيد بزواجى . . ولكن سعادتي بها لا تكون لى لحظات سعادة . . أنا أحبها وأعلم أنها تحبني . . وهى شريفة بحكم تكوينها وهى تعمل دائما على إسعاد بيتها وليس بينى وبينها إلا هذه المشاجرات التى تدل على أننا أحياء ولو أننا مشاجرات كثيرة وعنيفة فى بعض الأحيان مما ينهىء على أننا أحياء جدا . . . ولكنها جميعا مشاجرات طبيعية لا بد أن تنشأ بين اثنين نشأ كل منهما فى بيت ثم جمعها بيت واحد يعلنان أنها سيقضيان فيه ما بقى لهما من حياة . . . قد تشعر هى بالضيق أحيانا أو قد يشعر هو بالضيق أحيانا وقد تكون هذه الأحيان كثيرة وقد تتلاقى هذه الأحيان من الضيق فتكون مشاجرة لو بحث كلامهما عن سببها لاتضع على الفور مقدار سخافتها .

لماذا أفكر فى كل هذا . . . من أجل لحظة سعادة . . ؟ ألم تكن لى لحظات سعادة كثيرة وأنا طفل . . . لماذا يقول الناس طفولة سعيدة . . . أظن السعادة هنا يقف وراءها الجهل . . إنهم

سعداء لأنهم لا يعرفون كيف يكونون تعساء ... ولكنى مع ذلك أذكر فى طفولتى لحظات سعيدة . والآن فقط أدرك أننى كان يجب أن أعتبر طفولتى سعيدة ... يبدو أن الأطفال يعتبرون سعادتهم قضية مسلما بها لا تقبل النقاش ... فحياتهم مهما تكن سعيدة يعتبرونها هم عادية . ولا يذكرون منها إلا لحظات السعادة الحارقة للعادة ولحظات التعاسة العادية . كانت لحظات سعادتى هى تلك الأوقات التى أقضيها فى قراءة القصص .. قصص الأطفال . كنت أحس أننى أعيش فى عالم آخر غير هذا الذى أعيش فيه .

لماذا يعتبر البعد عن العالم الذى أعيش فيه سعادة ؟ لماذا يقول الناس هذا دائما كلما أحبوا أن يعبروا عن سعادتهم .. هل العالم الذى نعيش فيه سيء إلى هذا الحد وإن كان سيئا أهو هكذا بالنسبة للأطفال ؟ لماذا يجيبون أن يعبروا إلى عوالم أخرى من قصص علاء الدين والسندباد وعلى بابا والأربعين حرامى وقصص الجان وغيرها وغيرها .

والكبار ... ألا يتشبثون بعالم آخر .. ؟ ما الحياة عندنا اذا كانت هى هذه الحياة فقط ... سبحانه خالق الناس ... عرف نفوسهم وعرف حياتهم فوعدهم بحياة أخرى يلقون فيها السعادة التى لم يعرفوها من الدنيا ... ولكنى الآن سعيد ... لحظة .. أو لحظات ثم تعود الحياة حياة . أقصى ما أطمع فيه منها ألا ترزأى بلحظات تعاسة وتصبح أيام الملل والوتيرة الواحدة سعيدة ... سعيدة لأنها ليست تعيسة ...

إننا نبحث فى حياتنا هذه عن السعادة من أى سبيل ... نرى السعادة فى نظرة إلى أبنائنا ... فى أبنائنا ... فى ابتسامة على شفة لهم ... فى ضحكة ... فى مجرد جلوسهم أمامنا مشغولين عنا بالنظر إلى التلفزيون .

ما السعادة التى يهبها لنا أطفالنا .. هى ما قبل الرعب الذى يلقون به فى نفوسنا ... الهول المين الذعر الأخاذ الويل ... إذ مرض أحدهم أو اذا وهمنا أن مرضا يهدد واحدا ... وحين يزول المرض وحين يزول الوهم تعود نفوسنا إلى الصفاء وتعود إلينا السعادة ... ما أعظم الثمن الذى ندفعه لقاء السعادة من أطفالنا .

ويل لى لحظة سعادة واحدة تفعل بى هذه الأفاعيل ... ماذا أحاول أن أعرف ؟ هل فرض على فرضا أن أبحث عن سبب هذه السعادة ... ألا يكفينى أنى سعيد ...

لنبحث أولا ... ما هى أعراض السعادة التى أعانيها ... ويل ألا أعرف أعراض السعادة أهذه أيضا لا تحتاج إلى شرح ... ألا أعرف هذه الإشراقة التى تشيع فى النفس فاذا النفس بهجة وإذا هى متطلعة إلى المستقبل الوردى الصافى وإلى الحاضر وكأن سعادة العالم تجمعت فيه ... هذه هى حالى الآن ... لماذا ؟ وما يهيك لماذا مادمت سعيدا ... ألا تخشى أن تفقد سعادتك وأنت تبحث فى هدوء دون هذا البحث السخيف ؟ ونفلسف أيضا

وتريد أن تظل سعيدا ... يقولون إن الفلاسفة هم السعداء بل يقولون إن السعداء هم الجاهلاء .. كلا القولين غير صحيح ... فأنت سعيد ولست جاهلا إلى درجة أن يقال عنك جاهل ولست فيلسوف إلى درجة أن يقال عنك فيلسوف .. ولكنني لست سعيدا ... ماذا هل فقدت السعادة ... أقصد أنني لست سعيدا سعادة الفلاسفة ولا الجاهلاء ... كل ما في الأمر أنني أشعر بلحظة سعادة ...

لعل لقاءك بالأمس مع سهام أمدك بهذه السعادة ؟ لقد أحسست بالسعادة فعلا في لقائي معها ولكن اللقاء كان يشغلني عن الشعور بالسعادة ... وانتهى اللقاء وعدت إلى حياتي اليومية ومرت بي لحظات رضا ولحظات ضيق فلا شأن لسعادتي الراهنة بلقائني مع سهام ... هي حبي وهي الوحيدة في هذا العالم التي تستطيع أن تمسح عن نفسي خمولها وآلامها وأنا أسعد بلقائها وأهيب لها كل ما تريد ولكن الحياة تلاقيني بعد ذلك وأرى فيها الخير وأرى فيها الشر وأحيا كما يحيا الناس حتى التقى مرة أخرى بسهام ... فهذه السعادة التي أحسها أذن سعادة جديدة من نوع آخر يتأبى بلا مقدمات ولهذا أبحث عن أسبابه ... ألا بد أن تبحث ... خالصة رجعتنا ثانية إلى هذا الحديث . وهل السعادة مع سهام خالصة تمنحني لنفسى أم لما أقدمه لها من مال ؟ . إنني أقدم المال وأسعد ... لا شيء يهم بعد ذلك . أم تراه يهم ... ؟ ! لعلك سعيدة لهذه المرافعة الرائعة التي قدمتها في قضية الأمس ... أهي المرافعة الوحيدة التي رضيت عن نفسي فيها ... انني أعمل في المحاماة منذ سنوات طويلة ويقولون إنني محام ناجح وأعرف أنني ناجح ومعرفتي هذه تجعلني ألتقي بأى قضية وأنا أحتشد لها وكأنني محام ناشئ ثم أحتشد لها وورائي تاريخي الطويل في ساحة القضاء ... أرى أنك بدأت تتراجع ... طبيعة ... ماذا أفعل فيها ... المهم لحظة السعادة التي أفرح فيها الآن لا صلة لها بمرافعتي .

اسمع ... ألا يجوز ... مجرد فكرة لا تسخر منها ... ألا يجوز أن يكون حديثك التليفوني مع صديقك اسما عيل قد أرسل إليك بهذه اللحظة السعيدة ... أرى أنك بدأت تحترف ... إنني كثيرا ما أحادث الأصدقاء ولا شك أنهم يرسلون الدفء إلى قلبي ولكن لو أنني شعرت بهذه مجرد حديث مع صديق لأصبحت حياتي كلها سعادة بلهاء ... سعادة لا قيمة لها لأنها تصبح سعادة غبية سخيفة .

اسمع ... طالما سمعت .. اسمع ولا تعقب ... إنك سعيد لأنك سعيد ... أهذا آخر ما وصلت إليه .. ؟ ما أشد سخفك بل أنت السخيف .. أرايت أنك تريد أن تفسد على سعداتي ...

اسمع إنني لن أبحث عن السبب .. إلى الآن سعيد ولا يهم لماذا .. إلى سعيد وكفى ...

الفهرس

● الأيام الخضراء

٥	الأيام الخضراء
١٣	أحببت وهمي
١٩	أخلفت الموعد
٢٥	ملاعب الصبا
٣٣	لقاء ولاوداع
٣٩	فوق السعادة
٤٥	الطابق الأعلى
٥٣	حنان وهوى
٦١	على الطريق
٦٧	حديث ولقاء
٧٣	وظيفة دائمة
٧٩	وأنا .. ما ذنبى
٨٥	هو الله
٩١	سواء ولا أرض
٩٩	الرحمة القاسية
١٠٥	عودة السيد سكر

● ذكريات بعيدة

١١٣	ذكريات بعيدة
١٢١	حيرة
١٢٩	زواج
١٣٧	خطابان
١٤٣	عودة الزغاريد
١٤٩	وجوهات نظر
١٥٥	أستغفر الله

١٦١	طوق حول العنق
١٦٧	ربيع
١٧٣	ولدى .. ألا تعود
١٧٩	انتظار
١٨٥	على رغم الأيام
١٩٣	يا لها من أيام
١٩٩	عودا إليك يابى

● هذه اللعبة

٢٠٥	هذه اللعبة
٢١١	الظل
٢١٥	رحلة
٢١٩	فرحة
٢٢٥	تقرير الطبيب
٢٣٣	رضوان أفندى
٢٣٩	لأنه يحبها
٢٤٧	ثمن الدواء
٢٥٥	الست عيشة
٢٦١	ملالة
٢٦٧	شوار وهيبة

● حين يميل الميزان

٢٧٩	ولكنى سعيد..
٢٨٣	معقول
٢٨٩	لا تدري
٢٩٥	في الطريق ولن أعود
٣٠١	أختى وأنا
٣٠٧	حين يميل الميزان
٣١١	قصة صيف

٣١٧	مزق هذا الخطاب
٣٢١	قصاصات
٣٢٧	حلم العمر
٣٣٣	نوع من الحب
٣٣٩	لا .. لا تعودى
٣٤٥	ثمن المشروب

● السباحة فى الرمال

٣٥٣	لحظه سعادة
٣٥٧	السباحة فى الرمال
٣٦١	حكاية رجل بخيل
٣٨١	النايعة
٣٨٧	الميراث
٢٩٣	المقابل
٤٠٣	تحية عابرة
٤٠٩	وحدة
٤٢٥	رحلة العودة

● وبقى شىء

٤٣٥	وبقى شىء
٤٥٣	وإن كنت تعبت
٤٥٩	لم يتسع الوقت
٤٦٣	سيزيف والصخرة
٤٦٧	الحصان الذى نفق
٤٧٣	لحظة سعادة

طابع النسخة المصورة المصورة

١٩٧٥